

المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم
معهد البحوث والدراسات العربية

# الأصول التاريخية للعلاقات العربية الإفريقية

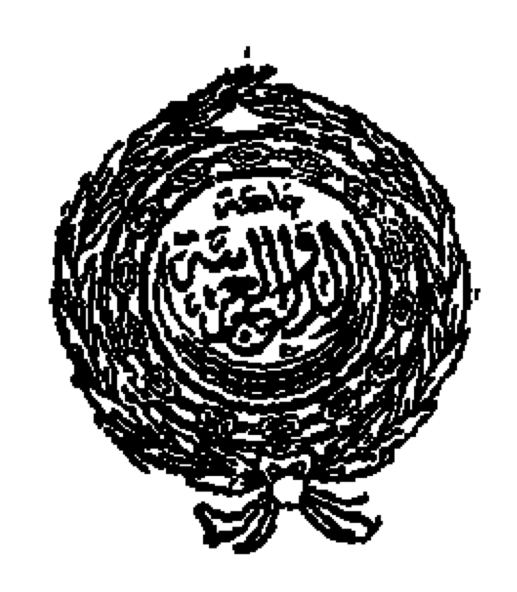
الدكتور جمال زكريا قاسم

١٩٧٥

# الأصول التاريخية للعلاقات العربية الإفريقية

الدكتور . جمال زكريا قاسم

أستاذ التاريخ الحديث بكلية الآداب
جامعة عين شمس



المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم
**معهد البحوث والدراسات العربية**

# الأصول التاريخية للعلاقات العربية الإفريقية

الدكتور جمال زكريا قاسم

١٩٧٥

# تصدير

على الرغم مما حظى به التاريخ الافريقى من دراسات هامة أسهم فى إعدادها كثير من الباحثين، بالإضافة إلى العديد من المراكز والمعاهد العلمية المتخصصة؛ إلا أن ما يؤخذ على معظم هذه الدراسات — خاصة تلك التى ظهرت خلال عصر الاستعمار الأوربى للقارة الافريقية — عدم توجيهها عناية كبيرة إلى وضع التاريخ الافريقى فى إطاره المنهجى الصحيح . ولعل ذلك كان دافعاً للدول الافريقية المستقلة إلى أن تقرر فى أول مؤتمر لها عقد فى أكرا عام ١٩٥٨ توجيه مزيد من العناية للتاريخ الافريقى ، وإلى ضرورة إعادة كتابة تاريخ افريقيا .

وفى تقديرنا أن دور العرب فى إفريقيا ينبغى أن يحتل مكاناً رئيسياً فى التاريخ الإفريقى ، ويحدونا لذلك أسباب عديدة من بينها ارتباط مصائر العالم العربى بالقارة الإفريقية فى عصور مختلفة من التاريخ، وامتزاج الحضارة العربية بالحضارات المتعددة للشعوب الإفريقية، مما جعل العالم العربى وإفريقيا بحكم التخوم الجغرافية ، وسرعة الإندماج بين شعوبهما وتاريخهما الحافل بالكفاح المشترك ، أقرب إلى التضامن والتفاهم .

ومع ذلك فإن إبراز طبيعة العلاقات العربية الإفريقية لا تزال تكتنفها صعوبات عديدة من بينها فقدان الكثير من السجلات العربية وغلبة المصادر الأجنبية التى كان دأبها التشويه المتعمد لتاريخ العرب فى إفريقيا، ومن ثم كان اهتمامنا بتحديد المعالم الرئيسية للأصول التاريخية للعلاقات العربية الإفريقية فى محاولة لإجلاء بعض جوانبها ، والعمل على تقييمها ، وذلك على الأقل بمقارنتها بعلاقات أوربا بالقارة الافريقية . فما لا شك فيه أن مجرد إلقاء نظرة واعية على العلاقات العربيـــة الافريقية قبل القرن السادس عشر الميلادى ، وعلاقات القارة الافريقية بأوربا منذ بدء الاستعمار البرتغالى يمكن أن توضح لنا بجلاء المعالم الرئيسية لطبيعة تلك العلاقات، ومدى الفرق الشاسع بينها . ولسوف يتضح لنا أيضا — من بعض فصول ذلك الكتاب — مدى الازدهار الذى اتسم به تاريخ العرب فى إفريقيا ، وكيف انتقلت المؤثرات

العربية إلى الشعوب الافريقية، وما نتج عنها من ظهور حضارة عربية إفريقية واضحة المعالم ؛ بعد أن وجدت كثير من الشعوب الافريقية فى الحضارة العربية أساساً لبناء مستقبلها السياسى والاجتماعى ، وتطبعت كثير من هذه الشعوب بالروح والثقافة العربية طوعاً لا قسرا ، ولعل ما يدال على ذلك بقاء اللهجات الوطنية إلى جانب اللغة العربية التى احتفظت بمركزها كلغة للتعامل والثقافة وذلك قبل أن يعمل الاستعمار الأوربى على فرض ثقافته و نفوذه .

وقد عنينا بالتركيز على منافذ رئيسية ثلاث نعتقد أنه كان لكل منها دور كبير فى توطيد الصلات العربية الإفريقية ؛ سواء بما أثرت فيه من نقل الإشعاعات الحضارية ، أو فى تعزيزها للروابط الاقتصادية ، أو فى إمدادها لشعوب القارة الإفريقية بدماء جديدة نتيجة الهجرات البشرية التى اتخذت من تلك المنافذ طريقاً لها إلى داخلية القارة الإفريقية . وهذه المنافذ الثلاث يمكن تحديدها بساحل شرق إفريقيا ، ومصر ، ومدن وموانى الشمال الغربى لإفريقيا . فقد أسهم الساحل الشرقى لإفريقيا بدور لا يمكن إغفاله فى نقل المؤثرات الحضارية إلى الشعوب الإفريقية بحكم اتصاله بسواحل الخليج والجزيرة العربية ، كما شكلت مصر ، منفذاً هاماً من المنافذ الحضارية التى أثرت بدورها على الشعوب الإفريقية خاصة فى سواحل البحر الأحمر والحبشة وسودان وادى النيل وهضبة البحيرات الاستوائية ، كما لعبت مدن وموانى الشمال الغربى لإفريقيا دورا لا يمكن تجاهله فى نقل المؤثرات الحضارية والاقتصادية إلى شعوب غرب إفريقيا عبر الصحراء الكبرى ؛ التى لم تكن عاملا من عوامل الانفصال ، بقدر ما كانت حلقة هامة من حلقات الاتصال الثقافى والاقتصادى ، بين المناطق الواقعة فى شمالها وبين المناطق الواقعة إلى جنوبها من بلدان غرب السودان .

ومما يسترعى الانتباه أن تلك المنافذ الثلاث كانت تتعرض للازدهار حيناً وللضعف والانحلال حيناً آخر ؛ عما كان ينجم عن ذلك من انعكاسات واضحة على مجرى التاريخ الإفريقى ، ولتوضيح ذلك يمكن أن نشير إلى أنه

فى المرحلة التاريخية التى سبقت مجىء الاستعمار البرتغالى فى السنوات الأولى من القرن السادس عشر، كانت هذه المنافذ الرئيسية الثلاث تعيش فى ازدهار حضارى ورخاء اقتصادى بسبب سيطرة العرب على الملاحة فى المحيط الهندى، وأخذهم بناصية التجارة الشرقية التى كانت تمر عبر الطرق البرية والبحرية إلى سواحل البحر المتوسط فى طريقها إلى أوربا. ولكن ما كاد البرتغاليون يسيطرون على موارد التجارة الشرقية بأسلوبهم الاحتكارى الصارم وباستكشافاتهم البحرية الكبرى التى ترتب عليها تحول تجارة الشرق إلى طريق رأس الرجاء الصالح حتى أحدث ذلك الانقلاب التجارى انتكاسة واضحة تمثلت فى تدهور منطقة شرق إفريقيا والبحر المتوسط تدهوراً حضارياً واقتصادياً، وفقدت تلك المنافذ دورها فى التأثير الحضارى والاقتصادى، وترك ذلك كله آثاراً بعيدة المدى على مقدرات الشعوب الإفريقية، بل لعلنا لا نسرف فى القول إذا ما ذهبنا إلى أن النهضة الأوربية قامت على إضعاف الحضارة الإفريقية، وأن أوربا خرجت من عصور الظلام لتدخلها الشعوب الإفريقية، التى مرت منذ القرن السادس عشر حتى السنوات الأولى من القرن التاسع عشر بأطوار من التخلف والركود، ومما يثير الانتباه أن تكون هى نفس الأطوار التى تعرض لها العالم العربى، أو على الأحرى إن ما حدث فى إفريقيا كان امتداداً طبيعياً لما حدث فى العالم العربى من تخلف وجمود، سواء كان ذلك نتيجة للمؤثرات الاقتصادية السيئة التى سببها البرتغاليون، أو نتيجة لما ترتب على الحكم العثمانى للمنطقة العربية من بعض ظواهر الضعف والركود. ومما تجدر الإشارة إليه أيضاً إلى أنه إذا كان القرن التاسع عشر يعد عصر اليقظة والتجديد فى العالم العربى؛ فإنه يعد أيضاً عصر اليقظة والتجديد فى القارة الإفريقية، كما أنه فى الوقت الذى نشطت فيه محاولات الإحياء والتجديد فى إنقاذ العالم العربى من الاستعمار الأوربى الذى كان يتربص به فإن نفس هذه الظاهرة نكاد نلمسها واضحة فى إفريقيا. فكما كان القرن التاسع عشر عصر الاستعمار فى العالم العربى، كان أيضاً عصر الاستعمار والإمبريالية فى القارة الإفريقية.

ولقد حرص الاستعمار خلال سيطرته على الشعوب العربية والافريقية على فصم وشائج الصلات فيما بينها ، وعلى الرغم من أن الهدف الاستعمارى كان واحداً من أجل الوصول إلى هذه الغاية، إلا أن الأساليب الاستعمارية اختلفت فيما بينها، فعلى حين كان أهم ما تحرص عليه بريطانيا مثلا هو القضاء على الدول العربية الافريقية بتجزئتها وتقسيم ممتلكاتها ، كما فعلت إزاء سلطنة زنجبار والامبراطورية المصرية فى إفريقيا ، عمدت فرنسا من ناحيتها إلى التصدى للقوى الاسلامية، والعمل على إضعاف الثقافة العربية تمهيداً لنشر نفوذها الحضارى والثقافى بين الشعوب التى خضعت لها فى إفريقيا .

وإذا كانت الحقائق التاريخية تؤكد لنا ما اقترن به تاريخ العلاقات العربية الافريقية من خـــير وإزدهار بينما لا يقترن تاريخ العلاقات الافريقية بالدول الاستعمارية إلا بالاستنزاف المادى والبشرى لمقدرات الشعوب الافريقية ، فما أحوج الشعوب العربية والافريقية بعد أن قدر لها أن تتخلص من الاستعمار أن تعيد وصل ما حرص المستعمر على فصمه من وشائج الصلات بينها ،ومن ثم فإن العلاقات العربية الافريقية تعد فى تقديرنا فى مقدمة المسائل التى ينبغى توجيه الاهتمام إليها وتكثيف الدراسات من أجلها بهدف وضع الحلول المثلى للتعاون العربى الافريقى، خاصة وأن ما نلمسه فى وقتنا الحاضر من إتجاه الشعوب العربية والافريقية إلى التعاون فيما بينها لايشكل فى إعتقادنا ظاهرة سياسية أو اقتصادية عارضة ، وإنما هو عودة طبيعية بل ومنطقية إلى الأصول التاريخية للعلاقات التى كانت تربط بين العرب والافريقيين عبر عصور مختلفة من التاريخ .

وأخيراً فإننى أرجو أن يضع ذلك الكتاب لبنة فى صرح الدراسات الخاصة بتاريخ العرب فى إفريقيا وأن يسلط الأضواء على موضوعات جديدة يمكن أن ينفذ منها الباحثون إلى آفاق رحبة . والله ولى التوفيق ؟

مصر الجديدة فى ١٤ سبتمبر ١٩٧٥

جمال زكريا قاسم

# الفصل الأول

## إفريقيا فى المصنفات العربية

# إفريقيا فى المصنفات العربية

ترجع أهمية المصنفات العربية إلى أنها كتبت فى عصور كانت القارة الإفريقية فيها بعيدة عن مجال المعرفة الأوربية ، ولذلك اعتبرت المعلومات التى وردت فيها عن إفريقيا مادة فريدة وأصيلة فى نوعها . فمما لا شك فيه سبق جغرافيو العرب ورحالتهم ومؤرخوهم زملاءهم فى العالم الغربى فى مجال المعرفة الإفريقية ؛ فالأوربيون لم يركزوا اهتمامهم على القارة الإفريقية ومحاولة كشف مجاهلها إلا فى أعقاب حركة الكشوف البحرية فى أواخر القرن الخامس عشر وأوائل القرن السادس عشر ، كما أن كتاباتهم اقتصرت على السواحل ومصبات الأنهار الكبرى حتى أواخر القرن السابع عشر ، وذلك قبل أن تبدأ عمليات الارتياد الأوربى داخل القارة الإفريقية [(٢)] . وعلى العكس من ذلك ظهرت كثير من المعلومات الخاصة بأفريقيا فى المصنفات العربية ابتداءاً من القرن التاسع الميلادى . إذ يتفق كثير من الباحثين على نضج المعارف الجغرافية وانتعاشها عند العرب حول ذلك الوقت بسبب ما أقدموا عليه من ترجمة الكتب اليونانية والرومانية وأضافتهم إلى المعارف الجغرافية القديمة الكثير مما توصلوا إليه نتيجة أسفارهم فى آسيا وإفريقيا والمحيط الهندى، إذ كان

---

(١) للتعرف على جهود العرب الكشفية فى أفريقيا يمكن الرجوع إلى أطلس إفريقيا ومصر الجغرافى الذى نشره الأمير يوسف كمال فى خمسة مجلدات بين عامى ١٩٢٦و١٩٢٧ــ كذلك يمكن الرجوع إلى شارل دى لارونسير فى كتابه « الاكتشافات الافريقية فى العصور الوسطى » الذى نشرته الجمعية الجغرافية المصرية بين عامى ١٩٢٥ — ١٩٢٧ انظر :

Charle de La Ronciere, La decouverte de l' Afrique aux Moyen Age. Le Caire 1925 - 1927.

(٢) عبد الرحمن زكى : المراجع العربية للتاريخ الإسلامى فى غرب أفريقيا ، راجع محاضرات الموسم الثقافى للجمعية المصرية للدراسات التاريخية ١٩٦٧/١٩٦٨ ص ٩ .

للنشاط التجارى أثر كبير فى تطور المعرفة الجغرافية بسبب ازدهار التجارة العربية وامتدادها شرقا إلى الصين وشمالا عبر أواسط آسيا حتى سواحل البلطيق وجنوباً إلى الجزء الغربى من المحيط الهندى والساحل الشرقى لافريقيا حتى جزيرة مدغشقر وغربا إلى أراضى السودان . ولعل ذلك كان حافزاً لظهور كثير من المصنفات التى تناولت هذه البلاد بالوصف أو المشاهدة . كما أن اتساع العالم الإسلامى كان دافعاً بدوره على وضع المصنفات الجغرافية عما يشمله من مسالك وما يحتويه من ممالك .

ولدينا الكثير من المصنفات العربية العامة التى عنيت بتسجيل بعض المعلومات عن إفريقيا يمكن تتبعها حسب ترادفها الزمنى حيث أنها تكون سلسلة تكاد تكون متصلة الحلقات تبدأ من القرن التاسع الميلادى وتنتهى فى القرن الخامس عشر . وقد يكون من السهولة أن نستعرض من خلالها مدى تقدم المعلومات الخاصة بأفريقيا واتساعها من وقت إلى آخر . وعلى الرغم مما يأخذه بعض المستشرقين على هذه المصنفات من نواح كثيرة من القصور ؛ من ذلك مثلا أن التقدم فى المعلومات الخاصة بأفريقيا ليس مطرداً بالنسبة لتوالى السنين أو أنها — باستثناء القليل منها — ليست موفية بالحاجة فى حين أن واضعيها كانوا أولى من غيرهم فى تسجيل معلومات وافية عن مناطق كانت تشكل جزءاً من العالم الإسلامى ، أو أن كثيراً مما وردفيها كانت تخالطه الأسطورة أو الخيال إلى درجة أن منطقة شرق إفريقيا كانت تعد من المصادر الهامة لأساطير الجغرافيا فى الأدب العربى[1] ، إلا أنه على الرغم من ذلك فإن هذه المصنفات فى تقديرنا ذات أهمية بالغة ويكفى أن نقول إنها حاولت إلقاء الضوء على بعض المناطق الأفريقية فى الوقت الذى لم تذكر فيه المصادر الأوربية المعاصرة لها شيئا باستثناء ما ذكره ماركو بولو Marco Polo الذى

---

(١) كراتشكوفسكى : تاريخ الأدب الجغرافى عند العرب ( مترجم ) القسم الأول ص ١٤١ .

قام برحلاته المشهورة إلى الشرق فى أواخر القرن الثالث عشر الميلادى (١٢٩٥) وأورد بعض المعلومات البسيطة عن مقديشيو وزنجبار وتجارة الأخيرة بالعاج بوجه خاص[١]. على أن ما يأخذه المستشرقون على هذه المصنفات من قلة المادة التى وردت فيها عن القارة الإفريقية إنما ترجع فى تصورنا إلى أن المناطق الإفريقية التى ورد ذكرها فى المصنفات العربية كانت تعد متطرفة عن قلب العالم الإسلامى ومن ثم فلم تحظ بشىء كبير من اهتمام المصنفين، كما أن ما يأخذه المستشرقون على بعض هذه المصنفات من غلبة الأسطورة أو الخيال لم يقف حائلا دون استخلاص الكثير من الحقائق والصور الحية اعتماداً عليها . على أنه من الإنصاف أن نؤكد هنا أن هناك كثيراً من المؤرخين والمستشرقين الأوربيين لم يستطيعوا أن يتجاهلوا فضل الرواد العرب من جغرافيين ورحالة ومؤرخين إذ أنهم أشادوا فى بحوثهم ومؤلفاتهم إلى ما كتبه هؤلاء عن الدول الإسلامية التى ظهرت وعلى الأخص فى غرب إفريقيا نذكر منهم بوفيل Bovil ، وبالمر Palmer [٢]، ودى لافوس ، كما اعترف غيرهم بعمق المؤثرات العربية والإسلامية فى شرق إفريقيا من أمثال جيان Guillain وجبريل فيران Ferrand ، ورينو Reinaud ، وجرنفيل فريمان Freeman ، وغيرهم كثيرون .

وقد تفيدنا بصفة خاصة أخبار الرحلات التى قام بها العرب فى إفريقيا فهى أدعى إلى تعريفنا بما وصلوا إليه من معرفة ببعض أجزاء القارة الأفريقية . ولكن من المعروف أن الرحالة العرب لم يدونوا أخبار رحلاتهم فى مؤلفات قائمة بذاتها إلا نادراً ، أما معظمهم فقد أدمجوا حديث تلك الرحلات فيما وضعوه من كتب التاريخ أو تقويم البلدان، كما أشار بعضهم إلى

---

(١) cf. Travels of Marco Polo, Trans. by A. Ricci pp 341-345.

(٢) Palmer, H R. History of Ketsina, Journal of the AFrican Society XXVI, April 1927 pp. 226-232.

رحلات قام بها غيرهم ولم يصل إلينا شيئاً من تأليف أصحابها أنفسهم . وقد امتاز الجغرافيون العرب فى القرنين الثامن والتاسع (الميلادى) بأن معظمهم كانوا من الرحالة جمعوا كثيراً مما كتبوه عن طريق المشاهدة والأسفار. ولعل أقدم الكتابات العربية عن غرب إفريقيا تلك التى كانت متعلقة بمملكة غانا ، حيث كانت تعد من أوائل الدول فى غرب إفريقيا التى اكتسبت قدراً كبيراً من الشهرة والثراء، وكانت تمتد فى شمال النيجر الأعلى، وكان الفرازى الفلكى أول من كتب عنها، فهو يشير باختصار جامع إلى أرض الذهب وذلك عند زيارته لها خلال النصف الأول من القرن الثامن الميلادى ( ٧٣٣ م ) ، كما زارها الخوارزمى الجغرافى خلال النصف الأول من القرن التاسع الميلادى ( ٨٣٣ م )، وحدد موقعها فى خريطته التى نقلها عن بطلميوس ، كما تحدث ابن عبد الحكم صاحب كتاب فتوح مصر والمغرب فى القرن التاسع الميلادى عن السودان الغربى ، وعن الحملات العربية التى وصلت إلى جنوب الصحراء الكبرى ، وكان مما ذكره بصدد ذلك ، « وغزا عبيد الله بن أبى عبيدة الفهرى السوس وأرض السودان فظفر بهم ظفراً لم ير مثله وأصاب ما شاء من ذهب » ، ثم لدينا اليعقوبى ( ٨٧٢ م ) الذى قام برحلات كثيرة فى بلاد فارس والهند ومصر والمغرب ، وقد استفاد من رحلاته الكثيرة هذه فيما وضعه من مؤلفات إذ ذكر فى مقدمة كتابه البلدان « إنى عنيت فى عنفوان شبابى وعند احتيال سنى وحدة ذهنى بعلم أخبار البلدان والمسافة ما بين كل بلد وبلد لأنى سافرت حديث السن واتصلت أسفارى ودام تغربى»، ويهمنا من كتاب اليعقوبى فيما يختص بأفريقيا ما يتعلق منه بالشمال الأفريقى وتاريخ ممالك السودان الغربى خاصة وأن اليعقوبى رأى بنفسه معظم ما عرض له فى كتابه فقد أشار إلى مناجم الذهب وقوافل الرقيق فى غانة ، كما أشار إلى جاوا واعتبرها أكبر ممالك السودان ، ولكنه ذكر عن غانا بأنها كانت قوية أيضاً .

وحول منتصف القرن التاسع الميلادى يبرز أمامنا سليمان التاجر وكتاباته

من ذلك النوع الذى يمكن أن نسميه أدب المغامرات أو القصص البحرى[١]، وقد ترك لنا وصفاً حياً للسواحل الشرقية من إفريقيا والجزر والموانى المختلفة والمدن وسكانها والمحاصيل والمنتجات وسلع التجارة ، كما نجد فى كتاباته وصفاً شيقاً لأخبار الملاحة فى المحيط الهندى، وقد وصف بالإضافة إلى ذلك بلاد الزنج بقوله « وبلادهم واسعة الأرجاء ونباتاتهم لا تنمو إلا سوداء فى لون بشرتهم»، ونظراً لعدم وجود معلومات متوافرة عن شخصية سليمان فإن بعض الباحثين قد تشكك فى نسبة هذه القصص إليه إلى أن أكد المستشرق الفرنسى جبريل فيران Ferrand صحة نسبتها إليه، والجدير بالذكر أن كتابات سليمان التاجر قد لقيت عناية خاصة من العلامه رينو Reinaud كما أخرج سوفاجيه دراسة أخيرة لها منذ عدة سنوات[٢] .

وفى أواخر القرن التاسع الميلادى يبرز أمامنا ابن خرداذبه ، ويقرر المستشرق السوفيتى، أغناطيوس كراتشكوفسكى، أن جميع مؤلفات ابن خرداذبه وأشهرها كتابه المسالك والممالك لا نعرفها إلا من أسمائها فقط ، أو من المقتطفات الموجودة لدى المؤلفين المتأخرين أو الإشارات إليها فى المصنفات المختلفة[٣]. وقد اختص ابن خرداذبه بلاد الزنج بنصيب أوفر من كتاباته عن إفريقيا .

وفى أوائل القرن العاشر الميلادى يسترعى انتباهنا كتاب البلدان لابن الفقيه الهمدانى (٩٠٣ م) ونجد فيه اشارات واضحة عن مملكة غانا وغناها بالذهب . ثم الجغرافى الفارسى أبو على بن رسته فى كتابه العلق النفيس الذى

---

(١) Reinaud, Relation des Voyages fait par les Arabes et persans a l'Inde et de la Chine Tome. I p.ivff.

(٢) كراتشكوفسكى ( أغناطيوس ) :
تاريخ الأدب الجغرافى عند العرب ، القسم الأول ص ١٤١ وما بعدها ، نشر الإدارة الثقافية بجامعة الدول العربية ، ترجمة صلاح الدين عثمان .

(٣) المصدر السابق ص ١٥٥ — ١٥٦ .
انظر أيضاً دافيدسون : إفريقيا تحت أضواء جديدة ترجمة جمال أحمد ص ٢١٨ .

كتبه بعد عشر سنوات من ابن الفقيه (٩١٣ م) ، والذى لا نعرف منه حتى الآن سوى الجزء السابع فى الفلك والجغرافيا، ولكن هذين المصدرين — أو على الأحرى — المادة المتبقية لنا منهما على الأقل لم يتعرضا إلا باشارات بسيطة عن القارة الافريقية باستثناء ماورد فيهما من معلومات مفيدة عن بلاد الزنج التى اعتبرها ابن رسته إحدى حدود العالم الذى كان معروفا فى عهده، أما ابن الفقيه فقد اختص بلاد غانه ، كما سبق أن أشرنا، بتفصيلات أكثر فذكر الكثير من نباتاتها وحيواناتها وركز بصفة خاصة على غناها بالذهب(١) .

وفى أوائل القرن العاشر الميلادى تسترعينا كتابات أبى زيد السيرافى(٢) ( ٨٧٧ — ٩١٥ م ) الذى كان يعاصر المسعودى ،ولكنه مات قبل أن يبدأ المسعودى رحلاته، ولم يكن أبو زيد — وينسب إلى سيراف — على الساحل الشرقى للخليج العربى رحالة أو جواب آفاق، وإنما كان مؤلفا اقتصر على جمع وتدوين قصص التاجر سليمان(٣) وأضاف إليها ما عرفه من روايات نقلها عن التجار الذين جابوا البحار الشرقية بعد أن غير وبدل من كيانها ، ولذلك تبدو كتاباته على أنها نوع من أساطير البحار . وقد أطنب السيرافى فى وصفه لبلاد الزنج فذكر عنها بالإضافة إلى ما نقله عن التاجر سليمان أن بها

---

(١) مملكة مالى عند الجغرافيين المسلمين :
نصوص جمعها وعلق عليها وقدم لها صلاح الدين المنجد جـ ١ ص ٩ نقلا عن كتاب البلدان لابن الفقيه .

(٢) انظر سليمان التاجر وأبو زيد السيرافى فى كتاب :

Gabriel Ferrand, Documents Historiques et Texetes geograplhique Arabes; Persans et Turks de VIIIe aux XVIIIe siecles Tome I.p. 33 FF paris 1913,

(٣) راجع رينو Reinaud عن أبى زيد السيرافى وسليمان التاجر :
cf. Relation des Voyages faits Par les Arabes et Persans à l,Inde et de la Chine, Tome I pp. LV ff.

ملوكا يغزو بعضهم بعضا، وأن أهل الزنج يحترمون العرب الذين لهم فى قلوبهم هيبة عظيمة[١] . والواقع أن كثيرا من المعلومات المتعلقة بشرق إفريقيا بصفة خاصة كانت مادة طيبة لمغامرات السندباد البحرى ولقصص ألف ليلة وليلة التى كانت تتجمع فى ذلك الحين، إذ من المؤكد أن تكون بعض هذه القصص قد استوحيت من رحلات العرب فى شرق إفريقيا بل إنه يوجد فى ماليندى بساحل شرق إفريقيا صخرة لا يزال الأهالى هناك حتى الآن يسمونها بصخرة السندباد[٢] .

وتطرد المعلومات العربية الخاصة بافريقيا فى القرن العاشر الميلادى بظهور أبى الحسن المسعودى الذى بدأ رحلاته فى شرق إفريقيا بعد وفاة السيرافى ، فالمعروف أن المسعودى تردد على شرق إفريقيا فى الفترة ما بين عامى ٩١٦ و٩٢٦م إذ كانت له أكثر من رحلة قام بها فى تلك المنطقة[٣]، ويصفه بعض المستشرقين بهيردوت العرب[٤] . ولكن للأسف أننا لا نملك من آثار المسعودى إلا كتابين لا سبيل إلى التعرف على دنيا العرب التجارية فى عهدها الزاهر إلا بهما خاصة ما يتصل منها بساحل شرق إفريقيا . وأشهر هذين المؤلفين كتاب « مروج الذهب ومعادن الجوهر » أسماه هكذا ليثير رغبة قارئه فى الاطلاع على ما كتبه، ويبدو أنه انتهى من تصنيف هذا السفر الخالد فى عام ٩٤٧م ، ويعتبر فى نظر كثير من المستشرقين خير ما كتبه رحالة العصور

---

(١) انظر سلسلة التواريخ — دار الطباعة السلطانية بباريس سنة ١٨١١ ويوجد هذا الكتاب ملحقا بكتاب رينو .

(٢) انظر عن الرحلات العربية فى المحيط الهندى :

Reinaud, Relation des Voyages Faits par les Arabes et Persans à l'Inde et de la Chine, 2 Tomes 1875.

(٣) المسعودى : مروج الذهب ومعادن الجوهر جـ ١ ص ٨٩ .

(٤) Freeman — Grenville, The Mediveal History of the Coast of Tanganiyka p. 40. Berlin 1962.

الوسطى على وجه الإطلاق، وإن كان مايؤخذ على المسعودى أنه على الرغم من أنه أفاض كثيرا فى حديثه عن شعوب الزنج إلا أنه لا يتحدث عن اتصالات مباشرة وقعت بينه وبين سكان المناطق التى زارها مما يجعلنا نميل إلى القول أن معظم المعلومات التى أطلعنا عليها المسعودى — إن لم تكن كلها — ربما يكون قد استقاها من أحاديثه مع البحارة الذين سافر معهم فى رحلاته، ومع ذلك فإن المسعودى بكتاباته قد أضاء الطريق أمام الباحثين فى تاريخ هذه المنطقة[١]، ولذا فقد يكون من المناسب أن نعرض لأهم ما ذكره المسعودى خاصا بشرق إفريقيا، من ذلك حديثه عن بحر الزنج (الجزء الغربى من المحيط الهندى) ، ووصفه بالخطورة الشديدة فى عبارة شهيرة له يقول فيها « ركبت عدة من البحار كبحر الصين والروم والقلزم واليمن وأصابنى فيها من الأهوال ما لا أحصيه كثرة فلم أجد أهول من بحر الزنج فوجه عظيم كالجبال الشواهق وهو موج أعمى يريدون بذلك أنه يرتفع إرتفاع الجبال وينخفض كأخفض ما يكون من الأودية لا ينكسر موجه ولا يظهر من ذلك زبده » ، وقد وصل المسعودى إلى ساحل شرق إفريقيا بصحبة بحارة من عمان وسيراف من مدينة سنجار ، صحار ، وهى قصبة بلاد عمان فى ذلك الوقت ، فى جماعة من نواخذة السيرافيين، وهم أرباب المراكب، يقول المسعودى « وركبت فيه سنة أربع وثلاثمائة من جزيرة قنبلو إلى عمان وذلك فى مركب أحمد وعبد الصمد أخوى عبدالرحيم بن جعفر السيرافى »[٢] . وقد أقام المسعودى على ساحل شرق إفريقيا زمنا، وحاول أن يتخطى الساحل إلى الداخل ولكنه لم يصل إلى أبعاد كبيرة .

---

(١) بازل دافيدسون ( مترجم ) : إفريقيا تحت أضواء جديدة ص ص ٢٢٠ — ٢٢٥ .

(٢) المسعودى : مروج الذهب ومعادن الجوهر ج ١ ص ٢٢٨ — ٢٣٣ نشر دار الرجاء — القاهرة .

وعلى الرغم من أن القرن العاشر الميلادى شهد تأسيس كثير من المدن والإمارات العربية والإسلامية فى ساحل شرق إفريقيا فإن المسعودى لا يحدثنا عنها،وإنما اقتصر فى وصفه على الزنوج فذكر أنهم يعيشون فى إقليم يمتد مسافة ألفى وخمسمائة فرسخ على الساحل صوب الجنوب فى المنطقة الممتدة فيما يعرف حاليا بالقرن الافريقى شمالا إلى موزمبيق جنوبا . ولعل المسعودى كان أول من أدرك أن الزنوج ليسوا أمة واحدة وإنما هم قبائل شتى وشعوب مختلفة . وفيما يبدو أن المسعودى قد وصل إلى أقصى منطقة وصل إليها العرب فقد ذكر أنه وصل إلى أقاصى بلاد الزنج وإليها تقصد المراكب العمانية والسيرافية، وهى غاية مقاصدهم فى أسافل بحر الزنج ،وحدد بلاد سفالة بأنها أقاصى بحر الزنج وأقاصيه بلاد واق الواق ، وهى أرض كثيرة الذهب كثيرة العجائب خصبة حارة لم يذهب أحد من قبله ولا من بعده من الرحالة العرب خلال العصر الإسلامى وراء هذه المنطقة ، والأرجح لدينا ، فيما يقرره كثير من الباحثين هو أن العرب لم يجدوا بعد سفالة ما يسافرون من أجله فلم يكلفوا أنفسهم مشقة بعد هذه المنطقة ، إذ كانت سفالة تمدهم بكل ما تستطيع مراكبهم أن تحمل من عاج أو ذهب أو رقيق[1] .

وقد بدأ المسعودى حديثه عن شرق إفريقيا بالأسطورة القديمة عن الهجرات الأولى التى قام بها أبناء كوش ، وكيف اتجهوا يميناً بين الشرق والغرب، وسكنوا الجزء الشرقى من إفريقيا والجنوب الشرقى،وكونوا شعوب البجة والنوبة . أما الزنج فهم الذين ثابروا وحدهم سيرهم جنوباً وراء النيل الأعلى، وهم الذين فيمايقول المسعودى اتخذوا دار مملكة وملكوا عليهم ملكاً سموه وقليمن ، وهى سمة ملوكهم فى سائر الأمصار . ولعل أهمية كتابات

---

(١) جمال زكريا قاسم : المصادر العربية لتاريخ شرق افريقيا — مجلة الجمعية التاريخية المصرية مجلد ١٤ ١٩٦٨ ص ١٦٩ — ٢٣٠ .

المسعودى بصدد ذلك أنها تحدثنا عن أول دولة للزنج الخاص ، وهى غير سلطنة الزنج التى تأسست فى القرن العاشر الميلادى ، واتخذت من مدينة كلوة عاصمة لها[١]. وقد ذكر المسعودى أن الزنوج يقتلون ملكهم حينما يجور عليهم، وأن وقليمن معناها ابن الرب الكبير الذى عندهم مالك السموات والأرض ويسمونه مكلنجلو « ويركب وقليمن — وهو يملك ملوك سائر الزنج — فى ثلاثمائة فارس ، ودوابهم البقر وليس فى أرضهم خيل ولا إبل ولا يعرفونها وكذلك لا يعرفون الثلج والبرد » ، كذلك أشار المسعودى إلى غنى المملكة بالذهب، وأن الزنوج بنوا عاصمتهم فى أقصى الجنوب لتكون على مقربة من مناطق استخراجه وأنهم يصدرونه بكميات وافرة[٢] . ولعل المسعودى يكون بذلك أول من كتب عن مناجم الذهب التى تشتهر بها مناطق الروديسيات فى أواسط إفريقيا (روديسيا الجنوبية ومالاوى حالياً)، ولكن المسعودى لا يحدثنا بوضوح تام أين كانت عاصمة الوقليمن، ولا فى أى سنة أنشأت؟ وعلى أى حال فمن المستبعد أن تكون هذه العاصمة فى سفالة كما أشار إلى ذلك فى بعض المواضع لأنها كانت محط تجار العرب، والأرجح كما يؤكد جيان Guillain استناداً على ما كتبه ابن سعيد بعد مائتى عام من رحلات المسعودى أن عاصمة الوقليمن فى سنا ، وربما كانت هى نفسها المدينة التى اكتشفها البرتغاليون والتى تقع على بعد مائة وخمسين ميلا من الساحل بعد مصب الزمبيزى وبنوا فيها قلعة من أهم قلاعهم . وقد أشاد المسعودى بمهارة الزنوج فى أشغال المعادن وفى التجارة والزراعة أيضاً — حيث ذكر بعض محصولاتهم — وفى صيد الأفيال لعاجها النفيس، وأنهم يحرصون على الحديد أكثر من حرصهم على الذهب حيث يتخذون من الحديد حليهم أما الذهب فيصنعون منه سلاسل دوابهم، ولعل ذلك لكثرة إنتاجهم منه . كما وصفهم

---

(١) انظر الفصل الثانى .

(٢) المسعودى : مروج الذهب ج ١ ص ٣٣٢ .

بأنهم أهل خطابة وفصاحة بلغاء فى أحاديثهم[١]، ويقول المسعودى فى اختصار جامع « والزنج مع كثرة اصطيادها من الفيلة وجمعها لعاجه غير منتفعة بشىء من ذلك فى آلاتها وإنما تتحلى الزنج بالحديد بدلا من الذهب والفضة » ثم يشير إلى ما يزرعه الزنوج وما يأكلونه فيقول « والغالب على أقوات الزنج الذرة ونبات يقال له الكلارى ويشبه القلقاس ، ومن غذائهم أيضاً العسل واللحم ، وللزنج جزر عدة قريبة من الساحل ينتفعون بما تنتج من فواكه ، ويحبون الخطابة وفن الكلام، ولغتهم تعين على ذلك حيث يقوم فى القوم منهم رجل تقى يحثهم على طاعة الله والامتثال بأوامره ، وينذرهم بالعقاب الأليم إن لم يخضعوا لأوامره، ويذكرهم فى أكثر الأحيان بما حل بأسلافهم من خراب حين نسوا كلمة الله[٢] » .

وقد ركز المسعودى فى حديثه عن شرق إفريقيا على جزيرة قنبلو ذكر عنها أنها جزيرة حارة فيها قوم من المسلمين بين كفار الزنوج، وكلهم فى حكم أمير مسلم إلا أن لغتهم زنجية، وتتردد عليها المراكب العمانية ،وأشار إلى أنه وصل إلى قنبلو فى رحلته من مدينة سنجار مع جماعة من البحارة السيرافيين، ثم عاد فى عام ٣٠٤ هـ من جزيرة قنبلو إلى عمان . ويبدو من كتابات المسعودى أن العرب كانوا قابضين على زمام الملاحة فى المحيط الهندى خاصة فى الجزء الغربى منه الذى يتصل بسواحل شرق إفريقيا[٣] . وقد حدد المسعودى تاريخ استقرار المسلمين فى قنبلو بقرن ونصف قرن قبل رحلته إذ قال إن

---

(١) المسعودى : مروج الذهب جـ ١ ص ٣٣٣ — ٣٣٤ .

(٢) نفسه : ص ٣٣٣ .

(٣) راجع فى ذلك فضلو حورانى : الملاحة البحرية فى المحيط الهندى ، وكذلك آدم متز: الحضارة الإسلامية ( مترجم ) جـ ٢ ص ص ٤٢٩ — ٤٣٠ .

المسلمين غلبوا على هذه الجزيرة وذلك فى بدأ الدولة العباسية . ولكن التاريخ الذى ذكره المسعودى لا يكاد يوافق تأسيس أية إمارة عربية أو هجرة ملحوظة إلى شرق إفريقيا ؛ ولعله يكون قد تجاوز فى تحديده بضع سنوات من نزول العرب بهذه الجزر خلال هجرة الزيديين إلى ساحل شرق إفريقيا ، وإذا صح هذا التجاوز ، وهو على أية حال لا يتعدى سنوات قليلة ، فإننا نستطيع إذن أن نرجع سبب نزول العرب فى جزيرة قنبلو بأنه كان نتيجة هجرة الزيديين إلى المنطقة . على أن الموضوع الذى أثار الجدل بين كثير من الباحثين هو أية جزيرة كان يعنيها المسعودى بجزيرة قنبلو ؟ . حقيقة أن المسعودى وضع بعض التحديدات الجغرافية الخاصة بموقع هذه الجزيرة ؛ ولكن نظراً لكثرة عدد الجزر الموجودة على مقربة من ساحل شرق إفريقيا فإننا لا نستطيع أن نحدد تحديداً قاطعاً أية واحدة منها وإن كان المستشرق الفرنسى رينو Reinaud يميل بأن تكون جزيرة مدغشقر هى الجزيرة المقصودة بذلك ؛ إذ أن التحديدات التى أشار إليها المسعودى تكاد تنطبق عليها إلى حد كبير[1] ، وإن كان هناك اعتراض هام وهو لماذا لم يحدثنا المسعودى عن عظم مساحة هذه الجزيرة إذا صح أن تكون قنبلو هى جزيرة مدغشقر التى كان يعنيها المسعودى ؟ أما القبطان جيان فيميل إلى اعتبار هذه الجزيرة إحدى جزر القمر ، ويحددها بالجزيرة الكبرى على وجه خاص ؛ وهى جزيرة ياقوت

---

(١) يميل بعض الباحثين إلى الاعتقاد بأن جزيرة قنبلو هى بعينها جزيرة مدغشقر استنادا إلى وجود كلمات عربية كثيرة فى لغة مدغشقر مما يؤكد دخول الإسلام إليها . وقد اعتنق كثير من سكانها الدين الإسلامى وأثر العرب تأثيراً كبيرا فى تكوين الجنس الملجاشى الذى يتألف أساسا من السكان الأصليين والعرب وشعوب الملايو انظر :

Reinaud, Relation des Voyages faits par les Arabes et persans .. l'Inde et de la Chine, Tome I pp. 131—133.

أو الانجزيجة، كما كانت تعرف فى ذلك الحين ، والتى سيطلق عليها الإدريسى فيما بعد بجزيرة الرانج . ولكن التحديدات التى أشار إليها المسعودى تختلف مع موقع الجزيرة خاصة من حيث تحديده أنها تقع على مسافة خمسمائة فرسخ من عمان إذ أنها فى الواقع تقع إلى مسافة أبعد من ذلك[١] .

وهناك من يرى اعتبار جزيرة قنبلو هى جزيرة زنجبار ، وعلى الرغم مما يستدل عليه من التاريخ المحلى لسلطنة كاوة أن العرب وصلوا إلى هذه الجزيرة قبل زمن طويل من رحلة المسعودى، إلا أننا لا نستطيع مع ذلك أن نزعم أن تكون قنبلو هى إحدى جزر بمبا أو مافيا أو زنجبار ، لأننا سوف نصطدم مرة أخرى بالتحديدات التى أوردها المسعودى بالنسبة لموقع جزيرة قنبلو ، والتى أكد فيها أن الجزيرة تبعد عن القارة مسيرة يوم أو يومين بينما هذه الجزر التى أشرنا إليها ترى من الشاطىء ولا تكاد تبعد عنه سوى سويعات قليلة ، وإن كان الاعتراض الأكثر أهمية هو ما ذكره المسعودى أن هذه الجزيرة يسكنها مسلمون يتكلمون لغة الزنوج ، ولما كنا نعرف أن العرب هم الذين تغلبوا على هذه الجزر فبطبيعة الحال كانوا يتحدثون اللغة العربية ، ولهذه الأسباب لا يمكن اعتبار واحدة من هذه الجزر الصغيرة هى ما كان يعنيها المسعودى بجزيرة قنبلو ، أما المستشرق الفرنسى فيران فإنه لم يقطع برأى معين مكتفياً باعتبار قنبلو إحدى الجزر التى تقع فى الجزء الجنوبى الغربى من المحيط الهندى[٢] . وعلى الرغم مما ذهب إليه رينو فى أن

---

(١) جيان : وثائق تاريخية وجغرافية وتجارية عن شرق أفريقيا ص ٩٣ — القاهرة ١٩٣٧ .

(٢) Ferrand, Documents Historiques et Textes Geogrophiques Arabes, Persans et Turs relatif a l'Extreme Orient de XIIIe aux XVIIIe siecles Tome I p. 91 Paris 1, 1913.

تكون جزيرة قنبلو هي المقصودة بجزيرة مدغشقر إلا أننا لا نميل إلى الأخذ برأيه مفضلين الأخذ برأى جيان — وهو ربان سفينة — الذى كان على علم بطبيعة الحال بفنون الملاحة إذ أكد أنه لا يمكن الوصول إلى جزيرة مدغشقر فى زمن المسعودى إلا بالوصول أولا إلى جزيرة القمر، فكيف لم يحدثنا المسعودى عن تلك الجزيرة ؟، ومن ناحية أخرى أن جزيرة مدغشقر كان لها لغة خاصة بها تختلف عن لغة الزنوج ، وذلك اعتماداً على أبحاث فيران ، ثم أنه لا يمكن التسليم بفتح المسلمين لجزيرة كبيرة كهذه وتغلبهم عليها فى وقت بدء هجراتهم إلى المنطقة . وأخيراً فإن المسعودى على الرغم من أنه قدم معلومات هامة عن شرق إفريقيا إلا أنه لا يذكر لنا شيئاً عن أحوال المناطق التى حدث فيها احتكاك مباشر بين العرب والمناطق الساحلية التى وصل إليها . ومما لا يقبله المنطق بطبيعة الحال أن يكون المسعودى قد قام برحلاته العديدة بقصد مشاهدة جزيرة قنبلو دون سواها ، أو أن السفن التى كانت تحمله لم ترس على جهة من الجهات غيرها واكتفى بإيراد الروايات التى سمعها من البحارة عن البلاد الداخلية وخاصة أننا لا نعتقد أن يكون قد تعمق فى الداخل كثيراً[٢] . على أنه يمكننا أن نصل إلى تعليل منطقى وهو أن المسعودى لعدم اتجاهه إلى دراسة الجهات التى مر بها لم يهتم بإبراز المراكز والإمارات التى أسسها العرب، أو التى وصلوا إليها على الساحل منذ عهد بعيد قبل بدء رحلاته إلى هذه المنطقة، وإن كان ذلك مما يستدعى الأسف الشديد ، لأن الزمن الذى وصل فيه المسعودى إلى شواطىء شرق إفريقيا كان عهداً لتأسيس عدة مدن وإمارات عربية إسلامية صارت فيما بعد من أهم مراكز هذه الشواطىء وأرفعها شأناً ، كما أن المسعودى لم يحاول — وكان

(١) Freeman — Grenville, op. cit. p. 40.

ذلك لسوء الحظ أيضاً — أن يضع لنا صورة واضحة عما شاهده بنفسه أو يروى لنا تجار به الخاصة إذ أنه لو فعل ذلك لكان من المؤكد أن يأتى لنا بأخبار أوفى، وإنما اكتفى المسعودى، كما سبق أن أشرنا، بذكر ما توارد إليه من أحاديث البحارة الذين كانوا يصلون إلى تلك المناطق، ولو لم يذكر المسعودى صراحة أنه شاهد بنفسه بعض مناطق شرق إفريقيا لجاز لنا أن نتشكك فى أنه لم يشاهد هذه البلاد مشاهدة عيان، ومع ذلك فإن ما أورده المسعودى كان يمكن أن يكون أكثر جلاءا لو أن مصنفاته الكبرى لم تمسها يد الضياع، ونخص منها كتابيه الكبيرين أخبار الزمان ومن أباده الحدثان، الذى كان يقع فى أكثر من ثلاثين جزءا، والكتاب الوسيط ؛ إذ أن هذين الكتابين مع الأسف لا نعرفهما إلا من خلال اقتباسات ضئيلة ليست بذات أهمية وردت فى بعض المصنفات الأخرى ؛ بينما لا يوجد لدينا من مؤلفات المسعودى سوى كتابه مروج الذهب ومعادن الجوهر، السابق إشارتنا إليه، وهو أكثر مؤلفاته إنتشاراً وإيجازاً، كما يوجد من تراثه المتبقى أيضاً كتابا بعنوان التنبيه والاشراف، ومادته جغرافية فى معظمها، بينما ضاعت مؤلفاته الأخرى بسبب ضخامة حجمها وقلة انتشارها[١]، وعلى الرغم من أهمية كتابات المسعودى إلا أنها لم تخل من العيوب المعهودة فى تأليف معظم الجغرافيين وأثر حالة العرب خلال ذلك العهد ومن تلك العيوب الاستطراد ونقل الخرافات والأخبار السطحية دون تحقيقها تحقيقاً علمياً سليما . ولا يقتصر أثر المسعودى على إمدادنا بمعلومات عن إفريقيا تضيف شيئاً إلى المادة المتجمعة لدينا من المصنفات السابقة، ولكن تأتى أهمية كتاباته فى

---

(١) كراتشكوفسكى : تاريخ الأدب الجغرافى عند العرب — القسم الاول ص ١٧٨ .

تأثيرها على الكتاب الآخرين الذين أتوا من بعده، والذين تتعمق بهم معرفتنا عن إفريقيا[١]. وكما سبق أن لاحظنا أن المسعودى كان يركز كثيراً على شرق إفريقيا، أما عن السودان الغربى فقد اقتصر عند حد الإشارة إلى تجارة الذهب التى ذكر عنها أنها تجارة غريبة ملفتة للنظر[٢].

وبعد المسعودى يبرز أمامنا الاصطخرى الذى عاش فى النصف الأول من القرن الرابع الهجرى، وله كتابين أحدهما عرف بكتاب الأقاليم، والآخر بالمسالك والممالك، وقد اعتمد الاصطخرى فى وضعه لهذين المصنفين على رحلاته فى طلب العلم والمعرفة فى الآفاق الإسلامية، وقد زود كتابه الأول ببعض الخرائط، أما كتابه الثانى فقد عنى فيه بتحديد بعض الممالك الإسلامية من ذلك ماذكره عن بلاد السودان التى وصفها بأنها « بلدان عريضة وليس فى أقاليم السودان من الحبشة والنوبة والبجة وغيرهم إقليم أوسع منه ويمتدون إلى قرب المحيط مما يلى الجنوب ومما يلى الشمال على مفازة تنتهى إلى مفاوز مصر من وراء الواحات ثم على مفاوز بينها وبين أرض النوبة ثم على مفاوز بينها وبين أرض الزنج وليس لها اتصال بشىء من الممالك والعمارات إلا بدولة المغرب لصعوبة المسالك بينها وبين سائر الأمم[٣]» .

ومن الجغرافيين الذين اهتموا بإفريقيا أبو القاسم محمد بن حوقل الذى ظل يتجول فى البلاد الإسلامية قرابة ثلاثين عاماً، وقد زار ابن حوقل مصر

---

(١) زكى محمد حسن : الرحالة المسلمون فى العصور الوسطى ص ٣٧ — ٣٨ .

(٢) Bovil, The Golden Trade of the Moors p. 11 London 1968.

(٣) الاصطخرى : المسالك والممالك ص ٣٤ طبعة الحسينى القاهرة ١٩٦١ .

ووصف الواحات الداخلة والخارجة، وعرض لأهم مدن شمال غرب إفريقيا كبرقة وإجدابية وسرت وسوسه وتونس، كما عرض وصفاً للطريق التي سلكها من القيروان إلى تاهرت .

ويقال إنه التقى بالاصطخرى فى إحدى رحلاته لطلب العلم فطلب منه هذا أن يراجع كتابه المسالك والممالك ففعل، ولكنه ما لبث أن أخرج كتاباً بنفس الاسم اعتمد فيه على ما كتبه الاصطخرى فى كتابه، ولذا يلاحظ أن كتابى الاصطخرى وابن حوقل يحتويان على نفس المادة بل على نفس عدد الفصول الأمر الذى سبب لبعض الباحثين الكثير من الخلط بين عمل كل منهما. وقد اشتهر كتاب ابن حوقل باسم صورة الأرض أورد فيه بعض المعلومات التفصيلية عن القسم الشمالى من شرق إفريقيا خاصة مناطق الحبشة والنوبة، وعلى الرغم من أنه لم يتعرض للقسم الجنوبى إلا بإشارات ضئيلة حيث ذكر أنه من المستحيل السفر إلى بلاد الزنج، لحرارتها الشديدة، إلا أننا مع ذلك نلحظ شيئاً هاماً وهو إشارته إلى بعض الشعوب البيضاء التى تتاجر معهم، وإن كان قد اكتفى عند حد الإشارة إلى ذلك وهذا مما يستوجب الأسف الشديد. وعلى أى حال فقد تركزت معلوماته عن إفريقيا شمالى خط الاستواء من بحر القلزم شرقاً إلى المحيط الأطلسى غرباً، ومن ساحل إفريقيا الشمالى إلى بلاد السودان، والملاحظ أن ابن حوقل لم يصنف كتابه على هيئة رحلة وإنما جاء أشبه بمصنف جغرافى لم يكتف فيه بوصف البلاد فقط وإنما حدد طرقها ومسالكها، كما تخلل كتابه خرائط جغرافية ليست على درجة كافية من الدقة . وتعتبر رحلات ابن حوقل من الرحلات الهامة التى قام بها العرب فى إفريقيا خلال القرن العاشر الميلادى، أشار فيها إلى بلاد الزنج وإن كان لم يسهب كثيراً فى وصفه لتلك البلاد، إلا أنه أكد غناها بمعدن التبر ، كما أشار إلى بحر القلزم ومن يسكن جزائره من البجة والأحباش، كما تحدث عن ممالك النوبة المسيحية، وذكر عن النوبة بأنها بلد أوسع من الحبشة يخترقها نيل مصر « أهلها نصارى يقترب

ألوانهم من العرب، وأهلها أهل سلم وليست بدار حرب، وهي بلد عامر خصيب، من أحسن مدنها نواحي علوه وفي أعلاها نهر يجرى من الشرق يعرف بأور يصب في النيل » . ومما يستلفت النظر أيضاً زيارة ابن حوقل لمصر ووصفه لبعض الطرق التي تخترقها كالطريق الواصل من الفسطاط إلى الإسكندرية ماراً بدمياط وتنيس، والطريق من الفسطاط إلى بلبيس وفاقوس ثم الرماح، كما تحدث عن نهر النيل ، وأكد أن أحداً لا يعلم مبدأه ، ولكنه ذكر أنه يخرج من وراء أرض النوبة ، وماؤه أشد عذوبة وبياضاً من سائر أنهار بلاد الإسلام[١] .

وتعتبر كتابات ابن حوقل أول كتابات تصل إلينا تتناول بشيء من التفصيل المناطق الداخلية من غرب إفريقيا، فقد زار كمبي عاصمة غانا وشاهد نهر النيجر يتدفق تجاه الشرق مما أدى به إلى الاعتقاد خطأ بأنه نهر النيل ، وأكد ابن حوقل أن زعماء أودغست لديهم صلات كثيرة بمملكة غانا أغنى ممالك العالم لما في بلادها من التبر . على أنه لم يركز كثيراً على وصف البلاد التي تقطنها الشعوب السوداء في غرب إفريقيا أو غيرها من المناطق المدارية الأخرى؛ فكما يقول إن حبه الطبيعي للحكومة المنظمة هو الذي دفعه لتجنب ذكر أي شيء عنهم[٢] ، ولكنه يورد بعض المعلومات عن شعوب البجه والنوبيين والأحباش لأن لديهم، كما يقول، بعض مظاهر المدنية والوعي الديني الناتج عن قرب بلادهم من البلاد الأكثر تقدما، فيذكر عن البجة أنهم أشد سواداً من الأحباش وأنهم لا يمتلكون قرى ولا مدنا ولا أراض زراعية. ويذكر عن بلاد الحبشة أنها بلاد جافة يوجد فيها قليل من المباني ومساحة كبيرة من الأراضي الزراعية، وأن جلود النمور وغيرها من الجلود التي تشترى

---

(١) Bovil, op. cit. pp. 61 — 62.

(٢) Ibid p 62.

من اليمن تأتى من هذه البلاد، بينما يذكر عن النوبة أن سكانها نصارى وأن بها من المدن والعمارة أكثر من الحبشة، كما أن نيل مصر يخترق هذه البلاد إلى أن يخرج منها إلى أرض الزنج ثم يتجاوزها إلى برارى يتعذر مسالكها .

وبعد ابن حوقل يطالعنا المقدسى ( ٣٣٥ هـ — ٩٤٦/٩٤٧ م ) فى كتابه أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم، ويعد المقدسى من أعظم الجغرافيين العرب فى القرن العاشر الميلادى اقتصر فى كتاباته على وصف الأقاليم الإسلامية ولم يتعرض لوصف الأقاليم التى يسكنها غير المسلمين، وكتب عن مزايا كتابه أنه جمعه بعد جولاته العديدة فى البلدان ودخوله أقاليم الإسلام ولقائه مع العلماء، على أننا لا نجد مما أورده فى مصنفاته ما يمكن أن نضيفه إلى معلوماتنا عن شرق إفريقيا خلال هذه الفترة ؛ فالمقدسى لم يذكر أكثر من أن الجزء الغربى من المحيط الهندى يبدأ بعدن وينتهى ببلاد الزنج ، وهم غير الزنوج الذين عرفوا فى الهند(٢) .

ومن الجغرافيين الذين كتبوا فى أواخر القرن العاشر الميلادى محمد التاريخى الأندلسى المتوفى عام ٩٧٣م ألف كتاباً فى وصف إفريقيا والمغرب، وكان هذا الكتاب من أكبر المصادر التى اعتمدها عبد الله بن عبد العزيز الذى عرف بأبى عبيد، وعرف أكثر بكنيته البكرى، فى كتابة مصنفه الفريد المغرب فى ذكر بلاد إفريقيا والمغرب ، وكتابات البكرى، عن أقاليم السودان الغربى تشكل أول محاولة لوضع مسح عام للمنطقة. ولا ندرى عما إذا كان البكرى قد زار غرب السودان أم أنه اكتفى بالأخذ عمن سبقه ، ولكن المهم أنه لا غناء عن مرجعه القيم الذى جمع فيه كل ما وصل إليه علمه من وصف دقيق مثير لغانا ، ولم يترك البكرى شيئاً إلا وتصدى له بالتحليل والدراسة

---

(١) cf. Ferrand, Documents Historiques et Textes Geographiques Tome I p. 117 Paris 1913.

وساعده على ذلك سعة أفقه وقراءته الكثيرة للسجلات العربية التى حفلت بها مدينة قرطبة التى كانت مصدراً لا ينضب لأخبار غرب إفريقيا فى ذلك الحين(١) . وقد ذكر البكرى أن بمدينة غانا حيين واحد للمسلمين به إثنا عشر مسجداً وعدد من الفقهاء وأهل العلم ، وهذا يوضح لنا نتيجة اتصال المسلمين بشعوب غرب إفريقيا ؛ وما أحدثه ذلك الإتصال من نشر للدين الإسلامى، أما الآخر فهو مقر الملك، وإلى جانب القصر أنشىء مسجد آخر ليؤدى فيه زوار الملك من المسلمين صلاتهم ، الأمر الذى يشهد بظهور رعية مسلمة وفيرة العدد كانت تعمر هذا العدد الوفير من المساجد .

وقد ترك لنا البكرى الكثير عن مدينة كمبى عاصمة غانا ، واعتمد فى كتاباته عن العاصمة على المعلومات التى أمده بها أحد التجار المغاربة، ونلحظ فى حديث البكرى عظمة البلاط والازدهار التجارى والعسكرى ، فقد ذكر أن بمقدرة ملك غانا أن يجند للحرب مائتى ألف مقاتل منهم أربعين ألفا مسلحين بالسهام والأقواس، والباقى بالحربات. ولاشك أن البكرى كان يتلقى الكثير من أحاديث الرحالة والمغامرين، الذين كانوا يضيفون عليها قدراً من الخيال والمبالغة، وإن كان البكرى أحذق من أن يفوت عليه ذلك . ولعل ما أعانه فى كتاباته عن غرب إفريقيا أنه كتب عقب غزوة ابن ياسين والى المرابطين ، وكانت غزوته هذه ذات أثر بعيد فى تقريب غرب إفريقيا إلى منطقة البحر الأبيض المتوسط ، وفى كتابات البكرى الشىء الكثير عن مملكة غانا وعوائد أهلها وغناها بالذهب وأهم مراكز استخراجه وتحديد طرق الاتصال بها وبغيرها من المدن، كما نجد فيها إشارات كثيرة عن محاولات المرابطين اختراق الصحراء من أجل الوصول إليها، كما تعرض أيضاً لمدن الشمال الأفريقى كطرابلس والقيروان وتونس ووهران وطنجة وسبته وفاس وسجلماسة وإغمات

---

(١) Bovil, The Golden Trade of The Moors p. 62.

واتصال بعضها ببعض والمسافات التى تفصل بينها[١] .

كذلك يبرز لدينا فى أواخر القرن العاشر الميلادى الحسن بن محمد المهلبى، وهو عالم مصرى ، كان يعاصر الخليفة الفاطمى العزيز بالله وضع بعد زيارته لبلاد السودان كتاباً فى الطرق والمسالك ( ٩٨٥ م ) امتاز بأنه أول كتاب عنى بوصف أقاليم السودان الغربى وصفا دقيقاً، ولكن مما يؤسف له أن ذلك الكتاب لم يصل إلينا [٢] .

وفى القرن الحادى عشر الميلادى، وقبل أن نصل إلى مصنفات الإدريسى، وهى من المصنفات العربية الهامة التى عنيت بأفريقيا ، لانجد سوى البيرونى فى كتابه الآثار الباقية عن القرون الخالية، ونلحظ فى كتاباته اهتمامات واضحة بالساحل الشرقى لأفريقيا حيث ذكر أن الساحل والجزر الجنوبية المتاخمة له تسكنه قبائل متفرقة من الزنوج، كما أشار إلى جزيرة واق الواق واعتبرها إحدى جزر القمر، ووصف سكانها بأنهم سود يغلب عليهم البياض وأنهم يعتنقون عقيدة الهنود[٣] ، كما تحدث عن النشاط التجارى الذى كان قائماً بين سفالة والهند والصين، وإن كان لم يعطنا معلومات مفصلة عن دور العرب فى تلك التجارة . وقد أشار إلى الجزء الغربى من المحيط الهندى الذى أطلق عليه بحر البربر وحدده من مضيق عدن فى الشمال إلى سفالة الزنج فى الجنوب ، وذكر أن المراكب لا يمكن لها أن تتجاوز سفالة ، لعظم المخاطرة فيما يليها[٤] ،وفيما يبدو أنه قد توافرت للعرب معلومات هامة عن ساحل شرق إفريقيا الشرقى إلى مايقرب من خط العرض ٢٠° جنوباً، أما عن البلاد الواقعة

---

(١) أبو عبيد البكرى : كتاب المغرب فى ذكر بلاد إفريقيا والمغرب وهو جزء من الكتاب المعروف بالمسالك والممالك طبعة الجزائر ١٩١١
انظر ذكر بلاد السودان ص ١٧٢ وما بعدها

(٢) زكى محمد حسن : الرحالة المسلمون فى العصور الوسطى ص ص ٤٢ — ٤٣ .

(٣) انظر البيرونى نقلا عن :
Gabriel Ferrand, op. cit. Tome I p. 163.

(٤) كراتشكوفسكي : الأدب الجغرافى عند العرب ، القسم الأول ص ١٤١ .

إلى الجنوب من ذلك فقد كانت فكرة العرب عنها بصفة عامة تستند على الحدس والتخمين ؛ ولو أن علمهم بالكوارث التي كانت تتعرض لها السفن تشير إلى معرفتهم بطريق غير مباشر بمضيق موزمبيق الذين أسموه في بعض كتاباتهم بجبل الندامة[١] .

ولا شك أن المعلومات التي أوردها المصنفون العرب والمسلمون سواء من وصلت إلينا كتاباتهم أو من فقدت مدوناتهم ، قد استفاد منها الإدريسي في القرن الثاني عشر الميلادي واعتمد عليها في وضع كتابه وخريطته المعروفة.

والإدريسي جغرافي عربي (١١٠٠/١١٦٦م) أقام في صقلية في الفترة من ١١٣٨ حتى وفاته ١١٦٦م[٢] في بلاط الملك روجر الثاني Roger II أحد ملوك النورمان، وقد عرف الكتاب الذي وضعه بكتاب روجر أو الروجاي، وأسماه نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ولا بد أن معاصري الإدريسي قد ساءهم دخوله في خدمة أمير كافر خاصة وأن الوقت كان وقت حروب صليبية ولا شك أنه لعدم موافقة بني قومه على تصرفه هذا كان سبباً في أن المعلومات المتعلقة بحياته قليلة في جملتها[٣] . والثابت أن الإدريسي قضى ردحاً من حياته الأولى مترحلا في أسبانيا وإفريقيا وآسيا الوسطى ، وكان روجر مهتماً بجمع المعلومات الجغرافية فطلب من الإدريسي جمع المعلومات المتعلقة بالعالم والتي كان قد استحوذ على مادتها فأخرج منها الإدريسي عمله الضخم المعروف بكتاب روجر[٤] . وقد أخذ الإدريسي الكثير من مادته من الكتب الجغرافية

---

(١) المصدر السابق ص ٢٤٩ .

(٢) جيان — وثائق تاريخية وجغرافية وتجارية عن شرق إفريقيا، ص ص ٢٠٥ — ٢٠٧ .

(٣) Bovil, op, cit. pp. 16—36.

(٤) انظر مادة الإدريسي في دائرة المعارف الإسلامية، ولمزيد من التفصيل عن ترجمة الادريسي نمكن الرجوع إلى محمد عبد الغني حسن : الشريف الادريسي، سلسلة أعلام العرب رقم ٩٧.

السابقة عليه وكذلك من التقارير التى كان يتلقاها من المسافرين والتجار، هذا فضلا عن المناطق التى ارتحل إليها بنفسه فى إفريقيا، وكانت فى منطقة الشمال الإفريقى على وجه التحديد، إذ لم يعرف عن الإدريسى أنه قد وصل فى رحلاته فى إفريقيا إلى أبعد من ذلك، ولكننا نجد فى كتاباته إشارات عن مدن شرق إفريقيا على الرغم من أنه لم يورد لنا معلومات وافية عن هذه المدن، ويبدو أنه لم يهتم اهتماماً كافياً بالاستعلام عن تلك البلاد، ومع ذلك فإن أهمية الإدريسى فيما يختص بشرق إفريقيا أنه يكاد يكون أولى المصادر التى تحدثت عن مدن الساحل وجزره؛ من ذلك كلوه التى ذكر عنها أن لها تجارة هامة مع سفالة، ومالينده التى وصفها بالازدهار. ومما يستلفت النظر أن الإدريسى لم يرحل إلى شرق إفريقيا — كما فعل المسعودى — ولكنه استمع كثيراً وقرأ أكثر فأتى بدقائق مفصلة عن هذا الإقليم. وقد انتهى الإدريسى من كتاب نزهة المشتاق فى عام ١١٥٤م، وفى العام التالى قام بوضع خريطة للعالم استجابة لطلب روجر[1]، ولاشك أن الفترة التى وضع فيها الإدريسى كتابه كانت فيها تجارة العرب مع شرق إفريقيا مزدهرة ازدهاراً كبيراً، على أن الإدريسى لم يعن بتجارة العرب فى الذهب والعاج والرقيق لأن هذه التجارة كانت معروفة فى العالم العربى التجارى، وإنما انصرف إلى الحديث عن تجارة جديدة وهى تجارة الحديد. كما نلاحظ أيضاً تغير أوجه الحياة فى شرق إفريقيا منذ رحلة المسعودى إليها فى النصف الأول من القرن العاشر إلى كتابات الإدريسى فى النصف الأول من القرن الثانى عشر الميلادى، فمالينده التى لم تحظ من المسعودى حتى بذكر اسمها لأنها لم تكن تعنيه فى شىء لعدم أهميتها أصبحت فى زمن الإدريسى مدينة الزنج. يحدثنا الإدريسى عنها فيقول إن الزنوج يتملكون فيهـــا مناجم الحديد ويستخرجونه ويتاجرون فى المطاوع منه

---

(١) Johnston, Hary, A History of the Colonization of Africa by alien races p. 299 Cambridge, 1913.

ويربحون من تجارتهم هذه أرباحاً كبيرة ، كذلك تحدث عن ممبسه واشتغال أهلها بتجارة الحديد أيضاً مما يدل على الصلات التى كانت قائمة بين شعوب الداخل ومن يفد على الساحل من التجار العرب وغيرهم خاصة من الهنود إذ كانت السيوف تصنع فى الهند من الحديد المتحصل عليه من شرق إفريقيا .

ومما يستلفت النظر أن هناك بعض مواقع ذكرها الإدريسى لاتزال موجودة على الخرائط الحالية ولو بالتقريب كبراوة ومالينده وممبسه ، ومنها من اندرست معالمها ولاتزال تخضع لعمليات الكشف والتنقيب[١] . وقد أكد الإدريسى العلاقات التى كانت قائمة بين العرب وساحل شرق إفريقيا وإن كان قد قصر هذه العلاقة عند حدود التعامل التجارى دون أن يعنى بدراسة الإمارات أو الممالك الإسلامية التى أنشأها العرب على ساحل شرق إفريقيا ، ويقول الإدريسى بصدد ذلك أن جميع بلاد الزنج بضائعهم من الحديد وجلود النمور الزنجية ، وهى جلود حمر لينة جداً ، ينقلون أمتعتهم على رءوسهم وعلى ظهورهم إلى مدينتى ممبسه ومالينده فيبيعون هناك ويشترون[٢] .

وعلى الرغم من أهمية ما كتبه الإدريسى إلا أن المعلومات التى أوردها ليست موفية تماماً ، هذا فضلا عن أنه أخطأ عند ذكره مدينة براوة فذكر أنها لاتزال على وثنيتها ، إذ قال إنها واقعة بطرف بلاد الكفرة ، ولكن من المعروف أن الإسلام كان قد انتقل إليها فى زمن أسبق بكثير من كتابات الإدريسى ، كما أنه لم يشر إلى كلوه إلا بإشارة عابرة مع أنها تأسست قبل مائتى سنة من مولد الإدريسى وبلغت فى زمنه أقصى درجة من الازدهار ، وكانت جزر بمباومافيا وزنجبار تابعة لها ، وهذه الجزر لم يذكرها الإدريسى أيضاً ، كما أنه لم يعرض لمدينة مقديشيو فى حين أنه ذكر بعض المدن التى كانت تابعة لها كبراوة

---

(١) بازل دافيدسون : إفريقيا تحت أضواء جديدة ( مترجم ) بيروت ١٩٦١

(٢) المصدر السابق ص ص ١٢ — ١٣ .

وركة ، ويبدو أن الإدريسى لم يكن على دراية كافية بتلك الأماكن أو أنه لم يهتم بالاستعلام عنها اهتماماً كافيا،ومع ذلك فإن الأدريسى يكاد يكون هو الجغرافى الوحيد الذى ذكر أسماء بعض مدن وجزر شرق أفريقيا فى حين لم يرد ذكرها عند غيره من المصنفين السابقين له باستثناء المسعودى إلا باعتبار أنها مجموعة من الجزر[١]، كما أن الإدريسى لم يقتصر عند حد الإشارة إلى أقاليم شرق إفريقيا ومدنها وإنما تعرض إلى غرب إفريقيا ولاسيما مملكة غانا ، وطبقاً لما يذكره الإدريسى كانت عاصمتها كبى أكبر سوق فى السودان الغربى حيث اعتاد التجار من جميع أنحاء المغرب أن يجتمعوا فى أسواقها[١] ومن الثابت أن المسلمين احتلوا مراكز عليا فى المملكة كالوزراء والكتاب، كما ذكر أن الخزانة الملكية كانت تحتوى على قطعة كبيرة الحجم من الذهب أصبحت مشهورة فى العالم الخارجى، وفى القرن الرابع عشر الميلادى ذكر ابن خلدون بيعها من قبل أمير مسرف إلى بعض تجار مصر،وذكر أن وزنها بلغ أكثر من طن.
وأوضح الإدريسى أن ذهب غرب إفريقيا كان يأتى من مركزين أساسيين هما التكرور فى الغرب ونجارا فى الشرق . وقد وصف فى أماكن كثيرة من كتابه ما كان عليه ملوك غانا من الثراء، كما وصف أحوال مالى والتكرور، أكبر مدنها، وأكثرها تجارة، فكان يسافر إليهـــا أهالى المغرب الأقصى بالصوف والقماش والخرز ويخرجون منها بالتبر والرقيق .كما أمدنا الإدريسى بكثير من المعلومات عن حالة المغرب العربى، وله وصف دقيق للمدن فى شمال غرب إفريقيا خاصة مدينة إغمات التى أكد اتصالها ببلاد السودان الغربى ، كما أشار إلى طرق القوافل التى كانت تخرج منها، كما وصف مدينتى مراكش وفاس وصفاً فريداً فى نوعه[٢] .

---

(١) Freeman - Grenville, Select documents on the East African Coast p. 41.

(٢) عبد الرحمن زكى : المراجع العربية لتاريخ الإسلامى فى غرب إفريقيا ص ١٤ .

(٣) نقولا زيادة : الرحالة العرب ص ص ٩٣ — ٩٤ .

وفى منتصف القرن الثانى عشر الميلادى وضع سراج الدين أبى حفص عمر بن الوردى مصنفاً بعنوان خريدة العجائب وفريدة الغرائب. وقد اعتمد فيه بالنقل عن المسعودى، وقد ذكر أنه كاف من نائب السلطنة قائد قلعة حلب شاهين المؤيد أن يضع له دائرة مشتملة على دائرة الأرض توضح ما اشتملت عليه فوضع هذا الكتاب، وقد وصف فيه ساحل شرق إفريقيا من جردفون إلى موزمبيق؛ ذكر أن سكانه جميعاً من المسلمين فيهم القاضى والإمام، ونقل ما أورده المسعودى عن بلاد واق الواق وعجب لكثرة ما بها من ذهب حيث أن الزنوج يتخذون منه سلاسل دوابهم أما أكابرهم فيصنعون منه لبناً يبنون بها بيوتهم[1]. وما تجدر الإشارة إليه أنه يوجد اختلاط لسمى آخر لابن الوردى ظهر فى النصف الثانى من القرن الرابع عشر والسنوات الأولى من القرن الخامس عشر ويدعى زين الدين أبى حفص بن الوردى وقد ظل كتاب الخريدة ينسب خطئا إليه.

أما فى القرن الثالث عشر الميلادى فيطالعنا ياقوت الحموى بمعجمه المعروف معجم البلدان، وقد عرف ياقوت بأسفاره التجارية العديدة، وكان يشتغل بتجارة الكتب وقد مكنه عمله ذلك من جمع المادة العلمية اللازمة لمعجمه، على أنه لم يسجل لنا أخبار رحلاته وماوقع له من تجارب فى خلالها، ولا ريب فى أن ما شاهده ياقوت فى أسفاره العديدة وما جمعه من الخزائن كان خير عدة له فى تأليف مصنفه الفريد الذى فرغ منه فى عام ١٢٢٤م[2] بيد أننا لا نستطيع أن نحدد مقدار ما أفاده ياقوت من رحلاته تحديداً دقيقاً إذ أنه لم يعين الأقاليم الإفريقية التى زارها بنفسه وكتب عنها؛ وإنما نقل فى معجمه عن كثير من الجغرافيين والرحالة مع أنه كان من أكثر العلماء طوافاً فى عصره. ويعتبر معجم البلدان

---

(١) راجع ابن الوردى : خريدة العجائب وفريدة الغرائب.

(٢) زكى محمد حسن : الرحالة المسلمون فى العصور الوسطى ص ص ١٥ — ١٦.

من أهم المصنفات التى وضعها العرب فى هذا الموضوع ، ويوجد بهذا المعجم كثير من مدن شرق إفريقيا كمقديشيو والجب وكلوة، ولعل ياقوت أول من أشار إلى الشعب السواحلى ، ويفهم ذلك من حديثه عنهم إذ أسماهم بشعب البربر « وهم غير البربر الذين بالمغرب هؤلاء سود يشبهون الزنوج — جنس متوسط بين الحبش والزنوج»[١]،وفى تعريفه بمقديشيو ذكر أنها «مدينة فى أول بلاد الزنج وأهلها كلهم غرباء ليسوا بسودان ولا ملك لهم وإنما يدير أمورهم المتقدمون على اصطلاح لهم وإذا قصدهم التاجر له أن ينزل على واحد منهم ويستجير به فيقوم بأمره ومنها يجلب الصندل والأبنوس والعاج هذا أكثر أمتعتهم وقد يكون عندهم غير ذلك مجلوب إليهم»، كما تحدث ياقوت عن كل من مدينة الجب وكلوة وسفاله وإن كان ما أورده عن هذه المدن لا يشكل إلا شذرات بسيطة، فقد ذكر عن الجب أنها مدينة قرب بلاد الزنج فى أرض بربرة يجلب منها الزراعة وجلودها يتخذها أهل فارس نعالا. ولم يذكر عن كلوة إلا أنها موضع بأرض الزنج[٢]، كما لم يذكر عن الجهات الأخرى التى تقع على ساحل شرق إفريقيا أكثر مما أورده الإدريسى عنها ، ومع ذلك فإن ما ذكره ياقوت مهم رغم قلته ، ويبدو أنه استقى معلوماته من التجار العرب الذين كانوا يذهبون إلى هذه الأقاليم لصلته بهؤلاء التجار وبرؤساء عمان بوجه خاص، كما أشار ياقوت إلى جزيرة مدغشقر وأطلق عليها جزيرة القمر[٣]، والواقع أن الجغرافيين العرب لا يتفقون على كتابة إسم هذه الجزيرة ولا على أصل اشتقاقها، فقد كتبه البعض ومنهم الإدريسى القمر بضم القاف والميم، وكتبه غيرهم،ومنهم ياقوت وابن سعيد بسكون الميم،ونسبوا اسم الجزيرة إلى قوم القمر الذين هاجروا إليها ، أما ابن الوردى والبقوى فسميا الجزيرة

---

(١) ياقوت الحموى : معجم البلدان جـ ٨ ص١٧١، القاهرة ١٩٠٦ .

(٢) المصدر السابق ، جـ ٧ ص٢٧٧ .

(٣) راجع معجم ياقوت الحموى للتعرف على الأماكن التى أشرنا إليها .

باسم القمر بفتح القاف والميم ، ويبدو أن العرب كانوا يعنون بها جزيرة مدغشقر ،وإن كان هناك من يعتقد أنهم كانوا يعنون بها إحدى جزر القمر خاصة وأن وصف كل من الإدريسي وابن سعيد لجزائر القمر من حيث طبيعة الأرض وعادات السكان لا يتيسر تطبيقه على جزيرة مدغشقر[١] وقد أشار الإدريسي إلى هـــذه الجزيرة وتحدث عن اختلاف أجناسها وتعدد شعوبها ولغاتها وعن غنى سواحلها بالعنبر ، وأنه ليس هناك فى بحر الزنج جزيرة أكبر منهـا . وقد يكون من المناسب أن نشير هنا إلى أن جزيرة مدغشقر وجزر القمر الأربعة لم تورد فى المصنفات العربية إلا نادراً .

كذلك تعرض ياقوت فى معجمه إلى ممالك السودان الغربى فذكر عن غانا بأنها مدينة كبيرة فى جنوب بلاد السودان، كما تحدث عن أقاليم مالى، فذكر عن التكرور أنها بلاد تنسب إلى قبيل من السودان فى أقصى جنوب المغرب، كما تحدث عن التبر فذكر أنها من بلاد السودان وإليها ينسب الذهب الخالص وهى فى جنوب المغرب[٢] .

ومن المصنفين العرب الذين اهتموا بممالك السودان فى النصف الأول من القرن الثالث عشر الميلادى أحمد بن عبد المؤمن الشريشى ١٢٢٣م فذكر أن المدخل إلى هذه الممالك من سجلماسة ، ومن سجلماسة إليها أخذها بامسيرة ثلاثة أشهر، ويوجد بها تجار كثيرون من المغرب .

وفى أواخر القرن الثالث عشر الميلادى يبرز لدينا من المصنفين العرب ابن سعيد المتوفى ١٢٨٦م، وهو مؤلف جغرافى من غرناطة درس جغرافية بطليوس ووضع موسوعة هامة عرفت بجغرافية الأقاليم السبعة[٣]، أورد

---

(١) جيان : وثائق تاريخية وجغرافية وتجارية عن شرق إفريقيا ص ص ١٦١ - ١٦٢ .

(٢) صلاح الدين المنجد : مملكة مالى عند الجغرافيين المسلمين ص ١٥ .

(٣) انظر ابن سعيد فى المجلد الثانى من فيران ص ٣١٦ وما بعدها .

cf. Ferrand, Documents Historiques et Textes Geographiques Arabes, Persans et Turks relatif al' Extreme Orient de VIIIe auX XVIIIe Tome 11. p.316 ff., Paris, 1913.

فيها ما عرفه عن سواحل شرق إفريقيا مع ذكر لبعض مدنها كاليندة وممبسه ومقديشيو، وتحدث عن هذه المدن مراعياً ترتيبها حسب موقعها الجغرافى من الشمال إلى الجنوب. وقد وضع موسوعته على نهج كتاب الإدريسى نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق(١). وأهم ما فى كتاب ابن سعيد ما ذكره من أن ملاحاً عربياً يدعى ابن فاطمة دار حول إفريقية من الغرب إلى الشرق، كما وصف سواحل السنغال، وذكر وجود جاليات هندية كبيرة العدد تعيش فى جزيرة القمر، كما أورد تفاصيل كثيرة عن تلك الجزيرة تطابق جزيرة مدغشقر إلى حد كبير مثل كونها طويلة عريضة طولها مسيرة أربعة أشهر وعرضها مسيرة عشرين يوماً وأنها تحت حكم المسلمين (٢) .

وعلى الرغم من أن ابن سعيد قد كتب عن السودان الغربى إلا أنه من المؤسف أن كتاباته لم تصل إلينا كاملة، ولكن إذا قيمناها بالإشارات التى وردت عنها فى أبى الفدا وابن خلدون وغيرهما فإن فقد مؤلفاته تعد ولا شك ضربة محزنة للعلم (٤) ، وعلى الرغم من أن الفاصل الزمنى بين كتابات الإدريسى وابن سعيد لا يتجاوز مائة عام فإن التباين الكبير واضح فى كتاباتهما، كما أننا نلاحظ بعض تغييرات من حيث أسماء المدن ، ولا نستطيع أن نعلل هذا الاختلاف بسبب التغييرات التى حدثت فى الساحل فى مدة قصيرة نسبياً ، وإن كان هناك فى كتابات ابن سعيد مواقع كثيرة ورد ذكرها فى الإدريسى.

وبعد وفاة ابن سعيد يسترعى انتباهنا مصنف جديد فى تخطيط البلدان لزكريا بن محمد المعروف بالقزوينى، ويتضمن هذا المصنف بعض المعلومات

---

(١) جيان : وثائق تاريخية وجغرافية وتجارية عن شرق إفريقيا ص ١٣٨ .

(٢) لوثروب ستودارد : حاضر العالم الإسلامى — تعليق شكيب أرسلان . ص ص ٣٧١ — ٣٧٣ .

(٣) انظر بعض الكتابات التى أوردها ابن سعيد فى المجلد الثانى من فيران ص ٣١٦ وما بعدها .

Ferrand, G, Documents Historique et Texetes geoqraphiques.

(٤) Bovil, The golden Trade of the Moors p. 65.

المفيدة عن إفريقيا وإن كان يتميز باتجاهه إلى العجائب ، ويتضح ذلك من عنوانه «عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات» كما له كتاب آخر بعنوان آثار البلاد وأخبار العباد اقتصر فيه على ما نقله عن المسعودى بالنسبة لحديثه عن زنوج شرق إفريقيا، أما عن بلاد السودان فقد ذكر عنها أنها بلاد كثيرة وأرض واسعة ينتهى شمالها إلى أرض البربر وجنوبها إلى البرارى وشرقها إلى الحبشة وغربها إلى البحر المحيط[1] .

ومن أبرز المصنفين العرب فى القرن الرابع عشر الميلادى أبو الفـدا اسماعيل سلطان حماة فى مصنفه المعروف «تقويم البلدان» الذى اعتمد فيه كثيرا على ابن سعيد وقد تعرض فى مصنفه لكل من شرق وغرب إفريقيا، وأكد الروابط القائمة بين شمال غرب إفريقيا وممالك السودان الغربى، فذكر أن المسافرين يقطعون الصحراء بين سجلماسة وغانا ؛ وهى مسافة طويلة عريضة يكابدون فيها شدة العطش والوهج[2] على أن أكثر ما أوضحه أبو الفدا فيما يتعلق بشرق إفريقيا حديثه عن الثلوج على القمم العالية فى الداخل (جبال كليمنجارو ) قال إنه سمع بهذا ولا يكاد يصدقه[3]، وعلى ذلك نستطيع أن نقول إن العرب عرفوا مناطق فى داخلية إفريقية لم يصل إليها الأوربيون إلا فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر الميلادى ، ولم يقتصر أبو الفدا فى حديثه على زنوج شرق إفريقيا وإنما عنى بأخبار الزنوج الذين عاشوا فى البلاد العربية فقد ذكر أن جماعة من زنوج زنجبار أغارت فى عام ٢٥٦ هـ على

---

(١) زكريا القزوينى ، آثار البلاد وأخبار العباد ص ٢٤ طبعة بيروت ١٩٦٠ .

(٢) صلاح الدين المنجد — مصدر سبق ذكره ص ٢٧ ، انظر أيضا تقويم البلدان ص ١٣٧ .

(٣) انظر كتابات أبى الفدا فى :

Reinaud, Relations de Voyages faits par les Arabes et Persans a l'Inde et de La Chine Tome 11. p. 44.

وكذلك جيان : وثائق تاريخية وجغرافية وتجارية عن شرق إفريقيا ص ٧٣ ، كما يمكن الرجوع إلى مادة أبو الفدا فى دائرة المعارف الإسلامية .

الجزء الجنوبى من العراق وأنهم استولوا على مدينة البصرة ونهبوها . كما نقل عن النويرى أن جزءاً من جيش الخلفاء العباسيين ببغداد كان مؤلفاً فى القرن التاسع الميلادى من زنوج زنجبار[1] .

وفى القرنين الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين انصرف العرب عن الجغرافيا العلمية ووجهوا اهتمامهم إلى الحديث عن العجائب وفى وصف الغريب من حيوان البر والبحر، ومن أهم الذين كتبوا فى العجائب شمس الدين أبو عبدالله الدمشقى فى كتابه نخبة الدهر فى عجائب البر والبحر، وقد نقل الدمشقى بعض رواياته عن المسعودى؛ وفى فصل له عن بحر الزنج عدد جزائر كثيرة فيه منها جزيرة قنبلو التى عنى بها جزيرة مدغشقر[2]، ولدينا — بعد الدمشقى — عبد الرشيد بن صالح الملقب بالبقوى، نسبة إلى باكو من ثغور بحر قزوين، وله كتاب عجائب القدرة أورد فيه بعض المعلومات عن جزيرة زنجبار ولكنه أسماها بنجويه ذكر عنها أنها جزيرة من بلاد الزنج وجميع السفن التى تتاجر مع هذه البلاد ترسو إليها وبذلك يمكن أن نعتبر جزيرة زنجبار من عداد الأمكنة التى ذكرها المصنفون العرب فى مصنفاتهم الجغرافية .

ويتميز القرن الرابع عشر الميلادى بثرائه فى مجال المعرفة العربية بغرب إفريقيا؛ ففى خلال النصف الأول من ذلك القرن يطالعنا ابن فضل الله العمرى فى موسوعته الضخمة مسالك الأبصار، أورد فيها الشيء الكثير عن مملكة مالى فذكر أنها فى جنوب نهاية المغرب، ومتصلة بالبحر المحيط، وأنها تشتمل على أقاليم كثيرة، وبلاد مالى وغانا ومامعها يسلك إليها من غربى صعيد مصر على

(١) انظر ما كتبه أبو الفدا عن تاريخ البصرة فى :

Reinaud, op. cit. Tome 11. p. 44.

وكذلك جيان : وثائق تاريخية وجغرافية وتجارية عن شرق لإفريقيا ص ٧٣ .

(٢) لوثروب ستودارد : مصدر سبق ذكره ج ١ ص ص ٢٨٢ — ٢٧٣ .

الواحات فى طريق تسكنه طوائف من العرب ثم من البربر يتوصل منه إلى مالى وغانا .

ويكاد يكون هناك اتفاق بين الباحثين على أن العمرى يعد أعظم ما كتب عن مالى، إذ قدم وصفاً هاماً ودقيقاً للمملكة وأقاليمها ومدنها وقبائلها ومدنها وقبائلها وبناء دورها وأقواتها وثمارها وحيواناتها وعاداتها وتقاليد أهلها وعساكرها ومعادنها وصلات ملوكها بمن يجاورهم . وقد استقى معلوماته من إناس عاشوا فى تلك البلاد وعرفوا أخبارها أو من أهالى أنفسهم أو ملوكهم الذين زاروا القاهرة ومن آخرين صحبوا هؤلاء الملوك[١] وكثيراً مايقتبس منه القلقشندى فى كتابه صبح الأعشى ويأخذ منه فقرات كاملة .

وفى السنوات الأولى من النصف الثانى من القرن الرابع عشر يسترعى انتباهنا كتاب رحالة عربى يدعى ابن بطوطة سجل فيه رحلاته الكثيرة وأسماه تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار . وقد بدأ ابن بطوطة رحلاته فى عام ٧٧٥ هـ قاصداً الحج إلى مكة ، وله ثلاث رحلات واسعة النطاق جاب فيها أكثر ماعرف فى زمانه من بلاد وقد طاف فى رحلته الأولى شمال إفريقيا وشرقها ثم بلاد الشام والهند والصين وأجزاء كثيرة من آسيا بينما طاف فى رحلته الثانية بلاد الأندلس، أما رحلته الثالثة فقد كانت فى غرب إفريقيا ومجاهلها، وقضى فى رحلاته هذه مايقرب من الثلاثين عاماً . وبعد أن فرغ من رحلاته استقر فى مدينة فاس حيث أمر سلطانها كاتبه ابن جزى أن يكتب مايمليه ابن بطوطة عليه حيث انتهى من تسجيل هذه الرحلات فى عام ١٣٥٦م ،والظروف التى تمت فيها تدوين رحلات ابن بطوطة

---

(١) العمرى: مسالك الأمصار فى ممالك الأمصار ، وتوجد مجلدات تحتاج إلى استكمال من هذا المصنف فى دار الكتب المصرية تحت رقم ٢٥٦٨ .

تجعلنا لا ننسى إذا ماقسونا فى حكمنا عليه واتهامه بالخيال أو عدم الدقة فيما كان يرويه أن كثيراً من اللوم الموجه إليه يمكن أن يكون ناشئاً عن ابن جزى فأغلب الظن أن ابن بطوطة لم يدون مذكرات منتظمة، وإن كان قد دون شيئاً فلاريب فى أنه قد أضاعه خلال تجواله[1] .

وتعنينا رحلات ابن بطوطة فى المناطق التى عرج فيها على أجزاء من القارة الأفريقية فهناك رحلة قام بها فى عام ١٣٣١م من زيلع إلى مقديشيو وممبسة وكلوة ولعله يكون أول المصنفين العرب الذين حدثونا بإفاضة عن الإمارات الإسلامية الهامة فى شرق إفريقيا . ورحلات ابن بطوطة على الرغم من عدم دقتها إلى أنه لاغنى عنها بالنظر لاحتوائها على بيانات وافية منها مايمكن الاعتماد عليه ، وقد أورد لنا بتفصيل ثلاث مراكز على الساحل الشرقى من إفريقيا هى مقديشيو وكلوة وممبسه ، ذكر عن الأولى أن المسافة بينها وبين زيلع خمسة عشر يوماً وهى مدينة متناهية فى الكبر أفاض فى الحديث عن نشاطها التجارى وأكد اتصالها اقتصادياً بمصر إذ تصنع فيها الثياب الرفيعة المنسوبة إليها والتى لانظير لها ومنها تحمل إلى ديار مصر وغيرها كما ذكر أن القاضى الذى استضافه فى منزله أثناء إقامته بمقديشيو يدعى ابن البرهان ، قال عنه إنه مصرى الأصل ، ويظهر من روايات ابن بطوطة مدى تحضر مقديشيو وأن سلطانها يجيد العربية وإن كان يتكلم (المقديشية) ويظهر من وصفه لمقديشيو أنها قد وصلت إلى درجة كبيرة من التطور وأصبح لها أنظمة وتقاليد خاصة بها، ويتضح لنا ذلك فيما أورده من التقاليد المتبعة فى جلوس السلطان على العرش ومايحيط به من أمراء ووزراء ووجوه القادة كل حسب مرتبته وأن الأطبال والأنفار والأبواق كانت تضرب عند جلوسه . كما يتحدث ابن بطوطة عن جلوس الفقهاء وذوى الرأى وكيفية

---

(١) راجع مادة ابن بطوطه فى دائرة المعارف الإسلامية .

نظرهم فى شكاوى الناس وتطبيقهم للشريعة الإسلامية ، ثم يمضى فى وصف الحياة الاقتصادية ومدى ماوصلت إليه السلطنة من اتساع فى النفوذ ونمو مطرد فى التجارة . كذلك حدثنا ابن بطوطة عن مدينة ممبسه وإن كانت المدة التى قضاها بها وهى ليلة واحدة لم تكن كافية بطبيعة الحال للتعرف عليها تماما أو الاطناب فى وصفها فلم يذكر عنها سوى أنها شافعية المذهب مساجدها مبنية من الخشب . أما عن كاوة ، وذكرها بضم الكاف ؛ فى حين ذكرها ياقوت بكسر الكاف ـ والأرجح أن تكون تسمية ياقوت هى الأصح لأن الجزيرة تشبه كلوة الإنسان [1] ـ فقد وصفها بأنها مدينة ساحلية عظيمة أكثر أهلها من الزنوج ، وهى من أحسن المدن وأتقنها عمارة وكلها مبنية من الخشب وأهلها أهل جهاد لأنهم فى بر واحد متصل مع كفار الزنوج، ولكنه أشار إلى إسلام كثير من الزنوج وأن هؤلاء يغلب عليهم الدين والصلاح وينتمون إلى المذهب الشافعى .

كما تحدث ابن بطوطة عن سلطان كلوة ، ويفهم من حديثه أن السلطنة كانت متصلة ببعض البلدان الإسلامية كالعراق والحجاز ، ويظهر ذلك من حديثه عن السلطان أبو المظفر حسن وكان يكنى بأبى المواهب لكثرة مواهبه وكرمه ، وقد ذكر عنه أنه كان كثير الغزوات على أرض الزنوج الكفار يغير عليهم ويأخذ منهم الغنائم حيث يخرج منها ويصرفه فى الأوجه المعينة فى كتاب الله ويجعل نصيب ذوى القربى فى خزانة على حده فإذا جاءه الشرفاء دفعه إليهم، وكان الشرفاء يقصدونه من العراق والحجاز وسواها وذكر ابن بطوطة عن امتداد نفوذ كلوة إلى ممبسة إثر مصاهرة تمت بين البيتين الحاكمين فى كل من كلوة وممبسة ، وعلى الرغم من أنه وصف كلوة بطريقة لم يسبقه إليها أحد من قبله فإن مايدعو للأسف أنه لم يتوسع فى الحديث

---

(١) Freeman. Grenville, op. cit. p. 47.

عن علاقات سلطنة كلوة من الناحيتين السياسية والتجارية بغيرها من المناطق خاصة وأنها كانت فى زمنه أهم مركز اسلامى فى ساحل شرق إفريقيا، وكانت حركة الاستيطان العربى والإسلامى بالغة أقصى حد لها من القوة والاتساع ولا شك أنه كان فى استطاعته أن يوافينا ببيانات أكثر مما ذكره ولكنه لم يذكر سوى القليل مع أنه أقام بالمدينة فترة كانت كافية للتعرف عليها تعرفاً تاماً (١) .

ومما هو جدير بالذكر أن الزمن الذى وصل فيه ابن بطوطة إلى ساحل شرق افريقيا ، وهو نهاية الثلث الأول من القرن الرابع عشر الميلادى، كانت معظم مناطق الساحل تنتمى إلى العرب حين جاءت موجة كبيرة من مهاجريهم فى خلال النصف الثانى من القرن الثالث عشر الميلادى على أثر اجتياح المغول دار الإسلام حتى الفرات ، ولحق أولئك المهاجرون ببنى جلدتهم الذين سبقوهم فى هجرتهم إلى ساحل شرق أفريقيا ، وقد جاء المهاجرون الجدد بدماء دافقة ظهرت أثارها فى عماراتهم الزاهرة وأسواقهم الباهرة التى فتنت ابن بطوطة حين جاء الإقليم ، واستطاعت هذه المجتمعات بعد أن تنوعت مصادر ثرواتها ان تصل إلى درجه من الازدهار تقترب من الخيال من حيث الغنى والترف والرفاهية ، ويظهر ذلك من وصف من ابن بطوطة لمدن الساحل الشرقى لإفريقيا . وعلى الرغم من أنه كان على معرفة وثيقة بالمجتمعات المتحضرة فى البلدان الواقعة فى قلب العالم الإسلامى إلا أنه قد تعجب للثراء الكبير والحياة الرغدة التى رآها فى شرق إفريقيا ؛ فحديثه عن مدينة كلوة يوحى بأنها كانت من أجمل بقاع الأرض وأكثرها رونقاً وبهاءاً ، وكذلك أيضا

---

(١) ابن بطوطه : تحفة النظار فى عجائب الأسفار وغرائب الأمصار جـ١، ذكر سلطان مقديشيو وكلوه .

حديثه عن ممبسه ومقديشيو ، حيث أعطى صوراً حية ناطقة لمجتمعات غنية ومترفة(١) .

ولابن بطوطة رحلات أخرى فى السودان الغربى حيث سافر إلى بعض هذه الممالك موفداً من قبل أبى عنان سلطان فاس فى مهمة لا نعرف تفاصيلها، ووافقت زيارته إلى مالى عهد سليمان أخو منسا موسى سلطان مالى الشهير ، وقد بدأت رحلته من سجلماسة حيث انضم إلى جماعة من التجار إذ كانت العلاقات التجارية متصلة ودائمة بين بلدان المغرب العربى وأقاليم السودان الغربى ، وقد بدأت القافلة رحلتها عبر الصحراء الكبرى فى عام ١٠٥٢ م ووصف ابن بطوطة الطريق التى سلكتها فذكر الشيء الكثير عن قافلة التكاشيف التى كانت عادة تتقدم القافلة التجارية لتذيع نبأ قدومها لكى يبعث إليها بالمياه ، وإذا لم تصل قافلة التكاشيف فإن قافلة التجارة تكون معرضة برمتها للموت عطشا فى الصحراء ، وكان يدفع للكاشف مائة مثقال من الذهب . وقد أورد لنا الحسن الوزان (ليو الأفريقى) فيما بعد (فى أوائل القرن السادس عشر الميلادى) أخباراً عن قافلة ضلت طريقها وأنقذت بكاشف أعمى ! . وقد وصلت القافلة التى كان يصحبها ابن بطوطة بعد خمسة وعشرين يوما إلى مدينة تفازى حيث كان يستخرج الملح ولاحظ ابن بطوطة أن الزنوج فى غرب إفريقيا يتعاملون بالملح كما يتعامل غيرهم بالذهب والفضة ، ومن تفازى وصلت القافلة إلى تاسرهلا ، وتحدث رحالتنا عن شدة الحرارة فى الصحراء فذكر أن القافله كانت ترحل بعد صلاة العصر وتسير فى الليل وتتوقف عند الصباح وأخيراً وصلت القافلة إلى أيوالاتن بعد سفر

---

(١) حسن أحمد محمود : انتشار الاسلام والثقافة العربية فى إفريقيا ، القاهرة ١٩٥٨ انظر أيضاً — جيان : وثائق تاريخية وجغرافية وتجارية عن شرق إفريقيا ، ص ١٩٥ .

شهرين كاملين ، وذكر عن أيوالاتن أنها أول أقاليم مملكة السودان وأقصاها شمالا ، وثياب أهلها مصنوعة من المنسوجات المصرية ، وأعجب ابن بطوطة بنساء هذه المدينة فذكر بأنهن جميلات أعظم شأنا من الرجال وإن كان قد تعجب من اختلاط الجنسين بشكل ينافى ما عرفه فى بلاده .

ثم غادر ابن بطوطة أيوالاتن ميمما شطر مالى الواقعة جنوبها على مسيرة أربعة وعشرين يوما ووصل إلى مدينة كارسخو على نهر النيجر وظنه نهر النيل فذكر انه ينحدر من كارسخو إلى بلدة كابر فبلدة زاغة ثم إلى تنبكتو . وكان ابن بطوطة يعتقد أن نهر النيجر، وذكره النيل ، كما أشرنا ، ينحدر من تنبكتو إلى بلدة كوكو ثم إلى مولى فبلدة يوفى ثم ينحدر منها إلى بلاد النوبة ودنقلة [١] .

ولعل وجود بحر الغزال كان سببا فى هذا الخطأ الذى وقع فيه ابن بطوطة وقد كتب بصدد ذلك يقول « ثم صرنا من زاغرى فوصلنا إلى النهر الأعظم وهو النيل وعليه بلدة كارسخو والنيل ينحدر منها إلى كابرة ثم إلى زاغة ثم ينحدر النيل من زاغة إلى تنبكتو ثم كوكو » . وأخيرا وصل ابن بطوطة إلى مالى حاضرة مملكة السودان وقابل سلطانها منسى سليمان ، وقد ذمه فى بداية الأمر لأنه لم يغدق عليه العطاء ثم مدحه عندما أعطاه .

وذكر ابن بطوطة الكثير عن أحوال مالى وعادات أهلها وتقاليدهم وثقافتهم ونتاجهم الزراعى ، وكان مما ذكره أن من عادات أولى الأمر فيها أن يمنعوا الناس من دخولها إلا بالاذن ، وكان ابن بطوطة قد عرف ذلك قبل رحلته إليها فكتب إلى رؤساء الجالية العربية فيها فحصلوا له على ذلك الاذن واستأجروا له داراً يقيم فيها ، وكان من بين أولئك الرؤساء تاجر مصرى ، وفيما يبدو أنه كان يوجد فى مالى جالية مصرية بارزة ، فقد أشار

---

(١) رحلة ابن بطوطه جـ ٢ ص ٣ — القاهرة ١٩٣٣ .

ابن بطوطة إلى مرض أصيب به ، وكان علاجه على يد أحد أطباء تلك الجالية كما تحدث عن أحوال السكان وعاداتهم .

ولا شك أن مذكرات ابن بطوطة عن غرب السودان تضفي ضوءاً كبيرا على الاقليم وبعض هذه المذكرات فيها الشيء الكثير من المتعة ، فمن الطريف أنه كان يعنى في كثير من الأحيان بذكر النساء فقد وصف نساء أبوالاتن بأنهن أتم النساء جمالا وأبدعهن صورة ولم يكن ابن بطوطة ممن يضفي الأوصاف على النساء دون حساب فليس من شك في أنه شهد الكثيرات منهن في رحلاته المختلفة وقد ذكر عن المرأة في غرب السودان بأنها أعظم شأنا من الرجل في بعض المناطق التي ارتحل إليها ويفهم من كتاباته أن الإسلام اتخذ لونا محليا صرفا ، كما تميز في نواح كثيرة بما يتصل بالحياة في أقاليم السودان من خلق وعادات ومثل اجتماعية، ومما أثار دهشة ابن بطوطة أو سروره فيما يبدو أن النساء كن يحتفظن بأصدقاء من الرجال وكذلك كان يفعل الرجال لكل منهم صديقة أو رفيقة .

وقد تحدث عن مشهد رآه حينما دخل يوماً منزل القاضي بعد أن استأذنه فإذا به في رفقـــة إمرأة حسناء فالتفت يريد أن يذهب من حيث جاء فصاح القاضي وطلب منه أن يدخل فهي رفيقته ! ويعجب ابن بطوطة بأنه لم يكن قاضياً فحسب وإنما كان فقيهاً يلجأ إليه الناس لحل مشاكلهم والتفقه في شئون دينهم وكان حاجاً فوجد هذا كله ! وقد خلفَ ابن بطوطة عن مملكة مالي الكثير من الوصف المفصل فقد ذكر عن الزنج في المملكة أنهم أقل من أن يظلموا يمقتون الظلم كما لا يمقته شعب وسلطانهم لا يسامح أحداً في شيء منه، كما تحدث عن الأمن وشموله في بلادهم بحيث لا يخاف المسافر فيها ولا المقيم من سارق أو غاصب، كذلك لا يتعرضون لمال من يموت ببلادهم من البيضان ( ويعني العرب ) ولو كان القناطير المقنطرة ! إنما يتركونه بيد ثقة حتى يأخذه مستحقه . كما أشاد ابن بطوطة بمدينة جني التي عدها أعظم

مدن السودان الغربي من حيث الغنى والثروة . وقد غادر ابن بطوطة مالى إلى تنبكتو ومنها إلى تكدا شرقاً وكانت آخر مدينة رحل إليها من بلاد السودان الغربى إذ جاءه أمر من السلطان يطلب منه الرجوع إلى فاس . وقد ذكر المستشرق شتبون أن المعلومات التى أوردها ابن بطوطة عن غرب إفريقيا لاتقل فائدة عن المعلومات التى أتى بها ليو الأفريقى فى القرن السادس عشر، حقيقة أن رحلات ابن بطوطة شغلت الأذهان وتضاربت الأقوال بشأنها فالبعض رماها بالكذب والتهويل من ذلك ابن خلدون الذى ذكر فى مقدمته أن ابن بطوطة كان يروى حكايات غريبة يتناجى الناس بتكذيبها ولكن مما لاشك فيه أن هذه الرحلات على مافيها قد أفادت علم الجغرافيا والتاريخ والاجتماع ، كما يرجع إليها الفضل فى إمدادنا بمعلومات وافرة عن الأجزاء التى ارتحل إليها ابن بطوطة فى قارة إفريقيا .

وفى نهاية القرن الرابع عشر الميلادى يطالعنا أبو المحاسن ابن تغرى بردى فى مصنفه المعروف المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى، وقد نقل عنه المقريزى ترجمة لأحد قضاة مدينة لامو فى شرق إفريقيا التقى به فى مكة، وذكر عن لامو أنها بلدة من بلاد الزنج على مقربة من مقديشيو، ويمكن استنتاجاً من كتابات ابن تغرى بردى والمقريزى أن مدينة لامو كانت موجودة فى عام ١٣٨٣م[١] ولابد أنها قد تأسست فى عهد أقدم من ذلك لأنه كان بها فى ذلك العام سكان مسلمون كما كان فيهم قاضياً عالماً بالشرع الإسلامى .

وفى السنوات الأخيرة من القرن الرابع عشر الميلادى يطالعنا عبد الرحمن ابن خلدون الذى أورد لنا حقائق هامة عن السودان الغربى وعلى معلومات دقيقة عن قبائل الطوارق والعرب والبربر فى تاريخهم المبكر . وقد ذكر ابن خلدون مدينة تاكدا أهم مدينة فى سلطنة مالى باعتبارها مركزاً هاماً

---

(١) نقلا عن جيان ج ١ ص ص ٢٩٩ — ٢٣٣ .

لخط سير القوافل التى كانت تعبرها سنوياً فى طريقها إلى القاهرة مما يوضح الاتصالات التجارية التى كانت قائمة بين مصر ومالى .

وفى أوائل القرن الخامس عشر وضع القلقشندى موسوعته الضخمة صبح الأعشى فى صناعة الإنشا، وفى الجزء الخامس من تلك الموسوعة تحدث القلقشندى عن الممالك الإسلامية فى إفريقيا وخص بالذكر مملكة مالى التى اعتبرها المملكة الخامسة من ممالك الجهة الجنوبية فى مملكة الديار المصرية، وقسمها إلى خمسة أقاليم الإقليم الأول مالى والثانى صوصو والثالث غانا والرابع كوكو والخامس بلاد التكرور الواقعة إلى الشرق من كوكو وتليها من جهة الغرب مملكة برنو مع ملاحظة أن المادة التى اعتمد عليها القلقشندى قد استقاها عمن سبقه من المصنفين إذ نقل كثيراً عن ابن سعيد وأبى الفدا، كما وضح اعتماده على العمرى ، وعلى أية حال فإن قيمة ماذكره القلقشندى أنه جمع لنا فيه الكثير من نصوص المؤلفات التى لم تصل إلينا ، كما أمدنا بصورة جلية لمجتمع مالى ، وأورد ثبتاً لحكامها قبل وبعد اعتناقهم للدين الإسلامى، كما أوضح عمق الصلات التى كانت تربط كثير من ممالك السودان الغربى بمصر[١] .

ومنذ النصف الأول من القرن الخامس عشر تجدب المصنفات العربية العامة التى تعرضت لافريقيا ، وكما وضح لنا أن هذه المصنَّفات قد أمدتنا بمعلومات عن بعض أجزاء القارة الأفريقية منذ القرن الثامن حتى القرن الخامس عشر الميلادى ، وهى الفترة التى يمكن أن نسميها بالعهد الإسلامى الذى كان المسلمون فى خلاله على اتصال دون غيرهم بتلك المناطق التى كان لهم فيها النفوذ والسيادة عليها والسيطرة على تجارتها .

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى فى صناعة الانشا جـ ٥ ص ص ٢٨٤ — ٣٠١

وفى الوقت الذى بدأت فيه المصنفات العربية فى التلاشى تبدأ المصادر البرتغالية فى الظهور وأهمها ، ما كتبه الرحالة البرتغاليون من رواد حركة الاستكشافات البحرية من أمثال فاسكو دى جاما Vasco de Gama وكاستنهيدا Castenheida وجويز وباربوسا Barbosa وغيرهم كثيرون ، ثم تتوالى بعد ذلك المصادر الأوربية عن إفريقيا خاصة سجلات الرواد الأوربيين الذين توغلوا فى القارة الأفريقية خلال القرن التاسع عشر .

والجدير بالذكر أن بعض الكتاب الأوربيين تعمدوا فى قليل أو كثير تجاهل المؤثرات العربية ومنهم من حاول النيل من الحضارة الإسلامية فى إفريقيا ، ونسبة كشف إفريقيا وإدخال الحضارة فيها إلى أوربا وهذه نظرة قاصرة لأن أوربا نفسها لم تصل إلى كشف مجاهل القارة الإفريقية إلا بفضل اعتمادها على المصنفات العربية ، والكثير من هذه المصنفات ترجم إلى اللغات الأوربية المختلفة . وقد أشاد كثيرون من رواد حركة الكشف والارتياد الأوربى بالدور الذى قام به العرب فى التعرف على أجزاء من القارة الإفريقية وسبقهم فى ذلك بل إن كثيراً من الرحالة الأوربيين قرأوا بإمعان ما كتبه العرب عن المناطق التى ارتادوها كما أن هناك من المستشرقين من اهتم بإبراز فضل المدونات العربية فى تعريف أوربا بالقارة الإفريقية . وقد أدرك الباحثون الأوربيون منذ وطد الاستعمار الأوربى أقدامه فى إفريقيا أهمية التراث العربى الإفريقى فنقلوا الكثير من المخطوطات العربية إلى مكتبات بلادهم كالمتحف البريطانى بلندن Britishm Museum Library والمكتبة الوطنية بباريس Bibliotheque Nationale وغيرها وقد دأبوا على ترجمتها إلى لغاتهم ، كما نشطت الجمعيات والمعاهد المعنية بالدراسات الإفريقية وأسهمت فى نشر وطبع الكثير منها . كما تهتم الجامعات الإفريقية فى الوقت الحاضر بجمع التراث الأفريقى حيث تنهض جامعات غانة ونيجيريا وغينيا والسنغال بجمع وتصنيف ما فى حوزتها من مخطوطات عربية وقد صدر فى السنوات

الأخيرة ثبت عام المخطوطات العربية الموجودة فى مكتبتى لاجوس ولوجارد فى كادونا بنيجيريا[١] . كما نهضت جامعة إبادان بالتعريف بالمخطوطات المحلية التى فى حوزتها[٢] ، وفى شرق إفريقيا توجد الكثير من المخطوطات العربية والسواحلية ولاشك أننا أشد ما نكون احتيـــاجاً لدراسة هذه المخطوطات واستخلاص المادة التاريخية منها لما قد تقدمه من بعض الجوانب الهامة ، وتجدر الإشارة بصدد ذلك إلى دور جرنفيل فريمان أحد المعنيين بتاريخ شرق إفريقيا قبل العصر البرتغالى كذلك ينبغى أن ننوه بالجهود التى بذلها كل من ستيجاند Stigand وبرنس Prins وهتشنز Hichens فى دراسة الروايات السواحلية وإحرازهم نجاحاً فى العثور على بعض المدونات العربية والسواحلية كتاريخ لامو بات استخلصوا منها مادة ذات أهمية كبيرة فى تطور الإمارات العربية والإسلامية فى شرق إفريقيا[٣] خاصة تاريخ الأسرة النبهانية فى جزيرة بات وجزيرة لامو لشيبو فرج بن أحمد الباقرى وهى مخطوطة سواحلية حققها هتشنز وأشار إليها فى كتابه الإسلام فى شرق إفريقيا Islam in East Afriea ، هذا إلى جانب دراسة جرنفيل فريمان عن كتاب سنة الكلاوية ومختصره السلوة فى تاريخ كلوة .

---

(١) Aida Arif and Abu Hakima, Descriptive Catalogue of the Arabic Manuscripts in Nigeria Luzac - London 1965.

(٢) Kensdale, W. E. N. A catalogue of the Arabic Manuscipts Preserved in the University Library Ibadan 1955 — 1958.

(٣) انظر فى ذلك :

Prins A., The Swahili Speaking Peoples of Zanzibar and the East Afriean Coast ( Arab. - Shiraz and Swahili ) London 1961 see also A. Warner, A swahili History of Pate, Stigand, in the Land of Zinj London 1913 and Freeman frenville, The East African Coast, Selected documents From the First to the Earlier 19 th Century London 1962.

وليس من شك فى أن تاريخ العرب فى إفريقيا يعد من الصفحات المجيدة فى التاريخ الأفريقى، نرجو أن تتاح الظروف للدارسين العرب لاقتفار أثاره قبل أن تضيع المدونات العربية أو يقتصر الدارسون على المصادر الأوربية وحدها، فإن معظم هذه المصادر كتبت بالنظرة الأوربية وكان صعباً عليها أن ترى حسنه من حسنات العرب[1].

---

(١) انظر دراستنا عن المصادر العربية لتاريخ شرق إفريقيا — العـدد ١٤ من مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ص ٣٣٦.

# الفصل الثانى

## العرب فى شرق إفريقيا
## حتى تأسيس سلطنة زنجبار

## العرب فى شرق إفريقيا

### حتى تأسيس سلطنة زنجبار

سنعنى فى هذا الفصل بتتبع علاقة العرب بشرق إفريقيا حتى قيام السلطنة العربية فى زنجبار فى أوائل العقد الرابع من القرن التاسع عشر الميلادى . إذ من المؤكد أن هذه السلطنة لم تقم فجأة ، وإنما كان قيامها تتويجاً لمراحل متعددة مر بها تاريخ العرب فى شرق إفريقيا، ومهد لظهورها رواد كثيرون من العرب وصلوا المنطقة منذ أزمنة بعيدة وأسسوا المراكز التجارية والإمارات العربية الإسلامية إلى أن جاء دور السلطنة العربية فى توحيد تلك الكيانات الصغيرة المفككة تحت لوائها .

وقد ظهرت المؤثرات الإسلامية والعربية فى تلك المنطقة من ساحل شرق إفريقيا الممتدة من رأس جردفون شمالا إلى خليج دلجادو جنوباً ، والتى أطلق العرب عليها ساحل الزنج أو زنجبار من الفارسية بار بمعنى الساحل ، حيث كان التجار من جنوب الجزيرة العربية وسواحل الخليج العربى أقدم من وطئها ،وكان قدومهم إليها للتجارة حيناً أو الاستيطان حيناً آخر . وعلى الرغم من أنهم كانوا قلة من الناس يأتون فى فترات محددة إلا أنه بمضى الزمن بدأ اختلاطهم يشتد بالسكان فتزاوجوا من نساء القبائل وأقاموا عدة مراكز تجارية على الساحل للاشتغال بتجارة الذهب والعاج والرقيق(١). على أن ما يلاحظ أن القبائل الأفريقية لم تتمكن من أن تستوعب أو تذيب الوافدين عليها لأن مورد العرب كان منهلا لا يكاد ينقطع وترتب على ذلك

---

(١) Ingrams, H, Arabia and the Isles p. 3.

أن احتفظ هؤلاء النازحون إلى حد كبير بسماتهم المميزة ، وإن كان قد تمى من هذا الوضع المتحرك الناتج عن تعدد الثقافات والعناصر التى كانت تفد من الهند وفارس وجزر الشرق الأقصى بالإضافة إلى الجزيرة العربية والخليج ؛ الثقافة واللغة السواحلية ،وهذه وتلك لاشك فى أنها كانت المزيج المركب الذى نماه الساحل الشرقى لأفريقيا من ثقافات متعددة ولغات متباينة وفدت عليه .

ومن المؤكد أن العرب كان لهم تأثيرهم الواضح فى ساحل شرق إفريقيا يدل على ذلك أن الإغريق والرومان أطلقوا عليه اسم عزانيا Azania نسبة إلى احدى الممالك العربية القديمة وهى مملكة عزان التى يقال أنها وجدت فى فى منطقة مامن جنوب الجزيرة العربية فى فترة سابقة على ظهور الإسلام لم تحدد تحديداً واضحا، وانتقل سكانها إلى شرق إفريقيا حيث نسب الإغريق والرومان هذا الساحل إليهم فيما بعد . ولكن مما هو جدير بالذكر أنه على الرغم من معرفة الإغريق والرومان بساحل شرق إفريقيا إلا أنهم لم يتصلوا به اتصال العرب ؛ ثم حدث أنه تعرض العزانيون لغزوات من الشمال وهجرات قبلية غيرت من معالم حضارتهم؛ خاصة حينما وفدت إلى الساحل قبائل الجالا والصومال والمساى وغيرهم من شعوب القرن الافريقى وأخضعوا المنطقة لنماذج حياتهم وأزالوا ماوجدوه من حضارة قائمة [(١)] ، ومع ذلك فقد ظل الاتصال التجارى ينمو ويتسع قبل الإسلام بين الجزيرة العربية وموانى الساحل الشرقى لأفريقيا ، وقد ساعدت العوامل الجغرافية على نشاط حركة الملاحة لأن الرياح الموسمية التى تهب على منطقة المحيط الهندى تمكن السفن الشراعية الصغيرة المعروفة باسم ال Dhow من القيام برحلتين منتظمتين فى السنة بأقل مجهود؛ ففى فصل الخريف تدفعها الريح فى اتجاه جنوبى غربى

---

(١) بازل دافيدسون : إفريقيا تحت أضواء جديدة ص ٣١ .

فتخرج من خليج عمان إلى المحيط الهندى ثم تسير بمحاذاة الساحل الافريقى الذى ينحنى فى اتجاه جنوبى غربى ، وفى فصل الربيع تدفعها فى اتجاه شمال شرقى يمكن السفن من العودة إلى قواعـــدها فى سواحل شبه الجزيرة العربية(١)، وفى خلال دورة الرياح هذه يتم التعامل التجارى ، وقد استفاد الهنود أيضا من تلك الرياح فوضح اتصالهم بالساحل الشرقى لافريقيا ووجدت لهم جاليات كثيرة على الساحل ، ومن المؤكد أيضا أن يكونوا قد نقلوا بعض أنواع المزروعات ولا سيما زراعة البلوط (٢) . وقد ظلت الرياح الموسمية تعد سراً من الأسرار التى احتفظ بها العرب والهنود إلى أن تمكن ملاح إغريقى ( ٤٥ م ) من كشف اتجاه هذه الرياح وكان من نتيجة ذلك ظهور بعض الكتب باللغتين اليونانية واللاتينية عن المحيط الهندى وموانئه وحركة التجارة فيه (٣) . ومن الملاحظ أيضا أن العرب لم يقتصروا بنشاطهم على الساحل الشرقى لافريقيا وإنما اندفعوا بفضل تلك الرياح إلى الشرق الأقصى حيث وجدت بعض المستوطنات العربية فى سواحل الهند والصين وجزر الشرق الأقصى، وكان لهم فضل نشر الإسلام بعد ظهوره إلى تلك البقاع (٤) .

ولا توجد لدينا حقائق ثابتة يمكن الاعتماد عليها خاصة بساحل شرق إفريقيا فى الفترة السابقة لظهور الإسلام إلا ما يتناقل من روايات محلية عن حركة التجارة وعادات الناس ومعيشتهم فى المنطقة ، ومن المحتمل أن تتضح

---

(١) Villier, Allen, The Arab Dhows Tade cf. Journal of the Middle East, October, 1954.

(٢) Coupland, East Africa and its Invaders p. 16 ff.

(٣) Zôe March, East Africa through Conteuporary Records p. 3, London, 1961.

(٤) cf. Sonia Cole, The Pre - History of East Africa Newyork, 1962.

See also, Schoff, The Periplus of the Erythrean Sea p. 92.

بعض هذه الحقائق على أثر نجاح بعثات الكشف والتنقيب التى بدأت تمارس نشاطها فى السنوات الأخيرة ، ومن المؤكد أن اطرادها سيعاون معاونة كبيرة على كشف جوانب الحياة من تاريخ الشرق الأفريقى القديم .

ولعل أقدم المصادر التى تحدثنا عن حالة العرب فى ساحل شرق إفريقيا كتابا وضعه أحد الملاحين الاغريق وقد عرف باسم الدليل الملاحى للبحر الارتيرى Periplus Maris Erythraei (١) . والبحر الأرتيرى كان يطلق على الجزء الغربى من المحيط الهندى وعلى وجه التحديد الجزء الملامس لسواحل شرق افريقيا (٢) ، ولهذا الكتاب ترجمة انجليزية نشرها Schoff بعنوان The Periplus of the Erythrean Sea والكتاب من المصادر الهامة فى موضوعه الفريد وقد كتب منذ أكثر من تسعة عشر قرنا ، وإن كان مؤلفه غير معروف لدينا غير أنه من المحتمل أن يكون أحد الأغارقه الذين عاشوا فى الاسكندرية فى القرن الأول الميلادى ( ٦٠ م ) . ويتضح من المادة التى جمعت فى هذا الكتاب أن واضعها لم يكن مجرد مجمع للحقائق بل من الثابت أنه سافر وارتحل وشاهد بنفسه تلك المناطق التى تحدث وكتب عنها . والكتاب يقع فى نحو ٧٥٠٠ كلمة تتناول شتى التعبيرات الملاحية التى كانت سائدة آنذاك وأسماء الموانى البرية التى اختفت الكثير من معالمها ، ولا تزال أجزاء كثيرة من الكتاب يكتنفها الغموض فضلا عن أن الأماكن التى ذكرت فى هذا الدليل لا نستطيع تبيان مواقعها فى الوقت الحاضر ، غير أنه من المنتظر بعد تقدم عمليات الاستكشافات الأثرية

---

(١) رجعنا إلى الترجمة الانجليزية لذلك الكتاب وهى الترجمة التى نشرها Schoff بعنوان :

Periplus of the Erythrean Sea.

(٢) Roland, Oliver, op. cit. p. 45.

فى المنطقة أن تحل الكثير من رموزه (١) . والجمل الواردة فى هذا الكتاب جملا قصيرة تجمع بين وصف الموانى وتاريخها ، ويبدو أن صاحب الكتاب كان تاجرا أو ربان سفينة فيما يرجح لأنه يظهر اهتماما بالغا بالتجارة وأحوالها فى كل ميناء يعرض له . وقد حفل الكتاب بوصف للساحل الشرقى لأفريقيا وهو الأمر الذى يعنينا خاصة وأنه يصف حالة العرب وتجارتهم فى المنطقة (٢) . فهو مثلا يعجب فى فقرات كثيرة لكثرة عدد السفن العربية وعن اختلاط العرب وتزاوجهم من القبائل الأفريقية ، كما يعرض لتعدد العناصر على الساحل وتطلعها إلى التعرف على اللغة العربية ومحاولة التحدث بها لما تتيحه لهم من آفاق واسعة فى التجارة والتعامل (٣).

وأهمية هذا الكتاب أنه أول مصدر أكد العلاقات التى كانت قائمة بين العرب من جنوب الجزيرة العربية والساحل الشرقى لأفريقيا ، فذكر أن بعض زعماء الساحل كانوا يدينون بالولاء لأمراء حمير فى جنوب الجزيرة، وأن السفن العربية كانت تأتى من جنوب الجزيرة العربية ومن بعض مناطق المحيط الهندى حيث تتبادل التجارة بينها وبين الساحل(٤)، وخلاصة القول أن هذا الكتاب قد أعطى معلومات عن التجارة وعن حالة شرق إفريقيا

---

(١) Chittick ( Neville ), Kilwa & The Arab Settlement of the African Coast - cf Journal of the African History IV. 2. 1963 p. 79 ff:

(٢) Ingrams, Arabia and the Isles p. 3.

(٣) Pearce, Zanzibar, The Island Metropolis of Eastern Africa p. 34 London 1920.

(٤) Chittick - Neville, Kilwa and Arab Settlement of the East African Coast, cf Joumal of the African History IV. pp. 79 ff.

والجزيرة العربية عموماً كما تعرض أيضاً لحركة التبادل التجارى التى كان يشترك فيها الهنود بنصيب وافٍ(١) .

ولدينا أيضاً ما ذكره المؤرخ الرومانى بلينيوس(٧٠ م) من أن التبابعة ملوك اليمن عرفوا مناطق كثيرة من الساحل الشرقى لأفريقيا وجزرها وكان لهم عليها شىء من السلطة ؛ إذ كانوا يتاجرون معها وقد حرموا العامة من الاتجار ببعض هذه الأصناف كالطيوب والأفاوية لكى تبقى احتكارا لهم(٢) .

والجدير بالذكر أن العرب اكتفوا فى الفترة السابقة لظهور الإسلام بالإستقرار المؤقت على الساحل ولم يحاولوا التوغل فى الداخل مكتفين بإنشاء المراكز التجارية لتصدير تراب الذهب والعاج والرقيق الذى كان يحمل إلى الدول القديمـــة التى كانت تلح فى طلبه وهى الامبراطوريتين الفارسية والرومانية ، وتعاونت القبائل الافريقية مع العرب فى هذه التجارة حيث كان الرؤساء وزعماء القبائل يأتون إلى الساحل بالذهب والعاج والرقيق فيقايضون التجار العرب المتعاملين معهم بمـا يحملونه ، وكانت البضائع الافريقية غالباً ما تستبقى فى المراكز التجارية التى أقامها العرب على الساحل إلى أن يحين موسم الرياح حيث يتم نقلها إلى الخليج العربى وسواحل الجزيرة العربية فى رحلة العودة ، وكان العرب يقايضون على ما يأخذونه بالخرز الذى كانوا يحصلون عليه من الهند ، ومما يؤكد ذلك كشف البعثات الأثرية عن كميات كبيرة منه فى بعض أطلال زيمبابوى ( كينيا )(٣) .

---

(١) Zöe March, op. cit. p. 5 ff

(٢) الرواد — نشر مجلة المقتطف ص ٨٤ .

(٣) Pearce, Zanzibar, The Island Metropolis of Eastern Africa p. 34 London 1920.

وقد اضطرد نشاط حركة التعامل التجارى فوصلت تجارة الذهب إلى درجة كبيرة من الانتعاش ، كما يؤخذ ذلك من التاريخ المحلى لسلطنة كلوة ، وشهدت الجزيرة العربية أعداداً وفيرة من الزنوج الذين جلبهم العرب من شرق إفريقيا واستخدموهم فى حراسة قوافلهم ، كما تزاوجوا منهم وتناسلوا ونشأ من نتيجة ذلك نسلا عرف بشجاعته وسواد بشرته .

وليست لدينا معلومات وافية عن حالة العرب فى ساحل شرق إفريقيا فى الفترة التالية لرحلة صاحب البريبلس وماذكره بلينيوس فى القرن الأول الميلادى حتى ظهور الإسلام فى القرن السابع الميلادى ، ولكن الأمر الذى لا شك فيه أن الصلات كانت قائمة لاتنقطع إلى أن بدأ الإسلام يحدث انقلاباً خطيراً فى حالة العرب بوجه عام وتاريخ الساحل الشرقى لإفريقيا بوجه خاص ، فقد لاحظنا أنه لم يكن للعرب قبل الإسلام اتصالات دائمة بشرق إفريقيا وإنما كانت الصلات تقتصر فقط على عمليات التبادل التجارى ومايتبع ذلك فى بعض الأحيان من استقرار مؤقت فى المراكز التجارية التى أقامها العرب لغرض التجارة ، على أن الأمور قد تغيرت تغيراً تاماً بظهور الإسلام إذ ظهر عامل آخر غير العامل التجارى نتج عنه محاولة العرب الاستقرار الدائم وإقامة كيانات سياسية عربية إسلامية ولذلك شهد الساحل الشرقى لإفريقيا قيام الكثير من الإمارات والمدن العربية الإسلامية وكثرة عدد العرب المهاجرين إلى الساحل واستقرارهم الدائم فيه[1]، ورغم ارتفاع درجة الحرارة ارتفاعاً كبيراً على الساحل فإن العرب لم يتأثروا بهذا المناخ لأنهم كانوا يأتون عادة من مناطق أشد حرارة وهى

---

(١) جمال زكريا قاسم : استقرار العرب فى ساحل شرق إفريقيا — بحث منشور فى حوليات كلية الآداب — جامعة عين شمس — العدد العاشر ١٩٦٦ .

جنوب الجزيرة العربية وسواحل عمان ولذلك لم يستطع الأوربيون الحلول محلهم فى استيطان الساحل اللهم إلا فى المنطقة الجنوبية البعيدة عن خط الاستواء نسبياً فى موزمبيق، أو عندما استطاع الإنجليز والألمان فى أوائل القرن العشرين التوغل فى جبال كينيا وتنجانيقا العالية(١) .

وقد حدث استيطان العرب فى ساحل شرق إفريقيا نتيجة دوافع متعددة لعل أبرزها المنازعات الدينية والسياسية التى أخذ يتعرض لها المسلمون خاصة فى عهد الدولتين الأموية والعباسية مما دفع العرب للهجرة إلى موانى شرق إفريقيا حيث كانوا قد ألفوا من قبل التبادل التجارى معها(٢) وتحدثنا بعض الروايات التاريخية أن كثيراً من أهالى عمان هاجروا إلى شرق إفريقيا هرباً من الحجاج، وفى القرن العاشر الميلادى كانت سفن سيراف وعمان فى تجارة منتظمة مع شرق إفريقيا . وعلى أى حال فقد كانت الجماعات العربية المهاجرة من سواحل الجزيرة العربيـة من الاحساء والبحرين وعمان وحضرموت واليمن تنقل معها صوراً من الحضارة العربية إلى إفريقيا وهى إنشاء المنازل والمدن(٣)، ومع ذلك فإن الساحل لم يصطبغ اصطباغاً تاماً بالصبغة العربية ويرجع ذلك نتيجة لاختلاف السكان وتباين أجناسهم وتعدد عناصرهم ، وإن كان قد ترتب على ظهور الإسـلام وهجرة المسلمين إلى شرق أفريقيا انتشار الدين الإسلامى . وينبغى أن نشير هنا إلى أنه كان للأحداث السياسية الخطيرة التى مر بها العالم الإسلامى تأثيرها البالغ فى هجرة المسلمين إلى شرق إفريقيا ومن ذلك سقوط الدولة العباسية على أيدى المغول أو غزو تيمورلنك لفارس ،إذ أدت هذه الأحداث إلى زيادة موجات

---

(١) صلاح العقاد وجمال زكريا قاسم : زنجبار ص ٥ ، القاهرة ١٩٦١ .

(٢) Zôe March, op. cit p. 6.

(٣) عبد الرحمن زكى : المسلمون فى شرق إفريقيا ص ٧ .

الهجرة العربية والإسلامية حتى أصبح ساحل شرق إفريقيا المنطقة المألوفة بالنسبة للمهاجرين المسلمين الذين طردوا أو أجبروا على الهجرة من موطنهم نتيجة الأزمات الدينية أو السياسية التي تعرضوا لها(١) .

وعلى أي حال فقد أحدث الإسلام أثره في ساحل شرق إفريقيا وأثرت التجارة العربية وما تلاها من استيطان عربي إسلامي على الساحل تأثيراً كبيراً فكثرت المنازل العربية من الجزيرة العربية ومن الخليج العربي ، ولعبت الحروب الأسرية والدينية في الدولة الإسلامية دوراً كبيراً في الإضافة لهـــذا الأثر وتحولت المراكز التجارية إلى إمارات عربية إسلامية يسكنها المهاجرون العرب . على أن من الملاحظ أن الثقافة واللغة التي انتشرت على أيدي هؤلاء لم تتعد الساحل والجزر القريبة منه إذ كان للبحارة العرب الوافدين من الخليج وسواحل الجزيرة العربية فضل كبير في نشر الإسلام في جزر القمر وجزر المحيط الهندي على الساحل الإفريقي كمدغشقر والجزر المجاورة لها والتي عرفت فيما بعد باسم ريونيون وموريس وسيشل ، بينما بقي الداخل إفريقيا صرفاً كما كان قبل قدوم تلك الهجرات ، فمن المعروف أن رؤساء القبائل الإفريقية هم الذين كانوا يقومون بالوساطة التجارية ولم يحدث تعمق العرب في الداخل إلا بعد إنشاء السلطنة العربية في زنجبار في عهد السيد سعيد بن سلطان(١٨٠٦ - ١٨٥٦)وفي عهد خلفائه من بعده،وبعد أن أمنت طرق القوافل وأسست المراكز والمحطات التجارية على طولها،وعلى ذلك نستطيع أن نقرر هنا تجاوزاً أن الدماء والحضارة العربية الإسلامية إلى ماقبل قيام سلطنة زنجبار لم تمتد أبعد من الساحل كثيرا . وقد نتج عن امتزاج العرب بالإفريقيين ظهور ثقافة مميزة المعالم أخذت من الشعبين بنصيب حيث استقرت السواحلية لغة قائمة بذاتها مزيجاً من الذي أتى به العرب والذي كان ملكا

---

(١) Pearce, op. cit. p. 34.

خالصاً للإفريقيين ، والكلمة نفسها تدل على ذلك فهى تنمى اللغة للساحل وإن كان هذا لاينفى وجود اللغة العربية كلغة قائمة بذاتهـــا باعتبارها لغة الارستقراطية الحاكمة وخاصة بعد استكملت السلطنة العربية مقومات وجودها فى زنجبار . واللغة السواحلية لغة مبسطة تعتمد فى معظم مفرداتها على لغات البانتو وإن كانت أسهل منها من حيث التركيب حيث بداخلها كثير من المفردات العربية لاسيما الألفاظ المستعملة فى الشئون التجارية ، ويقدر رويش Reush وهو أحد المتخصصين فى اللغة السواحلية وتاريخها نسبة المفردات العربية من الربع إلى الخمسين، وتكتب السواحلية بحروف عربية وأدبها متأثر بالأنواع الأدبية عند العرب، ولكن لم تتح لهذه اللغة فرصة التطور والنمو لأن اللغـة العربية ظلت هى اللغة الرسمية لإمارات الساحل وإن قيل أن دولة الزنج اتخذت السواحلية لغة خاصة بها .

وفيما يبدو أن عرب عمان هم الذين أسهموا بنصيب كبير فى الاتصال بالشرق الأفريقى عقب ظهور الإسلام فانعزال الإقليم جعله لايشارك فى حركة التوسع والفتوحات الإسلامية الكبرى التى شملت الشام ومصر والعراق وفارس هذا فضلا عن انصراف العمانيين فى منازعات داخلية بين القبائل الجنوبية والشمالية ففى عام ٦٩٥م قام العمانيون بزعامة سليمان وسعيد الجلنديين بثورة ضد الخليفة الأموى عبدالملك بن مروان (٦٨٤ — ٧٠٧م) ذلك أن عبد الملك اتبع سياسة قبلية فى شبه الجزيرة العربية فاستعان ببعض القبائل على البعض الآخر فاضطرت بعض القبائل المنهزمة إلى الهجرة خارج بلاد العرب ومن بينها قسم من قبيلة الأزد العمانية هاجر إلى ساحل شرق إفريقيا وذلك عقب فشل ثورة الأخوين وتصدى ولاة الحجاز من قبل الأمويين لها . ولا نعرف على وجه الدقة المكان اللذان استقرا فيه مع أتباعهما وإن كان من المحتمل أن يكونوا قد استقروا فى جزيرة مافيا ، وتبع هذه الهجرة الرائدة هجرات أخرى، واستقر العرب فى أماكن

متفرقة على الساحل(١) ، ولعب الحضارمة دوراً بارزاً فى عمليات الاتصال بالساحل وإن اقتصر نشاطهم على الناحية التجارية(٢) ، ولم يمنع ذلك عدداً كبيراً منهم فى استيطان الساحل حيث ارتبطت مصالحهم بالمنطقة ، وسيظهر ذلك بصفة خاصة إبان قيام سلطنة زنجبار إذ كان عرب الحضارمة يشكلون عنصراً أساسياً من العناصر التى انقسم إليها السكان العرب فى ساحل شرق أفريقيا(٣) .

ثم تعاقبت الهجرات العربية على شرق إفريقيا ففى عام ٧٤٠م وفدت هجرة زيدية من اليمن،وفى عام ٩٢٤م وصلت هجرة عربية أخرى من الأحساء حيث اختلطوا بالسكان الأصليين ، وكانت هذه الهجرة من قبيلة الحارث العربية التى ستظهر فى حوادث الشرق الأفريقى فيما بعد ، ويبدو أن هذه القبيلة عملت منذ ذلك الوقت على تدعيم سيطرتها فنجحت فى تأسيس عدة مدن فى شرق إفريقيا كمقديشيو وبراوه(٤) .

وليست لدينا مادة متوافرة عن تأسيس هذه المدن يمكن الاعتماد عليها ولكن لدينا ما تناقلته الروايات البرتغالية عن أصل تأسيس مدينة مقديشيو اعتماداً على روايات محلية ، وتقول الروايات البرتغالية أن جماعة كبيرة العدد من العرب أصلها من مدينة مجاورة للاحساء على الساحل الغربى للخليج على مقربة من البحرين نزلت فى ثلاثة سفن بقصد الهجرة بزعامة سبعة أخوة فروا من جور حاكم الإحساء ، وهبطت تلك الجماعة الساحل الشرقى

---

(١) توماس أرنولد : الدعوة إلى الاسلام ( مترجم ) ص ٣٧٨ .

(٢) Serjent, The Portuguse off the South Arabian Coast p. 9.

(٣) Strong, The History of Kilwa, p. 98 cf Righby Report on Zanzibar Dominions.

(٤) حسن ابراهيم حسن : انتشار الاسلام والعروبة فيما يلى الصحراء الكبرى غربى القارة الافريقية وشرقيها ص ١٢٧ .

لأفريقيا وكانت مقديشيو أول مدينة عربية تأسست فى هذا الساحل ثم تلتها براوة . وعندما وفد البرتغاليون إلى مقديشيو فى النصف الأول من القرن السادس عشر كان يحكمها اثنى عشر شيخا يبدو أنهم من سلالة السبعة أخوة الذين أسسوها. والجدير بالذكر أن العرب من سكان مقديشيو، الذين كانوا قد أقاموا فى المنطقة قبل مقدم تلك الهجرة أبوا الخضوع لهم ويبدو أن ذلك كان بسبب اختلاف المذهب بين السكان العرب فى مقديشيو وكانوا من الزيديين، وبين الوافدين الجدد، وكانوا من الشافعيين، ولما عجز الزيديون عن مقاومة خصومهم فى المذهب تركوا المدينة وتوغلوا من الساحل إلى الداخل وعلى مر السنين تم تزاوجهم مع القبائل الأفريقية الخالصة ومزجوا دمهم بدمائهم وتكون من هذا المزيج أمة خليطة من العرب والزنوج وقد عرف هؤلاء باسم الأموزيديج ، ويبدو أن هذه الكلمة تحريف سواحلى لكلمة الزيدية . واعتقادنا أن هؤلاء المخلطون هم من عناهم الرحالة البرتغاليون بالمورس Moros وذلك تمييزاً لهم عن الزنوج الخلص ، على أننا لا نعرف تاريخا لهذه الهجرة التى ترتب عليها تأسيس كل من مقديشيو وبراوة ، وإن كان من المحتمل فيما يرويه جيان نقلا عن عبدالمتعال الفارسى، فى كتابه تقويم البلدان، أن مقديشيو تأسست فى أوائل عهد الفاطميين بمصر الذين بدأوا حكمهم فى عام ٣٦٩ هـ .

ويعد تاريخ مدينة بات وتأسيسها من أغنى ما حفظته لنا الروايات المحلية السواحلية[١] . ومن المناسب أن نشير هنا إلى أن تاريخ المدينة قد تعرض له الكثير من الباحثين نخص منهم وارنر A Warner فى بحثه عن التاريخ السواحلى لمدينة بات[٢] A Swahili Hisrory of Pate ، كما توافر على

(١) cf. Journal of the African Society vol XIV, 1913.

(٢) A. Warner, A Swahili History of pate, Journal of East African Swahili Committee, London 1913 See also Prins, The Swahili Speaking Peoples of Zanzibar and the East Afraican Coast ( Arab - Shiraz and Swahili ) London, 1961.

جمع مادة هذا التاريخ التى استقيت من الروايات المحلية كل من A. H. Prins , C. H. Stigand ، وقد قام برنز بدراسة الروايات السواحلية المختلفة التى حصل عليها والمتعلقة بتاريخ المدينة وحاول أن يدرسها دراسة مقارنة وكان ثمرة جهده مقالة نشرها بعنوان On Swalihi Historiography[1] أما Stigand فقد وضع كتاباً بعنوان فى أراضى الزنج In the land of Zinj.

ودراسة ستيجاند يمكن الاعتماد عليها إلى حد كبير لأنه لم ينقل حرفياً ما توارد إليه من روايات محلية وإنما عنى بتحليلها وإزالة ما علق بها من خيال. حقيقة أن المرجع الأساسى الذى اعتمد عليه ستيجاند، كما اعتمد عليه غيره، هو أحد المعمرين من أعضاء الأسرة النبهانية لكن ستيجاند لم يأخذ الروايات على علاتها خاصة وأن هذا المعمر ويدعى بوانا كيتينى Bwana Kitini قد تخصص فى بيع الروايات الخاصة بالأسرة النبهانية . ويستفاد من التاريخ الذى ذكر عن مدينة بات أن الأصل فى تأسيسها يرجع إلى حكم عبد الملك بن مروان الذى شهد عهده تأسيس العرب لعدة مدن على الساحل الشرقى لأفريقيا كالينده وزنجبار وممبسه ولامو وكلوه وبات، وعندما سقطت الدولة الأموية وقامت الدولة العباسية اعتمد الخليفة هارون الرشيد على ما كان للدولة الأموية من ممتلكات فى شرق إفريقيا فعزم على تدعيمها ومن أجل ذلك شجع الكثير من العناصر وخاصة من الفرس على الإقامة فى تلك المراكز الإسلامية، على أنه فى عام ٦٠١ هـ قدمت هجرة عربية كبيرة من إقليم عمان تزعمها الملوك النبهانيون بعد انهيار دولتهم فغادروا عمان إلى جزيرة بات التى وجدوا فيها خليطاً من العرب والفرس الذين كانوا قد سبقوهم إلى الإقامة فى الجزيرة، ولكن نظراً للشخصية التى كان يتمتع بها الملك النبهانى الذى كان ملكاً على عمان فقد استقبله العرب، وكان معظمهم من إقليم عمان استقبالاً طيباً ، وكان أول ما فعله الملك النبهانى أنه تزوج من إبنة حاكم الجزيرة السواحلى المدعو إسحق الذى تنازل لابنته ولصهره عن حكم الجزيرة وبذلك تبدأ الأسرة

النبهانية فى جزيرة بات[١]، ومن السهولة أن نحدد بدايتها بأنها كانت فى السنوات القليلة التى تلت سقوط الأسرة النبهانية فى عمان ، وإذا كنا نعرف أن هذه الأسرة سقطت فى عمان سنة ٦٠١ هـ فمن المحتمل كثيراً أن تكون الأسرة النبهانية قامت فى بات بعد ذلك بسنة أو بسنتين على الأكثر وبمعنى آخر أن هـــذه الأسرة لجأت إلى ساحل شرق إفريقيا لتبدأ دوراً ثانياً من حكمها الطويل الذى مر بمراحل متتالية من القوة والضعف حتى انتهت بخضوعها للسلطنة العربية فى زنجبار .

وعلى الرغم مما تعرضت له الأسرة النبهانية من صراع أسرى حول السلطة إلا إنها استطاعت أن تحقق انتعاشاً كبيراً فى الساحل الشرقى لأفريقيا وأصبحت جزيرة بات مركزاً للسلطنة النبهانية التى شملت بالإضافة إلى الجزيرة عدة موانى هامة على الساحل الأفريقى ، وتلقب الملوك النبهانيون بلقب « بوانافومادى » وهو لقب سواحلى تقليدى فيما يبدو . وقد بلغت السلطنة النبهانية شأناً كبيراً فى بعض فترات من تاريخها ففى القرن الثالث عشر الميلادى كانت تضم إليها قسمايو وبراوة ومقديشيو وكان ذلك على عهد الملك محمد شانجا كذلك امتدت فى عهد أبنائه إلى مالينده وكلوه وممبسه ، وهكذا استطاعت هذه الأسرة العربية أن تخضع معظم الساحل الشرقى تحت لوائها .

---

(١) أورد جيان تفصيلا لهذه الهجرات المتعاقبة وما كان يتبعها من تأسيس المدن فى ساحل شرق أفريقيا ويمكن الرجوع أيضاً إلى :

Lyndon, Swahili Poetry p. 50.

وكذلك :

Freeman - Grenville, Select documents on East Africa p. 34 ff.

(٢) Freeman - Grenville, op. cit. pp. 241 — 242.

وفى عهد ازدهار سلطنة بات نشطت الحركة التجارية فى الشرق الأفريقى وتوافد على الساحل التجار العرب والهنود ، كما أدخلت الزراعة فى بقاع كثيرة، وترتب على وجود البرتغاليين فى شرق إفريقيا أن وجدت علاقة بينهم وبين بعض الموانى الخاضعة للنبهانيين . وقد اتخذ البرتغاليون من أساليب إثارة الخلافات والعداوات بين حكام الساحل وسيلة لخضوع الساحل إليهم، ونجح البرتغاليون فى تشييد قلعة عسكرية فى ميناء ممبسة اعتبرت من أشهر وأقوى قلاعهم وعرفت باسم قلعة المسيح لا تزال أطلالها باقية فى ممبسة حتى يومنا هذا . وكان البرتغاليون يعينون على هذه القلعة الحكام الموالين لهم ، وقد مضوا فى إثارة النزاع بين مختلف حكام الموانى حتى وصل الأمر إلى أنهم كانوا يعينون الحكام من السواحلية والعرب وعزل الحكام المناوئين لهم . وتعرضت جزيرة بات، كما تعرضت بقية الموانى والإمارات الإسلامية فى شرق إفريقيا لخطر البرتغاليين ولذلك كان من الطبيعى أن تساند بات حركة التحرر التى قادتها الإمامة اليعروبية فى عمان لتخليص الشرق الأفريقى من أيدى البرتغاليين، وطبقاً لما يذكره الأخبارى السواحلى بوانا كيتينى أن سلطان بات محمد الرابع بعث إلى شيوخ حضرموت يستنجد بهم ضد البرتغاليين وكان ذلك فى عام ١٥٧٤ ولكن الثابت لدينا أن استنجاد سلطان بات كان بالأئمة اليعاربة وليس بشيوخ حضرموت وأن الاستنجاد حدث فى فترة متأخرة عما يذكره المؤرخ السواحلى كما سنشير إلى ذلك فيما بعد .

ولدينا روايات أخرى عن هجرة شيرازيه فارسية وفدت إلى ساحل شرق إفريقية حول النصف الثانى من القرن العاشر الميلادى . أمكن استخلاصها من مخطوطة عربية معاصرة للغزو البرتغالى لشرق إفريقيا ولكنها فقدت ولم تصل إلينا إلا مقتطفات منها كتبت فى عام ١٨٧٧ وقدمها السيد برغش بن سعيد سلطان زنجبار هدية إلى السيرجون كيرك John Kirk القنصل البريطانى العام فى زنجبار، وهذه المخطوطة تشتمل على سبعة عشر ورقة فقط

مكتوبة بخط منسق واضح وإن كان بها الكثير من الأخطاء اللغوية ، وقد أهدى كيرك بدوره هذه المخطوطة التي اعتبرت فريدة في نوعها إلى المتحف البريطاني بلندن حيث حملت رقم ٢٦٦٦، وتشتمل على حوادث من وصول فرس شيراز إلى ساحل شرق إفريقيا في القرن العاشر الميلادي حتى الغزو البرتغالي لكلوة في أوائل القرن السادس عشر الميلادي ، وقد نسخت هذه المخطوطة نقلا عن أوراق الشيخ محي الدين الزنجباري قاضي زنجبار في عام ١٨٦٢[1]، وربما يكون هو نفس القاضي الذي تقابل معه الرحالة بيرتون Burton والذي حدثنا عنه في كتابه عن زنجبار[2] . وقد ذكر كيرك عن هذه المخطوطة أنها مأخوذة من كتاب سنة الكلاوية ،أما المخطوطة نفسها فتحمل اسم السلوة في أخبار كلوة التي إذا صح ما ذكره كيرك فهي ليست إلا جزءاً من سنة الكلاوية ، وعلى هذا الأساس فإن محي الدين الزنجباري لا يكون هو مؤلف المخطوطة وإنما جمعها، خاصة وأن المخطوطة كما ذكرنا مليئة بأخطاء لغوية لا تطابق ما ذهب إليه بيرتون من فصاحة الشيخ محي الدين وبلاغته ، وكتاب السلوة على ذلك ليس إلا تجميعاً حديثاً على حد ماذكره السير أرثر Strong عند نشره لكتاب السلوة وتقديمه له نقلا عن الملاحظات التي أبداها جون كيرك ,

وإذا كنا لم نعثر على السجل القديم لسنة الكلاوية فإن جرنفيل فريمان Freenan ، وهو أحد المعنيين بدراسة تاريخ شرق أفريقيا يتوقع العثور على ذلك السجل ، ويؤكد أنه عند زيارته لساحل شرق إفريقيا راعه وجود

---

(١) أورد السير أرثر سترونج نص هذه المخطوطة في دراسة له عن تاريخ انظر: كلوة

Strong, A, History of Kilwa, Journal of the Reosyal Asiatic Society 1885.

cf. Richard Burton, Zanzibar. City, Island and Coast (١) 2 Vols London. 1872 .

كثير من المخطوطات العربية والسواحلية فى أيدى عرب بمبا وزنجبار ، كما نظم فى عام ١٩٥٥ معرض للكتب الخطية عرضت فيه كثير من المخطوطات الخاصة بشرق إفريقيا ولكن لم تتوافر الظروف لتصويرها(١) . وقد أكد انجرامس Ingrams فى كتابه عن زنجبار وجود كثير من المخطوطات فى حوزة الأهالى ولكنهم يحجمون عن تقديمها للباحثين، ومن المؤكد أن تكشف هذه المخطوطات جوانب لاتزال غامضة من تاريخ شرق إفريقيا، وذلك عند تسليط أضواء البحث عليها(٢) .

وعلى الرغم من أننا لا نعرف اسم مؤلف كتاب سنة الكلاوية إلا أنه قد ورد فى الجزء المأخوذ من ذلك الكتاب بعض إشارات عنه والتاريخ الذى فرغ فيه من تأليفه ، ففى الفصل الرابع من السلوة نجد ما يشير إلى أن المؤلف ولد فى٢ شوال سنة ٩٠٤ هـ (١٣ مايو ١٤٩٩م) وأنه عاصر عهد السلطان فاضل والأمير إبراهيم،ولكن الشيخ محى الدين الزنجبارى قد أهمل فيما يبدو عند نسخه الكتاب اسم المؤلف ؛ ولا ندرى عما إذا كان ذلك عن اغفال منه أو عدم معرفته اسم المؤلف .

وطبقاً للتاريخ الذى ذكر فى كتاب السلوة يكون المؤلف قد بلغ الرابعة والعشرين من عمره عند حصار البرتغاليين لقلعة كاوة فى عام ١٥١٢، ومن المؤكد أن يكون مؤلف سنة الكلاوية من الأسرة الحاكمة أو من كبار الأعيان فيها فقد تحدث عن بعثة شكلت لمفاوضة البرتغاليين ضمنها اثنين من أقاربه .

---

(١) Freeman-Grenville, The Mediveal History of Tanganiyka Coast. p. 47.

(٢) cf. Ingrams, Arabia and the Isles.

وكتاب السلوة يتألف من مقدمة وعشرة فصول، وقد نشر السير أرثر سترونج هذه المخطوطة فى عام ١٨٩٥ بعنوان تاريخ كلوة History of kilwa (١) بأصلها العربى وبترجمتها الإنجليزية ، وظهر أن ناسخ هذه المخطوطة هو الشيخ عبدالله بن مصبح أحد العاملين فى بلاط السيد برغش سلطان زنجبار، وقد ذكر فى مقدمته للمخطوطة أنه وقعت فى يده أوراق الشيخ محى الدين الزنجبارى ووجد ضمنها هذا التاريخ فحرص قبل أن يعيدها للسلطان أن يكتب لنفسه نسخة منها(٢) .

أما مقدمة المخطوطة فهى تتناول بعض أمور فلسفية ودينية منها تعطش الإنسان إلى المعرفة وأسباب ذلك ، وأن الله يميز بين العلماء والجهلاء . والفصل الأول يتناول تأسيس مدينة كلوة وأول من وفد إليها ، وهو يبدأ بنواحى تفصيلية بها أشياء كثيرة من الخرافة عن هجرة قامت من شيراز على الساحل الشرقى من الخليج العربى إلى كلوة — وهى جزيرة صغيرة تقع على مقربة من ميناء دار السلام الحالى — ثم إلى أماكن كثيرة أخرى على ساحل شرق إفريقيا، ونجح على بن الحسن الشيرازى الذى تنسب إليه هذه الهجرة من تأسيس دولة للزنج شغلت الفترة من ٩٧٥ إلى ١٥١٢م ، وهى السنة التى وصل فيها البرتغاليون إلى كلوة ، وفى خلال هذه الفترة تعاقب على حكم دولة الزنج خلفاء على بن الحسن(٣) . وتعلل المخطوطة أسباب هجرة على بن الحسن بأن مدينة شيراز كانت تحت حكم الملك الحسن، وبعد وفاته خلفه سبعة من أبنائه وكان أحدهم المسمى بعلى محتقراً مرذولا من بقية إخوته لأنه كان ابن أمة حبشية، عيره أخوته بوضاعة أصله فأراد الخلاص من تحقير وكراهية إخوته

(١) cf. History of Kilwa, Journal of the Royal Asiatic Society, April 1895.

(٢) Zöe March, East Africa Through Contemporary Records p. 214.

(٣) Ibid, p. 6.

واضطهادهم له فعمل على مغادرة شيراز والاستيطان بأرض جديدة يطيب له العيش فيها ، فغادر هو وأهله وذووه شيراز متجهاً إلى شواطىء زنجبار ولكنه وجد بها من العرب من كان مذهبهم يخالف مذهب الشيعة الذى ينتمى إليه ، ولما كان على بن الحسن يهدف إلى تأسيس ملك جديد فقد واصل سيره بطول الساحل حتى وصل أرض كلوة ، ولما وجد أن خصوبة أرضها واكتناف المياه بها مما يقيه شر عادية جيرانه، فقد اشترى الجزيرة من أهلها المقيمين بها مقابل بضعة أقمشة كانت معه ، على شرط أن يغادروا الجزيرة وينسحبوا إلى الداخل ، وأخذ بعد ذلك يشيد القلاع للدفاع عن جزيرته ضد غارات الزنوج الذين كانوا يقطنون على مقربة منها . على أن المخطوطة تؤكد أنه كان بكلوة جماعة من المسلمين؛ بل كان هنالك مسجد أيضاً مما يدل على أن المسلمين رحلوا إلى كلوة قبل القرن العاشر الميلادى وفى فترة زمنية أسبق من الفترة التى وصل فيها الفرس الشيرازيون التى يحددها صاحب كتاب السلوة بأنها وقعت فى منتصف القرن الثالث الهجرى ( ٩٧٥ م ) ، على أن تعليل هجرة الفرس إلى مدينة كلوة بهذا السبب الواهى لا يرقى إلى المنطق والأرجح أن تكون هجرة فرس شيراز إلى شرق إفريقيا قد حدثت بين عامى ١٠٥٥ و ١١٠٠ م على أثر فرار الشيعة الشيرازيين من وجه طغرل بك السلجوقى الذى غزا شيراز سنة١٠٥٥م،وهذا الرأى نأخذه عن هتشنز Hichens وهو أدعى إلى الإقناع؛مع التسليم بوجود فاصل زمنى بين ما ذكره صاحب تاريخ كلوة وبين هذه الهجرة المشار إليها .

وأهمية حكم على بن الحسن الشيرازى أنه نجح فى تأسيس سيطرة على ساحل شرق إفريقيا لم تقتصر على جزيرة كلوة وإنما امتدت إلى عدة موانى وجزر أخرى تقع إلى الجنوب من دولة الزنج التى كانت كلوة عاصمة لها وتمتد من ممبا فى الشمال إلى ميناء سفاله فى الجنوب، ولكن هذه الدولة كان ينقصها الارتباط بمعنى أنها لم تكن دولة متماسكة فضلا عن أنها تعرضت

للمنازعات التقليدية، وتحولت إلى مدن مستقلة تنازع كل مدينة منها الأخرى، وقد كشفت عمليات التنقيب فى السنوات الأخيرة عن كثير من آثار دولة الزنج من بينها عملات معدنية استخدمت فى عصرها ، ومع ذلك فقد احتلت هذه الدولة مكاناً بارزاً بين إمارات الساحل الشرقى لإفريقيا فيما بين القرنين العاشر والخامس عشر الميلادى .

وتشتمل مخطوطة السلوة على مقدمة وسبعة فصول، بينما سقطت الفصول الثلاثة من الثامن إلى العاشر التى ذكر فى المقدمة أن المخطوطة سوف تشتمل عليها ، والفصل الأول يعرض لتأسيس السلطنة، كما أوضحنا ، أما الفصل الثانى فيتعرض إلى اضطراب الأمور فى السلطنة وحكومة إحدى القبائل التى اجتاحت كلوة ، والفصل الثالث يتناول فيـــه كاتب المخطوطة عهد أبو المواهب ( وهو السلطان الذى زاره ابن بطوطه ) ، والفصل الرابع عهد الملك العادل ، والفصل الخامس عودة أسرة أبي المواهب ، والفصل السادس حكم الحسن بن وزير، والسابع عهد السلطان فاضل بن سلطان . وتتناول هذه الفصول المنازعات حول العرش ، وحج معظم السلاطين إلى مكة ، والفصول الثلاثة التى لم تذكر فى المخطوطة يبدو أنها كانت تتناول تاريخ كلوة بعد سيطرة البرتغاليين عليها فى أوائل القرن السادس عشر والسنوات التالية، وقد جاء فى مقدمة المخطوطة أن الفصل الثامن سوف يتناول عهد حاج محمد بن ركن الدين، والتاسع عهد السلطان محمد مكدات، والعاشر عهد الملك سلطان بن سلطان ،وقد حكم هؤلاء السلاطين فى عهد السيطرة البرتغالية، ومن المؤكد أن يكون مؤلف السلوة قد تعمد إسقاط هذه الفصول فإن آخر عبارة وردت فى الفصل السابع « ولم أجد بعد ذلك شيئاً » ، وقد ذكرت هذه العبارة بعد حديث المؤلف عن البعثة التى ذهبت لمفاوضة فاسكو دى جاما فى ٨ جمادى الأولى ٩٠٤ﻫ ( الموافقة لسنة ١٤٩٤م)، ثم يذكر الناسخ أن هذه المخطوطة نسخت

فى ٢٠ مايو ١٨٧٧ فى عهد السيد برغش بن سعيد وكتبت بيد عبد الله بن مصبح الصوافى .

أما عن إسقاط مؤلف المخطوطة للفصول الثلاثة المذكورة فيرجع إلى سبب واضح إذ من المحتمل أن يكون المؤلف قد اقتصر فى تأريخه لكلوة إلى السنوات الأولى من القرن السادس عشر،لأن ما حدث بعد ذلك كان فيه الكثير من الامتهان بالنسبة لكلوة بعد إحكام السيطرة البرتغالية على ساحل شرق إفريقيا .

والمهم أنه لا يزال يراود كثير من الباحثين الأمل فى العثور على سجل كلوة،وكذلك المخطوطة التى نقلها الشيخ محى الدين الزنجبارى ، وبذلك يمكن إضافتهما إلى المخطوطة الثالثة ، وهى الوحيدة التى لدينا والمنسوبة إلى الشيخ عبد الله بن مصبح الصوافى .

وقد يكون من الجائز وقوع سجل كلوة فى أيدى البرتغاليين ، خاصة وأن المؤرخ البرتغالى جواس دى باروس Joas de Barros قد عثر على مجموعة ضخمة من المخطوطات نشر منها تاريخاً لكلوة بعنوان Choronica dos Reys de Quiola ،ولكن باروس لم يذكر لنا المصدر الذى نقل عنه ، وقد كان من السهل علينا القول بأن باروس نقل عن سنة الكلاوية لولا بعض التناقضات الواضحة بين ما أورده باروس وبين النسخة التى سبق أن أشرنا إليها من تاريخ كلوة؛هذا مع التسليم بوجود تشابه فى أوجه كثيرة بين النسخة البرتغالية وبين النسخة العربية .

وقد عنى كل من جرنفيل فريمان وبرنز Prins بمطابقة السلوة فى أخبار كلوة على تاريخ كلوة الذى نشره باروس(١)، ويميل فريمان إلى الاعتقاد بأن

(١) - Freeman - Grenville, op. cit p. 66 ff See also.
Prins A - H, The Swahili Speaking Peoples cf Zanzibar and the East African Coast - Arab - Shiraz and Swahili - International Institute, London, 1961.

أصل المصدرين واحد، إلا أن باروس أضاف معلومات من مصادر أخرى، وكذلك أغفل أشياء اعتبرها غير هامة، ومما يعزز وجاهة رأى فريمان فى أن مصدر النسختين مصدر واحد هو انتهاء باروس فى تأريخه لكاوة فى عام ١٥١٢، وهو نفس العام الذى انتهى فيه كتاب السلوة فى أخبار كاوة .

ويهمنا الفصل السابع من تاريخ السلوة بصفة خاصة لأن هذا الفصل يعرض فى نهايته لأخبار وصول البرتغاليين إلى ساحل شرق إفريقيا ، ومما جاء بصدد ذلك بأن رجالا أتوا من بلاد الفرنج بصحبة ثلاث سفن وأن اسم قائدهم ميراتى ( ولعله يقصد فاسكو دى جاما )، فتقدموا إلى مافيا فوجدوا ترحيباً من الأهالى، ولكن لم يلبث أن عرف الأهالى أنهم أتوا للتجسس على المدينة بهدف الاستيلاء عليها فثاروا عليهم فتقدموا إلى ماليندى ومنها أخذوا مؤنا ومياها وطلبوا مرشداً إلى الهند ، وفى عام ٩٠٦م قد بيساريوس ( ولعله يقصـــد القائد البرتغالى بدرو الفاريز )، وطلب من أهالى كاوة ماء ووقوداً ، كما طلب أيضاً مقابلة لسلطان أو ابنه ، فأرسل السلطان وفدا لمفاوضتهم « وقد رفض الوفد إعطائهم ما طلبوا فذهبوا لعنة الله عليهم إلى ماليندى وأخذوا كل ما كانوا يحتاجونه ، ولكنهم عادوا إلى كاوة، ولما أدرك أهالى كاوة أنهم لا يستطيعون لهم دفعا تقدم وفد لاستقبال الميراتى وكان قد عاد من الهند وكان فى هذا الوفد بعض من أقاربى » ثم يقول صاحب التاريخ أنه « لم يجد بعد ذلك شيئاً » ، ويبدو أنه وقف عند مقدم البرتغاليين، ويتضح ذلك من تسميته الكتاب « السلوة » أى أنه كتب تاريخا للقراء فى تاريخ كاوة ولم يشأ بطبيعة الحال أن يكتب عما صارت إليه كاوة بعد السيطرة البرتغالية، وعلى الرغم من أن كتاب السلوة ليس هو النسخة الأصلية من تاريخ كاوة إلا أنه يعطينا تاريخاً متصلا لسلطنة كاوة من القرن العاشر حتى أوائل القرن السادس عشر الميلادى، وقد اعتبرت هذه السلطنة ـ أو ما عرفت باسم دولة الزنج ـ أول دولة إسلامية قامت فى شرقى إفريقيا ، ومن المؤكد أن سلطنة زنجبار الحديثة ( ١٨٣٢ — ١٩٦٢ ) كانت تستند فى أصولها التاريخية إلى هذه

الدولة التى اتخذت من كلوة عاصمة لها[1]، مع التسليم بوجود فارق كبير وهو أن سلطنة زنجبار كانت سلطنة عربية إفريقية بينما كانت دولة الزنج تعود بأصولها الأولى إلى فرس شيراز أى أنها كانت أصلا دولة فارسية إسلامية، ومن هنا يمكن أن نلحظ تلك التسمية التى أطلقت على الساحل الذى كانت تشغله هذه الدولة وهو زنجبار أى ساحل الزنج من الفارسية بار بمعنى الساحل .
ولكن السؤال الذى يتبادر إلى الذهن هو إلى أى مدى أثر الفرس الشيرازيون فى الساحل الشرقى الإفريقى فى عهد دولة الزنج ؟، أو بمعنى آخر لمن كان التفوق فى عصر تلك الدولة ، العرب أم الفرس ؟ حقيقة أنه لا يمكن أن ننكر ما تركه لفرس الشيرازيون من تأثير كبير فى الفن المعمارى وفى الأدب السواحلى وفى طريقة الملبس أو المأكل أو مظاهر الحضارة المختلفة ، بل سيستمر ذلك التأثير قائماً حتى فى عهد سلطنة زنجبار الحديثة، ويستمر بالتالى وفود جماعات من الفرس للإقامة فى ساحل شرق إفريقيا ، بل لقد حرص السيد سعيد بن سلطان مؤسس سلطنة زنجبار الحديثة أن يتزوج من أميرة فارسية ويأتى بها لتقيم معه فى زنجبار، واعتقادنا أنه قصد بهذه الزيجة توطيد مركزه أمام رعاياه الفرس الذين كانت تنتظمهم الدولة العربية الجديدة . وإذا كنا نؤكد هنا إسهام الفرس مع العرب فى الاستقرار على الساحل فإنهم مع ذلك لم يساهموا بالقدر الذى ساهم به العرب الذين كانوا أسبق فى الإتصال كما رأينا. ولكن يلاحظ أن بعض الكتاب وخاصة من الإنجليز كانوا يحاولون التركيز على الهجرات الفارسية بهدف إضعاف مقومات السلطنة العربية وإعطائها مسحة فارسية، وقد استغلت السلطات البريطانية خلال سنوات حمايتها على زنجبار هذا الأساس التاريخى لمقاومة العناصر العربية فى السلطنة فشجعت قيام الحزب الأفروشيرازى الذى تأسس فى زنجبار ليناهض الحزب الوطنى ، وقد عرف عن الحزب الأفروشيرازى مناهضة للعناصر العربية والتأكيد بتحدر المسلمين من فارس وليس من الجزيرة العربية،

---

(١) Arthur Strong, History of Kilwe cf. Report on Zangibar Dominions, p. 399.

وكان الحزب الأفروشيرازى يجد تأييداً من السلطات الاستعمارية البريطانية، والهدف من ذلك واضح وهو القضاء على المقومات العربية حيث كانت دعاية الحزب تميل إلى دعوة الأفريقيين إلى الرجوع بنسبهم إلى الفرس الشيرازيين وليس إلى العرب . وعلى أى حال فنستطيع أن نذهب إلى تأكيد ما سبق أن ذكرناه وهو أنه إذا كانت هنالك بعض السمات الفارسية إلا أنها بطبيعة الحال لم تبلغ القدر الذى بلغته السمات العربية فى ساحل شرق إفريقيا ، بل لا نغالى إذا قلنا إن تلك السمات الفارسية لم تلبث أن ضاعت فى غمار غلبة الحياة العربية أو السواحلية على الساحل الشرقى لأفريقيا . وقد بدأت مميزات الأمة السواحلية ، تظهر بجلاء فى عهد دولة الزنج وإن كان السواحليون قد انقسموا إلى السواحليين الشماليين ، ويدعون الإنتساب إلى زيد بن على ويفخرون بأصلهم العربى ، والسواحليين الجنوبيين الذين يدعون الإنتماء إلى على بن الحسن الشيرازى ويفخرون بماضى تلك الدولة العتيد .

وكان لدولة الزنج الفضل فى قيام عدة مدن إسلامية على الساحل الشرقى لأفريقيا، والحق أن تلك المدن نجحت نجاحاً كبيراً ووصلت إلى درجة كبيرة من التحضر والازدهار، ولكن ينبغى أن نلاحظ أن تلك المدن افتقرت إلى التنظيمات العسكرية ، وربما يرجع السبب فى ذلك أنها لم تقم نتيجة لفتح أو توسع عسكرى وإنما أسسها تجار أو مهاجرون أو مضطهدون سياسيون أو دينيون ، وهؤلاء جميعاً كانوا مضطرين بحكم ذلك أن تكون علاقاتهم سلمية إلى حد كبير مع الأهالى الذين استقروا فى أوطانهم ، وما كاد القرن العاشر يولى حتى كانت هذه المدن قد استكملت مقوماتها وسماتها العربية إذ ساعدت الهجرات العربية المتوالية على طمس معالمها الفارسية ، واستحالت إلى مدن عربية صرفة، وهذه المدن من الشمال إلى الجنوب هى مقديشيو — براوة — سيوة — بات — لامو — زنجبار — مافيا — كلوة — سفالة . وفى خلال القرن العاشر الميلادى كان الإسلام قد انتشر فى تلك المراكز

وأصبح لكل مدينــــة مسجدها الخاص بها ، وثمة ملاحظة هامة وهى أن العرب فضلوا المعيشة فى الجزر لسهولة الدفاع عنها وبعد موقعها عن اعتداء الأهالى الساكنين فى البر الإفريقى إذ كان عليهم إذا أرادوا الهجوم أن يخوضوا الماء الفاصل بين الساحل والجزيرة وإذ ذاك يستطيع العرب وهم من أهل البحر أن يردوهم على أعقابهم ، على أن أهم ما يلاحظ أن العرب الذين استوطنوا تلك المراكز الإسلامية قد نقلوا معهم خلافاتهم ومنازعاتهم ولذلك ظهر العداء سافراً بين هذه المدن بعضها والبعض الآخر حتى أصبح من المستحيل قيام وحدة تجمع بينها طواعية، وفى بعض الأحيان كانت تقوم عدة وحدات سياسية تستند إلى التفوق وتوسع إحدى هذه المدن على حساب غيرها ، كما نجحت ممبسة فى السيطرة على مدن الساحل خلال بضعــــة سنوات من القرن الثانى عشر الميلادى ، أو كما فعلت بات فى سيطرتها على معظم مدن الساحل من ماليندة شمالا إلى كلوة جنوباً فيما عدا زنجبار حوالى عام ١٣٣٠ م ، وكذلك حاولت كل من مقديشيو وبمبا وزنجبار فى أوقات متفرقة أن تفرض قيام وحدات من ذلك النوع .

أما دولة الزنج فعلى الرغم من أن الساحل كان يتبعها إلا أن هذه التبعية لم تتعد أكثر من كونها تبعية اسمية ، وعلى أى حال فعندما وفد البرتغاليون إلى ساحل شرق إفريقيا ، حول نهاية القرن الخامس عشر الميلادى ، كانت كلوة تسيطر على القسم الجنوبى من الساحل، فحينما أرسى فاسكودى غاما قلاعه فى موزمبيق وجد أن حاكم الميناء يتبع سلطان كلوة ، وكان مخولا له جمع الضرائب المفروضة على السفن التجارية وتسليمها إلى سلطان كلوة، وإن كان هذا لم يمنع من قيام المنازعات بين هذه المدن[1] ، وتحدثنا الروايات عن ذلك النزاع المشهور الذى كان قائماً بين ماليـنــــده وممبسة والذى استفاد منه البرتغاليون فائدة كبيرة فى سيطرتهم على الساحل، وعلى الرغم من ذلك فان أهمية دولة الزنج ترجع إلى أنها وحدت معظم المراكز الإسلامية فى ساحل

(١) Krapf, op. cit. p. 524

شرق إفريقيا ، وبلغت ذروة قوتها فى عهد سليمان بن على ثانى حكامها فلم تستعص عليه من مدن الساحل ســـوى مدينة مقديشيو التى كانت تحكمها ارستقراطية عربية تجارية ، وضمت دولة الزنج كذلك جزيرتى بمبا وزنجبار ، وإن كان هناك ما يؤكد أن دولة الزنج استغلت بمبا أكثر من زنجبار(١) ، هذا فضلا عن الصلات التجارية الواسعة مع جزيرة مدغشقر وجزر القمر ، وبواسطة دولة الزنج دخل الاسلام هذه الجزر فأصبح دين الغالبية فى القمر ، كما اعتنقته إحدى قبائل مدغشقر ، وهى قبيلة الانتيمرون ، فى الطرف الجنوبى الشرقى من تلك الجزيرة ، كذلك نجح العرب فى تأسيس مملكة عربية فى شمال جزيرة مدغشقر ، وقد أورد لنا جيان بعض التواريخ المتعلقة بمدغشقر وجزر القمر نقلا عن بعض المخطوطات العربية التى ذكر أنه عثر عليها فى مايوت ، إحدى جزر القمر ، وكذلك تحدث جبريل فيران عن عدة مخطوطات عربية قديمة ذكر أنه عثر عليها فى مدغشقر وأهداها إلى المكتبة الوطنية بباريس ، ويستدل من هذه المخطوطات على أن شعب الأنتيمرون كان ثمرة اختلاط بين العرب وقبيلة الانكارا التى يخضع لها من الوجهة التنظيمية ، وقد عرفت قبيلة الأنتيمرون الكتابة العربية بعد الإسلام ، بينما بقى شعب الهوفا ، أكبر شعوب مدغشقر ، لا يعرف الكتابة إلى فترة متأخرة .

وقد ذكر فيران أن الأنتيمرون يحتفظون بكتب خطية عربية قديمة يزعمون فيها انتسابهم إلى مكة ، ولكن يجب أن نأخذ هذه الروايات بحذر شديد فإن دعوى الانتساب إلى مكة والبيت الهاشمى تكاد تكون ظاهرة متفشية فى تلك المناطق . وقد أسلمت قبيلة الأنتيمرون بعد وصول العرب

---

(١) cf. Roland Oliver, "Editor" The Dawn of The African History - See Chapter VII, The Land of Zinj by Mathew pp. 46 — 47.

إلى الجزيرة وإن كان إسلام تلك القبيلة إسلاماً ضعيفاً ؛إذ لم تلث أن عادت إلى عقائدها من جديد فاختلطت الوثنية بالإسلام ، ويلاحظ أن الأوربيين اصطدموا أيضاً بالديانات والتقاليد المحلية حينما حاولوا التبشير بالمسيحية .(١)

والظاهرة التى ميزت تاريخ دولة الزنج منذ نشأتها حتى سقوطها على أيدى البرتغاليون عام ١٥١٢م هى ذلك الصراع الدائم بين الحكومة المركزية فى كلوه وبين حكام الموانى الذين حاولوا الاستقلال بمدنهم وانشاء إمارات صغيره على طول الساحل ، وفى الفترة الأخيرة التى سبقت مجىء البرتغاليين أضيف إلى هذا النوع من النزاع صراع آخر بين أعضاء الأسرة الشيرازية الحاكمة من جهة ، وبين أنصار الوزير سليمان الذين استطاعوا اغتصاب الحكم فى فترات متقطعة من جهة أخرى، وسيستفيد البرتغاليون من تلك المنازعات فيبسطوا سلطتهم على الساحل بسهولة (٢) . على أن هذه القلاقل التى سادت دولة الزنج لم تمنع من ازدهار الحضارة المادية فى ربوعها(٣) ويمكن تعليل هذا الازدهار بعاملين :

أولا : اشتغال المسلمين المهاجرين بنقل التجارة بين البلدان الواقعة على سواحل المحيط الهندى، وأهم السلع التى اعتمدت عليها هذه التجارة هى العاج والرقيق وأحياناً العنبر ، وكان المسلمون يحصلون على هذه السلع من رؤساء القبائل الأفريقية فى نظير المنسوجات وبقية الأدوات الحضارية

---

(١) ارجع إلى لوثروب ستودارد : حاضر العالم الاسلامى — تعليقات الامير شكيب أرسلان على كتابات جبريل فيران حـ١ ص ٣٦٩ وما بعدها .

(٢) Coupland, East Africa and Its Invaders pp. 23 — 28.

(٣) وصف ابن بطوطة كيف أن الغنائم كانت ترد بكثرة على سلطان كلوة ، وأنه كان يوزعها حسب الشرع ، وكان الاشراف يأتون إليه من بعض أنحاء العالم الاسلامى ليأخذوا نصيب ذوى القربى ، انظر ابن بطوطة حـ ١ ص ١٦٣ .

الأخرى التى كانوا يجلبونها معهم . وقد عرف الرقيق الذى كان يتجر فيه العرب فى بلاد الصين وجزر الهند الشرقية، ولكن الأسواق الرئيسية له كانت فى بلاد فارس والعراق . ومن المعروف أنه منذ القرن الثالث الهجرى استخدم هؤلاء الزنوج بكثرة فى مزارع العراق، وأنهم قاموا بثورة اجتماعية وسياسية فى النصف الثانى من القرن التاسع الميلادى .

وثانياً : استغلال مناجم الذهب التى ما تزال موجودة حتى الآن فى بعض أقاليم أواسط إفريقيا ، فكانت كميات كبيرة من الذهب ترد إلى قلب العالم الاسلامى من سفالة ، حتى سميت بسفالة الذهب .

يتضح مما سبق زيادة الروابط بين العرب وشرق إفريقيا خلال الفترة التى تلت ظهور الإسلام ، ولا نعنى أن هذه الروابط اقتصرت على اتصال العرب بشرق إفريقيا بل واتصال الشرق الافريقى أيضاً بالبلاد العربية فأخذت الموارد الافريقية تظهر فى الأســواق العربية ، على أنه لا ينبغى أن نتفق مع ماورد ذكره فى بعض المصادر التى تناولناها فى أن مدن شرق إفريقيا الاسلامية قام اقتصادها على أساس تجارة الرقيق وإنما كان لتلك المدن نشاط اقتصادى آخر لم يقتصر فقط على هذه التجارة ، ويمكن أن نؤكد بأن من العوامل التى ساعدت على ازدهار العلاقات الاقتصادية أن العرب كانوا سادة المحيط الهندى إلى أن انتزع منهم البرتغاليون هذا التفوق فى أوائل القرن السادس عشر الميلادى[1]. ومن المعروف أن العلاقات الاقتصادية والتجارية بين أوربا والشرق كانت تعتمد على وساطة العرب التجارية الذين كانوا يحملون بضائع الهند والشرق الأقصى إلى الخليج العربى والبحر الأحمر

---

(١) راجع فى ذلك فضلو حورانى : العرب والملاحة فى المحيط الهندى ، وكذلك آدم متز الحضارة الاسلامية ( مترجم ) حـ٢ ص ص ٤٢٩/٤٣٠ .

ومنها إلى البحر المتوسط . وقد ساهم ساحل شرق إفريقيا فى تجارة الذهب والعاج، وفى القرن العاشر الميلادى كان هنالك مايؤكد بأن بيوت سيراف على الساحل الشرقى للخليج العربى كانت تبنى من الأخشاب المأخوذة من زنجبار(١). أما تجارة الرقيق فالواقع أنها لم تصل إلى درجة كبيرة من الانتعاش إلا منذ القرن السادس عشر الميلادى أى فى نفس الوقت الذى شهدت فيه إفريقيا طلائع الاستعمار الأوربى، واعتقادنا أن الدول الأوربية هى التى شجعت على استفحال تلك التجارة خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر . حقيقة أننا لا ننكر أن تجارة الرقيق كانت معروفة لدى العرب منذ أقدم العصور ولكنها كانت تسير فى نطاق ضيق، ثم أخذت هذه التجارة تزداد عندما عرفت أوربا القارة الأفريقية وبدأت عمليات الاستيلاء على الرقيق من ساحل غرب إفريقيا ونقله عبر مياه الأطلنطى لزراعة المناطق الشاسعة فى الأمريكتين ، وفيما يبدو أن مناطق غرب إفريقيا لم تشف غائلة الأوربيين على الرغم من أنها صدرت خلال القرون الثلاثة من السادس عشر حتى الثامن عشر مايقرب من مائة مليون إفريقى فبدأت تظهر المراكز والمحطات التجارية فى شرق إفريقيا خاصة على سواحل موزمبيق لاستخدام رقيق شرق إفريقيا أيضاً ، وتحدثنا بعض المصادر أن كثيراً من رقيق شرق إفريقيا كان يصل بدوره إلى المزارع الأمريكية(٢) .

وقد يكون من المناسب هنا أن نعرض مقارنة سريعة فى تجارة العرب فى الرقيق وتجارة الأوربيين له ، فأولا نستطيع أن نذهب إلى أن تجارة العرب فى الرقيق لم تضر الرقيق مثلما أضرته تجارة

---

(١) Coupland, op. cit. pp. 18 — 20.

(٢) توقفت تجارة الرقيق فى غرب إفريقيا ابتداءا من السنوات الأولى من القرن التاسع عشر على أثر الحركة الناهضة لتجارة الرقيق والتى تزعمتها بريطانيا .

cf. Coupland, R, The British Anti - Slavery Movement. London 1938.

الرقيق الأوربية ، فقد كانت تجارة العرب تقوم على جهود فردية أما تجارة الأوربيين فكانت تقوم على خطط محكمة لاستغلال الثروة البشرية الإفريقية، وقامت من أجل ذلك شركات كبيرة، كما تأسست الكثير من المراكز التجارية التي عقدت الاتفاقيات ووضعت الخطط ودبرت الفتن وأوقعت بين القبائل لأسوأ استغلال عرفته البشرية في تاريخها الحديث ، ولا نريد أن نخوض في تفاصيل معاملة العرب للرقيق فقد يكون هذا موضوعاً مطروقاً إنما ما نود أن نقرره هنا أن أقصى ما كان يصل إليه الرقيق الإفريقي هو الجزيرة العربية وسواحل الخليج حيث ينقل إلى بعض المقاطعات الفارسية أو البلدان العربية المجاورة وبأعداد قليلة لم تصل إلى ما وصلت إليه تجارة الرقيق في سواحل غرب القارة، وما كان يتعرض له الرقيق من نكبات من جراء الرحلة القاسية التي كانوا يساقون فيها من غرب إفريقيا إلى مزارع الأمريكتين عبر مياه الأطلنطي(١) . .

ولكن الجدير بالذكر أن كوبلاند Coupland وغيره من الكتاب الأوربيين حاولوا تحميل العرب وزر تجارة الرقيق في شرق إفريقيا باعتبارهم الوسطاء الذين كانوا يمدون المراكز التجارية البرتغالية بالعدد اللازم من الرقيق ، ولكن هذا التقدير بني على أساس غير سليم، فلو طبقنا نفس تلك النظرية على مأساة الرقيق في غرب إفريقيا، وكما يعترف كوبلاند بأن هذه التجارة أفقدت القارة عشرات الملايين، لغفرنا لتجار الرقيق الأوربيين أعمالهم وقلنا أن القبائل الأفريقية هي المسئولة عن تلك التجارة في سواحل غرب القارة لأنها كانت تقدم الأسرة من الأفريقيين للتاجر الأوربي ! ويستمر كوبلاند في عقد المقارنات الخاطئة فيذكر أن تجارة الرقيق بدأت في غرب إفريقية في القرن السادس عشر وانتهت في أوائل القرن التاسع عشر ، أما ساحل شرق إفريقيا

---

(١) Crowder, The Story of Nigeria cf. The Atlantic Slave Trade. London 1962.

فقد بدأت تجارة الرقيق فيه منذ أزمنة قديمة ولم تنته إلا منذ سنوات قليلة ، وهذه المقارنة لا شك فى أنها قد تخدع البعض ولذلك كنا نأمل مثلا أن تكون هنالك إحصائية ولو تقريبية ، وهذا مالم يتوافر لسوء الحظ ، عن عدد الرقيق الذى استغله الأوربيون خلال ثلاثة قرون ، وعدد الرقيق الذى تعامل فيه التجار العرب خلال قرون عديدة وحينئذ يمكن أن يتضح لنا سوء هذا التقدير .

وهناك ناحية أخرى لفتت انتباهنا فى بعض المصادر الأوربية التى تعرضت للعرب فى شرق إفريقيا ، فقد حرص الكثيرون على التهوين من دور العرب وتأثيرهم الحضارى فى المنطقة ، فهم مثلا لم يهتموا بإدخال الزراعة إلا بالقدر الذى يكفى استهلاكهم وكل ما انصرفوا إليه هو إشباع نهمهم فى تجارة الذهب والعاج والرقيق ، ولكن هذا الحكم قد يثير التساؤل ، إذ أن هذه المصادر لم تحدد فترة زمنية معينة يمكن دراستها والحكم عليها حكما سليما ، بيد أن كل ما نستطيع أن نقرره هنا أن العرب حقيقة قد اهتموا بالتجارة أكثر من اهتمامهم بالزراعة فهذه طبيعة العرب من ناحية ، ومن ناحية أخرى أنه عندما استقر العرب فى الساحل واضطروا إلى الاشتغال بالزراعة اتجهوا إلى الاكتفاء الذاتى فالقلاقل كانت كثيرة الحدوث والمراكز والإمارات والمدن التى نشأت على الساحل كانت متنافرة ومتجهة دوماً للتنابذ والتنازع ، وتستمر الأوضاع على هذه الصورة حتى تقيض الظروف لدولة عربية أن تحل محل هذه الإمارات والمراكز وتظهر فى شكل سلطنة كبيرة وحدت تلك الكيانات الصغيرة تحت لوائها ونعنى بها دولة البوسعيد ، وخاصة فى عهد أعظم حكامها سعيد بن سلطان فى النصف الأول من القرن التاسع عشر ، فاتجهت هذه الدولة إلى الإهتمام بالزراعة فضلا عن اهتمامها بالتجارة ، وهو أمر لا سبيل إلى إنكاره ، بل إن السيد سعيد أدخل زراعات جديدة خاصة زراعة القرنفل حتى أصبحت جزيرتا بمبا وزنجبار تمدان العالم بالنصيب الأوفى من احتياجاته من ذلك المحصول

(٩٠٪) حتى وقتنا الحاضر(١)، أما ما تتعمده بعض المصادر الأوربية من وضع المقارنات الخاطئة عما فعله الأوربيون وما لم يفعله العرب فلا ينبغي اتخاذها أساساً للحكم السليم، فإن الأوربيين أنفسهم لم يدخلوا الزراعة إلا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين بعد استيطانهم المناطق المرتفعة الصالحة ولمصلحتهم الخاصة . أما القرون الثلاثة التي تلت معرفتهم بالقارة الأفريقية فقد كان كل ما يعنيهم الإثراء والاشتغال بتجارة الرقيق والذهب وفضلا عن تقويض الحضارة الإسلامية التي شهدها ساحل شرق إفريقيا ، والتي ساهم العرب مساهمة كبيرة في بنائها . وقد تعمدت بعض المصادر الأوربية التقليل من دور العرب في شرق إفريقيا فذكرت أن التجارة كانت دافعهم الوحيد أما الدوافع الأخرى الإنسانية أو الدينية أو الحضارية التي حركت الأوربيين فلم يهتم بها العرب(٢) . والحقيقة التي لا مراء فيها ، وهو أمر قد تجاهله البعض، أن التجارة بل الاستغلال هو الذي كان يعني الأوربيين، وقد استمر الأوربيون على الاستغلال البشري الجشع خلال القرون الممتدة من القرن السادس عشر حتى القرن التاسع عشر، وفي النصف الثاني من القرن التاسع عشر حينما فكر الأوربيون في ارتياد القارة الأفريقية بدعوى إدخال الحضارة إليها — والحقيقة — بهدف استعمارها اعتمدوا على جهود العرب في المراكز التي أنشئوها لربط الساحل بالداخل ، وكانت هذه المراكز عوناً كبيراً للمستكشفين الأوربيين ، بل إن المناطق التي كشفت كانت معروفة لدى العرب وأكثر من ذلك فقد استعان كثير من الرواد الأوربيين بالتجار العرب في عمليات الكشف هذه التي لم تكن في حقيقتها كشفاً وإنما كانت مجرد تسجيل علمي لمناطق كانت معروفة لدى العرب من قبل(٣) .

---

(١) جمال زكريا قاسم : دولة بوسعيد في عمان وشرق إفريقيا ص ٤١٣ — ٢١٤ القاهرة ١٩٦٧ .

(٢) راجع دراستنا عن استقرار العرب في ساحل شرق إفريقيا — حوليات كلية الآداب جامعة عين شمس — العدد العاشر ص ص ٢٩٥/٢٩٧ .

(٣) جمال زكريا قاسم ـ دور العرب في كشف إفريقيا مجلة عالم الفكر — العدد الثاني من المجلد الأول ١٩٧١ .

أحدث انتشار الإسلام انتعاشاً كبيراً فى ساحل شرق أفريقيا وتوطدت الروابط التى توثقت عراها بين الساحل الشرقى والجزيرة العربية ، يدل على ذلك كثرة الزنوج فى البلاد العربية ، وهنالك حادث وقع فى ابتداء حكم الخليفة أبو العباس المنصور الملقب بالسفاح ، وهذا الحادث دليل واضح على وجود صلات فى ذلك العهد بين العرب وسواحل شرق إفريقيا ، ذلك أنه لما ثار أهالى الموصل على العباسيين أمر الخليفة أخاه بقمع الثورة فقتل من نسائهم ورجالهم نحو إحدى عشر ألفا ، وكان فى جنده أربعة آلاف زنجى من زنجبار ، وحدث بعد ذلك قيام ثورة الزنج فى العراق بعد مرور مايقرب من قرن على استخدام أبو العباس للزنوج فى الجيش الإسلامى ، فقد قامت الدولة العباسية ، كما هو معروف لدارسى التاريخ الإسلامى ، على عدم التمسك بنظرية العرب مادة الإسلام ، وإنما قامت هذه الدولة على إفساح المجال للشعوب الأخرى لتشارك فى الدولة الإسلامية ، وترتب على حركة الزنج وقوع ثورة بين عامى ١٨٦٩ و ١٨٧١ م ، وفى الثورة الأخيرة سيطر الزنوج على البصرة ومصب الفرات ، وأصبحت هذه المناطق شبه منفصلة عن الدولة وواقعة تحت حكم زعيم السود حوالى أربعة عشر عاماً[١] ، وقد ذكر أبو الفدا عن هذه الثورة بأن عصابة من زنوج زنجبار أغارت على الجزء الجنوبى من العراق واستولت على مدينة البصرة .

وإذا كانت لدينا الكثير من المعلومات عن الزنوج فى البلاد العربية فلا زالت معلوماتنا قاصرة عن حالة العرب فى سواحل شرق إفريقيا غير أنه من المؤكد أن العرب كثر عددهم خلال القرون الثلاثة التى تلت ظهور الإسلام ، ففى القرن العاشر الميلادى امتد العرب على طول الساحل من القرن الأفريقى المواجه لجنوب الجزيرة العربية حتى سفالة وهى أقصى بلاد الزنج ، كما توجد لدينا بعض الشواهد أيضاً على اتصال الإمارات الإسلامية فى شرق

---

(١) Coupland, East Africa and It's Invaders p. 31 .

إفريقيا بالممالك الإسلامية بالحبشة ،وقد انتعشت تلك الممالك نتيجة ازدهار حركة التجارة فى الساحل الشرقى لأفريقيا[١]، وسيترتب على انتشار الإسلام الإحاطة بالإمارات المسيحية بالحبشة حتى أننا سنجد تآلفا بين البرتغاليين والأحباش لمواجهة قوة المسلمين ، كما سنعرض لذلك تفصيلا فى الفصل القادم .

وعلى الرغم من أن الحقائق لم تتضح تماماً عن العرب فى شرق إفريقيا فإن الأمر الذى لا شك فيه هو أن القرن الحادى عشر الميلادى شهد عند ختامه الكثير من الوحدات الإسلامية على طول الساحل من شماله إلى جنوبه، وهذه الوحدات أخذت تتطور من مجرد مراكز تجارية إلى مدن يحكمها عرب مسلمون أو سواحليون أو جماعات متفرقة من السواحلية،ويعيش فيها مزيج من هؤلاء جميعاً،وكانت بعض هذه الوحدات خاصة تلك التى قامت فى الجزر عربية الطابع إسلامية المنحى، بينما لم تتخذ بعضها سيما مدن الساحل مثل ماليندة وبراوة إلا صبغة سطحية من الثقافة العربية الإسلامية .

ويمكننا أن نقسم المراحل الرئيسية التى مر بها تاريخ العرب فى ساحل شرق إفريقيا حتى قيام سلطنة زنجبار الحديثة إلى المراحل الآتية :

المرحلة الأولى : وتتميز بظهور المراكز التجارية .

المرحلة الثانية : وتمتد من القرن السابع الميلادى إلى نهاية القرن الخامس عشر ، وتتميز هذه المرحلة بسيطرة المسلمين على تجارة المحيط الهندى ، كما شهدت هذه المرحلة أيضاً استقرار العرب والمسلمين فى ساحل شرق إفريقيا من الجزيرة العربية والخليج العربى وفارس والهند ، ومعلوماتنا عن هـــذه الفترة فى تزايد مستمر،مع ملاحظة أنه تبع عمليات الاستيطان ظهور كثير من

---

(١) Roland oliver, The Dawn of African History p. 48.

الوحدات السياسية منذ القرن العاشر الميلادى، ووصلت إلى أوج ازدهارها فى الفترة التى سبقت مقدم البرتغاليين إلى ساحل شرق إفريقيا .

المرحلة الثالثة : وصول البرتغاليين إلى الساحل وسيطرتهم على تجارة المحيط الهندى وانتزاعهم هذه السيطرة من العرب والهنود .

المرحلة الرابعة : وتتميز بالثورات والحروب المتتالية التى قامت ضد البرتغاليين حتى خلص الساحل الشرقى لعرب عمان، وبذلك وضع الأساس لتكوين سلطنة زنجبار الحديثة[1] .

لقد تبع ظهور الإسلام وانتشاره خارج الجزيرة العربية فى القرن السابع الميلادى اندفاع جماعات من العرب من سواحل الجزيرة العربية إلى ساحل شرق إفريقيا لا للتجارة بل للإقامة الدائمة ، وبدأ هؤلاء يقيمون المدن والإمارات الإسلامية على الساحل، وقد صادفوا جماعات من العرب سبقتهم إلى هناك منذ أزمنة بعيدة ، كما لقوا شعباً سواحلياً أسهمت العناصر الوافدة على الساحل فى تكوين سماته ، وهنالك إجماع بين المؤرخين على أن تلك الفئة من المسلمين أقامت منازلها الجديدة دون كبير مشقة أو عناء ، حلوا على الناس وتزاوجوا منهم وامتزجوا بهم ، كما فعل غيرهم من قبل ، وأخذت شعوب الساحل عنهم الدين الجديد والثقافة العربية التى قامت عليه، كما أخذت عنهم الكثير من وسائل عيشهم ونماذج حياتهم . وثمة ملاحظة جديرة بالذكر وهى أن معظم المهاجرين كانوا من إقليم عمان فى الجنوب الشرقى من الجزيرة العربية ، والواقع أن موقع عمان التى تحدها الصحراء من الغرب والمحيط من الجنوب والشرق كان له أثر فى توجيه سكانها إلى الملاحة والتجارة البحرية باعتبارها الوسيلة الوحيدة لحياتهم، وقد ظهرت مهارة العمانيين فى صناعة السفن والملاحة الشراعية، ولعب العمانيون دوراً كبيراً فى

(١) Oliver, op. cit. p. 48.

تنمية التجارة العربية فى المحيط الهندى خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر أى فى نفس الوقت الذى شهد تدهور قوة البرتغاليين البحرية تقريبا(١) . ويؤكد كثير من الباحثين أن تاريخ الساحل الشرقى لإفريقيا أقرب إلى الفهم إن درس على أنه تاريخ منازل إسلامية أتى أهلها من الخليج والجزيرة العربية ، وبمضى الزمن تحولت ثقافة الساحل إلى ثقافة إسلامية لا اهتزاز فى خصائصها وتشربت الثقافة العربية تشرباً كبيراً .

ويعد السير ريجنالد كوبلاند Coupland (٢) من أبرز الباحثين فى تاريخ شرق إفريقيا ،وعلى الرغم من تهوينه لمركز العرب ، كما سبق أن أوضحنا إلا أنه لم يجد مناصاً من الاعتراف بأن المستوطنات التى وجدت على الساحل كانت مستوطنات عربية ، ولكنه أشار فى أحيان كثيرة إلى أثر الفرس بينما تؤكد الدلائل عروبة المدن التى وجدت على الساحل فى خصائصها وفى أساليب عيشها ، وقد أبرز ذلك الرحالة البرتغالى دورات باربوسا Durate Barbosa حينما كتب عن حيوية مدن الساحل الشرقى وتجارتها، وأكد أن الحياة الخصبة التى صادفها البرتغاليون كانت حياة عالمية اشترك فيها الهنود والفرس، وظهر مجتمع خليط من هؤلاء جميعاً ، ولكن السمة العربية كانت غالبة والنغمة العربية للحياة كانت أقوى(٣) . وقد وضع باربوسا كتابه هذا فى عام ١٥١٨م، ولم يكن غرض كتابه التأريخ للساحل، وإنما انصرف إلى وصف

---

(١) Coupland, op. cit. p. 21.

(٢) له مؤلفين هامين عن شرق أفريقيا هما :

— East Africa and its Invaders Oxford, 1938.

— The Exploitation of East Africa, London 1933.

(٣) cf. The Book of Durate Barbosa 2 Vols.

وقد أخذنا ذلك نقلا عن بازل دافيدسون: إفريقيا تحت أضواء جديدة ص ٢٧٢

السكان وأحوال التجارة والتعامل ، وسجل إعجاب البرتغاليين بما وجدوه من مدن ومجتمعات متحضرة على ساحل شرق إفريقيا ، وتجارة مزدهرة مع الشرق الأقصى والهند، كما سجل إعجابهم بما لاحظوه من التناقض الشاسع بين الساحل الغربى والساحل الشرقى من إفريقيا الذى كان يموج بالحياة . وقد يكون من المناسب أن نعرض بصدد ذلك لما ذكره باربوسا فى وصفه لحضارة الساحل الشرقى الإفريقى إذ كتب يقول « ما أن وصلت المراكب الصغيرة التى كان يقودها فاسكودى جاما إلى سفالة فى شرق إفريقيا حتى فوجئت مفاجأة لم تكن تتوقعها ... فقـــد لقى البحارة ما لم يكن فى حسبانهم حينما خرجوا يضربون فى البحر ... لقوا مرافىء تطن كخلايا النحل ومدناً ساحلية عامرة بالناس ... وفرحوا حين وجدوا بين البحارة العرب والهنود رجالا عبروا المحيط الهندى مرات عديدة ويعرفون من أجل ذلك دقائق مرافئه وسجلوا هذه الدقائق فى خرط متقنة لا تقل فائدة عما كانوا يعملونه هم من خرط فى أوربا . . رأى البرتغاليون على هذا الساحل مدناً آهلة بالسكان لا تقل نشاطاً عن مدنهم فى البرتغال ، كما رأوا تجارة بحرية نافعة فى الذهب والحديد والعاج والخرز وجلود السلحفاة والأقمشة القطنية والرقيق ... وجدوا عالماً تجارياً أوسع من عالمهم الذى جاءوا منه وأكثر ثراء من بلادهم ، وحتى السفن التى وجدها البرتغاليون كانت أكبر من سفنهم ؛ فقد كانت عابرات المحيط الهندى آنذاك أكبر من سفن دى جاما وأضخم حجماً ... حتى لقد عجب سكان الساحل من أين أتى البرتغاليون وكل البـلاد عندهم معروفة ! (١) » .

---

(١) cf. The Book of Durate Barbosa pp. 14 — 21.
Edited by M. l. Dames 1918.
cf An account of the East Coast 1517 — 1518.
Hakluyt Society.

انظر بازل دافيدسون - إفريقيا تحت أضواء جديدة ص ص ٢٦٤/٢٦٥ .

وقد عاصر مقدم البرتغاليين إلى ساحل شرق إفريقيا ربان عربي يدعى شهاب الدين أحمد بن ماجد السعدى أو النجدى ، عاش فى النصف الثانى من القرن الخامس عشر والسنوات الأولى من القرن السادس عشر، وخلف تراثاً خالداً فى فنون البحار والملاحة الفلكية يشتمل على مايقرب من تسعة عشر مؤلفاً ضمت فى مخطوط كبير تم الكشف عنه فى أوائل القرن الحالى، ويرجع الفضل فى ذلك إلى المستشرق الفرنسى جبرييل فيران الذى اكتشف هذا المخطوط فى قسم المخطوطات بالمكتبة الوطنية فى باريس، وكانت المكتبة قد حصلت على هذا المخطوط من أستاذ جزائرى يدعى سليمان تولى التدريس فى مدرسة اللغات الشرقية بباريس فى عام ١٨٦٠ ، وظل المخطوط يكاد يكون مهملا فى فهارس المكتبة تحت رقم ٢٢٩٢ باستثناء بعض الإشارات السريعة العابرة عنه إلى أن قام فيران بالتحقق من قيمته العلمية ونشره بين عامى ١٩٢١ و١٩٢٣ ، وذلك بعد أن عكف على دراسته ما يقرب من عشرة أعوام أو يزيد(١) .

وتنحصر أهمية هذا المخطوط فى أنه أقدم وثيقة عربية دونت عن الملاحة وفنون البحار فى البحار الجنوبية بين الساحل الشرقى لإفريقيا فى المحيط الهندى والبحر الأحمر والخليج العربى وبحر الصين الغربى وأرخبيل الملايو وبلاد الصين . وفى عام ١٩١٩ عثر فى دمشق على نسخة أخرى من هذا المخطوط وقد نسخت بمكة فى عام ١٥٩٢ تولى فيران مطابقتها على النسخة الفرنسية، وأخيراً عثر المستشرق الروسى كراتشكوفسكى فى المتحف الآسيوى على ثلاثة أراجيز تتعلق أولاها بالإبحار عن طريق البحر الأحمر ، والثانية بالإبحار عن طريق المحيط الهندى، والثالثة وصف الطريق من المحيط الهندى

---

(١) أنور عبد العليم — أحمد بن ماجد ص ٦

أنظر أيضا مادة شهاب الدين أحمد بن ماجد فى دائرة المعارف الاسلامية .

إلى إفريقيا الشرقية(١)، وقد نشرت هذه الأراجيز الثلاثة فى عام ١٩٥٧ قام بنشرها معهد الاستشراق السوفيتى بمدينة لينينجراد بعد أن عكف فيودور سوموفسكى — أحد تلامذة كراتشكوفسكى — على دراستها والتعليق عليها وقد نشرها باسم ثلاث راهمانجات المجهولة(٢)، كما عثر على مخطوطة أخرى لأحمد بن ماجد بالموصل لا تزال تحتاج إلى تحقيق(٣).

وعلى الرغم مما يكاد يتفق عليه الكثير من الباحثين على أن أحمد بن ماجد هو الذى أرشد فاسكو دى جاما فى رحلته إلى الهند إلا أن المطلع على مؤلفات أحمد بن ماجد لا يجد فيها أية إشارة إلى ذلك، وإذا كان ابن ماجد قد وضع بعض هذه المؤلفات قبل مقدم البرتغاليين فإن هناك مؤلفات أخرى كتبها بعد وصول البرتغاليين، وبالتحديد بين عامى ١٥١١ و ١٥١٢ لم يتعرض فيها إلى ذلك الحادث.

أما المصادر البرتغالية المعاصرة والتى كتبها كل من جويز باروس، وكاستنهيدا، فعلى الرغم من أنها أشارت إلى أن ملاحاً عربياً قاد سفينة فاسكو دى جاما إلى الهند، إلا أنها لا تذكر الإسم صراحة وإنما تردد أسماء غير واضحة لهذا الملاح مثل معليمو كانا كا أو كانا أو عربى من الكجرات صحب فاسكو دى جاما فى عام ١٤٩٨ فى رحلته من مالبندة إلى قاليقوط(٤). وقد أثبت فيزان أن اسم معليمو ليس إلا تحريفاً سواحلياً للكلمة العربية معلم،

---

(١) لقيت مؤلفات أحمد بن ماجد عناية خاصة من المستشرق المعروف سيلفستردى ساسى Silvstre de Sacy فى عام ١٨٩٠، وتوجد نسخة زنكوغرافية فى دار الكتب المصرية نقلا عن المكتبة الأهلية بباريس لكل من مؤلفات أحمد بن ماجد وسليمان المهرى.

(٢) نشر هذا الكتاب فى عام ١٩٥٧ عن معهد الإستشراق السوفيتى بلينينجراد وبه الثلاثة مرشدات البحرية نقلا عن أصولها المحفوظة فى مكتبة معهد الاستشراق السوفيتى، وقد نشرت هذه المرشدات بأصولها العربية وبترجمتها والتعليق عليها باللغة الروسية.

(٣) كراتشكوفسكى : الأدب الجغرافى القسم الاول. هذا وقد علمنا من أحد أصدقائنا فى الخليج العربى بوجود مخطوطة أخرى لأحمد بن ماجد فى حوزة إحدى الأسر فى إمارة رأس الخيمة بدولة الامارات العربية.

(٤) كراتشكوفسكى : مع المخطوطات العربية ص ص ١٨٠ـ١٨٣.

وكذلك برجوعنا إلى مؤلفات سليمان المهرى ، وهو ملاح عربى عاش بعد ابن ماجد بسبعين سنة لا نجد فى كتاباته أية إشارة إلى هذا الحادث .

أما الذى أكد على حادثه إرشاد أحمد بن ماجد للبرتغاليين فهو جبرييل فيران حينما عثر على مخطوط باللغة العربية لقطب الدين النهروالى يرجع تاريخه إلى عام ١٥٧٧ بعنوان البرق اليمانى فى الفتح العثمانى، وقد ذكر ذلك المخطوط تحت باب انتقال الدولة باليمن من بنى طاهر إلى الأمير حسين من الجراكسة «أنه وقع فى أول القرن العاشر الهجرى من الحوادث الفوادح النوادر دخول الفرتقال اللعين من طائفة الفرنج الملاعين إلى ديار الهند ، وأنهم كانوا يتعرضون لأخطار إلى أن دلهم هذا الملاح الذى كان يصحب الخمر مع أمير البحر البرتغالى ، فلما لعبت الخمر برأس الملاح أرشد أمير البحر إلى الطريق ، قائلا للبرتغاليين لا تقربوا الشاطىء عند هذا الجزء إلى الشاطىء الشرقى لأفريقيا إلى الشمال من ماليندة بل أديروا الدفة رأساً صوب البحر المفتوح فتبلغا شاطىء الهند وتكونوا فى حمى من الأمواج ، فلما اتبعوا هذه الارشادات نجا كثير من السفن البرتغالية من الغرق » .

وقد تكون أهمية كتابات قطب الدين أنه عاصر أحمد بن ماجد ، فضلا عن أن بعض المصادر البرتغالية قد أشارت إلى إرشاد بعض الأدلاء لفاسكودى جاما إلى الطريق وقد حدث ذلك بتكليف من ملك ماليندة الذى حالف البرتغاليين عند وصولهم إلى بلاده ضد منافسه شيخ ممبسة ، ولكن المؤرخ البرتغالى باروس نسب قصة الإرشاد إلى ملاح مسلم من أهل كجرات ، أما الحكومة البرتغالية فإنها قد اعترفت أخيراً بفضل أحمد بن ماجد فأقامت له نصباً تذكاريا فى مدينة ماليندة[1] ، ولكن التشكك فى أن يكون أحمد بن ماجد هو الذى أرشد البرتغاليين إلى الهند يقوم على الاعتبارات الآتية :

---

(١) أنور عبد العليم : أحمد بن ماجد ص ٦١ ، العدد ٦٣ من سلسلة أعلام العرب .

أولا : أن ابن ماجد لم يشر إلى ذلك بل إنه أبدى عداء أو اضحا للبرتغاليين فى أشعاره وأراجيزه .

ثانياً : أن سليمان المهرى الذى ظهر بعد ابن ماجد لم يشر هو الآخر إلى هذه الحادثة ، أما سيدى على رئيس فى كتابه المحيط الذى كتبه باللغة التركية ورجع فيه إلى أسفار ابن ماجد وسليمان المهرى فقد ذكر أن الربابنة الأجانب كانوا لا يعرفون كيف يبحرون فى المحيط الهندى دون الإستعانة بربان يرشدهم ولكنه لم يورد اسم ذلك الربان ، ويرى البعض أن ما ذكر عن أن بن ماجد أنه كان فى حالة سكر أمر لا يرقى إلى المنطق إذ كيف يترك له فاسكودى جاما قيادة سفينته وهو فى هذه الحالة ، هذا فضلا عما يتبين من كتاباته وأراجيزه شدة ورعه وحجه إلى مكة ، وربما تفيدنا مؤلفات أحمد ابن ماجد فى تاريخ شرق إفريقيا فى ناحيتين :

الأولى : ما جاء بها من إشارات عن وصول البرتغاليين إلى ساحل شرق إفريقيا .

والثانية : ذكره لبعض المناطق والمدن والجزر الموجودة على الساحل .
ومن أهم مؤلفات أحمد بن ماجد كتاب الفوائد فى أصول علم البحر والقواعد، وحاوية الاختصار فى أصول علم البحار ، وقد ذكر فى الفائدة العاشرة من كتاب الفوائد وصفا لبعض الجزر الكبيرة المشهورة يعنينا منها وصفه لجزيرة القمر التى ذكر عنها أنه يحكم عليها سلاطين الإسلام وبها أربعين خطبة ، ويقصد بذلك أربعين مسجداً .

وإلى جانب هذه المؤلفات هنالك أراجيز لا تخرج فى جملتها ، وكما سبق أن ذكرنا ، أن تكون مرشدات ملاحية لبيان طرق الملاحة ، ويهمنا من هذه الأراجيز الأرجوزة السفالية ، نسبة إلى سفالة فى جنوب شرق إفريقيا، وهى قصيدة طويلة تقع فى أكثر من سبعمائة بيت ، وأهمية هذه الأرجوزة

أنها تكاد تكون الأرجوزة الوحيدة التي يرد فيها ذكر البرتغاليين، فبالإضافة إلى ما جاء بها من وصف للمجاري والقياسات من مليبار والسند إلى نواحي السواحل والزنج وأرض السفال وجزره، نجـــد فيها بيانات عن وصول البرتغاليين إلى جزيرة مدغشقر من ذلك ما جاء في أحد هذه الأبيات :

وخشب الأفرنج قد جاءوها
وملكوها بعدأن غازوها

### العرب والبرتغاليون في شرق إفريقيا :

لم يعرف الأوربيون إفريقيا حتى أواخر القرن الخامس عشر الميلادى ، وقد يكون تجار العصور الوسطى من الأوربيين قد عرفوا بعض السواحل، الافريقية إلا أن المماليك في مصر نجحوا في أن يبعدونهم عن هذه السواحل، بل كما هو معروف لدينا كان محرماً على الأوربيين أن يلجوا البحر الأحمر خوفاً من أن يتعرفوا على مصادر التجارة الهندية ، وأدى هذا التحريم على الأوربيين إلى جهلهم التام بالقارة الافريقية ، ولكنهم كانوا يرون الحجاج الأثيوبيين يترددون على بيت المقدس بيد أنهم كانوا لا يعرفون لهم جنسا ولا يعرفون البلاد التي أتوا منها فكانوا يعتقدون أنهم هنوداً تارة أو فرسا أو أحباشاً تارة أخرى حتى نشأت بينهم قصة عن ملك أسود يحكم بلاداً مسيحية في جنوب مصر أطلقوا عليها اسم مملكة القس يوحنا Prester John . ومن المعروف أنه كان من أبرز العوامل التي حركت البرتغاليين للكشف الجغرافي رغبتهم في الوصول إلى هذه المملكة لاحكام تضييق الخناق على المسلمين، إذ أنه كان من بين العوامل التي دفعت البرتغاليين إلى المساهمة بدور وافر في حركة الاستكشافات الجغرافية الانتقام من المسلمين الذين حكموا شبه جزيرة أيبريا فترة طويلة من الزمن، والبحث عن مواطن الذهب والإتصال بهذه المملكة المسيحية التي تحدثت عنها أقاصيص الرحالة في العصور الوسطى،

ولم تحدد هذه الأقاصيص موقع المملكة بالضبط ، ولكن فهم أنها تقع فى مكان ما وسط القارة الافريقية ، ولما لم يعثر البرتغاليون فى أثناء تقدمهم على طول الساحل الغربى لافريقيا على أثر لتلك المملكة فقد رجحوا أن تكون فى الجانب الشرقى من القارة ، ولا شك أنهم كانوا يعنون بتلك المملكة دولة الحبشة المسيحية ، وإذن فإن منطقة إفريقيا الشرقية المواجهة للجزء الجنوبى الغربى من المحيط الهندى كانت تحقق جميع هذه الأهداف بالنسبة للبرتغاليين فالإمارات التى تنتشر على سواحلها ، عربية كانت أو سواحلية ، ومناجم الذهب موجودة خلف هذه الإمارات؛ وقد ظهر أن العرب يستفيدون من هذه المناجم ، ثم أن مملكة القس يوحنا تقع قريبة منها .

واتجه البرتغاليون فى بداية الأمر إلى إتخاذ ساحل شرق إفريقيا بمثابة قاعدة ملاحية فى الطريق إلى الهند ، وتبع ذلك اتجاههم إلى استغلال المنطقة وأتى ذلك الهدف متأخراً عن الهدف الأول الذى أصبح فى الواقع هدفاً أساسياً من وراء سيطرة البرتغال على ساحل شرق إفريقيا .

ويمكننا أن نلحظ أثر البرتغاليين فى ساحل شرق إفريقيا فى ظاهرتين بارزتين :

الأولى : إتجاه البرتغاليين إلى احتلال الساحل وعزله عن الداخل الذى كان يمده بسلعه التجارية والتى كانت تصدر بدورها إلى موانى الخليج العربى والهند والشرق الأقصى .

والثانية : اتجاه البرتغاليين إلى إثارة الحروب والمنازعات الأسرية بين حكام الساحل، والهدف من ذلك إضعاف الزعماء والرؤساء ليؤول للبرتغاليين السيطرة فى نهاية الأمر[1] .

---

(١) بازل دافيدسون : إفريقيا تحت أضواء جديدة ص ٤١٦ .

ويعتبر اكتشاف البرتغاليين لطريق رأس الرجاء الصالح ووصولهم إلى الهند بداية الاستعمار الأوربي في العصر الحديث، وكان من أبرز نتائج ذلك الكشف أن تحولت التجارة الشرقية من طريق الخليج العربي والبحر الأحمر وغيرهما من الطرق البحرية والبرية التقليدية إلى ذلك الطريق البحري المباشر. وكانت تجارة الشرق يومئذ بيد العرب فصارعهم البرتغاليون بعنف وقسوة واستطاعوا أن ينتزعوا منهم تلك التجارة، وأن يضعفوا ما كان لهم فيها من نشاط ظاهر، واتسم الصراع الذي نشب بين العرب والبرتغاليين بنزعة دينية وتعصب صارخ[1]. ويؤكد كوبلاند أن العرب الذين كانوا يسيطرون على تجارة المحيط الهندي منذ عدة قرون لم يكن يترامى إلى ذهنهم بأن تلك السفن القليلة القادمة من أوربا يمكن أن تشكل خطراً لثروتهم أو على «التسلط» الذي كانوا يتمتعون به على تجارة الشرق، ولكن لم يلبث أن اتضح لهم بعد ذلك بقليل أن رحلة فاسكودي جاما تبعها تسلط عسكري واحتكار اقتصادي بالغ.

كان أول وصول البرتغاليين إلى ساحل إفريقيا الشرقي في إبريل سنة ١٤٩٨، ولقوا من العرب والسواحلية ترحيباً في بداية الأمر إلى أن وضح لهؤلاء حقيقة ما يضمرون، وأدركوا أنهم يريدون الانقضاض على تجارتهم والاستيلاء على بلادهم فتحول الود عداءاً، وعلى أي حال فقد تمكن البرتغاليون من الساحل ما يقرب من مائتي عام ١٤٩٨ — ١٦٩٨ آلت إليهم تجارته وموارده واستفادوا من مصادر ثرواته في الذهب والعاج والرقيق. وقد بدأ احتكاك البرتغاليين بجنوب الساحل الشرقي في موزمبيق وسفالة حيث أعتقد سكانها في بداية الأمر أن القادمين أتراكاً مسلمين، ويستدل من المعلومات التي لدينا أن منطقة شرق إفريقيا كانت تابعة لسلطان كلوة، وأنه كان يعين

---

(١) زين العابدين: تحفة المجاهدين في بعض أحوال البرتغاليين نشر David Lopes ص ٤٥، ويمكن الرجوع إلى بعض المراسلات المتبادلة بين العمانيين والبرتغاليين في كتاب حميد الدين السالمي: تحفة الأعيان بسيرة آل عمان ص ١١ وما بعدها.

من قبله ولاة على مقاطعات الساحل ، وقد نجح فاسكودى جاما فى الوصول إلى كثير من الموانى كسفالة وكلوة وزنجبار وماليندة، وهناك فوجىء بأن السفر إلى الهند كان معروفا لدى تجار هذه البلاد وأنه يمكن الاعتماد على مرشدين من العرب أو الهنود، وفى موزمبيق طلب فاسكودى جاما بعض الربابنة ليرشدوه إلى الهند ، ولكن عندما تبين لأهالى موزمبيق حقيقة البرتغاليين برزوا لهم بالعداء حتى اضطر فاسكودى جاما إلى مغادرة موزمبيق بحثاً عن مكان آخر فاتجه إلى ماليندة؛ وهناك وجد حاكما يدعى «وجراج» لم يستطع الخروج إليه من قصره لكبر سنه، وإنما أوفد إليه أحد أبنائه ، وطابت لفاسكو دى جاما الإقامة فى ماليندة بعض الوقت حيث استجمع من هناك عدداً آخر من الأدلاء ليرشدوه إلى الهند، وطلب حاكم المدينة منه أن يعرج إلى ماليندة عند عودته من الهند لأن فى نيته أن يبعث معه وفداً بقصد مصادقة ملك البرتغال .

وكان نجاح فاسكودى جاما حافزاً لعمانويل، ملك البرتغال، على تجهيز حملة كبيرة ليست بهدف الكشف هذه المرة وإنما بهدف السيطرة ، ووصلت الحملة البرتغالية فعلا إلى موزمبيق وكلوة فى يولية ١٥٠٠، وحاول قائدها كبرال Cabral أن يعقد معاهدة مع سلطان كلوة، ولكن السلطان رفض مصادقة البرتغاليين أو محالفتهم ، وإنما أخذ يستعد للدفاع عن بلاده، فاتجه كبرال(١) إلى ماليندة حيث سلم إلى شيخها الهدايا التى كان قد بعث بها إلى الملك عمانويل رداً على بعثة حاكم ماليندة إلى لشبونة التى رافقت فاسكودى جاما عند عودته من الهند(٢). وقد رأى شيخ ماليندة أن يستعين بالبرتغاليين فى القضاء على منافسه شيخ

---

(١) Krapf, Travels and Missionary Labours in East Africa p. 524.

(٢) Zôe March, op. cit. pp. 61 -- 62.

cf. The Vayage of Pedro Alvarez Cabral in Brazil and India., Hakluyt Society, 1938 pp. 56, 67.

ممبسة، وكانت العداوة لا تكاد تنقطع بين الشيخين، فشيخ ماليندة يحاول أن يؤكد لنفسه أصلا يسمو به على مشايخ الموانى الساحلية جميعها مدعياً أنه من سلالة حكام حكموا المنطقة الساحلية منذ القديم، أما شيخ ممبسة فقد كان من أقوى مشايخ الساحل سلطة ونفوذا .

ولم تقتصر المنافسة على ماليندة وممبسة ، وإنما انتقلت حومة التنافس إلى جميع الموانى الساحلية ، إذ انطويت تحت زعامة هذه البلدة أو ذاك معظم الموانى والجزر فى ساحل شرق إفريقيا ، ويؤكد جيان حقيقة هامة عن وجود صلات بين دولة المماليك فى مصر وبعض مناطق ساحل إفريقيا الشرقى، وذكر بصدد ذلك أنه عندما تقدم البرتغاليون من ميناء أوجه، شمال ماليندة، اعتذر حاكم الميناء بأنه لا يستطيع دفع جزية للبرتغاليين لأنه يتبع السلطان المملوكى بالقاهرة . وعلى أى حال فإننا نجد فى الوقت الذى وصل فيه البرتغاليون إلى ساحل شرق أفريقيا أن هذه المدن والموانى والجزر كانت فى منازعات ومنافسات مستمرة، وكان يحركها فى ذلك الدوافع الاقتصادية والتجارية ، فضلا عن دوافع السيادة والرغبة فى السيطرة على الساحل ، ومن المؤكد أن هذه المنازعات كانت قائمة قبل مقدم البرتغاليين بوقت طويل .

ويمكننا تتبع الأعمال العسكرية الأولى التى قام بها البرتغاليون فى ساحل شرق إفريقيا على الوجه الآتى : فى عام ١٥٠٢ محاولة فاسكو دى جاما إخضاع كلوة حتى تم للبرتغاليين ذلك فى عام ١٥١٢ ، وفيما بين عامى ١٥٠٣ و ١٥٠٥ نجح كل من رافاسكو Ravasco ودالميدا D'Almeida فى تأكيد السيطرة البرتغالية على معظم موانى الساحل، ويبدو أن البرتغاليين انصرفوا فى بداية الأمر إلى محاولة إتخاذ موانى شرق إفريقيا محطات

تمد سفنهم الذاهبة إلى الهند بالعتاد[١]، وقد يكون من المناسب أن نقرر هنا حقيقة هامة وهى أنه قد صحب الغزو البرتغالى لمدن ساحل الشرق إفريقيا إنتشار الإسلام بين القبائل الداخلية ، بسبب فرار العرب والمسلمين من الساحل إلى الداخل خوفاً من بطش البرتغاليين بهم، وهذا أمر نكاد نلحظه أكثر ما يكون وضوحا بالنسبة لإعتداء البرتغاليين على المـــدن الصومالية كمقديشيو وزيلع وبربر، واتجاه المسلمين إلى الداخل حيث انتشر الإسلام بين القبائل الصومالية بصفة خاصة .

كان العرب هم الطبقة الارستقراطية فى شرق إفريقيا ويليهم فى ذلك الهنود وإن كان هؤلاء لم يتطلعوا إلى مناصب الحكم وإنما وجهوا اهتمامهم إلى النواحى البحرية والاقتصادية ؛ وهذه النواحى كانت تشكل طبيعة الحياة فى تلك المجتمعات، وقد أصاب الهنود قدراً كبيراً من الثراء نتيجة عمليات النقل والتجارة وما إلى ذلك من المعاملات الأخرى ، وقد سبق أن أشرنا إلى أن البرتغاليين أنفسهم دهشوا دهشة بالغة حينما صادفوا تلك المجتمعات المزدهرة اقتصادياً وحضارياً ، وتحدث الكثيرون من مؤرخى البرتغاليين ورحالتهم عن هذا الازدهار الاقتصادى ، وأشاروا بصفة خاصة إلى الاتصالات التجارية بين موانى الشرق الافريقى والشرق الأقصى، كما تحدثوا عن العمارة والفن فى تلك المدن ، كما أكد الكثيرون منهم أن كشف طريق رأس الرجاء الصالح كان يشكل كارثة كبيرة بالنسبة إلى هذه المدن، ولذلك فإنهم يحددون نهاية القرن الخامس عشر بأنه يسجل انهيار العصر الذهبى للحضارة الإسلامية على الساحل الشرقى لافريقيا ؛ حينما أخذ البرتغاليون يعملون فيها معاول الهدم والتخريب[٢] .

---

(١) F. O. No. 116.
The Formation of Portuguse Colonial Empire pp. 9—10.

(٢) Serjent, The Portuguse off the South Arabian Coast pp. 9—11.

والواقع أن البرتغاليين وإن استغلوا فرصة النزاع الذى كان قائماً بين المدن والموانى الساحلية فى توطيد سيطرتهم على ساحل شرق إفريقيا إلا أنهم لم يتدخلوا صراحة لنصرة فريق على آخر، وفيما يبدو أنهم كانوا مشغولاين فى ذلك الوقت بمهمة الوصول إلى أسواق الشرق أكثر من اهتمامهم بأى شىء آخر ثم لم تلبث العداءات أن امتدت على الساحل وظهر أثرها فى قوة البرتغاليين فلم يجد شيخ ممبسة بدأ من مصالحة شيخ ماليندة، فكتب إليه رسالة يشرح له فيها مقدار ما أنزله البرتغاليون بممبسه من دمار، ويرجو منه أن يتعاون معه ضد البرتغاليين(١)، ولكن لم يكن لهذا الكتاب أى صدى بسبب الكراهية الشديدة التى استحكمت فى قلوب سكان ماليندة ضد ممبسة حتى بلغت كراهية أهالى ماليندة لممبسة أكثر من كراهيتهم للبرتغاليين . وقد استفادت ماليندة الكثير من الغنائم التى نهبها البرتغاليون من ممبسة حينما دارت بها المعارك العنيفة التى اشترك فيها الافريقيون مع السواحليين والعرب ضد البرتغاليين الذين أعملوا التخريب والتقتيل فى المدينــــة وسكانها ، والواقع أن ممبسة تعرضت لأحداث قاسية من الحروب والحصار والحريق، ويبدو أنه لم يوجد مكان مثل ممبسة تعرض لمثلما تعرضت إليه حتى لقد سميت بمدينة الحرب City of war(٢) ، وقد سرت فى الساحل موجة من العداء البالغ ضد البرتغاليين، إذ عمل العرب والسواحليون على طردهم من المراكز التى كانوا أصحاب التصرف فيها ؛ وإن كلفهم ذلك عبئاً كبيراً وتضحيات جسيمة(٣) ذلك أن الإمارات والمدن العربية الإسلامية فى ساحل شرق إفريقيا لم تلبث

---

(١) Freeman, op. cit. cf. The Sack of Kilwa & Mombasa by an Eye Witness account of 1505.

(٢) Eliot, East Africa Protectorate p, 9.

(٣) جيان : وثائق تاريخية وجغرافية وتجارية عن شرق إفريقيا ص ٢١٦ — ٢١٨.

أن سقطت سريعاً تحت عبء الغزو البرتغالى لأنه كان ينقصها القوة العسكرية؛ إذ أنه من الملاحظ أن هذه المدن لم تقم أساسا على الفتح بل قامت على التجارة، ولذلك وقعت فريسة سهلة للبرتغاليين مما كلفها مجهوداً كبيراً للتخلص منهم.

ومن المعروف أن العرب فى ساحل شرق إفريقيا لم يتعرضوا وحدهم لخطر البرتغاليين وإنما تعرض لذلك الخطر أيضا كل من قنصوه الغورى والشريف بركات وأمير عدن وحاكم هرمز ومحمود الأول صاحب كجرات، ومن هنا كان تفكير تلك القوى الإسلامية فى التكتل لمواجهة البرتغاليين، وقد تزعم هذا التكتل قنصوه الغورى سلطان مصر، ولما فشلت الوسائل السلمية بدأ عهد من سفك الدماء فى بحار الهند انتهى بفوز البرتغاليين(١).

وقد انصرف البرتغاليون على أثر استتباب الأمر لهم إلى استغلال موارد الشرق الافريقى والاستحواذ على مصادر الذهب ومن أجل ذلك أسس دالميدا مركز برتغاليين فى سفالة، وكان اضطراب الحكم فى الساحل الشرقى لافريقيا مما دفع الكثيرين من الحكام إلى طلب حماية البرتغاليين، والملاحظ أن البرتغاليين ارتكزوا على القسم الجنوبى من الممتلكات الإسلامية فى شرق إفريقيا بينما اكتفوا فى الشمال بالاعتماد على محالفة حكام ماليندة الذين كانوا يتلقون من البرتغاليين معونة عسكرية ويمكن تعليل هذا الاتجاه بأمرين :

أولا : أن المناخ فى الجنوب أكثر إعتدالا نظر لبعد المناطق الجنوبية عن خط الاستواء نسبياً .

ثانياً : أن القسم الجنوبى أقرب إلى مناجم الذهب، وقد توافد على هذه المنطقة بعض التجار البرتغاليين والمستوطنين الذين كونوا نواة مستعمرة

---

(١) جيان : مصدر سبق ذكره ص ص ٢٢١/٢٢٢.

موزمبيق البرتغالية، بينما توقفت الهجرة العربية فى القسم الجنوبى تبعاً لذلك بل إن كثيراً من المسلمين تركوا المنطقة الجنوبية ليستقروا فى القسم الشمالى من الساحل .

وقد تعرض الدارسون لامبراطورية البرتغال فى الشرق إلى تعليل أهدافها التى كانت تجمع بين النواحى الدينية والسياسية والاقتصادية . وإن كان الاستغلال والاحتكار التجارى، فيما نرى، هو الذى طبع هذه الامبراطورية وأعطاها سمتها المميزة : أما الهدف الدينى فقد كان البرتغاليون يعملون على إحاطة المسلمين وتضييق الخناق عليهم، وذلك بسيطرتهم على سواحل شرق إفريقيا لإحكام الحصار شمالا وجنوباً، وفعلا نلاحظ وجود عدة مشروعات برتغالية اضطلع بالكثير منها القائد البرتغالى أفونسودى البوكرك استهدف فى بعض منها تخريب مدينة السويس باعتبارها مركزاً للعمليات البحرية الإسلامية، أو محاولته إغراء نجاشى الحبشة بتحويل النيل عن مجراه بحيث يصب فى البحر الأحمر بدلا من البحر المتوسط، كما خطر لألبوكرك مهاجمة مكة وظن أنه باستيلائه عليها يخضع الإسلام كله ومع ذلك فلم تكن لدى البوكرك ولا لغيره من القادة البرتغاليين الوسائل الفعالة لإخراج تلك المشروعات إلى حيز التنفيذ(١) .

وتقترن الأهداف الدينية بما قام به البرتغاليون من محاولات للقضاء على مظاهر ومقومات الحضارة الإسلامية فى ساحل شرق إفريقيا، وإدخال المسيحية إليها ظهر ذلك فيما أنشأه الآباء الكاثوليك البرتغاليين من مراكز تبشيرية على الساحل، واشتهر من أولئك المبشرين البرتغاليين سان فرانسوا

(١) جيان : وثائق تاريخية وجغرافية وتجارية عن شرق افريقيا ص ٢٢٩ .

كزافييه، وسان مونيك، الذى اتخذ من ممبسة مركزاً تبشيرياً له، وكان هؤلاء المبشرون يتبعون طوائف التبشير الكاثوليكى التى كان من أهمها طائفة سان أوغسطين، وطائفة الآباء الجزويت وقد اتخذت هذه الطوائف من موزمبيق مركزاً لها، وعرف عن الجزويت، حماسهم البالغ لنشر الكاثوليكية ليس فى الساحل فحسب وإنما حاولوا التوغل فى الداخل أيضاً فى مملكة مونوموتابا إذ حرص البرتغاليون على التمسك ببعض المقاطعات الداخلية بالنظر إلى غناها بالذهب وغيره من المعادن الثمينة الأخرى(١).

لقد نجح البرتغاليون فى السنوات الأولى من القرن السادس عشر فى السيطرة على الساحل الشرقى لأفريقيا، وفشلت جهود المسلمين فى درء خطرهم ويعزو ذلك فى رأينا إلى عاملين رئيسيين: العامل الأول تفكك السلطنات العربية على الساحل، والثانى، وهو الأهم عدم وجود تعاون بين الدول الإسلامية الكبيرة وأعنى بذلك الدولة العثمانية، التى حلت محل دولة المماليك فى مصر والشام والحجاز، والدولة الصفوية فى فارس. ولم يقتصر الأمر على عدم التعاون بين هاتين القوتين فحسب بل المعروف أن العداء بينهما وصل إلى حد أن طلب شاه الفرس معاونة البرتغاليين لضد الدولة العثمانية، فطبقاً لما يذكره جيان أوفد شاه الفرس إلى البوكرك أثناء وجوده بهرمز وفداً يحمل إليه الهدايا الفاخره ويدعوه إلى بلاطه أو أن يندب لذلك أحد وكلائه لأنه كان متأذياً من الأتراك ومجاورتهم لبلاده، وكان يرجو أن يعاونه البرتغاليون عليهم ويكونوا عضداً له يركن إليه فى المستقبل، والملاحظ أن انتصار البرتغاليين فى الهند كان أمراً كفيلا ببث حالة الرعب بين سكان شرق إفريقيا لحافظوا على ولائهم للبرتغاليين، على أنه عندما استولى الأتراك العثمانيون على مصر بدأوا يعملون على مواجهة البرتغاليين فى بحار الشرق، والخطورة فى هذا الصراع العثمانى البرتغالى بالنسبة للدولة العثمانية أنه مكن البرتغاليين من أن يستدرجوا قسما

(١) جيان: مصدر سبق ذكره ص ٢٧٣.

كبيراً من القوات العثمانية،وحالوا بينهم وبين تحقيق مشروعاتهم التوسعية فى أوربا ، ذلك أن العثمانيين ، كما هو معروف ، كانوا قد زحفوا إلى أواسط أوربا وبثوا الرعب فى قلوب سكانها .

على أن العمليات العسكرية بين الأتراك والبرتغاليين فى ساحل شرق إفريقيا بدأت متأخرة بعض الشيء عن الصراع العثمانى البرتغالى فى بحار الشرق، ولعل محاولة الأتراك العثمانيين الصدام مع البرتغاليين فى شرق إفريقيا كانت تشكل دوراً ثانياً من أدوار ذلك الصراع[1] .

ويرتبط النشاط العثمانى فى ساحل شرق إفريقيا بالضعف الذى طرأ على البرتغال كدولة بانضمامها إلى أسبانيا،إذ يسجل عام ١٥٨٠ بداية تدهور مركز البرتغاليين وقيام سلسلة من الثورات العربية فى الساحل الشرقى من إفريقيا على أثر ذلك ، وقد لقيت تلك الثورات مساعدات من قبل الأتراك العثمانيين مما أدى إلى ازدياد المنازعات بين العثمانيين والبرتغاليين، ففى عام ١٥٨٦ وصل القائد البحرى التركى على بك إلى مقديشيو وتعرف بمشايخها ولم تكن فى حوزته سوى سفينة حربية وثمانين جندياً ، ولكنه أخبر عرب الساحل أنه أتى من قبل السلطان العثمانى ليحررهم من البرتغاليين،وأن هنالك أسطولا عثمانياً كبيراً سيتبعه[2]،وقد استقبل بحماسة بالغة من ميناء إلى آخر ؛ حيث أعلنت كل من مقديشيو وبراوه وقسمايو وفازا وبات ولامو تحويل تبعيتها من الملك المسيحى فيليب الثانى إلى السلطان المسلم مراد الثالث ، وكانت ممبسه أسبق مدن

---

(١) عن بعض مظاهر الصراع العثمانى البرتغالى فى شرق إفريقيا يمكن الرجوع إلى :

Vambery, The life and Adventures of Sidi Ali Reis pp. 3 — 4.

(٢) Foreign. Office No. 119,

The Formation of the Portuguese Colonial Empire pp. 9 — 12.

شرق إفريقيا إلى ذلك إذ طلب شيخها من القائد التركى بناء قلعة وتزويده بحاميات عثمانية ، ولا ندرى إلى أى مدى وصل إليه على بك جنوباً فى الساحل وإن كان من المعروف أنه هاجم وغنم كثيراً من الأسلاب إذ أنه عاد إلى الاستانة فى عام ١٥٨٦ ومعه خمسون أسيراً برتغالياً ومجموعة كبيرة من الغنائم الأمر الذى بدا أنه نصر للعثمانيين أكثر من كونه نصر لحلفائهم من سكان الساحل الشرقى لأفريقيا .

على أنه قد تبع رحيل على بك مقدم أسطول كبير إلى شرق إفريقيا ، وسرعان ما تبين أنه لم يكن هو الأسطول الذى وعد به على بك حلفاءه وإنما كان أسطولا برتغالياً قدم من جوا استدعاه حاكم ماليندى فى عام ١٥٨٧ ، وقام البرتغاليون بحركة تأديبية للموانى التى سلمت للعثمانيين ، وعلى الرغم من أن الانتقام الذى أوقعه البرتغاليون بمدن الساحل كان قوياً فقد صمدت مقديشيو بفضل قوة أسوارها وبسالة رجالها أما ممبسة فلم تبد كثيراً من المقاومة ، ومع ذلك لم يجد البرتغاليون ما يسلبونه من المدينة التى رحـــل عنها سكانها أما شيخا بات ولامو فقد تذرع أولهما بأن الثورة فرضت عليه من قبل العثمانيين أما الثانى فقد آثر الفرار ، ولم يكن إلا فى فازا حيث أعمل البرتغاليون ما شاء لهم من صنوف التعذيب فى الأهالى ، كما أحرقوا المدينة وذبحوا شيخها مع مئات من سكانها ، وأغرقوا جميع السفن الراسية فى الميناء .

وحول نهاية عام ١٥٨٨ عاد على بك إلى ساحل شرق إفريقيا ، ولم يمنع محاصرة البرتغاليين لموانى الساحل من مراسلات السكان معه فى قاعدته فى عدن ؛ إذ بعثوا إليه يطلبون منه أن يفى بوعوده لهم فى تخليص مدن شرق إفريقيا من السيطرة البرتغالية ، بل عرضوا عليه أن يساهموا فى تكاليف الحملة ، وظهر بالفعل أسطول عثمانى يتكون من خمسة سفن ، واستقبله سكان الساحل بحماس بالغ باستثناء ماليندة التى وقفت موقفها المعروف بموالاة البرتغاليين حيث أطلقت النيران على أسطول على بك أثناء مروره بها ، وكانت خطة على بك

أن يقضى على ماليندة أولا، وبالفعل دبر مؤامرة رمى من ورائها السيطرة عليها بمساعدة منافستها التقليدية ممبسة، ولكن حاكم ماليندة فوت على على بك هذه الفرصة وبعث يستنجد بالبرتغاليين من جوا للمرة الثانية، وعلى الفور وصل أسطول برتغالى كبير يتكون من عشرين سفينة وتسعمائة جندى إلى ميناء ممبسة، واستعد على بك بتعزيز قواته فى الميناء، وفى الوقت الذى كان فيه القائد البرتغالى توماس كوتينهو Cutinho يستعد لمهاجمة الميناء بحراً كانت جحافل كبيرة العدد من القبائل الإفريقية قد تقدمت من الداخل إلى الساحل وعسكرت حول الخليج الفاصل، وكانت من قبائل الزيميا التى تنتمى إلى مجموعة الزولو، وكانت فى زحفها قد هاجمت المراكز البرتغالية القائمة فى مواطن استخراج الذهب فى سناوتنا بينما انطلقت جحافل منها نحو الساحل، وكان من المتوقع أن ينشغل البرتغاليون فى صدها فى الوقت الذى تتاح فيه الفرصة للمدن العربية التعاون مع العثمانيين، ولكن قبائل الزيميا لم تقتصر فى هجومها على مناطق الساحل الجنوبى الشرقى فى موزمبيق، وإنما استمرت فى زحفها فى موجة طاردة نحو الشمال فوصلت إلى كلوة فى عام ١٥٨٧ ثم إلى ممبسة، حيث وقع على بك بين نارين مما سهل على البرتغاليين القبض عليه وتفريق قواته وأسره، حيث أرسل إلى اشبونة وقيل أنه توفى بها بعد اعتناقه المسيحية[١] ولم يخلص ساحل شرق إفريقيا من اعتداءات الزيميا إلا بظهور قبيلة أخرى معادية لها وهى قبيلة سيجوجو Segeju التى تمكنت من حصر اندفاعها[٢].

وكانت هذه الأحداث المتتالية هى التى دعت البرتغاليين إلى التفكير الجدى فى بناء قلعة فى ميناء ممبسة عرفت بقلعة المسيح[٣] إذ أصبح مؤكداً لديهم أن سيطرتهم على ساحل شرق إفريقيا من موزمبيق لم يعد أمراً كافياً،

---

(١) Krapf, L, op. cit. p. 525.

(٢) Coapland, op. cit. pp. 60 — 65.

(٣) cf.

ومن هنا أخذوا يتطلعون إلى بناء قلعة أخرى، وتأسيس حكومة جديدة موالية لهم تضطلع بأمور القسم الشمالي من الساحل، وفي عام ١٥٩٣ بنيت هذه القلعة وساهم في بنائها عمال من ماليندة بالإضافة إلى بنائين من الهند، وقامت عند مدخل الميناء.

وبتوطيد السيطرة البرتغالية على ممبسة توالت طوائف الدومينكان والجزويت فبنوا الكثير من الكنائس في مدن كثيرة على الساحل، ونلاحظ بعد تأسيس قلعة المسيح تركيز السيطرة البرتغالية على الساحل فقبل بناء القلعة كان البرتغاليون يعتمدون في سيطرتهم على موالاة حكام ماليندة لهم، ولذلك نلاحظ أن نجم ماليندة أخذ يخبو بعد إنشاء تلك القلعة، وانتقال الحامية البرتغالية من ماليندة إليها، ولكي يكافئ البرتغاليون حاكم ماليندة انتزعت سلطنة ممبسة من الأسرة الحاكمة فيها وأعطيت لحاكم ماليندة الحسن بن أحمد فانتقل إليها وجعلها مركزاً لحكمه.

وتوجد لدينا بعض التواريخ المحلية التي كتبت في فترة متقدمة من الغزو البرتغالي لساحل شرق إفريقيا تمدنا ببعض التفصيلات الخاصة عن ملابسات العصر البرتغالي في شرق إفريقيا، وقد ذكر أوين Owen في رحلته إلى شرق إفريقيا أنه عثر على مخطوطة عربية مدونة في ٢٨ شعبان ١٢٩٣ هـ (١٨٢٢م) عند أحد سكان ممبسة وقد عرفت هذه المخطوطة باسم تاريخ آل المزروعي في ممبسة[١]، وقد عني جيان بنقلها إلينا، وتتناول هذه المخطوطة الفترة من وصول البرتغاليين إلى ساحل شرق إفريقيا إلى العام الذي كتبت فيه، وتتحدث هذه المخطوطة بصفة خاصة عن الصراع الذي كان قائماً بين ماليندة وممبسة وأن حاكم

---

(١) Owen, W. F. : Narrative of Voyages to explore the Shores of Africa, Arabia and Madghcsar 2 Vols London 1833 See Vol I. pp. 415 - 417.

ممبسة تسلم عدة رسائل من البرتغاليين بشأن المحالفة معه، ولكنه تردد فى ذلك فانصرف البرتغاليون إلى ماليندة . ويستدل من هذا التاريخ أيضاً على مدى التمزق الشديد الذى كان يعانى منه الساحل الشرقى لأفريقيا، فماليندة فى صراع ضد ممبسة ؛ وسفالة كانت تابعة لكلوة ولكن شيخها يوسف ، وقد شجعته الاضطرابات الداخلية ، أعلن انفصاله عن صاحب كلوة ، وسمح للبرتغاليين ببناء قلعة فى بلاده وهكذا وقفت إمارات الساحل مواقف مختلفة بالنسبة لعلاقتها مع البرتغاليين(١)، ويفهم من تاريخ آل المزروعى أيضا كيف عمق البرتغاليون الخلافات التى كانت قائمة بين ماليندة وممبسة ، وكيف تمكنوا من السيطرة عليها وتذكر المخطوطة بصدد ذلك أن ممبسة كانت تابعة لزنجبار ثم انفصلت عنها وتولى الحكم بها شاوومونيتا (شاهو بن مشمم) منذا انفصالها، ويبدو أن هذا الاسم اسم سواحلى فارسى ، مما قد يستدل منه على أنه كان أحد أقارب الأسرة الشيرازية التى تأسست فى كلوة .

وتروى المخطوطة العربية أن شاهو هذا كان آخر أمراء الأسرة الشيرازية التى حكمت مدينة ممبسة منذ انفصالها عن زنجبار، وأن حاكم ماليندة هو الذى خلف شاهو على ممبسة وكان يدعى الحسن بن أحمد، وترتب على وصوله إلى الحكم بمساعدة البرتغاليين له أن عقد معهم محالفة تمكنوا بواسطتها من إبقاء حامية عسكرية برتغالية فى قلعة ممبسة، ولكن تمضى المخطوطة العربية فتذكر أن الحسن بن أحمد صاحب ممبسة الجديد كان له ولداً يدعى شنجوليا أو يوسف ، كما ورد فى مصادر أخرى ، فلما مات الحسن بن أحمد انتخبه الأهالى بالولاية عليهم فى يوم السبت ٧ محرم ١٠٤٠ هـ الموافق ١٣ أغسطس ١٦٣١م،

---

(١) cf. Chronicles of Mombassa, Translated from the Arabic Text see Guillain, Documents Sur l' Histoire, Geographie et la Commerce de l' Afrique Orientale Tome I. Expose Critiques des diverses Notions acquises Sur l' Afrique Orientale pp. 614 – 622.

ولم يرد فى التاريخ شىء عن المدة الواقعة بين تاريخ وفاة أبيه فى عام ١٦٢٧ وبين وصوله إلى الحكم فى عام ١٦٣١ ، والأرجح كما تقرر بعض المصادر البرتغالية المعاصرة(١) أن البرتغاليين بعثوا به إلى جوا ، وكان يبلغ السابعة عشرة أو الثامنة عشرة من عمره عند وفاة أبيه، وهناك عهدوا بتربيته إلى طائفة سان أوغسطين، ويقال إنه تنصر وتسمى باسم دون جيرونيمو، ولما عاد إلى ممبسة وتسلم الحكم فى عام ١٦٣١ سار بين الناس بالجور إذ كان يكرههم على أكل لحم الخنزير، وكان على الجملة رجل سوء وشر ، وعلى الرغم من تحامل المخطوطة العربية عليه فإنها تسجل مع ذلك كفاحه فى مقاتلة البرتغاليين ؛ الأمر الذى يفهم منه أنه كان يتصرف تلك التصرفات بهدف خديعة البرتغاليين إذا مالبثت ممبسة بقيادة شنجوليا أن عادت مرة ثانية لتزعم حركة النضال ضد البرتغاليين، وعندما علم بأن أسطولا برتغالياً يتقدم إلى ممبسة أسرع بتخريب المدينة وهاجر هو وقومه إلى اليمن ، وبذلك تهيأ المسرح لظهور عمان لتتزعم حركة المقاومة ضد البرتغاليين فى ساحل شرق إفريقيا .

## تدخل عرب عمان فى ساحل شرق إفريقيا :

فى عام ١٦٥٨ تم طرد البرتغاليين من مسقط على أيدى عرب عمان وشجع ذلك الانتصار سكان شرق إفريقيا على أن يطلبوا مساعدة بنى دينهم وفعلا بعث حكام كل من زنجبار وبمبا وغيرها إلى إخوانهم عرب عمان يطلبون منهم المعاونة ، وهكذا بدأ تدخل عمان فى الصراع العربى البرتغالى فى شرق إفريقيا، واستطاعت دولة اليعاربة أن تقضى على سيطرة البرتغاليين فى شرق إفريقيا كما قضت على هذه السيطرة فى كل من عمان والخليج العربى(٢) .

---

(١) cf. Fariya Sousa, Asia Portuguesa Vol. VI. pp. 400 — 402.

نقلا عن حيان — وثائق تاريخية وجغرافية وتجارية عن شرق إفريقيا ص ٢٧٩ .

(٢) Krapf, op. cit. p. 522.

ويقترن نجاح عرب عمان فى إنهاء السيطرة البرتغالية بالضعف الذى طرأ على الإمبراطورية البرتغالية ، وهذا الضعف يرجع إلى عدة عوامل وإن كان المؤرخون البرتغاليون يعزون السبب الأكبر فى انهيار الإمبراطورية البرتغالية إلى الحكم الأسبانى للبرتغال ١٥٨٠ – ١٦٤٠ مما أدى إلى أفول نجمها منذ أوائل القرن السابع عشر ، وقد شجع ذلك فارس فى عهد الشاه عباس على طرد البرتغاليين من هرمز ، أقوى المعاقل البرتغالية فى الخليج العربى ، أما سبب خضوع البرتغال إلى الحكم الأسبانى فيرجع إلى عوامل كثيرة أبرزها الضعف الداخلى الذى انتاب البرتغال نفسها كدولة عندما انقرض الذكور من أفراد البيت المالك البرتغالى ، حقيقة أن البرتغال لم تلبث أن عادت إلى استقلالها فى عام ١٦٤٠ بفضل جهود يوحنا الرابع دوق برجانس ولكن ذلك لم يعد للإمبراطورية البرتغالية انتعاشها ، لأن انجلترا وهولندا كانتا قد اقتطعتا لأنفسهما الكثير من ممتلكات البرتغال منتهزتين فرصة خضوعها للحكم الأسبانى ، فهولندا أخذ نجمها يعلو بعد أن انتزعت استقلالها من أســبانيا وأخذت تتطلع إلى التجارة والاستعمار فى الخارج ، واتصل الهولنديون مباشرة بالهند ، وساعد على رسوخ أقدامهم فى بحار الشرق الكراهية الشديدة التى ترسبت فى نفوس أهالى الهند والصين ضد البرتغاليين ولم يكن الهولنديون وحدهم خصوم البرتغاليين ، وإنما ظهر فى الميدان منافسون جدد انجليز وفرنسيون .

أما انجلترا فقد ظهرت إلى مجال المنافسة عقب تأسيس شركة الهند الشرقية البريطانية فى عام ١٦٠٠ ، وقد تم تأسيس تلك الشركة عقب رحلات متعاقبة قام بها كل من فرنسيس دريك Dreke وكابتن ستيفنسن وكافنديش ١٥٨٧ وغيرهم(١) ، وفى عام ١٥٩١ أبحر الســير جيمس لنكستر بالسفينة

(١) انظر الجهود التى بذلها الانجليز للوصول إلى أسواق الشرق فى :
Foster, Enland's Quest in Eastern Trade. p. 79 ff.

Edaward Bonaventure إلى جزر الكومور وجزيرة زنجبار ووصل إلى الهند ، وعلى أثر التقرير الذى قدمه عن تلك الرحلة تأسست شركة الهند الشرقية البريطانية ، وبدأت المنافسة فى بحار الشرق بين الإنجليز والفرنسيين بعد أن نجحوا فى الوصول بدورهم إلى الهند حيث أسسوا لهم شركة فى عام ١٦٤٤ ، وكان ذلك على عهد الوزير الفرنسى الذائع الصيت كولبير(١) ، ولن يكون المجال هنا التعرض إلى هذه المنافسات التى قامت فى بحار الشرق بين هذه القوى العالمية الجديدة ( البرتغال — هولندا — انجلترا — فرنسا) وإنما كل ما يعنينا هنا أن نحصر نطاق هذه المنافسة فى ساحل شرق إفريقيا إذ وقع الصراع فعلا فى هذا الساحل بين البرتغاليين والهولنديين ، وكانت موزمبيق مسرحاً لهذه المنافسة ، وقد بدأ ذلك الصراع فى عام ١٥٩٧ وإن لم تستفحل صورته إلا فى عام ١٦٠٧ حينما انتصر الهولنديون على البرتغاليين، وترتب على ذلك الانتصار أن نقل البرتغاليون مؤقتاً مركز حكمهم فى شرق إفريقيا من موزمبيق إلى سفالة(٢).

وإذا كان هنالك إجماع بين المؤرخين على أن المنافسة الدولية التى تعرضت لها البرتغال فى بحار الشرق كانت المسئولة عن انحلال الإمبراطورية البرتغالية ، فإننا نود أن نضيف سبباً آخر ، نرى أنه كان من بين العوامل الهامة لانهيار الإمبراطورية البرتغالية ، ونعنى به سياسة البرتغال التى اتسمت بالاستغلال والاحتكار ، وفشل هذه السياسة تبعاً لذلك فى الحصول على تأييد السكان لها فانحازوا إلى غيرها . والخلاصة أن ضم البرتغال إلى إسبانيا ، وانشغال البرتغاليين فى تحقيق استقلالهم عاقهم عن تعزيز قواتهم مما سهل على الدول الأخرى أن تمضى فى تقطيع أوصال الإمبراطورية البرتغالية فى الشرق . هذا فضلا عن المعاملة السيئة التى تميز بها البرتغاليون وتضييقهم الخناق على غيرهم من الشعوب فى المجال التجارى ، مما أثار موجة شديدة

---

(١) Ingrams, Arabia and the Isles p. 7

(٢) جيان : مصدر سبق ذكره ص ص ٢٩٣ — ٢٩٤ .

من الكراهية ضدهم[١] . ولما كانت الإمبراطورية البرتغالية إمبراطورية ساحلية طويلة ممتدة من لشبونة إلى كاليكوت فقد كانت قواعدها فى حاجة ماسة إلى حاميات تعزيزية لم ينجح البرتغاليون فى إمدادها بها ، وهكذا تضافرت الظروف على الإطاحة بتلك الامبراطورية . وكما سبق الإشارة شجع ذلك الانهيار فارس على طرد البرتغاليين من هرمز ، وكانت هرمز بمثابة مفتاح للخليج العربى حرص البرتغاليون عليها غاية الحرص ، ولذلك نتج عن سقوطها تلاشى السيطرة البرتغالية على الخليج العربى مما مهد لسيطرة أئمة عمان اليعاربة على المعاقل البرتغالية وتقوية أركان دولتهم الناشئة[٢] ، وصادف فى ذلك الوقت أن اتجهت ممبسة التى كانت تعانى من ضغط البرتغاليين إلى طلب العون من عمان ، مما شجع العمانيين على مواصلة كفاحهم ضد البرتغاليين ، وعلى الرغم من أننا قد أشرنا إلى عوامل كثيرة كان لها أثرها فى اضمحلال القوة البرتغالية فلا ينبغى مع ذلك أن نغفل أهمية الدور الذى قامت به عمان فى طرد البرتغاليين من الخليج العربى وشرق إفريقيا ، وقد بدأ الإمام ناصر بن مرشد مؤسس دولة اليعاربة ( ١٦٢٤ — ١٧٤١ ) حركة تحريرية كبرى تبعه فيها خليفته سلطان بن سيف ١٦٤٩ — ١٦٦٨ الذى لم يكتف بالقضاء على البرتغاليين فى مسقط ومطرح ، وإنما تتبعهم فى مستعمراتهم بالهند وشرق إفريقيا ، والثابت أنه وصل بأسطوله إلى بومباى وحاصر بعض المراكز البرتغالية فى سواحل ملبار ، ولم يلبث أن اغتنم فرصة استنجاد أهالى ممبسة بعمان ، فقام بمحاصرة تلك المدينة حصاراً طويلا استغرق أكثر من خمس سنوات (١٦٦٠ — ١٦٦٥ ) عاود البرتغاليون بعدها استيلائهم عليها حيث استبدوا

---

(١) عن ازدهار وانهيار الأمبراطورية البرتغالية يمكن الرجوع الى :

Boxer, C. R. Fur Centures of portuguese Expansion London 1961,

(٢) انظر نص المكاتبات بين البرتغاليين والعمانيين فى :

Guillain, Documents Sur l' Histoire, Geographie et la Commerce de l' Afrique Orientale. Tome I 520 ff

وكذلك السالمى — تحفة الأعيان بسيرة آل عمان المجلد الثانى ص ١١ وما بعدها .

بالأمر واشتدوا فى معاملة الأهلين[١] .

وقد اتجه سلطان بن سيف بعد حصاره لممبسة إلى جزيرتى بمبا وزنجبار وتمكن من تخليصهما من أيدى البرتغاليين الذين استبد بهم الغضب ، فقام القائد البرتغالى كابريرا بمهاجمة سكان هاتين الجزيرتين لمساعدتهم العمانيين ، ولكنه لم يستطع مواجهة العمانيين أنفسهم الذين استطاعوا خلال النصف الثانى من القرن السابع عشر إقصاء البرتغاليين عن مستعمراتهم فى شرق إفريقيا والتى كانت تمتد من جزيرة سقطره شمالا إلى خليج دلجادو جنوباً[٢] .

وليس من شك فى أن نجاح العمانيين كان يرتبط بعدة عوامل منها قوة عرب عمان وتفوقهم فى الملاحة ، بالإضافة إلى حالة الضعف والظروف المختلفة التى جابهت البرتغاليين أنفسهم ، هذا إلى جانب عامل آخر كان من أبرز العوامل التى أدت إلى سرعة انهيار النفوذ البرتغالى من تلك المقاطعات الإفريقية وغيرها ، وهو أن الغرض الأساسى للبرتغاليين لم يكن الاستعمار وإنما كان التشبث بأسلوب الاحتكار وإنشاء قواعد بحرية لضمان سلامة الطريق الموصل بين لشبونة والهند[٣] ، وفى محاولة البرتغاليين التمسك بأسلوبهم الاحتكارى انتهجوا أساليب عنيفة اتسمت بالاستبداد والجور فأثارت الأهالى عليهم .

---

(١) لا يعتبر جيان هذه السنوات هى سنوات الحصار الذى وقع على ممبسة ويرى أن حصار تلك المدينة وقع بين سنتى ١٦٥٨ ، وهى سنة سقوط مسقط ، وسنة ١٦٦٣ ، وهى تاريخ رحلة الأب مانويل جود نهو البرتغالى الذى ذكر فى رحلته شيئاً عن حصار ممبسة وعن ما قام به الامام سلطان بن سيف فى صراعه ضد البرتغاليين فى شرقى إفريقيا والهند .

cf. Guillain, Expose Critique de diverses notions acquises Sur l' Afrique Orientale p. 518.

(٢) Hoefer, l' Univers, Histoire et description des tous les Peuples [ Afrique Orientale ] p. 163.

(٣) Pearce, Zanzibar, The Island Metropolis of Eastern Africa p. 8 — 7.

وكان أعظم انتصار أحرزه العمانيون على البرتغاليين فى شرق إفريقيا هو نجاحهم فى اخضاع ممبسة فى ١٤ ديسمبر ١٦٩٨[١] بعد حصار عنيف دام ثلاثة وثلاثين شهراً ، ويقول كوبلاند Coupland أنه بسقوط حصن المسيح فى ممبسة تم وضع نهاية للتفوق البرتغالى فى شرق إفريقيا[٢]، ويعقب بعض الباحثين على نجاح العمانيين فى انتزاع ممبسة بأنه كان من الممكن أن يقوم سيف بن سلطان، وهو الذى خلف أباه سلطان بن سيف فى عام ١٦٦٩، بتأسيس إمبراطورية عربية عمانية على أنقاض الإمبراطورية البرتغالية ، ويبدو أن تلك الفكرة قد داعبت خياله فى يوم من الأيام ، ولكن ضعف مركزه فى الداخل جعله يهمل تنفيذ ذلك المشروع ، وبذلك تأخر تأسيس الإمبراطورية العمانية فى شرق إفريقيا إلى نيف ومائة عام حينما قام بتأسيسها سعيد بن سلطان ( ١٨٠٦ — ١٨٥٦[٣]) .

وكان لسقوط ممبسة على يد دولة اليعاربة فى عمان أثره الكبير فى إرغام البرتغاليين على الجلاء عن جميع الساحل الذى يقع شمال خليج دلجادو (٤) وفشلت محاولاتهم فى إعادة سيطرتهم ، وكان من أبرز تلك المحاولات محاولة قام بها البرتغاليون فى عام ١٧٢٨ (٥) عندما تقدموا بأسطولهم صوب ممبسة منتهزين فرصة الاضطرابات التى وقعت بها نتيجة للصراعات التى قامت

---

(١) Guillain, op. cit. pp. 520 - 521.

ويذكر جيان ان العمانيين حاولوا اسقاط موزمبيق بعد نجاحهم فى الاستيلاء على ممبسة ولكنهم أسرعوا بالتراجع بعد أن عمد البرتغاليون الى ارهابهم عن طريق تفجير لغم كبير وضعوه هناك .

(٢) Coupland, op. cit. pp. 67 - 68.

(٣) Ruete, R, Said Bin Sultan p. 47.

(٤) عن قلعة البرتغاليين فى ممبسة يمكن الرجوع إلى :

Boxer, C. R, Fort Jesus and the Postuguese in Mombasa 1593—1729 London 1961.

(٥) Coupland, op. cit. p. 69.

بينها وبين زنجبار(١) بالإضافة إلى ما تردت فيه دولة اليعاربة فى عمان من حروب وفتن داخلية وغزوات فارسية متكررة ، وقد نجح القائد البرتغالى لويس سامبيو Sampio فى إعادة سيطرة البرتغال على بعض مدن الساحل وجزره كبات وكلوة(٢)، ولكن لم تستمر سيطرة البرتغاليين كثيراً إذ قام أهالى تلك المدن بطلب المساعدة من عمان التى كانوا ينظرون إليها باعتبارها الدولة الأم، وتمكن سيف بن سلطان، على الرغم من المشكلات العديدة التى كان يواجهها فى بلاده، من طرد البرتغاليين من تلك السواحل ولعل قسوة البرتغاليين فى حكمهم هى التى دفعت الأهالى للثورة عليهم وتقويض مراكزهم فى شرق إفريقيا حينما عمل سكان ساحل شرق إفريقيا الذبح والتقتيل فى أعناق الحامية البرتغالية فى ممبسة ، كما حذت حذو ممبسه كثير من مدن ومقاطعات الساحل .

وترتبط ثورة ممبسة على البرتغاليين بالعلاقات التى قامت بينها وبين دولة اليعاربه فى عمان فقد أدرك أهالى ممبسة أنه من الأفضل أن يحموا أنفسهم من البرتغاليين وذلك بالتجائهم إلى قوة كبيرة يعتمدون عليها ومن ثم كان من الطبيعى أن يلتجئوا إلى عمان نظرا للعلاقات الوثيقة التى قامت بينهما وأن يطلبوا من إمامها وضع بلادهم تحت حمايته ،وكانت هذه خير فرصة انتهزها الإمام سيف بن سلطان فبعث بأحد رجاله ويدعى محمد بن سعيد المعمورى فى عام ١٧٢٨ ليكون نائباً عنه فى حكم ممبسة ونجح ذلك الرجل فى إخضاع زنجبار وغيرها من مدن وجزر الساحل فأصبحت من توابع عمان إذ كانت تقوم بدفع الجزية السنوية إليها ، ولم تلبث أن ظهرت السيادة العمانية بصورة واضحة على الساحل الشرقى لإفريقيا حيث امتدت من مقديشيو شمالا إلى خليج دلجادو جنوباً ..

---

(١) Eliot, East Africa Pretectorate p. 19.

(٢) Ruete, op. cit. p. 47.

وقد ترتب على إحلال السيادة العمانية بدلا من السيطرة البرتغالية انطلاقة جديدة للاسلام، مما يجعلنا نؤكد حقيقة هامة وهى أن تدخل عرب عمان فى شرق إفريقيا لم يكن عاملا هاماً فى القضاء على السيطرة البرتغالية فى ساحل شرق إفريقيا فحسب بل إن أهمية هذا التدخل تكمن فى أنه أتاح للدين الإسلامى المناخ الصالح للانتشار دون عقبات[١]. فالمعروف أن البرتغاليين قد تمكنوا فى خلال المائتى عام التى قضوها فى التمكين للعقيدة الكاثوليكية، ولذلك يعتبر الكثيرون سقوط قلعة البرتغاليين فى ممبسة فى عام ١٦٩٨ معلماً هاماً لا حيث القضاء على السيطرة البرتغالية وإنما فى إتاحة فرصة ملائمة لانتشار الإسلام[٢] .

على أن سيطرة عمان على ساحل شرق إفريقيا فى أعقاب انهيار السيطرة البرتغالية لم تكن سيطرة فعلية فحقيقة الأمر أن أئمة عمان لم يكن لهم إلا آثاراً طفيفة فى ممارسة الحكم فى تلك الجهات، والواقع أن المشكلات الداخلية التى تردت فيها دولة اليعاربة من تنازع حول الحكم ومحاولة أئمة تلك الدولة توطيد مركزهم فى الجزيرة العربية والخليج العربى وحملاتهم ضد البرتغاليين كانت من أهم العوامل التى جعلت السيادة العمانية على ساحل شرق إفريقيا سيادة إسمية أكثر من كونها سيادة فعلية، ومع ذلك فقد استطاعت دولة اليعاربة فى عمان أن ترث البرتغاليين وتؤسس لها سيادة عربية امتدت على جزء كبير من ساحل شرق إفريقيا، وفى تقديرنا أن ضعف السيادة العمانية ترجع إلى أن دولة اليعاربة استنفذت معظم جهودها فى الصراع ضد البرتغاليين بحيث لم يعد لديها القدرة بعد طرد البرتغاليين أن تمارس سيطرتها على الشرق الإفريقى

---

(١) عبد الرحمن بدوى — لإفريقيا والثقافة العربية — العدد ٤٨ من مجلة نهضة إفريقيا السنة الرابعة — أكتوبر ١٩٦١ .

(٢) لوثروب ستودارد — حاضر العالم الإسلامى — تعليق شكيب أرسلان جـ ١ ص ٢٥٦ .

وإنما قنعت بالفتح وتركت للأيام تثبيت ماقامت به من فتوح(١)،أضف إلى ذلك ماسبق أن أشرنا إليه وهو أن دولة اليعاربة تعرضت لصراعات وانحلالات داخلية بسبب الثورات الأهلية والغزوات الفارسية،وهذه المشكلات جميعها لم تترك الفرصة لحكام الدولة أن يوجهوا اهتمامهم لما قاموا به من فتوح، ولذلك كان من الطبيعي أن ينتهز الحكام الذين تولوا الحكم فى مقاطعات الشرق الأفريقي هذه الفرصة وتلك الحالة من الفوضى والتفكك التى تردت فيها دولة اليعاربة وخاصة فى نهاية حكمها الذى اتصف بالانحلال المطلق مما كان له أثر كبير فى سقوطها وقيام دولة جديدة حملت عنها أعباء الحكم وهى دولة البو سعيد .

وكان لانتقال الحكم من دولة اليعاربة إلى دولة البوسعيد له رد فعل قوى فى شرق إفريقيا ؛فإذا كان حكام شرق إفريقيا قد تولوا الحكم من قبل دولة اليعاربة فماذا يمنعهم بعد أن سقطت تلك الدولة وزوال حكمها أن يستقلوا بما تولوا عليه من مقاطعات ؟

وقد حدث ذلك فعلا عندما تزعمت ممبسة الحركات الانفصالية التى ظهرت فى ذلك الوقت فى كثير من المقاطعات الأفريقية ولا عجب فى ذلك فتاريخ ممبسة يوضح لنا أن تلك المدينة الصلدة اتسم سكانها بالعنف وشدة المراس(٢)، وقد تزعم الحركة الانفصالية فى ممبسة محمد بن عثمان المزروعى الذى أسس الأسرة المزروعية فى عام ١٧٣٩ بعد وصوله إلى ممبسة وانتزاعه الحكم من أحمد بن سعيد المعمورى(٣)،وكانت الأسرة المعمورية إحدى الأسرات التى أقامتها عمان فى حكم الساحل الشرقى من إفريقيا ، وكان لسقوط دولة اليعاربة فى عام ١٧٤١ فرصة انتهزها محمد بن عثمان المزروعى لكى يعلن استقلال

(١) Krapf, op. cit. p. 529.

(٢) Guillain, Expose critique de diverses notions acquises Sur l' Afrique Orientale pp. 542 - 543.

(٣) Ruete; op. cit. p. 47.

ممبسة عن التبعية العمانية، ووضح ذلك حينما رفض الاعتراف بولائه للدولة الجديدة التى خلفت دولة اليعاربة وهى دولة البوسعيد ، وكان عدم اعترافه بالإمام أحمد بن سعيد إلى ١٧٤١/١٧٨٥ الذى أسس تلك الدولة حجر الزاوية فيما سارت عليه العلاقات بينهما(٢). لقد كانت هنالك عدة مبررات برر بها محمد بن عثمان المزروعى استقلاله عن عمان، فهو قد ظل باقياً على ولائه لدولة اليعاربة حتى سقطت ولم تكن تبعيته لعمان معناها أن يستمر على ولائه لها حتى بعد سقوط أسرتها الحاكمة، فضلا عن أن مؤسس الدولة الجديدة وهو الإمام أحمد بن سعيد لا ينتمى إلى أصل يستوجب احترامه وإنما لا يعدو كونه رجلا عادياً توصل إلى الحكم بطموحه الشخصى، وعلى ذلك فليس هناك ثمة ما يدعو إلى التمسك بالولاء له بمعنى أنه إذا كان الإمام أحمد بن سعيد حاكم صحار ( إحدى مقاطعات عمان ) قد استطاع أن يصل إلى زمام الحكم فى بلاده فماذا يمنع المزروعى ، وهو حاكم ممبسة من الاقتداء بما فعله حاكم صحار أو ماذا يحول دون امتلاكه للمقاطعة التى يحكمها والاستقلال بها استقلالا تاماً ؟ .

وأدرك الإمام أحمد بن سعيد ما يرمى إليه المزروعى من سياسة انفصالية قد يكون لها أثر كبير فى مستقبل العلاقات بين ممبسة وعمان بل بين عمان ومقاطعات الشرق الأفريقى بصفة عامة، ومن هنا كان تفكيره الجدى فى اخضاع ممبسه وتأكيد سيطرته على تلك الممتلكات التى ورثها عن أسلافه اليعاربة . وهكذا اختطت دولة البوسعيد منذ أن قامت سياسة إفريقية فلم تكن المشاكل التى واجهها أحمد بن سعيد سواء فى داخل بلاده أو فى الخليج العربى أو صراعه ضد فارس أو جهوده لتوطيد نفوذه وترسيخ دعائم بيته لتشغله عن ممتلكات دولته فى شرق إفريقيا ، ولعل الإمام أحمد بن سعيد قد أدرك ، كما أدرك

---

(١) Lyne, *Zanzibar in Contemporary times* p. 10 see also Guillain, op. cit. p. 543,

الكثيرون غيره من الحكام مساوىء حدوث انفصال بين بلاده و بين الساحل الشرقى لأفريقيا لما بين الإقليمين من روابط اقتصادية وصلات وثيقة، ولكن دولة البوسعيد فى عمان فى عهد حكامها الأول لم تستطع أن تقضى على الثورات الانفصالية التى تزعمها المزروعيون فى ممبسة، والنبهانيون فى جزيرة بات فمما هو جدير بالذكر أنه قد وافق قيام الحركات الانفصالية فى ممبسة حركات انفصالية أخرى تزعمها النبهانيون فى جزيرة بات وأصابت من النجاح ما أصابته ثورة ممبسة[١] .

وهكذا واجهت دولة البوسعيد فى مستهل عهدها بالحكم تلك الحركات الاستقلالية الانفصالية التى ظهرت فى ممتلكاتها الأفريقية، وإذا كانت عمان قد لقيت شديد المقاومة والعناد فى كل من ممبسة وبات فإنها كانت على أية حال أكثر توفيقاً ونجاحاً فى المقاطعات الأفريقية التى لم تدب فيها الثورة كما دبت فى هاتين المقاطعتين إذ لقيت ولاءاً من بعضها وخضوعاً إسمياً من بعضها الآخر ، فزنجبار ظلت على ولائها لعمان واعترفت بالدولة الجديدة وتولى زمام الحكم فيها قائد القوات التى بعث بها الإمام أحمد بن سعيد لتأكيد سيطرة دولته على تلك الجزيرة ، كذلك فعلت مركة حينما أعلنت طاعتها للامام الحاكم، أما كاوة فقد أعلنت ولاءها للدولة الجديدة وإن كان ذلك ولاءاً إسمياً، ولكن ممبسة وقفت تتزعم حركة المعارضة وتجاهد فى سبيل تكوين تحالف من المقاطعات الثائرة وتوجيه الشعور فى الشرق الأفريقى للثورة ضد عمان ، ونجحت ممبسة فى إثارة المدن التابعة لها كمقديشيو وبراوة وبقية المدن الواقعة فى الجنوب حتى كوافى فطرحت تلك المدن تبعيتها عن عمان، وذلك عقب نجاح على بن عثمان المزروعى فى توكيد سيطرته عليها ، وفى تقديرنا أن الأمر لم يكن رغبة تلك المقاطعات فى الانفصال عن عمان الذى

---

(١) Pearce, op. cit. p. 109.

كان يؤدى الاتصال بها بطبيعة الحال إلى ازدهار وتقدم كبير من ناحية العلاقات التجارية قدر ما يرجع ذلك إلى جنوح تلك المقاطعات للثورة والتمرد نتيجة لتحريض ممبسة واستجابة لما يقوم به حاكمها على بن عثمان المزروعى من الثورة على عمان، وخاصة عندما نجح فى أن يضم تلك المقاطعات إلى حكمه.

والحقيقة أن ثورات المزروعيين لم تقف عند حد إذ حاولوا تأليب مقاطعات الشرق الأفريقى للانفصال عن عمان ، ظهر ذلك فى إغارتهم على زنجبار وانتزاعها من أيدى عمان، وقد حدث ذلك فى الوقت الذى كانت فيه عمان منغمسة فى مشاكلها الداخلية والخارجية إذ انشغل الإمام أحمد بن سعيد بتوطيد دعائم حكمه فضلا عن العلاقات العدائية التى قامت بينه وبين كريم خان الفارسى وما أدى إليه ذلك من اللجوء إلى القوة العسكرية فى كثير من الأحيان، هذا بالإضافة إلى وقوع بلاده فى حلبة الصراع الإنجليزى الفرنسى الأمر الذى جعله يتفرغ لمعالجة تلك المشكلات تفرغاً تاماً ،ولذلك اضطر الإمام أحمد ابن سعيد إلى الاكتفاء بذلك القدر من الجهد الذى بذله فى الشرق الإفريقى على الرغم من الجهود التى بذلها فى محاولته الاحتفاظ بما كان لأسلافه من ممتلكات فى تلك الجهات[1] . على أن نجاح أحمد بن سعيد لم يكن نجاحاً تاماً إذ لم يكن له سوى سيطرة واهية على المقاطعات العمانية فى شرق إفريقيا، على أنه مهما يقال عن ضعف تلك السيطرة فإن الأمر الذى لاشك فيه أن اتجاه أحمد بن سعيد إلى الشرق الإفريقى كان بالقدر الذى سمحت به ظروفه وبمثابة تأكيد لمطالب عمان فى تلك الجهات، ولذلك كان ماقام به الإمام أحمد بن سعيد، بصفته مؤسساً لدولة البوسعيد، هو الدعامة التى ارتكز عليها خلفاؤه من بعده فى تمسكهم وإصرارهم على ضم مقاطعات الشرق الإفريقى حتى نجح سعيد بن سلطان فى تأسيس امبراطورية عربية فى شرق إفريقيا .

(١) Guillain, op. cit. pp. 549 - 550.

على أن أكثر ما اهتم به الإمام أحمد بن سعيد هو إنعاش العلاقات التجارية بين عمان وشرق إفريقيا، ولاشك أن انتماء ذلك الرجل إلى أسرة من التجار واشتغاله بالتجارة لسنوات كثيرة قبل وصوله إلى الحكم فى عمان كان له تأثير كبير فى اهتمامه بالناحية الاقتصادية، ولا نغالى فى القول أن دولة البوسعيد اتصف حكامها بحرصهم البالغ على ترويج التجارة، ويذكر جيان بصدد ذلك أن الإمام أحمد بن سعيد اكتفى بالعمل على تشجيع التجارة واستمرارها بين عمان وشرق إفريقيا فكان يرسل فى كل عام مجموعة من سفنه لتأتى له بالموارد الإفريقية من المقاطعات التى كانت تعترف له بالسيادة، أما المقاطعات التى لم تعترف بسيادته فقد حرص على ألا يفرض سيادته عليها بالقوة خوفاً من انقطاع الصلات التجارية بينها وبين بلاده[١] .

وكان للأحداث التى وقعت فى عمان بعد وفاة الإمام أحمد بن سعيد فى عام ١٧٧٥ أو ١٧٨٣ أثر كبير فى مقاطعات شرق إفريقيا؛ إذ كان للمنازعات الأسرية التى قامت فى عمان خطورتها بالنسبة لممتلكات الدولة فى تلك الجهات، ذلك أن الأمور لم تستتب لسعيد بن أحمد ١٧٨٣ - ١٨٢٠، وهو الذى خلف أباه فى الحكم إذ برز له أخوه سيف منافساً، ولكن سيف لم يلبث أن أدرك أن عمان قد خرجت كلية من يده بعقد البيعة لأخيه بالإمامة فآثر أن يقوم بنشاط فعال فى شرق إفريقيا، وكان هدفه من ذلك فصل تلك المقاطعات عن عمان والاستقلال بحكمها حتى إذا ما واتته الفرصة يتمكن بها من الوصول إلى قلب الإمامة فى عمان، وكان ذلك دافعاً لسعيد بن أحمد إلى إرسال قوات كبيرة إلى شرق إفريقيا ليس بقصد القضاء على محاولات سيف فحسب وإنما بهدف تأكيد السيطرة العمانية على الشرق الإفريقى، وكللت جهود عمان بالنجاح حينما أعلنت ممبسة تبعيتها فى عام ١٧٨٥، وأعقب ذلك توالى المقاطعات الإفريقية

---

(١) جمال زكريا قاسم : دولة بوسعيد فى عمان وشرق افريقيا ص ٩٥ .

فى تقديم ولائها، وبذلك تأكدت السيطرة العمانية على الشرق الإفريقى بعد أن كانت تلك السيطرة على وشك الانهيار(١).

ومع ذلك فيجب أن نلاحظ أنه على الرغم من اتجاه عمان إلى الشرق الإفريقى فلم يثبت وجود سيطرة عمانية قوية فى تلك الجهات، وإذا عرفنا أن الشرق الإفريقى كان يفوق بخيراته وموارده إقليم عمان لعجبنا أن ينصرف حكام عمان عنه أو بالأحرى يقنعوا بظل باهت من النفوذ فيه، بيد أننا نستطيع أن نجد تفسيراً لذلك، وهو فى تقديرنا، أن حرص حكام دولة البوسعيد الأول، الذين لم تطغ الناحية الزمنية على سياستهم العامة، إلى توجيه اهتمامهم إلى قلب الإمامة فى عمان كان له أثر كبير فى تمسكهم بعاصمتهم الدينية فى الرستاق وعدم تفكيرهم فى الابتعاد عنها أو الانصراف إلى مناطق أخرى، ولذلك لم يتجهوا إلى الشرق الأفريقى إلا اتجاهاً انحصر فى محاولة بسط السيادة العمانية على تلك الجهات واستدامة العلاقات التجارية معها، وبديهى أن النفوذ العمانى نتيجة للاعتبارات التى أشرنا إليها لم يصل إلى درجة من القوة تجعله يصمد للأحداث والاضطرابات التى كانت لا تكاد تنقطع فى المقاطعات الإفريقية، فكان انفصال تلك المقاطعات واحدة تلو الأخرى فى عهد الإمام أحمد بن سعيد ثم فى عهد خلفه سعيد بن الإمام؛ حتى إذا ما تولى سلطان بن أحمد الحكم اتجهت دولة البوسعيد اتجاهاً تاماً إلى الناحية الزمنية، وكان من المنتظر نتيجة لذلك أن يتجه الحاكم الجديد إلى ممارسة سيطرته على الشرق الإفريقى بطريقة فعلية بيد أن الظروف التى واجهها سلطان بن أحمد فى معالجة المشكلات التى نتجت عن الطابع الجديد الذى تحولت إليه الدولة لم تترك له الوقت الكافى للتفرغ تفرغاً تاماً للشرق الإفريقى، وإنما كان انصرافه للعلاقات الخارجية والسياسية لدولته أظهر وضوحاً، حتى إذا ما تولى سعيد بن سلطان الحكم (١٨٠٦/١٨٥٦)

(١) Lyne; Zanzibar; p. lo See also Ruete, Said bin Sultan p. 48.

واشتد التحول من الناحية الدينية إلى الناحية السياسية بدأ يختط سياسة إفريقية واضحة . وعلى الرغم مما ذهب إليه بعض المؤرخين في أن اتجاه سعيد بن سلطان إلى شرق إفريقيا كان محاولة منه للتخلص من المشكلات العديدة التى كانت تواجهه فى عمان إلا أننا لانتفق تماماً مع هذا الرأى إذ أن اتخاذ سعيد بن سلطان لنفسه سياسة إفريقية لم تكن لتبعده عن المشكلات العمانية التى كان يفرغ لها جزءاً كبيراً من جهده، وإنما اتجاه سعيد بن سلطان إلى الشرق الافريقى كان يكمن فى حرصه البالغ على هذا الجزء من دولته لكثرة موارده ووفرة خيراته وزيادة فرص استغلاله[1]، فضلا عن أن الظروف التى آلت إليها الدولة فى عهده وازدياد تحولها من الناحية الدينية إلى الناحية الزمنية لم تكن تضطره كما اضطرت أسلافه من أئمة الدولة على البقاء فى إقليم عمان ذو الطابع التقليدى، ووضح ذلك فى اقدامه على نقل عاصمة ملكه من مسقط إلى زنجبار فى عام ١٨٣٢، وتفرغه إلى تكوين امبراطورية عربية فى الشرق الافريقى ، وهو ماسوف نعالجه تفصيلا فيما بعد[2] .

---

(١) Pearce, Zanzibar, the Island Metropolis of East Africa, p. 117.

(٢) انظر الفصل الخامس .

# الفصل الثالث

## التوغل العربي في الممالك المسيحية في الحبشة والنوبة

# التوغل العربى فى الممالك المسيحية

## فى الحبشة والنوبة

كانت هجرات عرب سواحل الجزيرة العربية إلى سواحل البحر الأحمر المجاورة لهم هجرات مستمرة فى عصور مختلفة من التاريخ، حيث كان العرب يجدون فى السواحل الإفريقية للبحر الأحمر ملاجىء يفرون إليها من ظروف الحياة القاسية التى تتصف بها طبيعة بلادهم وأساليب العيش فيها ؛ إذ كانوا يجدون فى مستقراتهم الجديدة فرصاً كثيرة لكسب الرزق باحتراف التجارة وسائر المهن البحرية المختلفة، وقد استمرت هذه الهجرات قائمة حتى عهد قريب، من ذلك ما يحدثنا به ليتمان من أن قبيلة الرشايدة هاجرت من الجزيرة العربية إلى الساحل العربى للبحر الأحمر وأخذت تتأثر بالطابع الإفريقى وتتكلم لغة التيجرى إلى جانب لغتها العربية[1] .

والمتفق عليه تاريخياً أن العرب كانوا أول من توغلوا فى هضاب الحبشة لمسافات بعيدة، وقد اتخذوا من مجارى بعض الأنهار وسيلتهم إلى ذلك، غير أن ما يؤسف له أن معظم سجلات للعرب قد مستها يد الضياع أو على الأقل لم تصل إلى أيدينا باستثناء بعض المصنفات العامة والخاصة التى تعرضت للممالك المسيحية فى الحبشة وللممالك الإسلامية التى أوجدها العرب فيها[2]، على أنه ينبغى أن نقرر أن الغموض كان يكتنف الحبشة لقرون عديدة إذ لا نكاد

---

(١) cf. A. Leitman, Enyclopeadia of Religions and Ethics

(٢) لوثروب ستودارد : حاضر العالم الاسلامى، ترجمة عجاج نويهض وتعليق شكيب أرسلان — المجلد الأول ص ص ٣٣٨/٣٣٩ .

نطالع أحداً من الرحالة العرب أو المسلمين ممن توغل فى هذه البلاد ولعل هذا السبب فى أن جغرافيي العرب لم يتعرضوا لذكر شيء له قيمة عن بلاد الحبشة[١]، على أنه بتقدم الزمن نجد بعض المصنفات تشير إلى أقاليم الحبشة ومدنها وإن كانت تفتقر فى أحيان كثيرة إلى الدقة والصحة حتى إذا وصلنا إلى القرنين الثالث عشر والرابع عشر ( الميلادى ) نرى ذكراً لأسماء بعض القبائل والأقاليم الحبشية مثل أمحرة ( أمهرة ) سرت ( سهرت ) وداموت وغيرها .

ويعد المقريزى أول من كتب كتابه دقيقه عن الحبشة فى القرن الخامس عشر الميلادى، وذلك فى رسالته الشهيرة التى أسماها الالمام عما بأرض الحبشة من ملوك الاسلام، وقد كتب هذه الرسالة بين عامى ١٤٣٤/١٤٣٥م وأورد فيها ذكراً لاثنى عشر إقليما من أقاليم الحبشة[٢] . ومما لاشك فيه أن انتشار الاسلام فى الحبشة كان دافعاً لتصنيف الكتب والرسائل الجامعة لفضل الأحباش وآثارهم على الدين الإسلامى، وقد اشتهر من هؤلاء العلامة السيوطى الذى وضع ثلاثة رسائل خاصة فى هذا الموضوع[٣]، ومن المتعارف عليه أنه كان للمسلمين فى الحبشة سبع ممالك مزدهرة سميت بدول الطراز لأنها كانت كالطراز الذى يحف بالهضبة الأثيوبية وهى مملكة وفات — دوارو — أرابيني - شرحا - هديا - بالى - دارة[٤] .

وقد أشارت كثير من المصنفات العربية إلى هـــذه الممالك إذ أورد

(١) أورد المسعودى ذكرا لبعض مدن الحبشة ، ومع ذلك فانه لم يفصل حديثه إلا عن مدينة كعبر التى عدها العاصمة ،انظر مروج الذهب ومعادن الجوهر ج ٢ ص ٣٤ .

(٢) لوثروب ستودارد — حاضر العالم الاسلامى ج ١ ص ٣٦١ .

(٣) عبد المجيد عابدين : بين الحبشة والعرب ص ص ٨١ — ٩٢ .

(٤) يوسف أحمد : الاسلام فى الحبشة ص ٢٤ .

القلقشندى فى كتابه صبح الأعشى بعض المعلومات عن الحبشة بقسميها الإسلامى والمسيحى، فتحدث عن الممالك الإسلامية ووصف بعضاً منها وتكلم عن تنظيماتها الاقتصادية والعسكرية ناقلا الكثير مما ذكره عن مسالك الأبصار لشهاب الدين بن العمرى ، وقد ركز القلقشندى بصفة خاصة على أقدم هذه الممالك الإسلامية وهى مملكة وفات؛ ذكر أن العامة تسميها أوفات ويقال لها أيضاً جبرت نسبة إلى جبرتى وهى أكبر مدن الحبشة .

ومما تجدر الإشارة إليه أن ملوك الحبشة كانوا ينظرون إلى الدويلات الإسلامية فى بلادهم بعين الحسد لارتقائها مدنياً واقتصادياً[1]، إلا أنه ينبغى أن نؤكد هنا أن هذه الممالك على الرغم من تفوقها الاقتصادى والحضارى إلا أنها كانت تعانى عوامل كثيرة من الضعف والتفكك بسبب المنازعات التى كانت تقوم بين بعضها والبعض الآخر مما ساعد ملوك الحبشة فى التسلط على هذه الممالك وتنفيرها من بعضها حتى لا تجتمع كلمتها على القيام فى وجههم .

وقد يكون من المفيد أن نوضح هنا أن نجاح العرب فى تكوين ممالك إسلامية فى الحبشة كان حصيلة لعلاقات طويلة قامت بينهم وبين الحبشة(٢) ؛ فالمتفق عليه تاريخياً أن العرب الأول الذين هاجروا إلى الحبشة هم الذين يرجع إليهم فضل تأسيس دولة إكسوم ثم كانت بعد ذلك أولى الاتصالات العربية الإسلامية التى حدثت فى عهد النبى حينما أشار على أتباعه بالهجرة إلى الحبشة بعد أن شاهد الأذى الشديد الذى يلحق بهم، وطلب منهم الهجرة بقوله « لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإن بها ملكا لا يظلم عنده أحد ، وهى أرض صدق حتى يجعل الله لكم فرجا مما أنتم فيه » ، ولم تكن الحبشة حينما خرج المسلمون الأول إليها تتمتع بحكومة مركزية وإنما كان نظام الحكم فيها فى أيدى حكام

---

(١) يوسف أحمد : مصدر سبق ذكره ص ٣١ .

(٢) عن العلاقات الحبشية العربية انظر عبد المجيد عابدين : بين الحبشة والعرب .

الولايات أو الأقاليم، وكان كل منهم يطلق على نفسه نجاشى النجاشية أى ملك الملوك(١). وكان النجاشى الذى جاء المسلمون فى عهده هو صاحب الولاية على أحد الأقاليم الواقعة فى شمال الحبشة ويستدل من كتاب عرب فقيه ( فتوح الحبشة ) أنه النجاشى أحمد ، وتثير هذه الرواية كما يثير اسمه أيضاً تكهنات عديدة فى احتمال اعتناقه للدين الإسلامى ، أو قد يكون المسلمون قد أشاعوا عنه ذلك تمجيداً لموقفه فى مؤازرة المسلمين، وإن كانت بعض الروايات تؤكد أنه أسلم بالفعل على يد جعفر بن أبى طالب أحد المهاجرين الأول، وكان ذلك على أثر مطاردة قريش للمسلمين فى الحبشة إذ رفض النجاشى أن يستجيب للبعثة التى أوفدتها قريش إليه حتى يعلم طبيعة الدين الذى أتى به المهاجرون فاقتنع به وأسلم على أيديهم ورد البعثة خاسرة .

وقد أخذت صلة العرب تتوطد بالحبشة على أثر الهجرات التى تتابعت بعد ذلك خاصة بعد أن تمكن العرب من الاستقرار فى بعض سواحل البحر الأحمر وتأسيسهم لبعض المراكز التجارية التى أصبحت وسيلة لتوغل كثير من الجماعات الإسلامية داخل الهضبة الأثيوبية ، وعندما اشتدت الهجرات العربية على سواحل البحر الأحمر الجنوبية الغربية بدأت تظهر إمارات ساحلية إسلامية كإمارة عدل أو زيلع وإمارة مقديشيو ، والأرجح أن يكون حكام هاتين الإمارتين عرباً تأقلموا فى البيئة الصومالية لا أن يكونوا صوماليين تأثروا بالبيئة العربية . وقد أسهمت هذه الإمارات الساحلية بنشاط تجارى ملحوظ وصل إلى حد احتكار التجارة بين داخلية بلاد الحبشة من ناحية وسواحل البحر الأحمر من ناحية أخرى .

والجدير بالذكر أن بلاد الحبشة لم تكن فى اعتبار المسلمين أرض جهاد وذلك باعتبارها من البلاد التى هاجرت إليها أولى الجماعات الإسلامية ووجدت

---

(١) الشاطر بصيلى عبد الجليل : تاريخ وحضارات السودان الشرقى والأوسط من القرن السابع إلى القرن التاسع عشر للميلاد ص ١٢١ .

فيها خير رعاية من النجاشى ، ولهذا السبب تأثر مسلك المسلمين فيها إذ اتخذ طابعاً سلبياً متعدد الاتجاهات انتهى إلى ظهور عدة ممالك إسلامية فى الحبشة، ولكن بمضى الزمن أخذ النشاط العربى الإسلامى فى الازدياد حتى تم المسلمين عزل الحبشة عزلا يكاد يكون تاماً عن العالم الخارجى خاصة بعد استيلاء المسلمين على زولا ثغر أكسوم ومخرج الحبشة على البحر الأحمر .

وينبغى أن نشير أن ظهور الإسلام وانتشاره فى الجزيرة العربية وما أعقب ذلك من فتوحات إسلامية قد عاق الحبشة عن التوسع فى المناطق المجاورة لها ويرجع ذلك إلى أن الإسلام وحد الجزيرة العربية وأقر فيها الأوضاع السياسية والدينية ؛ وبذلك لم تعد الجزيرة العربية صالحة للتوسع الحبشى، هذا بالإضافة إلى أن انتشار الإسلام فى مصر والجزء الشمالى من السودان وساحل إفريقيا الشرقى أوجد حالة خطيرة بالنسبة للحبشة التى أصبحت محاطة ببلاد إسلامية ، بل أخذ الإسلام يتسرب فى بلاد الحبشة نفسها حيث قامت سلسلة من الإمارات الإسلامية امتدت من الحبشة حتى منطقة البحيرات الاستوائية، كما تعددت المراكز العربية والإسلامية على طول سواحل الصومال، ومن ناحية أخرى أن قضاء المسلمين على الامبراطوريتين الفارسية والرومانية قد ترتب عليه حرمان الحبشة من التعامل اقتصادياً مع هاتين الدولتين فلا غرابة إذن إذا بدا الضعف يدب فى كيان الحبشة، كما أخذت سلطة ملوكها فى الانكماش وخصوصاً على السواحل المجاورة لها التى أخذت تستقر فيها جماعات من العرب ، وعلى يد هؤلاء ومن اختلط بهم من الأحباش أخذت سواحل البحر الأحمر تستعيد نشاطها الملاحى والتجارى إذ وقعت التجارة والسيطرة البحرية فى أيدى العرب الأمر الذى جعل مواردالحبشة بل وعلاقاتها الخارجية مع غيرها من البلاد تقع فى أيدى المسلمين(١) . وقد خلقت هذه

(١) عن العلاقات المصرية الحبشية انظر : سعيد عاشور — بعض أضواء جديدة على العلاقات بين مصر والحبشة — انظر العدد الرابع عشر من مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية .وكذلك الشاطر بصيلى عبد الجليل : تاريخ وحضارات السودان الشرقى والأوسط. ص ١٢٠ وما بعدها .

المشاكل المتاعب لحكام الحبشة الذين رأوا العمل على الحد من نشاط العرب الاقتصادى ومن سيطرتهم على مرافق التجارة وطرق القوافل مما كان سببا لقيام حروب ومنازعات داخلية بين المسلمين والقوى المناهضة لهم، وقد استمرت هذه الحروب والمنازعات حتى النصف الثانى من القرن الخامس عشر، ثم أخذت تتحول بعد ذلك إلى نزاع عالمى بدخول أطراف جديدة فى ذلك النزاع كالمماليك والبرتغاليين ثم الأتراك العثمانيين .

ويتضح لنا التعاون الواضح بين الأحباش والبرتغاليين خلال الصراع الذى نشب بين البرتغاليين والمماليك عند المدخل الجنوبى للبحر الأحمر فى السنوات الأخيرة من القرن الخامس عشر والسنوات الأولى من القرن السادس عشر الميلادى . وتؤكد بعض المصادر وجود مشروعات تآلف بين البرتغاليين والأحباش، كما وجدت عدة مشروعات حبشية برتغالية مشتركة كمشروع أفونسو دى البوكرك لتحويل مجرى نهر النيل بحيث يصب فى البحر الأحمر بدلا من البحر المتوسط بهدف منع الموارد المائية عن مصر، أو محاولة البرتغاليين بالتعاون مع الأحباش النفاذ إلى البحر الأحمر والوصول إلى ينبع ميناء المدينة ومن ثم التوغل فى الأماكن المقدسة إمعاناً فى إذلال المسلمين وذلك بالعبث فى مقدساتهم. وتطالعنا بصدد ذلك بعض الوفود الحبشية التى ارسلت من قبل الملكة هيلانه إلى الملك عمانويل ملك البرتغال، وكان من هدف إرسال هذه الوفود تحقيق التعاون بين الحبشة والبرتغال لدفع الأخطار التى كانت تتعرض لها الحبشة خاصة بعد أن أصبح البرتغاليون هم القوة المسيطرة على بحار الشرق بعد تحطيمهم للأسطول المصرى فى موقعة ديو البحرية المشهورة فى عام ١٥٠٩، كما تطالعنا أيضاً وفوداً حبشية أخرى أرسلت إلى البابا كلمنت السابع ١٥٢٤، باستعداد الحبشة للدخول فى الكنيسة الكاثوليكية . وفى الوقت الذى أخذت

فيه القـــوى الإسلامية فى الحبشة تتعرض لضغط شديد وصل الأتراك العثمانيون إلى بعض المنافذ على سواحل الشرق الإفريقى، وعلى الرغم من أنهم وصلوا إلى هذه المناطق متأخرين، إلا أنهم مع ذلك قاموا بمجهودات كبيرة خاصة بعد أن تحقق لهم شىء من النجاح بإخضاعهم لبعض الموانى الآسيوية والافريقية للبحر الأحمر، كجدة وسواكن ومصوع وزيلع وبربرة وعدن، وبدأت القوى الاسلامية فى الحبشة تتطلع إلى الأتراك العثمانيين الذين رغبوا بدورهم فى السيطرة على الحبشة لتقديرهم أنهم إذا تمكنوا من إقامة دولة إسلامية فى الحبشة فسيؤدى ذلك إلى تأكيد سيطرتهم على الجزء الجنوبى الغربى من المحيط الهندى، وتحقيقاً لذلك الهدف اتصل الأتراك العثمانيون بمسلمى الحبشة الذين وحدت القضية الدينية بينهم، ووجدوا فى الامام أحمد بن ابراهيم الملقب بجرانيا أى الأشول، القوة المحركة التى يستطيعون من ورائها تحقيق أهدافهم، فأمدوه بالمال والذخيرة، كما اتخذوا من تدينه وتقواه وسيلة لاظهاره أمام مسلمى تلك الجهات بمظهر القائد الدينى الذى يجمع كلمة المسلمين ويوجهها ضد الأحباش واستطاع أحمد بن إبراهيم أن يجمع كلمة المسلمين ويتولى أمورهم حتى لقبوه بالامام الغازى وصاحب الفتح، وذلك بعد أن حمل على الحبشة حملات عنيفة بمؤازرة الأتراك له، وتوغل فى الأقاليم الحبشية حتى وصل إلى الأقاليم الشمالية من تيجرى وبلغت حروبه فى الحبشة أقصى درجة من الحماسة والاقدام خاصة وأن المسلمين اعتبروها جهاداً، وأخذوا يحاربون فيها حرب المستميت للدفاع عن الدين .

ومن حسن الحظ أن غزوات الإمام أحمد فى داخل الحبشة سجلها مؤرخ عربى من جيزان يدعى أحمد بن عبد القادر شهاب الدين الملقب بعرب فقيه، أورد فيها تاريخ غزوات الامام، وقد يكون من أهمية هذا التسجيل أنه عرفنا بمناطق كثيرة فى قلب الهضبة الحبشية، ويكاد يكون هو المصدر الوحيد الذى عدد لنا أماكن كثيرة فى داخل الهضبة الأثيوبية، وقد

نشر المستشرق الفرنسى رينيه باسيه René Passet الجزء الأول من هذا الكتاب بنصه العربى مع مقدمة فرنسية له فى عام ١٩٠١، بيد أنه لم يتعرف على الجزء الثانى من هذا الكتاب . ويسجل الجزء الأول من كتاب عرب فقيه،المسمى بفتوح الحبشة ؛النفوذ الذى وصل إليه الامام أحمد بن إبراهيم ويتضح أن ذلك النفوذ وصل إلى بحيرة تانا على النيل الأزرق ، وقد أورد المؤلف المسالك التى كانت تسير فيها جيوش الامام وفتوحاته فى بـــلاد دوارو — بالى — هديا — خبز — ووج — طحبار — وفات ، وكذلك استيلائه على بلاد التيجرى[1] .

وفى الوقت الذى دارت فيه غزوات الامام كان البرتغاليون قد نشروا نفوذهم فى بحار الشرق ،فكانت الحبشة هى المسرح الذى التقت فيه القوتان العثمانية والبرتغالية بطريق غير مباشر[2]، خاصة بعد أن استنجد الأحباش بالبرتغاليين واستنجدت القوى الاسلامية بدورها بالعثمانيين، وبفضل المساندة العثمانية للإمام أحمد استمر فى شن حروبه المتواصلة ضد الامبراطور لبنا دنقل والتف حوله كثير من الصوماليين ، وأخذت الرقعة التى يحكمها المسلمون فى الازدياد حتى نجح الامام أحمد بفضل النجدات التركية، التى كانت تصل إليه من القواعد التركية فى اليمن ؛ من هزيمة الامبراطور لبنا دنقل الذى اضطر للفرار أمام زحف قوات الامام من بلد إلى بلد يتقاسمه الخوف والجزع وأصبحت سلطة الامبراطور ضئيلة للغاية خاصة بعد أن أصبح الامام أحمد يتصرف فى الحبشة كلها تصرف الملك المستقل صاحب الأمر والنهى، كما أخذ يرسل من قبله الولاة إلى جميع أقاليم الحبشة لفتحها ، وإخضاع أهلها وجمع الأموال ، أو الانفاق على طريقة أدائها، واستقر فى بلدة دمبيا التى اتخذها عاصمة لحكمه فى عام ١٥٤١ .

(١) لوثروب ستودارد : حاضر العالم الاسلامى جـ ١ ص ٣٦٣/٣٦٤ .

(٢) عن العلاقات الحبشية البرتغالية .

cf. Kammerer, la Mer Rouge Tome II p. 250 ff

وقد استمرت غزات الامام أحمد بن إبراهيم ما يقرب من خمسة عشر عاما ١٥٢٨ — ١٥٤٣ ، وقدر عدد رجاله بأكثر من عشرة آلاف مقاتل وكان لهذه الغزوات أثر كبير فى نشر الاسلام فى الحبشة ، وقد أخذت قوته تتعاظم خاصة بعد انضمام الأتراك وشريف مكة إليه، الأمر الذى مكنه من غزو قبائل الجالا وسائر القبائل الأخرى فى شوا وغندار واكسوم .

ولعل ذلك ما حفز الامبراطور كلاوديوس ، الذى خلف لبنا دنقل فى الحكم ١٥٤٠ — ١٥٥٨، إلى إرسال وفد إلى لشبونة ؛ حيث قابل ملك البرتغال ووصف له حرج مركز الامبراطوار، وعلى أثر ذلك وجه الملك البرتغالى تعليماته إلى نائبه فى الهند بإرسال أسطول برتغالى لمقاتلة المسلمين ومساندة امبراطور الحبشة ، وكان وصول الامدادات البرتغالية مفاجأة لمسلمى الحبشة لم يستعدوا لها ، كما أن أخبار وصول هذه الامدادات أوقدت الحماس لدى الأحباش الذين استعرت عزيمتهم، ولذلك أسرع الامام أحمد فأرسل بدوره مستنجداً بالباشا التركى فى زبيد ١٥٤٢ طالبا منه نجدة من الجنود والأسلحة، فأرسل إليه الوالى التركى تسعمائة من حملة البنادق، وعدة مدافع مكنته من إحراز نصر سريع على البرتغاليين وقتل قائدهم كريستوفر دى غاما، على أنه فى عام ١٥٤٣ وصلت نجدة برتغالية أخرى مكونة من أربعمائة وخمسين جنديا برتغالياً وفى فبراير ١٥٤٣ هاجمت هذه القوة جيوش الامام ، واخترقت فصيلة منها بقيادة بدورليونى الصفوف إلى حيث كان يوجد الامام وأطلقت عليه الرصاص فجرح جرحاً بالغا ، ولما أيقن من الهزيمة انسل إلى الغابة وحيداً وهو يقطر دما ، فتبعه القائد البرتغالى حتى رآه يسقط ميتاً فيقطع أذنيه ويذهب بهما إلى الامبراطور كلاوديوس؛ على نحو ما يروى لنا صاحب كتاب فتوح الحبشة .

وهكذا قضى على ثورة الامام أحمد بن ابراهيم بفضل المساندة البرتغالية التى تدفقت على الحبشة من مراكز البرتغاليين فى سواحل شرق إفريقيا الذين أمدوا الأحباش بمدافع وجنود مدربين على استخدامها، وخرج العثمانيون من

هذه المحاولة مدحورين، فاكتفوا بعد ذلك بالاشراف على سواحل البحر الأحمر من سلسلة الموانى التى استولوا عليها . حقيقة حاول العثمانيون بعد سيطرتهم على مصوع العودة للتدخل وذلك بشد أزر المسلمين فى المقاطعة التى صارت تعرف فيما بعد باسم اريتريا مما أثار الأحباش ، وأدى ذلك إلى حروب بينهم وبين العثمانيين ١٥٧٨ ، كان الظفر فيها للحبشة بقيادة النجاشى ملاك صاجاد الذى نجح فى القضاء على النشاط العثمانى فى بلاده .

أما عن مسلمى الحبشة فقد تزعمهم بعد وفاة الامام أحمد بن إبراهيم قريب له يدعى الأمير نور بن مجاهد، وهو الذى قتل النجاشى كلاوديوس ١٥٥٨ ، فى إحدى المعارك التى نشبت بينهما، وقد أسماه المسلمون بصاحب الفتح الثانى، على أنه قد انتهى بموت الأمير نور بن مجاهد مجد سلطنة هرر الاسلامية ، وأخذ المسلمون يعانون من شدة ضغط الأحباش عليهم .

على أن الظروف التى مرت بها الحبشة كانت مساعدة إلى حد كبير على عودة الازدهار للقوى الاسلامية، ذلك أن البرتغال لم تلبث أن أخذت تطالب الحبشة بثمن مساعدتها لها ضد المسلمين بأن تعلن انضمامها إلى الكنيسة الكاثوليكية بعد أن تقطع صلتها بالكنيسة المصرية الأرثوذكسية التى عجزت عن حمايتها بل حماية نفسها، ولكن تحول الأحباش من مذهب إلى آخر كان أمر بعيد المنال، خاصة وأن الحبشة عريقة فى أرثوذكسيتها ، حقيقة حاول البرتغاليون التبشير بالمذهب الكاثوليكى ، وذلك بنشر وترجمة عدة كتب توضح تعاليم الكاثوليكية باللغة الأمهرية ، والمقارنة بين الكاثولكية والأرثوذكسية، مما استفز الأحباش، وعلى رأسهم كهنتهم ولم يكن من بد من مقابلة هذا التحدى لعقيدتهم إلا باللجوء إلى الكنيسة المصرية التى أمدتهم بالعون الأدبى وبالكتب الدينية التى يستطيعون ترجمتها إلى لغتهم .

ومع ذلك فلم يلبث الإمبراطور سوسنيوس أن أدرك أن بلاده أصبحت

محاطة بدول تعزلها عن العالم ، فها هى تركيا تقف على الساحل وتسد عليها المنافذ إلى العالم الخارجى ، كما أن مصر رغم العلاقات الروحية التقليدية بينها وبين الحبشة لا تستطيع لها نفعاً بعد أن فقدت مركزها وتحولت إلى إحدى الولايات العثمانية ، وهاهم البرتغاليون قد أفلحوا إلى حد كبير فى كسر الخطر التركى الإسلامى ويستطيعون أن يكونوا ذى منفعة عسكرية واقتصادية ، فاعتنق سوسنيوس الكاثوليكية سراً ، ثم لم يلبث خلفه أن أعلن صراحة اعتناقه لذلك المذهب ، كما أعلن عن تصميمه على فصم الروابط الدينية بين الحبشة والكنيسة المصرية .

وهكذا عندما تولى الإمبراطور فاسيلادس الحكم كانت الحبشة منقسمة على نفسها انقساماً مذهبياً حاداً ، وقد عمل الإمبراطور فاسيلادس على التخلص من البرتغاليين ، كما حاول فك العزلة التى فرضت على الحبشة ، ومن الطريف أن تكون اليمن هى وسيلته إلى ذلك ، إذ لم يستطع أن يلجأ إلى البرتغاليين الذين أصبح نشر مذهبهم الكاثوليكى هو هدفهم الأول ؛ بل إنهم لم يترددوا فى تأييد أعدائه بقصد الإطاحة به ، كما أن الأتراك اتخذوا مراكزهم على الساحل بهدف منع الحبشة من الاتصال بالعالم الخارجى ، أما مصر فقد خضعت للحكم التركى ، ولم يعد يربطها بالحبشة سوى علاقة دينية واهية ، ولذلك لم يكن أمام الحبشة سوى جارتها الصغيرة اليمن ، ومع أنها صغيرة إلا أنها كانت أقرب الدول إلى الحبشة ، فضلا عن العلاقات القديمة التى كانت تربط بينهما ، وبالإضافة إلى ذلك كانت اليمن ، على الرغم من صغر مساحتها وقلة إمكانياتها ، إلا أنها كانت قد تمكنت من طرد القوات التركية فى عام ١٦٣٥ ، وأضحت مستقلة عن سلطة الدولة العثمانية القوية فى ذلك الحين . ولم يكن هناك مدخل للحبشة إلى صداقة اليمن إلا مدخل الدين ، ولذلك أرسل الإمبراطور فاسيلادس إلى إمام اليمن يبلغه رغبته فى تفهم الدين الإسلامى لعل الله يهديه إلى اعتناقه ، وأجاب إمام اليمن على طلب الإمبراطور فاسيلادس ، فأرسل إليه بعثة لتفقيهه فى شئون الدين ، وقد سبق لنا أن أشرنا إلى أن علاقة الحبشة باليمن علاقة قديمة ، ولا غرابة

فى ذلك فهما تواجهان بعضهما البعض، ولا يفصل بينهما سوى البحر الأحمر الذى يضيق كلما اتجهنا جنوباً حتى ليكاد شاطئاه يلتقيان، وكان ذلك مما سهل الاتصال بين الحبشة واليمن ، حتى أصبحت هجرات اليمانيين إلى الحبشة أو الأحباش إلى اليمن ظاهرة طبيعية . وقد سجل لنا الحيمى فى النصف الأول من القرن السابع عشر الميلادى ، الرحلة التى قام بها إلى الحبشة فى مخطوطة تقع فى اثنتى وأربعين ورقة ، وجدت عدة نسخ منها فى المكتبة التيمورية بالقاهرة ، إلى جانب نسختين أخريتين ، إحداهما فى اليمن والثانية فى مكتبة ليدن . وقد نشر الدكتور مراد كامل رحلة الحيمى إلى الحبشة نقلا عن المخطوطة اليمنية التى راجعها على نسخة مكتبة ليدن .

ويذكر الحيمى أن السبب فى قيامه بهذه الرحلة هو رجاء متكرر من الإمبراطور فاسيلادس ، إمبراطور الحبشة إلى إمام اليمن المؤيد بالله ، ومن بعده المتوكل على الله، فى أن يرسل إليه أحداً ممن يثق به الإمام ليفضى إليه بسر ، ثم يصف الحيمى الرحلة التى رافق فيها البعثة اليمنية إلى الإمبراطور فاسيلادس ، وقدسجل الحيمى أخبار هذه الرحلة فى كتاب له أسماه « حديقة النظر وبهجة الفكر فى عجائب السفر[1] »، ولما تأكد للحيمى وللبعثة المرافقة له أن إمبراطور الحبشة لم يكن مستجيباً لما أظهره فى رسائله إلى إمام اليمن من الرغبة فى اعتناق الإسلام ، وأن كل ما كان يريده هو إصلاح الطريق من جانب بيلول ، أسرع ومن معه بمغادرة الحبشة فى طريقهم إلى بلادهم ، وقد وصف الحيمى الطرق التى سلكوها، والمواضع التى مروا بها فى رحلتهم ذهاباً وإياباً والتى استغرقت ما يقرب من عامين ، عادوا بعدها عن طريق مصوع ، التى كانت خاضعة فى ذلك الوقت للحكم التركى .

وقد يكون من أهمية رحلة الحيمى أنها أمدتنا بكثير من المعلومات

---

(١) راجع مقدمة الدكتور مراد كامل لرحلة الحيمى، « سيرة الحبشة » ص ص ٥ — ١٧.

التفصيلية عن الحبشة خاصة وأن الحيمى سجل جميع المناطق التى وصل إليها ، فقد مر أولا بمدينة أندرتا التى كان يحكمها أمير يقال له بعل جادة أى صاحب الحظ ، وكان فى استقبال البعثة بعض فقهاء هذه المدينة ويسمون آل كبيرى صالح ، وهو لقب تعظيمى فيما يرجح ، ثم اجتازت البعثة بلاد السحرت واتصلت ببلاد الفلاشة ومنها إلى أمحرة حيث قابل أعضاء البعثة الإمبراطور فاسيلادس ، ونزلوا فى مكان من أمحرة كان يسكنه مسلمو هذه المدينة ، ولكن لم يلبث أن أخذ اليأس يدب فى نفوس الحيمى وأصحابه ولا سيما بعد أن وجدوا من الإمبراطور مماطلة وتسويفاً ؛ حتى رأت البعثة أن بقاءها فى هذه البلاد قد يعرضها للخطر فرجعت إلى اليمن بعد أن منيت بالفشل فى تحقيق أهدافها ؛ وإن كانت قد نجحت فى تعريفنا بأجزاء كثيرة من الحبشة ، ولذلك يعتبرها كثير من الباحثين رحلة استكشافية ناجحة ، خاصة وأن الحيمى كان حريصاً على تسجيل كل ما شاهده وصادفه فى رحلته فترك وصفاً جغرافياً شيقاً ، من ذلك وصفه لبيلول والجالا وقبائل الفلاشة اليهودية وغلبة المسيحية عليها ، كما تحدث عن قبائل الأمهرة ووصف الإمبراطور فاسيلادس ، والمناطق التى يحكمها وأسلوب حكمه .

وقد يكون من المناسب أن نعرض هنا لبعض مقتطفات من هذه الرحلة خاصة وأن الحيمى قد عنى بوصف الشعوب والقبائل التى صادفها ، من ذلك وصفه لشعوب الجالا بأنهم « أمة شديدة البأس متينة المراس كثيرة العدد » ، كما حاول الحيمى أن يعرض لوصف البلاد التى مر بها ، من ذلك قوله « ... انتهينا إلى جنب جبل عظيم أبلغ ما يكون من العظم فى الانبساط والارتفاع ووجدنا هنالك بحيرة يتصل ماؤها بذلك الجبل وبجبال أخر فى أطرافها ماؤها مالح زعاق وطولها وعرضها مستويان فى التقدير وقياسها بالمساحة نحو بريد كامل أو يزيد عليه قليلا فيما يغلب به الظن » ، كذلك وصف الحيمى بلاد السحرت وبلاد أبرجلا فذكر أنها « بلاد وعرة وجبال عالية وأوهاط منخفضة ، ووجدنا

بين هذه الجبال نهراً عظيما من آيات الله الباهرة تلحق حكمه بنحو نيل مصر وسيحون وجيحون وفيه حيوانات البحر العظيم .. وهذا النهر لايتمكن الماء من قطعه إلامن أماكن مخصوصة متسعة فى عرضها ينبسط فيها الماء ثم تكون مستوية لاينحدر فيها المـاء . . . ومقدار العرض فى قياسه مائة ذراع وهذا النهر ينصب ماؤه فى نيل مصر على ما حكاه لنـا بعض أهل الحبشة » .

وجاء فى وصف الحيمى لبلاد الفلاشة أن « أولها واد عظيم تحت جبل عال فى نهاية السمو وغاية العلو ، اسم الوادى أغنه واسم الجبل « سمين » مصغراً وهو أعظم جبال الحبشة ، ولو أقول أعظم جبال الأرض لم يكن بعيداً لأنه يوجد فى كل طريق من طرق الحبشة،وهو شديد البرد لايعرف مثله فى شدة برده لايبرح الماءجامداً فيه شتاءاً وصيفاً» ، كما ذكر عن بلاد الأمحرة وشعبها «أنهم عشيرة الملك وكرسى مملكته وأهل نصرته» ، أما عن قبيلة الفلاشة فقد وصفها بأنها « قبيلة كثيرة العدد من أعظم قبائل الحبشة وهم على دين اليهودية وهم أهل شوكة ومازال الملك يغزوهم ويحاربهم حتى غلبهم »[1] .

ومما تجدر الإشارة إليه أن الإسلام فى الحبشة أخذ يتدعم حينما اعتنقته كثير من شعوب الجالا الوثنية ، وحوالى عام ١٧٨٠ استولت قبيلة غالا ولو وايجو على بغمدر، وعلى قسم من أمحرة حتى أصبح رئيس إيجو المسلم يملى إرادته على نجاشى الحبشة ، ثم بلغ انتعاش الإسلام خطوة كبيرة خلال الفتح المصرى لزيلع وهرر بين عامى ١٨٧٥ و ١٨٨٤ وقد أشار كثير من الرحالة الأوربيين أن الإسلام يتقدم بسهولة بين قبائل الصومال ، كما أكد الماجور هنتر Hunter فى عام ١٨٨٤ أنه من المحتمل إسلام جميع القبائل إذا استمر الحكم المصرى بضع سنوات أخرى . وهكذا كان من أثر التوسع المصرى فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر وامتداد الحـكم المصرى إلى السودان ومصوع وهضبة أريتريا الشمالية الضغط على الحبشة غرباً وشمالا مما كان من شأنه ازدهار

---

(١) سيرة الحبشة ص ص ١٩٧/١٩٨ .

القوى الإسلامية فى الحبشة، على أنه قد ترتب على فشل الحملات المصرية التى قامت بها مصر ضد الحبشة، هجرة كثير من المسلمين خاصة حينما تولى النجاشى منليك الحكم وآل على نفسه إخضاع جميع الممالك الإسلامية والبلاد الدينية المتاخمة للحبشة، فبدأ بامتلاك أوسا الواقعة فى السهل المنخفض للجهة الشرقية من الهضبة الحبشية التى كان قد اتخذها المسلمون مقراً لهم بعد ذهاب أمحرة عنهم، ثم أخضع منليك بالإضافة إلى ذلك بلاد الجالا وأوجادين .

على أنه بقيت على الرغم من ذلك سلطنة إسلامية استمرت محتفظة بنشاطها وازدهارها، وهى سلطنة جما الإسلامية، وكانت أساساً مقاطعة وثنية أسلم أهلها فى النصف الأول من القرن التاسع عشر بفضـــل بعض التجار المسلمين الذين وفدوا إليها، فاعتنق الإسلام الكثير من قبائلها خاصة بعد أن حضر إليها طائفة من العلماء لإرشاد أهلها إلى الدين الصحيح ، وقد تولى حكمها منذ عام ١٨٧٨ السلطان محمود بن داود الذى عرف بأبى جفار، ولكن على الرغم من الانتعاش الذى حاولت أن تحتفظ به هذه السلطنة إلا أن مجدها أخذ يخبو بعد أن أدخلها النجاشى منليك تحت حمايته فى عام ١٨٨١ تاركا لها استقلالها الداخلى كباقى المقاطعات المسيحية فى الحبشة ، وقد أبرم منليك معاهدة مع سلطانها نص فيها على أن تظل السلطنة وراثية فى سلالة أبى جفار وعليها أن تؤدى جزية سنوية إلى حكومة أديس أبابا[1]، وكانت حكومة الحبشة تزيد فى مقدار هذه الجزية شيئاً فشيئاً بهدف إضعاف تلك السلطنة الإسلامية، وإلى جانب سلطنة جما الإسلامية تغلغل المسلمون فى كثير من أقاليم الحبشة فى الجنوب والشرق استقرت منهم طوائف كبيرة فى هرر وأوجادين، كما تغلغلت جماعات إسلامية فى الغرب فى جهات غالة وجارو، كما استقرت جماعات أخرى إلى الغرب من أديس أبابا وكذلك فى شوا وأمحرة وتغرى ، وقدرت نسبة

---

(١) عن سلطنة جما انظر :

H. Darley, Slaves and Ivory, London 1916

وكذلك جمال زكريا قاسم : الممالك الاسلامية فى الحبشة — مجلة العربى إبريل ١٩٧٣ .

المسلمين فى الحبشة فى بداية القرن الحالى بثلث السكان، وقد عرف المسلمون فى الحبشة بأسماء مختلفة كاسلام ، وهم المسلمون من أصل حبشى، ونقادى وهم التجار، وجبرتى ، وهم المسلمون الأول الذين أسسوا مملكة وفات، وهى أولى الممالك الإسلامية فى الحبشة ، أما مسلمو الصومال فيسمون بناده أو إسلام بحرى ، وهم المسلمون الذين جاءوا من البحر الأحمر .

وتسود اللغة العربية غالبية المسلمين فى الحبشة .وقد حافظوا عليها محافظة شديدة باعتبارها لغـــة القرآن،وقد شهد كثير من الرواد الذين جابوا بلاد الحبشة بأن المسلمين فيها ذوو نشاط بالغ وعلى جانب كبير من الذكاء ولهم التفوق على غيرهم من السكان، وقد سبق أن أشرنا أن معظمهم اشتغل بالتجارة وقد وجد أصحاب الدعوة الإسلامية فى الحبشة مرتعاً خصباً فى الشعوب الوثنية ، كما لعبت الطرق الصوفية دوراً كبيراً فى نشر الاسلام وكان من أبرز تلك الطرق الشاذلية والقادرية والختمية .

وقد استطاع المسلمون فى الحبشة أن يجعلوا بينهم وبين الممالك الاسلامية المجاورة لهم روابط ثقافية واقتصادية وثيقة كمصر التى فيها الجامع الأزهر الذى أمه طلاب كثيرون لأخذ العلم، وكان لهم فيه رواق شهير، رواق الجبرتية، الذى نبغ فيه كثير من العلماء كالشيخ الامام الزيلعى فخر الدين عثمان بن على شارح الكنز المتوفى ١٣٤٢م ، والمحدث الزيلعى جمال الدين بن عبد الله بن يوسف المتوفى ١٣٦١م، كما أننا نعرف من المؤرخ المصرى المعروف الشيخ عبدالرحمن الجبرتى أن جده السابع الشيخ عبد الرحمن رحل من الحبشة إلى مصر فى أوائل القرن العاشر الهجرى وجاور بالأزهر وتولى مشيخة رواق الجبرتية ، ومن الواضح أن كثيراً من الأحباش الذين تلقوا العلم فى الأزهر عادوا إلى بلادهم حيث نظر إليهم إخوانهم نظرة إجلال واحترام فشغلوا المناصب الدينية كمناصب القضاء والافتاء وغيرها . كذلك ارتبط مسلموا الحبشة بالسودان بروابط ثقافية واقتصادية وثيقة نشأت عن طريق الرصيرص ، وكثير

من المسلمين هاجروا من الحبشة إلى السودان ، كما ارتبط مسلموا الحبشة باليمن بروابط وثيقة منذ أزمنة قديمة بسبب عوامل الجوار والتجارة والمعاملات وقد أدخل اليمانيون إلى الحبشة زراعة البن ، كما نشأت علاقة بين مسلمي الحبشة والأماكن المقدسة في الحجاز، إذ كان كثير من الأحباش المسلمين يذهبون إلى مكة لتأدية فريضة الحج في كل عام[1] .

وقد ازدهرت القوى الإسلامية في الحبشة بفضل الدعوة التي تزعمتها الدولة العثمانية في عهد السلطان عبد الحميد الثاني ١٨٧٦/١٩٠٨ ، ونقصد بها دعوة الجامعة الإسلامية، إذ حدث اتصال عثماني بمسلمي الحبشة في عهد الامبراطور منليك، حيث أوفد السلطان عبد الحميد بعثة إلى الحبشة للتعرف على أحوال المسلمين فيها، وقد تحدث عن هذه البعثة صادق باشا العظم في كتابه رحلة الحبشة، حيث كان موفداً إلى الامبراطور منليك من قبل السلطان عبد الحميد وقد ذكر في كتابه أنه علم أثناء وجوده في أديس أبابا أنه لا يوجد بها مسجداً وأن المسلمين يؤدون الصلاة في الفضاء وذكر أنه طلب من الامبراطور أن يأذن للمسلمين ببناء جامع ومقبرة فأذن وفرح المسلمون بذلك ، واقترح عليهم صادق العظم أن يسمى الجامع حميدية تيمنا باسم السلطان عبد الحميد ، ولكن لم يلبث النجاشي أن نكث بعهده بعد سفر الوفد العثماني . على أن الانتعاش لم يلبث أن تحقق مرة أخرى للمسلمين في الحبشة بعد وفاة منليك في عام ١٩١٣ إذ خلفه في الحكم ليدج إياسو، وقد عرف النجاشي الجديد بتعاطفه مع المسلمين ،حتى يظن الكثيرون أنه أسلم لما كان يظهره من المحبة للمسلمين وقد تأكد ذلك عند نشوب الحرب العالمية الأولى حينما شجع الألمان والترك ليدج إياسو ، وحسنوا له تأسيس امبراطورية إسلامية في شرق

---

(١) يوسف احمد — الاسلام في الحبشة ص ٧٤ . انظر أيضاً :
Trimingham, Islam in Ethiopia

إفريقيا ، ولكنه لم يلبث أن خلع عن العرش فى سبتمبر ١٩١٦ حيث نودى بالأميرة زوديتو ابنة منليك امبراطورة على الحبشة ، على أن يخلفها الرأس تفرى ابن الرأس ما كونين، وفى عام ١٩٣٠ توفيت الامبراطورة زوديتو ونودى بالرأس تفرى ليكون امبراطورا على الحبشة باسم الامبراطور هيلاسلاسى الذى استمر حكمه من عام ١٩٣٠ حتى الاطاحة به من الحكم فى عام ١٩٧٤ ، وفى عهد الامبراطور هيلاسلاسى اشتدت سطوة الحكومة المركزية ، وأخذت تعانى من ازدياد تلك السطوة سلطنة جما الإسلامية ؛ خاصة بعد وفاة أبى جفار فى عام ١٩٣٤ ، إذ خلفه حكام ضعاف، وفى ذلك الوقت أخذ النجاشى هيلاسلاسى يضيق الخناق على استقلال جما الذاتى حتى أعلن صراحة ضمها إلى حكمه ، وبسقوط سلطنة جما لم يبق فى الحبشة سلطنة إسلامية مستقلة بعد أن كان فيها سبع ممالك إسلامية لكل منها قوة عسكرية وإدارة خاصة بها .

## التوغل العربى فى ممالك النوبة المسيحية :

وكما حدث توغل عربى فى الحبشة حدث توغل أيضاً فى سودان وادى النيل وممالك النوبة المسيحية، وترتب على هذا التوغل غلبة الإسلام والثقافة العربية بل إلى قيام ممالك وسلطنات إسلامية[1]. ومن المتفق عليه بين كثير من الباحثين أن الهجرات العربية هى التى كونت معظم القبائل السودانية ، وقد توافدت هذه الهجرات العربية عن طريق مصر والبحر الأحمر وشمال غرب إفريقيا ، واشتهر من القبائل العربية الشايقية والمناصير الذين سكنوا بين الشلال الرابع وأبى حمد والقواسمة فى سنار ، والفونج والعابدلاب الذين أسسوا مملكة سنار ، وقد اختلف الكثيرون فى أصل الفونج فهناك من يعتقد أنهم قد تعربوا ، وإن كان الفونج أنفسهم يدعون انتسابهم إلى أصول عربية

---

(١) مجوب زيادة : الاسلام فى السودان ص ١٢ — ١٣ .

وإلى جانب هذه القبائل التى أشرنا إليها توجد قبائل الجعليين ، وهم أشهر المجموعات العربية فى السودان ، والجدير بالذكر أن التزاوج الذى حدث بين المهاجرين العرب وقبائل النوبة ، هو الذى كون هذه المجموعات الجعلية التى تميزت فى خصائصها العربية وثقافتها الإسلامية .

أما فى الصحراء الواقعة بين النيل والبحر الأحمر فقد اختلطت القبائل العربية مع قبائل البجه، وبرزت من القبائل العربية التى استقرت فى أراضى البجه قبيلة الرشايدة التى هاجرت من الحجاز فى عام ١٨٧١ ، كما سبق أن أشرنا ، وفى دارفور توجد كثير من القبائل العربية كالزيادية والماهرية والتعايشة والعريقات وغيرها ، ومما تجدر الإشارة إليه أن بعض هذه القبائل قد اختلطوا بشعب الفور ، وتأسست سلطنة دارفور التى تميزت بخصائصها العربية وسماتها الافريقية .

وقد بدأ التغلغل العربى الإسلامى فى النوبة عن طريق هجرات عربية تدفقت من مصر بعد الفتح العربى لها ، وكان يوجـــد فى النوبة مملكتين مسيحيتين إحدهما مملكة مقرة ( النوبة السفلى ) ، وعاصمتها دنقلة العجوز ، وكانت هذه المملكة تمتد من الشلال الأول حتى الشلال الرابع ثم مملكة علوة أو النوبة العليا ، وكانت تمتد من الشلال الرابع إلى أعالى جزيرة سنار وعاصمتها مدينة سوبا على النيل الأزرق ، وقد أشار كثير من الجغرافيين العرب إلى بلاد النوبة ؛ فقد ذكر المقريزى أنها بلاد واسعة تقع فى جنوب مصر وأهلها نصارى على مذهب اليعاقبة .

وكان من الطبيعى بعد انتشار الإسلام فى مصر أن تتحدد العلاقة بين مصر وبين الممالك المسيحية الواقعة إلى الجنوب منها ، إذ كان لا بد للمسلمين أن يؤمنوا طرق تجارتهم إلى الجنوب مما أدى إلى صدام متكرر بين مصر الإسلامية ومملكة النوبة المسيحية فى دنقلة ، وتحدثنا كثير من المصادر عن

عقد معاهدة أطلق عليها اسم معاهدة البقط ، وقد عقدت هذه المعاهدة على أثر حملات أرسلت من مصر إلى بلاد النوبة ، وقد أعطت هذه المعاهدة لمصر شيئا من النفوذ السياسى والمادى فى بلاد النوبة ، وفضلا عن ذلك ضمنت للمسلمين استمرار المعاملات التجارية ، وحرية الجماعات العربية المهاجرة فى ممارسة شعائرها الدينية ، وفى نفس الوقت ضمنت لمملكة النوبة الاحتفاظ بنظامها الدينى ، وعلى الجملة ترتب على هذه المعاهدة استقرار النوبيين فى المقاطعات الإسلامية، واستقرار المسلمين فى مقاطعات النوبة تسهيلا للعلاقات التجارية المتبادلة فيما بينهما، كما اشترط فى هذه المعاهدة الإبقاء على مسجد للمسلمين فى النوبة السفلى ، وهذا يدل على وجود مجموعات إسلامية استقرت فى هذه المناطق ، وإلى جانب ذلك حددت المعاهدة الالتزامات لكلا الطرفين ؛ وبموجبها كان النوبيون يتسلمون من السلطات الحاكمة فى مصر هدايا سنوية من الحبوب والمئون الغذائية الأخرى، وإن كانت هذه الهدايا تقل فى قيمتها كثيراً عما كانت تقدمه مملكة النوبة لمصر من موارد خاصة بها .

وقد ذكرت معاهدة البقط فى كثير من المصنفات العربية ، وعلى الأخص فى مروج الذهب للمسعودى ، الذى أورد نص المعاهدة ( ٦٥٢م )، والذى يتضح منه أن الهدف من المعاهدة حرص حكام مصر على تأمين حدودهم الجنوبية أو بمعنى أدق تأمين الحدود الإسلامية . على أن المسلمين لم يهتموا بفتح بلاد النوبة أو إرغام أهلها على اعتناق الدين الإسلامى ، ولعل السبب فى ذلك يرجع إلى اهتمام المسلمين بفتح شمال غرب إفريقيا ، هذا بالإضافة إلى أن بلاد النوبة لم تكن تثير اهتماماً بفتحها ، ولعل ذلك يرجع إلى قلة مواردها وصعوبة مواصلاتها ، وإن كان ذلك لم يقف حائلا دون تدفق الهجرات العربية ودخول كثير من مسيحى النوبة فى الدين الإسلامى . ومما تجدر الإشارة إليه أنه على الرغم من أن انتشار الإسلام ظهر بصورة واضحة

عقب سقوط ممالك النوبة المسيحية ، إلا أن وجود هذه الممالك لم يحل دون دخول الإسلام وانتقال المؤثرات العربية إلى السودان ، لأن هجرات القبائل العربية كانت تأتى من الشمال متنكبة منطقة النوبة بمسيحيتها وجنادلها وتدخل فى منطقة الأقاليم الجنوبية ، كما كانت تفد أيضاً من جهات البحر الأحمر أو شمال غرب إفريقيا ، ولكن سقوط هذه الممالك كان بمثابة فتح باب جديد نشطت من خلاله المؤثرات العربية الإسلامية ، وتحول النوبيون إلى الدين الإسلامى وتشبعهم بالثقافة العربية .

وقد ساعد على قوة التغلغل العربى الظروف التى تعرضت لها مصر بخاصة والعالم الإسلامى بعامة ، إذ يسجل لنا النصف الثانى من القرن التاسع الميلادى أكبر موجة من المهاجرين العرب الذين اندفعوا من مصر إلى بلاد النوبة ، وذلك بعد أن فقدت القبائل العربية نفوذها فى مصر حينما بدأ الحكام منذ عهد المتوكل ٨٤٧/٨٦١م يختارون من الأتراك ، وكان الضغط السياسى والاقتصادى الذى أخذت تتعرض له القبائل العربية له أسوأ الأثر فى نفوس العرب ، فلم يكن أمامهم إلا فرصة الانسياب جنوباً وغرباً بعيداً عن الضغوط المختلفة التى أخذوا يتعرضون لها ، ولا شك أنهم وجدوا فى بلاد النوبة وسهول السودان الفسيحة مجالا حيويا رحبا أمامهم .

وفى النصف الثانى من القرن التاسع الميلادى أو على وجه التحديد فى عام ٨٦٨ م قامت من مصر حملة عسكرية إلى بلاد النوبة وأراضى البجة قادها عبد الله بن عبد الحميد العمرى ، ويظهر من رواية المقريزى أن هدف هذه الحملة لم يكن مجرد تأديب النوبة أو البجة حيث كان المسلمون قد عقدوا معهم معاهدة تشابه من وجوه كثيرة معاهدة البقط التى عقدت مع مملكة النوبة المسيحية إذ كانت تنص على استمرار تبادل التجارة وبأن يجتاز المسلمون أراضى البجة وأن يجتاز البجة أراضى المسلمين ، كما قررت المعاهدة الخراج السنوى الذى

يدفعه البجة إلى ولاة مصر ، كما يسمحوا بإرسال زكاة من أسلم منهم إلى مصر وإنما كان الغرض من الحملة العسكرية الكشف عن مناطق جديدة لمعدن الذهب والبحث عن مهاجر جديدة للقبائل العربية . وفيما يبدو أن العمرى كان يطمح فى إقامة إمارة إسلامية فى منطقة وادى العليقات، وكانت هذه المنطقة تجتذب إليها أنظار العرب الذين هاجروا إليها واستقروا حول مناجم الذهب فيها وبرز من القبائل العربية عرب جهنيه وبلى وربيعه، وكان لهذه الحملة أثر كبير فى النفـــوذ الذى بلغه العرب فى بلاد البجة . ولا شك أن استقرار بعض الجماعات العربية واستغلالهم مناجم الذهب فى العلاقى بعث نوعاً من النشاط التجارى فى هذه المنطقة[1] . وقد أشار بعض جغرافى العرب فى القرن العاشر الميلادى ، ومنهم ابن حوقل، إلى أن عيذاب كانت ميناءاً هاماً لتصدير الذهب، كما ذكر المقريزى فى القرن الخامس عشر الميلادى أن الحجاج من مصر والمغرب كانوا لا يتوجهون إلى مكة إلا من صحراء عيذاب حيث كانوا يركبون النيل من ساحل مصر إلى الفسطاط إلى قوص؛ ثم يركبون الإبل من قوص ويعبرون هذه الصحراء إلى عيذاب ومنها يركبون البحر إلى جدة .

وبالإضافة إلى ذلك فقد ترتب على الانتعاش التجارى الذى حدث بين حكام مصر وبين الدول الأوربية خاصة فى عهد المماليك زيادة الاهتمام بالمنتجات الأفريقية، وما استتبع ذلك من ضرورة تأمين طرق القوافل والموانى الواقعة على البحر الأحمر كالقصير وعيذاب ، والبلاد التى تصل إليها قوافل التجارة خاصة فى صعيد مصر كقفط وقوص وابريم، كما أبدى المماليك عنايتهم بسواكن ومصوع، ولهذه الأسباب أرسلوا عدة حملات إلى مينائى عيذاب وسواكن، كما اهتموا بإخضاع قبائل البجة تأميناً لسلامة هذه الموانى، وتأميناً للقوافل التجارية التى تسير فى المناطق الواقعة بين النيل والبحر الأحمر حيث

---

(١) مصطفى محمد مسعد : الاسلام والنوبة فى العصور الوسطى ص١٢٤ القاهرة ١٩٦٠

كانت كثيراً ما تتعرض لخطر السلب، هذا بالإضافة إلى تأمين مناجم الذهب التى كانت منتشرة فى صحراء مصر الشرقية فى بلاد البجة أو بلاد المعدن ، كما كان يسميها العرب ، لكل هـذه الأسباب. أرسل المماليك حملات متتالية أخضعت قبائل البجة ومهدت لدخولهم فى الدين الإسلامى خاصة وأنهم كانوا معرضين لضغوط تبشيرية مسيحية من قبل الحبشة من ناحية، والممالك المسيحية فى النوبة من ناحية أخرى[1].

وفى عهد المماليك أيضاً تم إخضاع مملكتى النوبة السفلى والعليا، فعلى الرغم من أن معاهدة البقط كانت تنظم العلاقة بين المسلمين فى مصر ومملكة النوبة السفلى ـ وقد استمرت أكثر من ستة قرون محتفظة بوضعية خاصة للنوبة باعتبارها دار معاهدة بمعنى أنها ليست بدار حرب ولا دار سلام ـ إلا أنه قد ترتب على سقوط بغداد على أيدى المغول فى عام ١٢٥٨م تدفق موجة شديدة من الهجرات العربية أخذت تنزح إلى النوبة، وغيرها من المناطق البعيدة عن قلب العالم الإسلامى ولم تبق هذه الهجرات منعزلة عن المناطق التى هاجرت إليها بل اختلطت بسكانها وتزاوجت منهم مما ترتب على ذلك استعراب كثير من قبائل السودان الشمالى . وقد نتج عن قوة المؤثرات العربية توتر العلاقات بين مملكة النوبة وبين القوى الإسلامية وساعد على زيادة حدة هذا التوتر تحريض الأحباش للقوى المسيحية فى النوبة أو شعور هذه القوى بضرورة التخلص من الضغوط العربية والإسلامية . وفيما يبدو أن النوبيين كانوا يتعمدون فى مناسبات كثيرة عدم الوفاء بالتزاماتهم مما يفسر لنا بعثات كثيرة كانت ترسل من مصر إلى ملوك النوبة تذكرهم بتعهداتهم ، وتبرز من بين هذه البعثات فى أوائل عهد الدولة الفاطمية بمصر بعثة أحمد بن سليم الاسوانى إلى ملك النوبة جورج تطالبه بأن يدفع ما عليه للدولة الإسلامية القائمة فى مصر .

---

(١) عن تاريخ قبائل البجة انظر :

paul, A., A History of the Beja in the Sudan, Cambridge 1964

وقد سجل لنا ابن سليم أخباراً كثيرة عن مملكة النوبة وإن كان من الأسف أن مدوناته فقدت ولم تصل إلينا، باستثناء ما سجله المقريزى نقلا عن كتاب ابن سُليم المسمى أخبار النوبة ومقره وعلوه والبجة والنيل(١) .

ويفهم مما أورده المقريزى نقلا عن ذلك المصدر أن المسلمين فى بلاد النوبة كانوا فى حالة من الاستقلال والاستقرار إذ كانت لهم أملاك يستغلونها لصالحهم ، كما روى أن كثيراً من أهالى النوبة اعتنقوا الدين الاسلامى، وأن المسلمين توغلوا داخل الأراضى السودانية حتى إقليم علوة وذلك لغرض التجارة حتى أصبح لهم رباط خاص بهم فى مدينة سوبا عاصمة مملكة علوة(٢) .

وليس من شك فى أن اشتداد الحروب الصليبية قد أدى إلى تطور فى العلاقات بين مصر والنوبة . وقد عاصرت دولة المماليك فى مصر اشتداد الخطر الصليبى ، ونجح المماليك فى التصدى لذلك الخطر فى بلاد الشام وأجج الحماس الدينى شعور المسلمين الذين تغلبوا على مملكة النوبة السفلى فى عام ١٣١٨م . وفى خلال السنوات الأولى من القرن السادس عشر الميلادى تجددت أخطار صليبية من ناحية النوبة العليا والحبشة خاصة بعد أن دخل البرتغاليون طرفاً فى هذا النزاع بمساندتهم للحبشة ضد المماليك ، وصادف فى ذلك الوقت أن حاول ملوك النوبة العليا القيام بهجوم على أسوان وعيذاب مما أدى إلى تفكير المسلمين فى ضرورة القضاء على مملكتهم . والحقيقة أن مملكة علوة ، كما كان يسميها العرب، أو كما عرفت فى السودان بمملكة الفنج

---

(١) مصطفى محمد مسعد : الاسلام والنوبة فى العصور الوسطى ص ٧٦ القاهرة ١٩٦٠.

(٢) ذكر الرحالة لويس بوركهارت فى كتابه «رحلات فى بلاد النوبة والسودان» أن افضل من كتب عن النوبة من مؤرخى العرب هو ابن سليم الأسوانى وان كان لم يعثر على كتابه فى مكتبات القاهرة، ولكنه اعتمد على الفقرات الكثيرة التى أوردها المقريزى نقلا عن ذلك الكتاب .

cf Lewis Burchardt, Travels in Nubia and Sudan .

لم تدخل فى نزاع مع المسلمين فى مصر فى الفترة السابقة بسبب بعد المسافة بينها، بالاضافة إلى أن مملكة النوبة السفلى كانت تشكل دولة حاجزة، ولكن انهيار مملكة النوبة السفلى أدت إلى ضعف مملكة علوة التى استوردت منها مسيحيتها ولم تعد عاصمتها سوبا، كما كانت عندما سجل الأسوانى مشاهداته فيها، حيث ذكر أن «بها أبنية حسان ودوراً واسعة وكنائس كثيرة الذهب» كما أوضح بأنها كانت أكثر مالا وأعظم جيشاً من مملكة النوبة السفلى. ولكن هذه الصورة التى رسمها ابن سُليم كانت فى طريقها إلى الزوال، ففى السنوات الأولى من القرن السادس عشر، ونتيجة للظروف العامة التى سبق الإشارة إليها، تمكن العرب القاطنون على النيل الأزرق باتحادهم مع قبيلة الفونج، التى كانت تقطن جنوب سنار من فتح مملكة النوبة العليا ١٥٠٠ م وتأسيس مملكة سنار. وهكذا يشهد القرن السادس عشر الميلادى عمق التأثيرات العربية فى السودان وظهور مزيج مركب من مجتمع إسلامى عربى مع احتفاظه بكثير من السمات الإفريقية.

ويعزى تأسيس مملكة سنار إلى عمارة دنقس زعيم الفونج[١] الذى تحالف مع عبد الله جماع من قبيلة القواسمة العربية وأغار الاثنان بقواتهما على سوبا عاصمة مملكة علوة، التى كانت تعانى فى ذلك الوقت انشقاقاً داخليا، وقد اتخذ عمارة من سنار عاصمة لحكمه، وأصبحت معظم الأراضى الواقعة بين النيلين إلى حدود الحبشة والبجة تابعة له مباشرة، أما حليفه عبدالله فقد اتخذ من قرى عاصمة لمشيخته التى عرفت بمشيخة العابدلاب، وبقى وكيلا لعمارة دنقس على السودان الشمالى حتى حدود مصر[٢].

---

(١) من المصادر الهامة التى كتبت عن تاريخ الفونج يمكن الرجوع إلى :
Crawford, O. G. S., The Fung Kingdom of Sennar, London 1961.

(٢) مكى شبيكة — مملكة الفونج الاسلامية ص ٢١ وما بعدها، معهد الدراسات العربية ١٩٦٤.

وتسجل لنا بعض الروايات الشيء الكثير عن تأسيس مملكة الفونج، ولعل أقدم هذه الروايات رحلة داود روبيني من يهود اليمن الذى قام برحلة إلى السودان فى أيام عمارة بن دنقس، كما أورد الرحالة الاسكتلندى جيمس بروس Bruce فى القرن الثامن عشر معلومات عن هذه المملكة[١]، كما توجد بالاضافة إلى ذلك بعض المصادر المحلية أبرزها مخطوطة الطبقات لمحمد ود ضيف الله الجعلى، وقد نشرت هذه المخطوطة فى عام ١٩٣٠[٢]، ثم لدينا أيضاً مخطوطة الشيخ أحمد كاتب شونه الغلال بالخرطوم؛ والتى تناول فيها تاريخ سلطنة سنار منذ قيامها إلى ما بعد قيام الحكم المصرى، وقد عنى بنشر هذه المخطوطة الأستاذ الشاطر بصيلى[٣]، كما نشر الأستاذ مكى شبيكة نسخة معدلة منها. ويتضح من هذه المخطوطة أن عبد الله جماع هو الذى أغرى عمارة على محاربة العنج، ملوك علوة، خاصة بعد أن أدرك سهولة القضاء على هذه المملكة بعد أن دخل عدد كبير من سكانها الدين الاسلامى وازدياد تدفق الهجرات العربية إليها.

ومما تجدر الإشارة إليه أنه ورد فى مصادر أخرى أن مؤسس دولة الفونج عاصر التوسع العثمانى لمصر، وأنه حرص على منع العثمانيين من الوصول إلى بلاده، خاصة بعد أن وضح نشاطهم فى البحر الأحمر، فيقال أنه أرسل بأنساب قبائل السودان إلى السلطان سليم الأول، ووضح من هذه الأنساب بأنها قبائل عربية تدين بالدين الإسلامى.

وينبغى أن نلاحظ أن القرن السادس عشر كان عصر تأسيس السلطنات الإسلامية فى السودان سلطنة الفونج — مشيخة العابدلاب — ثم

---

(١) Holt, op. cit, p. 20.

(٢) ود ضيف الله : الطبقات ، القاهرة ١٩٣٠ .

(٣) انظر كاتب الشونة : مخطوطة سنار ، تحقيق الشاطر بصيلى ، عبد الجليل، القاهرة ١٩٦١ .

سلطنة دارفور التى أسسها سليمان سولونج[١]. وكان لظهور هذه السلطنات الإسلامية أثره الكبير فى إتاحة الفرصة للعلماء وأصحاب الدعوة الإسلامية للتوافد عليها ، إذكانت هناك زيارات متكررة كان يقوم بها علماء من مصر وبغداد والمغرب ، كما توافد كثير من السودانيين على الأزهر لاستكمال تعليمهم ، كما أسهمت الطرق الصوفية بنشاط كبير فى تثبيت دعائم الإسلام فى تلك الجهات[٢] ، وقد برز من هذه الطرق الخلواتية والقادرية والشاذلية والميرغنية ، وقد بلغت الطريقة الأخيرة شأواً كبيراً فى بلاد السودان ، ويرجع تأسيسها إلى عثمان الميرغنى ١٧٩٣ / ١٨٥٣ الذى تتلمذ على أحمد بن إدريس الفاسى، ونظم أتباعه فى طريقة الخاتمية أو الميرغنية كما عرفت باسمه .

وتجدر الإشارة هنـــا إلى أنه على الرغم من أن التوسع المصرى فى السودان فى عهـدى محمد على وإسماعيل خلال القرن التاسع عشر أزال هذه الممالك الإسلامية ، إلا أنه قد ترتب على الحـكم المصرى دفعة قوية أدت إلى انتشار الثقافة العربية والدين الإسلامى فى مناطق كثيرة امتد إليها الحـكم المصرى ، كما كان لحركة اليقظة والتجديد فى العالم العربى خلال القرن التاسع عشر انعكاساتها الواضحة فى السودان ، ولـكن الخطورة أن حركة الأحياء هذه واكبت تقدم الموجة الامبريالية مما أدى إلى حدوث صراع بين القوى الإسلامية والاستعمار الأوربى ، كان من نتيجته إجبار مصر على الانسحاب من السودان والمناطق الافريقية الأخرى التى امتـد إليها الحـكم المصرى ، وكان ذلك تمهيداً للتسلط الاستعمارى عليها[٣] .

---

(١) عن سلطنة دارفور انظر : نعوم شقير تاريخ السودان — القاهرة ١٩٠٣ وكذلك الشاطر بصيلى عبدالجليل : تاريخ وحضارات السودان الشرقى والأوسط ص ص ٣٧١ وما بعدها، القاهرة ١٩٦٧ .

(٢) Holt, A Modern History of the Sudan, pp. 29 - 30 London 1917.

(٣) انظر خاتمة الـكتاب .

# الفصل الرابع

## العرب وممالك السودان الغربي

# العرب وممالك السودان الغربى

لم يكن ارتباط العرب بغرب القارة الإفريقية يقل قوة عن ارتباطهم بشرق القارة ووسطها ، فكما اتصل الشرق والوسط بسواحل جنوبى الجزيرة العربية والخليج العربى اتصل غرب القارة بالشمال الافريقى، وتم الاتصال فى هذه الحالة عن طريق الصحراء الكبرى .

وقد عرف العرب أقاليم غرب السودان، وهى الأقاليم التى تقع جنوب الصحراء ، والتى تمتد من المحيط الأطلسى فى الغرب حتى سودان وادى النيل فى الشرق، وتقع بين المناطق الصحراوية فى الشمال وبين نطاق الغابات الاستوائية فى الجنوب ، غير أن هذه المناطق لم تكن هدف التوغل العربى فى بداية الأمر ، وإنما كانت صلة العرب بها منقطعة لا تطول ، وفيما يبدو أن العرب لم يألفوا هذه المناطق سكنا لهم وقت تعاظم قوتهم التى وجهوها ضد القوى المسيحية فى الحوض الشمالى للبحر المتوسط ، ومع ذلك فقد أخذ الإسلام يتسرب إلى هذه المناطق بعد انتشاره فى بلاد المغرب إذ اختار العرب مراكز لهم بعيدة عن الساحل لكى يحموا أنفسهم من الأسطول البيزنطى ، وفى قلب المغرب بنوا مدينة القيروان التى أصبحت قاعدة لهم للتوسع نحو الجنوب[1] .

وقد ذكرت روايات كثيرة عن بدأ إنتشار العرب والإسلام فى هذه المنطقة: من ذلك ما قيل بأن كثيراً من سكان البربر أسلموا ثم ارتدوا عن

---

(١) Bovill, The Golden Trade of the Moors p. 58.

الإسلام واحتاج الأمر إلى حملات كثيرة لتأديبهم ، ويفهم من هذه الروايات أن دخول الإسلام جاء عن طريق المغرب ، والواقع أن كتلة المغرب الإسلامى كانت تعمل على توحيد الإسلام الافريقى والإسلام الأوربى (الأندلسى) فى وحدة سياسية لتكون من القوة بحيث يمكنها مواجهة المسيحية الأوربية فى الشمال ، والوثنية الزنجية فى الجنوب .

ومنذ انتشار الاسلام فى شمال غرب إفريقيا أخذت القبائل العربية تتوغل نحو الجنوب ، وكان توغلهايتم فى حركات مستمرة ، والجدير بالذكر أن العرب فاقوا غيرهم من الشعوب من حيث مقدرتهم على الانسياب فى الداخل ؛ فالرومان مثلا لم يتمكنوا من التوغل إلى أبعد من السهل الساحلى وأقاموا خطا من الثغور Limes يحمى حدود منطقة نفوذهم من عدوان القبائل الداخلية على حين توغل العرب ، وهم من البدو فى صميم الداخل وأخضعوا قبائل البربر والزنج لسلطانهم ، وهذه القبائل العربية كانت كلما أمعنت فى تقدمها جنوبا كلما احتكت بهذه القبائل وأرغمت الكثير منها على الهجرة ، وقد استمرت غارات العرب قائمة حتى دخلت بعض القبائل العربية إلى مشارف النيجر والسنغال ، وقد ذكرت بعض الروايات المحلية بصدد ذلك أن عقبة بن نافع استطاع أن يدرك بلاد السودان الغربى ويصل إلى منحنى النيجر ومصب السنغال ، وقد بقيت ذكرى هذا الفاتح تنبعث عبر الأجيال متمثلة فى ادعاء بعض القبائل فى غرب إفريقيا الانتساب إليه[١] ، وقد لاحظ ذلك الرحالة هنريك بارت Bart فى أثناء رحلته الشهيرة فى غرب إفريقيا .

ولا شك أن الهجرات العربية الأولى إلى جنوب الصحراء الكبرى فتحت الطريق أمام التجار العرب الذين بدأوا ينفذون إلى هذه الجهات

---

(١) حسن أحمد محمود : انتشار الاسلام والثقافة العربية فى إفريقيا ص ص ٢٢٧/٢٢٩ .

بواسطة القوافل التجارية التى أصبحت أكثر جرأة على ارتياد هذه المناطق، كما وضحت المؤثرات العربية والاسلامية بسبب الغزو أو التجارة أو نتيجة هجرة جماعات كبيرة للدعوة إلى الاسلام قام بها العلماء والفقهاء والمتصوفة والدعاة .

والجدير بالذكر أنه قبل وصول العرب إلى غرب إفريقيا لم يكن يعرف قليلا أو لا يكاد يعرف شيئاً عن إفريقيا جنوبى المغرب ، ولذلك فإننا ندين إلى حد كبير للمصنفات العربية التى أمدتنا بالشىء الكثير عن عمليات الهجرة والاستيطان الأولى فى السودان الغربى ، كما أمدتنا بمعلومات وافية عن غرب إفريقيا وأقاليمها الداخلية(١) . والثابت أن التوغل الإسلامى تم فى بداية الأمر عن طريق البربر وأشهرهم الطوارق والملثمين ، ويفهم من ذلك أن البربر هم الذين قاموا بنشر الإسلام فى غرب إفريقيا ، إلى أن جاءت هجرات عربية فى القرن الحادى عشر الميلادى ، عدلت من التوسع العنصرى وأقامت شيئاً من التوازن بين العرب والبربر فى شمال غرب إفريقيا ، ويمكن الإشارة بصدد ذلك إلى هجرة بنى سليم وبنى هلال ، وكان للهجرة الثانية أثر كبير فى دفع البربر إلى أقاليم غرب السودان(٢) فاستقروا فيه بحيث لم يصبح الأمر مجرد تبادل تجارى وإنما وصل الأمر إلى استقرار جماعات من العرب والبربر فى غرب السودان ، وبهذه الطريقة دخل الإسلام فى هذه المناطق حيث أسلم الكثير من شعوبها ، كما نتج عن اختلاط البربر بالزنوج شعوب جديدة تدين بالإسلام وإن ظلت تحمل فى أعماقها الكثير من رواسب الماضى .

وقد يكون من المفيد أن نشير فيما يلى إلى أهم الممالك الزنجية التى ظهرت فى السودان الغربى ، فطبقاً لما تذكره المصادر المحلية عن غرب إفريقيا أنه

---

(١) بازل دافيدسون : إفريقيا تحت أضواء جديدة ص ص ١٠٢/١٠٣ .

(٢) cf. Bovill, The Goldén Trade of the Moors p. 63.

عندما وصل الملثمون إلى أقاليم غرب السودان كانت هناك دولة زنجية وثنية هي دولة غانا ، وهذه الدولة كانت تشتمل على جميع المناطق الممتدة بين النيجر والسنغال . وفيما يبدو أن الإسلام أخذ يتوغل فى دولة غانا عن طريق الاختلاط والتجارة ، إنما كان المسلمون قليلين إلى أن حدثت هذه الهجرات الكبيرة وما تبعها من انتصار قوات المرابطين على دولة غانه، فانكسر بذلك الحاجز الوثنى ، وأخذ الإسلام يتدفق بسهولة إلى أقاليم السودان الغربى وما استتبع ذلك من نشوء مدن إسلامية بلغت درجة كبيرة من الأهمية والازدهار بحيث غدت بعض هذه المدن مراكز تجارية وثقافية ، وأصبحت قبلة للعلماء والطلاب . كما تعاقبت الدول الإسلامية واحدة بعد الأخرى، وإن كانت أوروبا لم تعرف من شأنها شيئاً إلا فى وقت متأخر منذ القرن الخامس عشر الميلادى ، حين كان بعض هذه الدول قد مضى على إنشائها بضع مئات من السنين .

وقد ظل الدفع الإسلامى يتقدم جنوباً ولم يعقه إلا تحالف شعوب فولتا العليا الوثنية فوقفوا دون انتشار الإسلام وكانوا حائلا دون تقدمه فى ساحل الذهب ، أعنى غانه وتوجو وداهومى ، فلم ينتشر فى هذه البلاد إلا فى عصر قريب ، وذلك بفضل بعض التجار الذين بدأوا يأتون من مختلف البلاد الإسلامية لاستيراد العاج وسائر منتجات البلاد حتى أسسوا مدينة كونج فى ساحل العاج التى أصبحت مركزاً لانتشار الإسلام ، ومن ناحية أخرى عاد كثير من المسلمين الذين هاجروا إلى البرازيل بعد أن حملوا عبيداً إليها ثم تحرروا وبدأ نشاطهم فى نشر الإسلام، حيث قامت جاليات إسلامية فى بورنو نوفو بداهومى ، وفى جامبيا وغينيا[1] ، انتشر الإسلام

---

(١) عبد الرحمن بدوى — الثقافة العربية فى إفريقية، مجلة نهضة إفريقية العدد ٤٨ .

انتشاراً هائلا بفضل قبيلة الفولا وقبيلة الألمامية وبولا ، ثم عمال الحاج عمر فأصبحت الأغلبية الساحقة فى هذين البلدين مسلمة . وكان إقليم النيجر نقطة التلاقى بين التأثيرات الإسلامية الواردة من الشرق ومن الغرب ، فقامت قبيلة السونجو بتأسيس دولة إسلامية كبيرة منذ القرن الحادى عشر الميلادى .

على أن ظهور الدول الإسلامية فى السودان الغربى كان يدين إلى حد كبير لبلاد المغرب العربى التى كانت بمثابة كتلة عربية إسلامية أثرت تأثيراً كبيراً فى المناطق التى تليها جنوباً من أراضى السودان، والتى كان معظمها يعرف فى خلال عهد الاستعمار الأوربى باسم إفريقيا الفرنسية الغربيـــة L'Afrique Occidentale Francaise وهى المناطق الممتدة فيما يلى الصحراء الكبرى إلى ساحل المحيط الأطلسى ، وإلى جهات النيجر والسنغال. ومما يستلفت النظر أن الصحراء الكبرى لم تكن مانعة بأى حال من الأحوال من قيام الارتباط بين المناطق الواقعة إلى شمالها من أرض المغرب والمناطق الواقعة إلى جنوبها من أراضى غرب السودان ؛ إنما كانت تجتازها طرق ومفاوز استخدمتها قوافل التجارة ؛ حيث قامت فى أراضى السودان الغربى جماعات من الزنوج اشتغلت بعضها بالرعى وبعضها بالزراعة ، وكانت محتاجة إلى أشياء كثيرة مما تنتجه أرض المغرب وخصوصاً ملح الطعام الذى كان سلعة عزيزة فى الجنوب .

وهناك من الدراسات الموضحة للروابط المختلفة التى ربطت بلدان الشمال الافريقى بأقاليم غرب إفريقيا ، ومن أهمها تلك الدراستين القيمتين اللتين نشرهما بوفيل Bovill بعنوان قوافل الصحراء القديمة ، والتجارة الذهبية للمغاربة .

— The Caravans of the old Shara.

— The Golden Trade of the Moors.

حيث تتبع بوفيل طرق القوافل ومراكزها عبر الصحراء الكبرى

وأكد أن الصحراء بما يتخللها من طرق ودروب ومفاوز كانت عاملا هاما من عوامل الربط بين شمال غرب إفريقيا من ناحية، وغربها من ناحية أخرى مما يذهب بنا إلى القول بأن الوحدة الافريقية ، ونعنى بذلك الارتباط بين إفريقيا شمال الصحراء وإفريقيا جنوب الصحراء ، كان قائماً، ولا شك أن الشواهد التاريخية فى حد ذاتها إنما تهدم الرأى الذى كان ينادى به الاستعماريون والذى كان يستهدف تمزيق فكرة الوحدة الافريقية ، بالقول إن شمال إفريقيا لا تربطه روابط وثيقة بغربها ، وأن الصحراء الكبرى تشكل فاصلا كبيراً يحول دون قيام هذه الروابط[١] .

والجدير بالذكر أن المسلمين فى شمال إفريقيا ظلوا وسطاء بين أقاليم غرب إفريقيا من ناحية وأوربا من ناحية أخرى، واستطاعوا بفضل هذه الوساطة التى كانوا يقومون بها حماية مناطق غرب إفريقيا من السقوط فى أيدى الدول الأوربية إذ لم يسمحوا لهذه الدول أن تتعامل مع الداخل؛ حيث كانوا وحدهم صلة الوصل بين ممالك السودان الغربى وأوربا . وقد ازدهرت التجارة بين مسلمى شمال غرب إفريقيا وتجار البنادقة وجنوة وبعض المدن الفرنسية الذين كانوا يبادلون تجارتهم بتجارة السودان الغربى عن طريق وساطة المسلمين القاطنين فى الحوض الجنوبى للبحر المتوسط، وقد ظهرت فى مدن الشمال الغربى من إفريقيا كثير من القنصليات والمراكز التجارية التى أوجدها الأوربيون تسهيلا لمعاملاتهم التجارية ، واجتذبت موانى البحر المتوسط من طرابلس إلى أغادير كثير من السفن الأوربية والتجار المسيحيين وسوف يترتب على ذلك توغل الأوربيين فى الداخل مما سيمهد لاستعمار منطقة غرب إفريقيا ، وتغيير نماذج الحياة فيها، كما أدى ذلك إلى التأثير على تجارة القوافل تأثيراً كبيراً بعد أن عمد المستعمرون إلى إنشاء الطرق الحديثة والسكك

---

(١) عبد العزيز كامل : نحو تخطيط علمى لدراساتنا الافريقية — محاضرة فى الجمعية الجغرافيه المصرية .

الحديدية وفتح مخارج جديدة على ساحل غرب إفريقيا نجحت فى امتصاص تجارة الصحراء ، وتحطيم طرق القوافل التى كانت بمثابة الشرايين القوية للتعامل، ونقل المؤثرات الثقافية والحضارية من شمال إفريقيا إلى غربها، ولكن ذلك حدث فى فترة متأخرة من القرن التاسع عشر ، أما القرون التى سبقت ذلك فقد كان العرب هم أول من استطاعوا التوغل فى الأقاليم التى تقع إلى الجنوب من نطاق الصحراء الكبرى حيث أقاموا صلات تجارية وثقافية عديدة إبتداء من النصف الثانى من القرن الحادى عشر الميلادى .

وكانت القوافل العربية تخرج من مدن شمال غرب إفريقية ، كفاس ومراكش وتلمسان وقسنطينة والقيروان، تحمل التجارة إلى أقاليم غرب إفريقيا حيث يتم التبادل التجارى مع دول غانا ومالى وجن وجاوا وتمبكتو وكانو ، وكانت هذه القوافل تعود محملة بالموارد الأفريقية من عاج وذهب ورقيق . وقد كانت هناك كثير من الطرق التى اعتادتها قوافل التجارة من أهمها الطريق الذى يتجه من مراكش إلى المنحنى الشمالى من النيجر وإلى الإقليم الشاسع الذى يمتد غربه صوب المحيط، وهناك طريق وسط يبدأ عند تونس ويتجه صوب الاقليم الكبير الواقع حول بحيرة تشاد، هذا بالاضافة إلى الطريق الذى كانت تجتازه قوافل الحج، وهو طريق الدرب الصحراوى المعروف بطريق غات الذى كان يمتد من مالى وينتهى عند أهرام الجيزة بمصر[١] ، ومن طرق القوافل الأخرى التى كانت تربط شمال الصحراء الأفريقية الكبرى بجنوبها يمكن الاشارة إلى طريق سلجماسه — ولاته، وهو الطريق الذى كان يؤدى إلى مناجم الذهب فى السنغال وأعالى النيجر، وطريق غدامس — غات وطرابلس — فزان — بحيرة تشاد ، وطريق برقة — كفرة — إلى بعض أقاليم وسط افريقيا، كذلك تجدر الاشارة إلى طريق درب الأربعين، وهو الطريق الذى كانت تسلكه القوافل بين الشمال والجنوب، واستخدم منذ أقدم

---

(١) Holt, op. cit. p. 14

المصور للقوافل من أسيوط إلى دارفور، ويتصل بحوض النيل فى منطقة دنقلة، وقد بقى هذا الطريق من بين الكثير من المسالك التجارية التى كانت تسير عبر الصحراء الغربية، بعد أن أغلقت هذه الطرق بسبب أو بآخر، من ذلك ساقية الريح التى كانت تردم القوافل بكلها وكليلها[1]، ورغم قسوة بعض العوامل الطبيعية فقد لعبت هذه الطرق دوراً هاماً فى نقل الحضارة الى قلب القارة الأفريقية وإلى أقسامها الغربية، كما كانت أيضاً الطريق الذى سلكته الهجرات المتتابعة من شمال الصحراء الى جنوبها؛ حينما دفعت التقلبات السياسية فى الشمال شعوباً وقبائل مختلفة للنزوح عبر الصحراء، وباتساع نطاق التجارة والهجرة والاستيطان قوى أثر العرب فى حياة الزنوج، كما وضحت المؤثرات العربية التى تمثلت فى اعتناق نسبة كبيرة من شعوب الزنج للدين الاسلامى، كما تحدثت أقلية لا يستهان بها اللغة العربية، وأصبحت هذه اللغة هى لغة الثقافة والعلم، وقد شهدت غرب افريقيا قيام كثير من الدول الزنجية والوثنية والاسلامية، وليس من شك فى أن كثيرا من العرب والمغاربة والزنوج من فقهاء ومؤرخين ورحالة كتبوا عن هذه الدول قبل أن تبدأ أوربا معرفتها بغرب من أفريقيا، وقد تجدر الاشارة بصفة خاصة الى العلماء والمؤرخين الذين عاشوا فى المنطقة والذين كتبوا عن الأحداث التى وقعت فى أوطانهم.

ولعل أوفى ما لدينا من مصادر خاصة بالسودان الغربى الكتاب الذى وضعه عبد الرحمن السعدى، وهو عالم إفريقى نشأ فى تنبكتو حيث ولد بها فى عام ١٥٥٦ وينحدر من سلالة سودانية ارستقراطية تمت إلى أصول مغربية، تقلد فى حياته كثيراً من الوظائف العامة وقدر له أن يمارس مهاماً سياسية فى كثير من

---

(١) الشاطر بصيلى — مملكة موريتانيا المصرية، مجله الجمعية المصرية للدراسات التاريخية — ص ٤ — ٥، الموسم الثقافى ١٩٦٧/١٩٦٨.

وقد أورد على مبارك فى خططه التوفيقية جـ ١٧ ص ص ٣١/٣٣ بيانات هامة عن طريق درب الأربعين.

ممالك غرب إفريقيا (١٦٥٥) أطلعته على الكثير وشحذت ذهنه حينما تولى الصلح بين الأمراء الذين كانوا يتحاربون حينذاك ، وأورد فى كتابه تاريخ السودان كثيراً من تجاربه فى هذا السبيل، ونحن ندين بالتعرف على ذلك الكتاب إلى الرحالة هنريك بارت الذى عثر على نسخة مخطوطة منه أخذ منها الكثير الذى ضمنه فى كتابه عن رحلاته فى غرب إفريقيا ولا شك أنه انتفع بكتاب السعدى فى رحلاته الواسعة التى جاب فيها كثيراً من أقاليم غرب إفريقيا، كما انتفع بذلك الكتاب أيضاً الكثيرون غيره من الرحالة الأوربيين فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر من أمثال لاندر ومنجو بارك وكلابرتون . ويعتبر عبد الرحمن السعدى من ألمع مؤرخى امبراطورية سنغاى أرخ فى كتابه لغانا ومالى ،وأفاض كثيراً فى وصف حضارتهما وذكر كثيراً من قبائل غرب إفريقيا ، ثم أفاض فى الحديث عن دولة سنغاى وخاصة فى عهد سلاطينها العظام من أسرة اسكيا ، كما اهتم السعدى أيضا بالإشارة إلى مشاهير الرجال الذين لقيهم وتعرف عليهم فى حياته ، واهتم بصفة خاصة بوصف مجالس العلم والثقافة ، فقد كتب عن مدينة جن التى عرفها منذ مطلع شبابه حيث ذكر أنها كانت مدينة سعيدة منحها الله عدداً من رجال العلم والتقوى والصلاح رحلوا إليها من بلاد بعيدة وأقاموا فيها ؛وإن لم يكونوا من أهلها . وقد وضع السعدى كتابه باللغة العربية ، التى كانت كما ذكرنا لغة الثقافة فى غرب إفريقيا ، ومما تجدر الإشارة إليه أن كاتباً مجهولا ولد فى تنبكتو عام ١٧٥١ أتم كتاب السعدى بإضافة أحداث المغاربة فى مملكة سنغاى فى كتاب بعنوان تذكرة النسيان فى أخبار ملوك السودان، وقد نشر المستشرق الفرنسى هودا هذا الكتاب فى عام ١٨٩٩[١] .

ولدينا أيضاً كتاب التاريخ الفتاش فى أخبار الجيوش وأكابر الناس

---

(١) عبد الرحمن زكى: المراجع العربية لتاريخ غرب إفريقيا — محاضرات الموسم الثقافى — الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ٦٧/١٩٦٨ .

الذى ألف أكثر فصوله محمود كعت التنبكتى ، وهذا الكتاب لم يجد طريقه للنشر إلا فى عام ١٩١٣؛ حينما ترجمه المستشرقان هوداس ودى لافوس إلى الفرنسية ونشرا النسخة العربية فى نفس ذلك العام ، والجدير بالذكر أن أحداث الكتاب انتهت أصلا فى عام ١٥٩٩م، أى بعد وفاة المؤلف بست سنوات، ويبدو أن أحد أحفاده هو الذى أضاف السنوات الست التالية لوفاته، ثم تناول الكتاب بالإضافة كتاب آخرون انتهوا بأحداثه حتى عام ١٦٦٥م .

وقد ألقى كتاب الفتاش أضواء ساطعة على مملكة سنغاى وحضارتها ونظمها ، وركز بصفة خاصة على أسرة إسكيا التى اتخذت جاغ قاعدة لها منذ تولى الحاج محمد إسكيا الحكم ١٤٩٣ — ١٥٢٩ حتى الغزوة المراكشية لسنغاى فى عام ١٥٩١ ، ولعل ذلك مما يعطى للكتاب أهمية خاصة إذ أن مؤلفه الأول الكعتى كان شاهد عيان لما يؤرخه من أحداث وقعت فى مملكة سنغاى ، وبالإضافة إلى تاريخ سنغاى تناول المشتركون فى تأليف الفصول الأخيرة من ذلك الكتاب تاريخ الدول السودانية الإسلامية الأخرى .

ولا شك أن كتابى الكعتى وعبد الرحمن السعدى يعدان تحفتان نادرتان فى تاريخ أقاليم السودان الغربى، يزيد من قدرهما أنهما يتصديان لحقائق وأحداث شهدها العالمان ، وخبرات عاشاها ، كما حرصا فى نفس الوقت ، بطبيعة اشتغالهما بالثقافة والعلم، على تسجيل صور الحياة الدينية والعلمية ومراكز الثقافة التى كانت منتشرة فى عهديهما . ويمكن أن نضيف إلى جانب هذين العالمين، أحمد بابا التنبكتى، الذى عاش فى أواخر القرن السادس عشر وأوائل القرن السابع عشر، ووضع كثيرا من المصنفات الدينية والفقهية ، وتميز بصفة خاصة فى فن التراجم حيث وضع موسوعته الضخمة المسماة نيل الابتهاج بتطريز الديباج[1] .

---

(١) أحمد بابا التنبكتى — نيل الابتهاج بتطريز الديباج — فاس ١٣١٧ هـ وتوجد عدة نسخ مخطوطة من ذلك الكتاب فى بعض المكتبات العربية والأوربية .

ولم يكن هؤلاء العلماء الذين أشرنا إليهم هم وحدهم الذين كتبوا عن غرب إفريقيا، فمما لا شك فيه أن كثيرين قد سبقوهم أو تلوهم فى ذلك، وإن كانت كتاباتهم قد ضاعت أو على الأقل لم يعثر عليها حتى الآن، كما أن هناك من الرحالة العرب ممن طوفوا بهذه المناطق من غرب إفريقيا وأمدونا بوصف مثير عنها ، كما لاحظنا فى الفصل الأول من ذلك الكتاب .

ومما تجدر الإشارة إليه أنه نشأت فى غرب إفريقيا ممالك عريقة، ولعل مملكة غانا كانت من أوائل الدول التى اكتسبت قدراً كبيراً من الشهرة والثراء، وكانت تمتد فى شمال النيجر الأعلى ، ثم اتسعت رقعتها إلى ساحل الأطلنطى غربا وشمالا عند حافة الصحراء الكبرى ، وبلغت أسمى مكانة فى تاريخها الطويل، الذى امتد حتى النصف الأول من القرن الثالث عشر الميلادى، خلال السنوات الخمسين التى سبقت عصر المرابطين الذهبى .

ويعزى انتشار الإسلام فى غانا إلى إسلام قبائل الطوارق أو الملثمين فى القرن التاسع الميلادى ؛ وامتدادهم بنشر الدعوة الإسلامية إلى مقاطعات غانا ، على أن الحركة التى ساعدت على نشر الإسلام بصورة أوسع من ذلك ترتبط بالدور الذى قام به عبد الله بن ياسين ، الذى أنشأ رباطا على مقربة من مصب نهر السنغال اجتمع حوله الأنصار والمريدون ، وعندما شعر بقوته دخل مدينة أودغشت وانتزعها من ملك غانا ، واستمر المرابطون ينازعون هذه المملكة أربعة عشر عاما قبل أن تخلص لهم عاصمتها (١٠٦٢م) وعلى الرغم من أن حركة المرابطين استطاعت أن توحد الإسلام فى شمال إفريقيا والأندلس وغرب إفريقيا فى دولة واحدة إلا أن العوامل الانفصالية كانت تقاوم هذه الوحدة؛ حتى يمكن القول أن تاريخ الإسلام فى هذه البلاد لم يكن إلا صراعاً بين فكرتين أو اتجاهين، اتجاه نحو الوحدة، على اعتبار أنها السبيل إلى القوة ، واتجاه مضاد نحو التفكك والانقسام ، نتيجة لاتساع المنطقة ، وتعدد نزعاتها مما جلب الكارثة فى نهاية الأمر .

فى أثناء تفكك دولة المرابطين استطاع السوننكة، إحدى شعوب غانا، أن يستعيدوا استقلالهم، كما استولى الصوصو على حاضرة غانا، وترتب على ذلك خروج بعض التجار المسلمين إلى الصحراء حيث أسسوا مدينة ولاته التى أصبحت من أهم المراكز التجارية (١٢٠٣ م).

على أنه قدر لمالى، بعد انتشار الإسلام بها، أن تخلف عظمة غانا خاصة بعد أن استولت على جميع ممتلكاتها، وقد استمرت غانا ما يقرب من قرنين ونصف قرن ١٢٣٨ — ١٤٨٨، وامتدت ممتلكاتها من المحيط الأطلسى غرباً إلى بلاد برنو ونيجيريا شرقاً، ومن جنوب المغرب الأقصى شمالا إلى ما يقرب من سواحل المحيط الأطلسى جنوباً، وكانت تتألف من خمسة أقاليم كبيرة هى مالى - غانا - صوصو - تكرور - كوكو[1]، وقد لقيت هذه المملكة شهرة كبيرة فى العالم الإسلامى. على أنه منذ نهاية القرن الخامس عشر الميلادى انشغلت هذه المملكة فى منازعات داخلية، وأخذت ثروتها فى الاضمحلال نتيجة إسراف حكامها المتأخرين وعدم كفاءتهم؛ هذا على الرغم مما حاوله البعض منهم السيطرة على المقاطعات التى انفصلت عنهم وإخضاع المجموعات السكانية فى جنوب الصحراء بهدف إعادة الازدهار إلى دولتهم.

وكانت أهم مدينة فى مملكة مالى هى مدينة تاكدا التى كانت تعتبر المحط الرئيسى لخط القوافل الممتد من المغرب العربى إلى السودان الغربى، وينبغى أن نشير هنا إلى أن الصحراء الكبرى لم تكن حائلا دون انتشار الإسلام وانتقال المؤثرات العربية إلى غرب إفريقيا، إذ حاول كثير من ملوك مالى وغيرهم من الممالك الأخرى أن يحاكوا المظاهر الإسلامية فى حياتهم وأنظمة بلاطهم. ولعل من أهم ملوك مالى الذين ذاعت شهرتهم فى القرن الرابع عشر الميلادى الملك

---

(١) صلاح الدين المنجد: مملكة مالى عند الجغرافيين المسلمين، نصوص جمعها وعلق عليها وقدم لها الدكتور صلاح الدين المنجد ص ٥، بيروت ١٩٦٣.

منسا موسى ١٣٠٧/١٣٣٢م، أو كان كان موسى ، كما كان يطلق عليه ، وكان أكثر من توسع فى رقعة مالى من الذين ولوا عرشها من قبله أو من بعده حيث عاش عيشة ناجحة فى السياسة والحرب، وجرياً على مألوف زمانه سافر إلى الحج، وكانت رحلته هذه لها أثر بعيد إذ أدرك العالم الإسلامى مدى الازدهار والثراء العريض الذى كان يتمتع به، ويتمتع به المسلمون فى مملكته الواسعة . وقد مر هذا الملك بالقاهرة فى طريقه إلى مكة ١٣٢٤م حيث ترك عند الذين رأوه ورأوا حريمه وخدمه وإبله وخياله وثروته أثراً بعيداً ظل فى المدينة مائة عام أو يزيد، ويقال أنه وزع من الهدايا ما أذهل الناس، ويبدو أن أثر هذه الزيارة ظلت عالقة بأذهانهم إلى أن سجل ذلك واحد من كبار موظفى الدولة المملوكية بعد حين من الدهر ، فهناك فصلا كاملا كتبه عبد الله العمرى فى موسوعته الكبرى مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار عن دولة مالى به الكثير من المعلومات التى أخذها ممن عاصروا هذه الزيارة أو سمعوا عنها .

على أنه نتيجة لعوامل الضعف التى دبت فى مملكة مالى استطاعت سنغاى أن تخلف هذه المملكة، ويعد سنى على ١٤٦٤ — ١٤٩٢م، مؤسس هذه الدولة التى عرفها العرب بمملكة كوكو، وكانت كوكو أشهر مدن السنغاى قبل تأسيس دولتهم الكبيرة التى امتدت فى منطقة واسعة من سهول غرب إفريقيا . وقد برزت فيها أسرة اسكيا ١٤٩٣ — ١٥٢٨، التى بلغت سنغاى فى عهدها أوج ازدهارها، وقام كثير من ملوكها بأداء فريضة الحج فى مواكب حافلة لا تقل فى مظاهرها وروعتها عن مواكب ملوك مالى ، وقد استمرت امبراطورية سنغاى قائمة حتى خضعت للحكم المراكشى فى عهد أحمد المنصور الذهبى فى عام ١٥٩١ كما سنعرض لذلك فيما بعد[١] .

---

(١) عن دولة الأشراف فى مراكش يمكن الرجوع إلى مقالة الدكتور عبد الكريم كريم فى مجلة الجمعية التاريخية المصرية المجلد الخامس عشر — ١٩٦٩ بعنوان مناهل الصفا فى أخبار دولة الملوك الشرفا ص ٢٣٥ وما بعدها ،وعن دول غرب السودان قد يكون من المفيد الرجوع إلى كتاب Spencer Trimingham A History of Islam in West Africa, Oxford, 1962.

على أنه قد يكون من المفيد أن نقف بعض الشيء عن أهم مصدر من المصادر التي تعرضت لممالك السودان الغربي، وهو الكتاب الذى وضعه الحسن بن محمد الوزان، المعروف بليو الإفريقي Leo Africanus، إذ يعد من المصنفات الهامة التي ساهمت في التعريف ببعض المناطق الإفريقية وإلقاء الضوء عليها. ولذلك ينبغى أن نضع هذا العمل الهام فى الدور الذى ساهم فيه العرب فى كشف إفريقيا خاصة وأن مؤلف الكتاب رحل بنفسه إلى المناطق التى تعرض لها بالوصف والدراسة فى كتابه المشار إليه، على أن بعض المصادر الأوربية قد دأبت على اعتبار الحسن الوزان أوليو الإفريقى، كما تطلق عليه، من مصنفى الفرنجة، وقد يكون ذلك لسبب هام وهو أن كتابه لم يصل إلينا باللغة العربية وإنما وصل إلينا باللغة الإيطالية التى أجادها المؤلف وكتب بها كتابه هذا، غير أنه كان لظروف تدوين هذا الكتاب باللغة الإيطالية ملابسات مختلفة سنوردها فى حينها، ولكننا نميل إلى اعتبار العمل الذى قام به الوزان من الأعمال الهامة التى ساهم بها العرب فى تقدم المعرفة بأفريقيا وخاصة بالنسبة لممالك السودان الغربى التى أبرزها المؤلف إلى مجال المعرفة الأوربية، ويحدونا لذلك عوامل كثيرة، أولها أن مؤلف الكتاب عربى النشأة ولد فى غرناطة الإسلامية، ونشأ فى الشمال الإفريقى، وثانيها أن الحسن الوزان رحل إلى المناطق الإفريقية التى تحدث عنها فى كتابه قبل أن يقيم فى روما وفى أثناء وجوده بفاس، بل والثابت أنه وضع كتابه باللغة الإيطالية اعتماداً على مذكرات دونها باللغة العربية عن رحلاته فى إفريقيا(١)، ومن ناحية أخرى فإنه ليس ما يؤكد بصفة قاطعة أنه لا توجد سوى النسخة الإيطالية من عمله هذا، فإن بعض الدارسين يرون أنه وضع كتابه بالإيطالية ترجمة عن مصنف سبق له أن وضعه باللغة العربية، ولكن للأسف فقد المصنف العربى ولم يصل إلينا، وأخيراً أن مؤلف الكتاب عاد إلى تونس فى أخريات حياته، كما عاد

---

(١) ظهر الكتاب باللغة الإيطالية بعنوان :
Descriptione dell' Africa et della Cosa Notabili che quivi sono.

إلى الدين الإسلامى الذى كان قد تركه إلى المسيحية خلال سنوات إقامته فى إيطاليا .

وقد ظهر كتاب الحسن بن محمد الوزان حول منتصف القرن السادس عشر وفى وقت كانت قد تمت فيه اكتشافات جغرافية ذات أهمية بالغة، فمنذ النصف الثانى من القرن الخامس عشر الميلادى، وبفضل رحلات البرتغاليين على طول السواحل الإفريقية ابتداء من الأمير هنرى الملاح حتى فاسكو دى جاما تمت معرفة السواحل الإفريقية أو معظمها على الأقل، ومع ذلك فإنه على الرغم من أن البرتغاليين سيطروا على أجزاء كبيرة من السواحل الإفريقية فقد ظل قلب القارة الإفريقية بعيداً عن مجال المعرفة الأوربية ، ومن هنا فإن كتاب وصف إفريقيا وتاريخها ظهر فى الوقت الذى أصبحت فيه الأذهان تواقة إلى التعرف على الأجزاء الداخلية من غرب إفريقيا التى كانت لا تزال مبهمة حتى ذلك الوقت(١)، حقيقة أن المعلومات المستقاة من البكرى والإدريسى وابن بطوطة وغيرهم كانت تشير إلى وجود إمارات وممالك إسلامية فى كل من شرق وغرب القارة، غير أنه إذا كانت الاستكشافات الجغرافية الساحلية التى قام بها البرتغاليون قد استطاعت التعرف على الإمارات الإسلامية فى ساحل شرق إفريقيا، فقد ظلت الممالك الاسلامية والوثنية الواقعة فى داخل غرب إفريقيا بعيدة عن نطاق الاستكشافات الجغرافية التى قام بها البرتغاليون فى تلك الفترة(٢)، فالملاحظ على الكشوف البرتغالية أنها تركزت على السواحل باستثناء بعض محاولات قام بها البرتغاليون للتوغل فى الداخل لم يقدر لها

---

(١) cf Schefer : Desciptione de l' Afrique. ecrite par Jean leon Africain p. V.

(٢) عن الامارات الاسلامية فى شرق إفريقيا، انظر جمال زكريا قاسم ، استقرار العرب فى ساحل شرق إفريقيا ، العدد الحادى عشر من حوليات كلية الآداب — جامعة عين شمس ، وكذلك المصادر العربية لتاريخ شرق إفريقيا، العدد الرابع عشر من مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية .

النجاح باستثناء ماحدث فى أنجولا وموزمبيق ، وعلى ذلك استمرت معظم الأراضى الداخلية فى إفريقيا معتبرة فى حكم الأراضى المجهولة Terra incognita وقد ساهم كتاب وصف إفريقيا وتاريخها إسهاماً كبيراً فى إثراء المعرفة الأوربية عن هذه المناطق خاصة وأنه كان يتضمن تعريفاً بممالك السودان الغربى ووصف هذه الممالك التى كانت تتطلع إليها الأنظار فى ذلك الحين . وقد يكون من المناسب أن نشيرهنا إلى أنه على الرغم من أن الكتاب عرف بوصف إفريقيا إلا أن مفهوم المؤلف عن إفريقيا قد اقتصر على التعريف بالمناطق التى زارها بنفسه والتى توجد إلى الشمال من خط الاستواء .

وقد أتيح لأحد المصنفين الإيطاليين ويدعى جيان باتيستا رامسيو Gian Battista Ramusio ؛ الذى كان يعمل سكرتيرا لمجلس العشرة البندقى أن ينشر هذا الكتاب فى مجموعته المعروفة باسم مجموعة قصص الرحلات والأسفار :

Recueil des Navigationie, viaggi de giov Battista Ramusio.

وقد ظهرت هذه المجموعة المشهورة فى ثلاثة مجلدات ، وفى نشرات متعددة ، كان أول ظهورها فى البندقية فى عام ١٥٥٠ . وكان لظهور هذا الكتاب وتعريف رامسيو به وبمؤلفه سببا لظهور ترجمات أوروبية كثيرة فقد تبع ذلك بأربعة سنوات الترجمة اللاتينية ١٥٥٤(١) ، ثم تلتها الترجمة الفرنسية ١٥٥٦(٢) والإنجليزية ١٦٠٠(٣).وقد اعتمدنا فى دراستنا هذه على

---

(١) نشرت هذه الترجمة فى عام ١٥٦٠ وقد انتشرت انتشارا كبيرا على الرغم من وجود أخطاء كثيرة بها ، وقد طبعت فى انتورب فى عام ١٥٥٦ ، ونشر هذه الترجمةجون فلورين ، وأعيد طبعها فى عامى ١٥٩٩ و١٦٣٢ ، انظر الدومييلى : العلم عند العرب ص ٥٣٧ .

(٢) نشر هذه الترجمة Jean Temporal فى عام ١٥٥٦ .

(٣) نشر بورى الترجمة الانجليزية بعنوان

A Geographical Historie of Africa Written in Arabice and Italie

وتوجد نسخة من هذه الترجمة بدار الكتب المصرية .

الترجمة الإنجليزية التى أصدرها جون بورى Pory فى عام ١٦٠٠ ، وكذلك على الطبعتين العلميتين الإنجليزية والفرنسية ، التى أصدرهما كل من براون Browne وشيفر Schefer فى عامى ١٨٩٦ و ١٨٩٨[1] .

ولا شك أنه بعد ترجمة كتاب الحسن بن محمد الوزان إلى اللاتينية ؛ ثم إلى اللغات الأوربية الحديثة ، صار بحق من أوائل المصنفات التى اعتمد عليها عصر النهضة الأوربية فى التعرف على البلدان الإسلامية فى غرب إفريقيا فضلا عن أن الكتاب حين ظهر كان جديداً مثيراً فتح آفاقا واسعة للعلماء والساسة والتجار(٢) .

والكتاب يحتل مكانة وسيطة بين مؤلفات البكرى والإدريسى فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر ، وبين الكتابات الأوروبية التى ظهرت بعد

---

(١) انظر طبعة شيفر فى :

Recueil de Voyages et de la documents Pour servir a l' Histoire de la geogiaphie depuis le XIII E Jusqu'a la fin des Xvl Siecle , Publie Sous la direction de MM Schefer Membre de l'institu et Henri Prodier cf Schefer, Descriptione del' Afrique Paris M D. CCCXCVI tierse Partie de mode ecris par Jean leon

أما طبعة برون فتحمل عنوان :

The History and description of Africa and Notable thing Contained therin wrtiten by Al Hassan Mohamed Awezaz al Fasi better known as Leo Africanus.

وتقع فى ثلاثة مجلدات مع مقدمة وتحقيق لما ورد فى كتاب ليون الافريقى وهناك طبعات حديثة لكتاب الوزان صدرت فى السنوات الأخيرة منها الطبعة الفرنسية الحديثة التى ظهرت بباريس عام ١٩٥٦ بقلم Epaulard كما ظهرت ترجمة أسبانية للكتاب فى عام ١٩٥٢ وللاسف لم تظهر ترجمة عربية لذلك الكتاب .

(٢) انظر الدوميلى : العلم عند العرب ص ٥٣٦

وكذلك بارل دافيدسون ، إفريقية تحت أضواء جديدة ص ١٧٨ .

ذلك والتى بدأت بما كتبه مارمول Marmoul فى السنوات الأولى من القرن السابع عشر، هذا فضلا عن أن مؤلف الكتاب له طابع خاص مميز ، ويمكن أن نعتبره آخر العلماء العرب الذين نبتوا فى ظل الحضارة الإسلامية فى بلاد الأندلس .

ولعل رامسيو كان أول من أزاح الستار عن تلك الشخصية التى كتبت هذا العمل المشهور والتى تحمل أسماء عديدة ؛ عرفت فى العالم الأوربى باسم جيوفانى ليونى(١)، وقد أخذ هذا الاسم عن البابا ليو العاشر، الذى كان يعرف قبل وصوله إلى البابوية باسم جيوفانى دى مدتيشى ، وكان الحسن الوزان فى بداية الأمر مملوكا له ، ولكنه مالبث أن أعتقه وعمده إلى بنفسه المسيحية ، وكان له الأب الروحى وولى نعمته، وعلى ذلك فإن الحسن الوزان بالإضافة إلى الاسم الذى عرف به وهو ليو الإفريقى كان يسمى فى بعض الأحيان باسم جيوفانى نسبة إلى الإسم الذى كان يعرف به البابا ليو العاشر . ولما كان الحسن الوزان يرجع بأصله إلى غرناطة فإنه كان عادة مايلقب بليو الأيبيرى Eliberitances ، كما كان يعرف باسم ليو الغرناطى(٢) غير أنه، لما كان قد نشأ فى إفريقيا فقد اشتهر باسم ليو الإفريقى Leo Africanus

وهكذا فإن هذه الشخصية العربية التى تعود بأصولها الأولى إلى غرناطة وعرفها المسلمون باسم الحسن بن محمد الوزان الفاسى هى بعينها الشخصية التى عرفها الأوربيون باسم جيوفانى ليـــو الإفريقى(٣) . وتلقيب الوزان بالغرناطى أحيانا أو بالفاسى أحيانا أخرى يجعلنا نصل إلى حقيقة هامة

---

(١) Giovanni leone or leo

(٢) Robert Browne., The History and Desciption of Africa, See the Introduction P. X

(٣) Schefer, op. cit. P. XI

وهى أنه ولد فى غرناطة ونشأ فى فاس ، ولا يوجد شك حول ذلك فهناك ما يستدل منه على نسبته هذه(١)، إذ أشار بنفسه بأنه تلقى تعليمه بفاس، وقد وضحت إشارته هذه فى بعض أجزاء من كتابه ، كذلك أكد لنا رامسيو صحة هذا الأمر ، وقد حصل رامسيو على المعلومات الخاصة بحياته من أحد أصدقاء الوزان بروما ، كذلك يؤكد لنا الوزان أصله الغرناطى فى عبارة ذكرها فى كتابه يستدل منها على أصله هذا ، وهى قوله بأنه التقى فى إحدى المدن الإفريقية بأحد مواطنيه الغرناطيين ، وعلى ذلك فلا يوجد سبب للتشكك الذى ظهر فى فى مقدمة جون بورى للكتاب عما إذا كان الوزان قد ولد فى غرناطة فى أسبانيا ، أو فى مكان آخر بإفريقيا(٢) ، وفيما يبدو أن تشكك بورى قد نشأ نتيجة لما جاء فى النسخة التى ورد فيها على لسان الوزان أن إفريقيا هى « البلد التى أدين لها بمولدى وبالجزء الأكبر من تعليمى » ، ولكن الأصل الإيطالى ، وهو بطبيعة الحال أدق من الترجمة اللاتينية ، التى أجمع الباحثون على أنها كثيرة الأخطاء ، يذكر أن إفريقيا هى « البلد التى قضيت فيها حداثتى »(٣) .

وعلى الرغم من تقرير بعض الحقائق الخاصة بنسبته، فإن هناك مع ذلك اختلافات ظاهرة بين بعض الدارسين له، فهناك من اعتبره رحالة من توسكانيا أو من اعتبره مراكشى المولد نشأ مسيحيا فى غرناطه، ثم انتقل إلى إيطاليا وربما كان ذلك تأثرا بانطباع معين وهو إجادته للغة الأسبانية ؛ ولكن ليس لدينا ما يعزز هذا الاعتقاد لأن اللغة الأسبانية كانت ، كما هو معروف، لغة التجارة فى حوض البحر المتوسط، وكان الكثيرون من المغاربة يجيدون تلك

---

(١) Schefer, op. cit. P. XII

(٢) cf. The edition of John Pory to the book, The History and discription of Africa done into English by John Pory, to the Reader.

(٣) Browne, op. cit. cf the introduction P. III

اللغة فى ذلك الوقت إجادة تامة . وعلى الرغم من أن رامسيو كان معاصرا لليو الإفريقى ، بل كان فى روما لإنجاز بعض المهام الرسمية التى كان مكلفا بها من قبل جمهورية البندقية أثناء إقامة الوزان فى نفس المدينة ، فانه يبدو مع ذلك أنه لم يتعرف عليه شخصيا ، ففى تقديم رامسيو لكتاب الوزان يذكر أن المعلومات التى أوردها أخذها عن صديق عرف الوزان فى روما وعاش معه بعض الوقت هناك .

وقد ذهب فريق من الباحثين أن الحسن الوزان ولد فى عام ١٤٩١ واستند هؤلاء على أن قرطبة ، آخر المعاقل الإسلامية فى الأندلس سقطت فى ٢ يناير ١٤٩٢ ، ولما كان الحسن الوزان قد ذهب إلى الشمال الإفريقى وهو طفل صغير فلا بد استنتاجا من ذلك أن يكون قد ولد فى فترة سـابقة من سقوط قرطبة (١) . ولكن براون Browne يرى أنه ولد بعد سقوط العاصمة الاسلامية لأن هناك من الأسر الإسلامية من بقيت فى أسبانيا حتى بعد سقوط الحكم الإسلامى ، ويفترض برون أن الوزان ولد فيما بين عامى ١٤٩٤ أو ١٤٩٥ ، وهو التاريخ الذى أصبح مرجحا بالنسبة للكثيرين ، وقد استدل برون على ذلك التاريخ اعتمادا على أنه لا يوجد ما يستدل منه على أن أسرة الوزان قد هاجرت فى عام ١٤٩٢ ، كما أن براون يعتمد فى ذلك على بعض ما أورده الحسن من أحداث استنتج منها سنة ميلاده من ذلك ماذكره الوزان عن سقوط بعض القلاع الاسلامية فى أيدى البرتغاليين فى الشمال الافريقى حينما كان فى سن معينة ، مما يؤكد أنه ولد بعد سقوط الدولة الاسلامية بالأندلس بثلاثة أو أربعة أعوام (٢) .

---

(١) انظر كراتشكوفسكى : الأدب الجغرافى عند العرب — القسم الثانى ص ٤٥٠ مترجم — القاهرة ١٩٥٧ .

(٢) Browne, History and description of Africa Vol I pp. v—vi

وقد هاجرت أسرة الوزان ، مع غيرها من الأسر الإسلامية . إلى بلاد المغرب . ولم تكن هجرة المسلمين من الأندلس إلى الشمال الافريقى بظاهرة جديدة فى حياة المغرب فمنذ أن أخذت الدول الإسلامية هناك فى الانكماش ، وموجات المهاجرين تفد تباعاً ويستقر معظمها فى موانى المتوسط أو الموانى الغربية الواقعة على المحيط الأطلنطى ، وقد صبغ هؤلاء المهاجرون الحياة الفنية والأدبية فى كثير من بلدان المغرب بالصبغة الأندلسية المعروفة ، لا نغالى إذا قلنا إن أثارها لاتزال تظهر فى الحياة الاجتماعية وطرائق الحياة اليومية والفنية بأقطار شمال إفريقيا حتى وقتنا الحاضر. وقد رحل الوزان مع أسرته إلى تونس خوف اضطهاد الأسبان، شأن أسرته فى ذلك شأن غيرها من الأسرات الإسلامية التى انتشرت فى بلدان الشمال الأفريقى ، وقد استقر الأمر بأسرته فى تونس فى بادىء الأمر؛ غير أنها مالبثت أن تحولت إلى فاس، وفى هذه المدينة شب الوزان عن طوقه، وتلقى علومه فى فى مكاتبها ومدارسها ، كما قدر له أن يجول المغرب والطواف بالكثير من أقطار السودان الغربى[1]، وفيما يرجح أن أسرته استطاعت أن تستحوذ على قدر كبير من النفوذ المادى والأدبى، يستدل على ذلك من المناصب الهامة التى كان يحتلها أقرباؤه سواء فى غرناطه أو فى مستقرهم الجديد فى الشمال الإفريقى؛ فعمه مثلا الذى رافقه فى رحلته، أرسل سفيراً من ملك فاس إلى ملك تمبكتو (سنغاى) وكان معروفاً بفصاحته وبلاغته. ومع ذلك فإن المعلومات التفصيلية عن أسرة الوزان ليست معروفة لنا تماماً؛ أما عن الوزان نفسه فإن كل ما نعرفه عنه يقتصر عند حد الاستنتاجات التى يمكن أن نتبينها من خلال كتاباته وقد يكون من أبرز المصادر التى أوردت بيانات هامة عنه تلك الدراسة التى وضعها لويس ماسينيون بعنوان :

le Maroc dans le Premiere annees du XXIE Siecles; Tableau Geographique de apres leon Aficain.

---

(١) بازل دافيدسون : إفريقيا تحت أضواء جديدة مترجم ص ١٧٨ — بيروت ١٩٦٠ .

وقد نشر هذا الكتاب بالجزائر فى عام١٩٠٦، وإن كانت دراسته تقتصر على القسم الخاص بمراكش . ويمكن استدلالا من المعلومات التى لدينا أن نقرر أنه بعد سقوط آخر المعاقل الإسلامية فى أسبانيا على أيدى جيوش فردينان وإزابلا وصلت حركة الاسترداد Reconquesta إلى ذروتها، وترتب عليها تعاظم الهجرات الإسلامية من بلاد الأندلس، وقد عبرت أسرة الحسن الوزان مضيق جبل طارق ، وبعد استقرارها فترة فى تونس تحولت إلى مراكش ولكنها لم تلبث أن غادرت المدينة التى كانت تتعرض فى ذلك الوقت لاضطرابات ومجاعات شديدة إلى مدينة فاس ، وفى هذه المدينة استقرت أسرة الحسن التى منها أخذ الوزان نسبته الفاسى فيما يرجح ، وكانت تحكم فاس فى ذلك الوقت أسرة بنى وطاس(١) . وقد ارتبط تاريخ هذه الأسرة بصراعها ضد القوى المسيحية الأسبانية والبرتغالية التى حاولت غزو مراكش كما ارتبط تاريخها أيضاً بالأحداث التى انتهت بتولية الأشراف السعديين الحكم فى مراكش فى منتصف القرن السادس عشر الميلادى . وقد تمكنت أسرة بنى وطاس فى عام١٤٦٥ من إسقاط الأسرة المرينية؛ وإن كانت لم تتمكن من أن تبسط نفوذها على ممتلكات المرينيين جميعها، وإنما اقتصر حكم الأسرة الوطاسية على القسم الشمالى من مراكش حتى صارت دولتهم تسمى بمملكة فاس بينما قامت حكومات أخرى كثيرة فى كل سجلماسة ومراكش وغيرها .

وقد عرفت أسرة بنى وطاس، على الرغم من الأعباء الكثيرة التى فرضت عليها بتشجيعها الثقافة والارتفاع بمستوى الحضارة ، ويمكن أن نعد عهد هذه الأسرة فترة انتقال بين تاريخ مراكش الوسيط وبين تاريخها الحديث وقد أمدنا الوزان من خلال كتاباته بوصف مفصل لمدينة فاس ، كما

---

(١) cf. Article of Wattasids in the Encyclopeadia of Islam.

استطاع أن ينقل إلينا بفضل رحلاته العديدة صورا دقيقة عن إفريقيا الشمالية والداخلية .

ويستدل من التاريخ المعروف لدينا عن مراكش أنها كانت فى الفترة التى وصل إليها الحسن الوزان فى حالة من عدم التكامل السياسى والفوضى الاجتماعية ، كانت مملكة فاس فى ذلك الوقت يقوم على شئونها مولاى سعيد ، وفى الجنوب كان الأشراف السعديون ، الذين تمكنوا بمضى الزمن من السيطرة على مراكش بأكملها ، وبدأوا هذه الحركة التى ترتب عليها استقلال كل من مراكش والسوس وتافيللت ، ولم توحد هذه الأجزاء إلا بعد ذلك بقرنين ، بعد الجهود الموفقة التى بذلها مولاى إسماعيل . ويعزى ظهور الأسرة السعدية فى مراكش إلى فشل أسرة بنى وطاس بعد استيلائها على فاس وادعاء السلطة لنفسها فى نهاية القرن الخامس عشر ، فى الدفاع عن أراضى مراكش حتى آلت جميع الموانى تقريباً إلى دولتى إسبانيا والبرتغال ، مما مهد للسعديين الفرصة للظهور حيث أخذوا على عاتقهم حركة الجهاد ضد البرتغاليين فى الجنوب ، وأخذت كفتهم ترجح على بنى وطاس ؛ بل إن بنى وطاس لم يلبثوا أن اعترفوا بنفوذهم فى عام ١٥٠٩ على أمل أن يعاونوهم فى تخليص البلاد من الحاميات البرتغالية ، وقد استطاع الأشراف بالفعل من السيطرة على السوس ومراكش فى عام ١٥٢٤ ؛ بل نجحوا بعد ذلك فى عام ١٥٤٩ من دخول فاس وتشتيت الأسرة الوطاسية(١) .

وقد شهد الوزان هذا الصراع السياسى بين الوطاسيين والسعديين فى بعض مراحله ، كما شهد الصراع الذى نشب بين القوى الإسلامية والمسيحية فى الحوض الجنوبى من البحر المتوسط ، فخلال هذه الفترة التى عاشها الحسن الوزان فى فاس أى بداية القرن السادس عشر ، كان للبرتغاليين أهم المعاقل

---

(١) انظر فى ذلك محمد خير فارس تاريخ الجزائر الحديث ، وكذلك الدكتور صلاح العقاد : المغرب فى بداية العصور الحديثة ص ص ٢٩ — ٣٠ .

فى مراكش، ولم يقتصر البرتغاليون على الناحية الساحلية وإنما أخذوا يعملون على الامتداد بنفوذهم فى الداخل على أمل أن يأتى اليوم الذى يستطيعون فيه السيطرة على مراكش برمتها. وشجع البرتغاليين على ذلك التفوق الملاحى الذى حققوه، واستمرار عملية التفكك السياسى فى المغرب. وقدر البرتغاليون أهمية توسعهم فى المغرب الأقصى الذى اعتبروه بمثابة حلقة هامة فى طريق توسعهم فى غرب إفريقيا، وبالفعل شهدت موانى المغرب غارات مسيحية برتغالية شديدة الوطأة ابتداء من السنوات الأخيرة من القرن الخامس عشر، وبدأ الأسبان يشاركون البرتغاليون فى هذه الحملات ويقدمون لهم العون حينما يتعرض البرتغاليون لحصار من قبل المسلمين[1]، وقد أشار الوزان إلى الصراع الإسلامى البرتغالى الأسبانى فى شمال إفريقيا، وقد يكون الجديد فى ذلك أنه كان شاهد عيان لهذا الصراع، بل وكما يقرر بنفسه، أنه اشترك فى بعض العمليات العسكرية التى دارت فى تلك الأنحاء.

وعلى الرغم من التفكك السياسى والاجتماعى الذى عانته مراكش، فضلا عن انشغالها بالصراع ضد البرتغاليين والإسبانيين؛ فإنها كانت على أثر سقوط الدولة الإسلامية فى الأندلس فى أوج ازدهارها الثقافى، إذ انتقلت العاصمة الثقافية إلى فاس، التى غدت فى ذلك الوقت كعبة العلماء ومركزاً للثقافة العربية. وحتى قبل سقوط الدولة الإسلامية فى الأندلس استطاعت أسرة بنى وطاس أن تستقطب إليها العلماء، وبالفعل كان يهاجر الكثيرون منهم من قرطبة واشبيلية وغرناطة إلى مدينة فاس، حيث كانوا يجدون تشجيعاً من سلاطين الدولة المراكشية، من ذلك أن الفيلسوف العربى المعروف ابن رشد زار

---

(١) فى تقرير الكثيرين أنه كان من الممكن للبرتغال أن تنجح فى تنفيذ خطتها مالم تصاب الامبراطورية البرتغالية بضربات متتالية بدأت بوفاة الدون سبستيان Don Sebastian ثم بالهزيمة التى استطاعت مراكش أن تلحقها بالبرتغاليين فى معركة القصر الكبير سنة ١٥٧٨، وكانت هذه الهزيمة من الضراوة بحيث أحبطت الغزوات المسيحية التى كانت قائمة منذ النصف الأول من القرن السادس عشر

مراكش، وكان صديقاً ليعقوب المنصور، كما ظهر فى مراكش الكثير من العلماء الذين كان لهم باع كبير فى العلم خلال الفترة من القرن الثانى عشر إلى السنوات الأولى من القرن السادس عشر، ويتضح من ذلك أنه حول بداية القرن السادس عشر ؛ أى فى السنوات التى أخذ الوزان يشب فيها عن طوقه، كانت هناك وفرة من العلماء فى فاس ؛ فكانت فرصة له للتزود من الثقافة والعلم ومخالطة العلماء، وقد درس النحو والشعر والفلسفة والتاريخ، وهنالك إشارات كثيرة يذكرها الحسن فى كتابه عن العلماء العرب، وربما يكون قد اختص فى كتابه بالإشارة إلى من سبقه من المؤرخين والجغرافيين من أمثال المسعودى وابن بشكوال ، كما أنه وضع تراجم لأشهر من نبغ من العرب فى العلم والفلسفة ، ومما يستلفت النظر أن الوزان تقلد بعض الوظائف وهو لايزال صغيراً، بدأ حياته ملاحظاً فى ميرستان فاس، كما اشتغل بالقضاء وفى عام ١٥١١ على ما يرجح قام برحلاته فى الشمال الإفريقى ثم فى السودان الغربى ويبدو أنه كان يزاول التجارة خلال أسفاره إما لكى يشتغل بها لحسابه الخاص ، أو لكى يستعين به التجار فى ضبط حساباتهم . كما يتضح لدينا من إشاراته المتوالية للبرتغاليين والأسبان والحروب المستعرة التى قامت بينهم وبين المسلمين، وإلحاح البرتغاليين المستمر لغزو مراكش أنه اشترك بنفسه فى حملات كثيرة جهزها السلطان محمد السادس الذى حكم فاس خلال الفترة من ١٥٠٨/١٥٢٧، فهو يذكر فى كتابه أنه كان فى خدمة السلطان محمد السادس واشترك فى الكثير من هذه الحملات، كما أشار بصفة خاصة إلا أنه كان مشتركا فى رد الهجوم الذى قام به القائد البرتغـــالى أنطونيو دى نورونا Antanio de Norona فى عام ١٥١٥ على مدينة المعمورة ، حيث فقد البرتغاليون كثيراً من جنودهم على أيدى الجيش المسلم الذى قاده ناصر الوطاس شقيق السلطان محمد السادس .

كما يذكر الوزان أن السلطان محمد السادس أسند إليه عدة بعثات سياسية

ففى عام ١٥٠٩ أوفد من قبله إلى سلطان مراكش لكى يطلب تعاونه ضد البرتغاليين ؛ وبطبيعة الحال أنه لم تكن لتسند إليه هذه المهام السياسية، وهو لايزال فى حداثته،مالم يكن قد تميز بكفاءة ومهارة ظاهرة سواء فى بعثاته إلى مراكش أو إلى تمبكتو،وفيما يبدو أنه قام بالسفارة الأخيرة بين عامى ١٥١١ و ١٥١٣ وأتاحت له فرصة التوغل فى الممالك السودانية بغرب إفريقيا[1] وقد عاد من هذه الرحلة فى عام ١٥١٥ ، أو على الأقل كان موجوداً بفاس فى ذلك العام الذى سجل فيه اشتراكه فى رد الهجوم البرتغالى عن مدينة المعمورة السابق الإشارة إليه . وبعد عودته من سفارته فى ممالك السودان الغربى، والتى أمدنا فيها بمعلومات هامة عن حالة المنطقة ، بدأ رحلته إلى القسطنطينية بين عامى ١٥١٥ و ١٥١٦ ولاتزال الدوافع التى حفزته لمغادرة فاس فى هذه المرة غير واضحة المعالم، شأنها فى هذا شأن معظم التفصيلات الخاصة بسيرة حياته ؛ ولعل الدافع الأساسى كانت رغبته فى أداء فريضة الحج أو ربما ساقته إلى ذلك اعتبارات أخرى . وقد عرج فى أثناء رحلته هذه على مصر فى عام ١٥١٧ . ومن الطريف أنه زار مصر فى نفس السنة التى سقطت فيها الدولة المملوكية على أيدى الأتراك العثمانيين ، فهو إذن قد زار مصر فى فترة حاسمة من تاريخها وهى سقوط الدولة المملوكية وتحول مصر إلى ولاية عثمانية بعد فتح السلطان سليم الأول لها فى ذلك العام،ولكن مما يبعث على الأسف أنه لايمدنا بمعلومات وفيرة عن ذلك،خاصة وأنه ليس لدينا من المؤرخين إلا القليلين الذين عاصروا الفتح العثمانى لمصر من أمثال ابن إياس وابن زنبل الرمال .

---

(١) Schefer, op. cit P. XI

انظر أيضاً كراتشكوفسكي : الأدب الجغرافى عند العرب — القسم الثانى ص ٥١٤ .

والجدير بالذكر أن رحلات الوزان لم تقتصر على شمال إفريقيا والسودان الغربي ومصر والقسطنطينية وإنما يبدو أنه زار مناطق أخرى فى آسيا وفى أوربا ، كما أنه حج إلى مكة والمدينة، وربما كان مجيئه إلى مصر وهو فى طريقه إلى الحج ؛ فهو يحدثنا فى القسم الذى وضعه عن مصر ؛ وهو الكتاب الثامن من رحلاته ، أنه ركب النيل من القاهرة إلى أسوان ثم عاد إلى قنا حيث اجتاز الصحراء إلى البحر الأحمر ووصل إلى ميناء القصير، ومن الساحل المصرى للبحر الأحمر وصل إلى ينبع ميناء المدينة ، حيث زار قبر النبى ، ثم إلى جدة ميناء مكة ، واتخذ طريقه بعد ذلك إلى القسطنطينية عاصمة الدولة العثمانية التى أخذت منذ ذلك الحين تجتذب إليها بشكل مطرد أنظار العرب الذين بدأت أوطانهم تدور فى فلك الدولة العثمانية بطريق مباشر أو غير مباشر .

ويشير الوزان أنه زار مناطق كثيرة فى آسيا وأوربا وأنه يود أن يصف جميع المناطق الآسيوية التى ارتحل إليها وخاصة صحراء العرب واليمن ومصر وأرمينيا وبلاد فارس والتتار وهى جميع البلاد التى أكد أنه زارها وشاهدها أثناء حداثته ، كما يبدى أمله أن تواتيه الفرصة ليصف رحلته من فاس إلى إلى القسطنطينية ، ومن القسطنطينية إلى مصر ومنها إلى إيطاليا(١)، ولكننا لاندرى عما إذا كانت قد واتته الفرصة فعلا للكتابة عن هذه المناطق أم لم يكتب عنها، واعتقاد بعض الدارسين أنه ربما يكون قد كتب بالفعل عن هذه المناطق، ولكن فقدت كتاباته أو لم يتسن العثور عليها، ويبدو أن ذلك الاعتقاد قد نشأ عن استدلال بما ذكره الوزان فى مؤخرة كتابه الثامن عن مصر أنه يود أن يصف رحلاته فى آسيا وأوربا ، ولكنه لايرى أن يذكرها فى كتابه هذا الذى خصصه لأسفاره فى إفريقيا خوفاً من أن يبعده ذلك عن موضوع الكتاب ولكن ـ كما يقول ـ إذا وهبنى الله عمراً فإنى سأعمل على وصف المناطق

---

(١) cf, Browne, op. cit Vol III pp. 904 –905.

الآسيوية التى ارتحلت إليها ، وأن أصف الصحراء العربية والعربية السعيدة ومصر وأرمينيا وأجزاء من بلاد التتار ، كما أرجو أن أصف رحلاتى الأخيرة من فاس إلى القسطنطينية ، ومن القسطنطينية إلى مصر ومنها إلى إيطاليا ».
وقد يكون من المناسب هنا التعريف بمحتويات كتاب الحسن الوزان عن وصف إفريقيا وتاريخها ، وهو ينقسم وفقاً للمتن الإيطالى إلى الأقسام التالية التى نوردها هنا استناداً على ترجمة بورى الإنجليزية السابق الإشارة إليها .

ومما تجدر الإشارة إليه هو أن الوزان أطلق على الأقسام التى قسم إليها كتابه بالكتب ، وهى تبلغ تسعة ، الكتاب الأول خصصه لوصف إفريقيا بصفة عامة ، مع ملاحظة أن مفهومه لأفريقيا يقتصر على إفريقيا شمال خط الاستواء ، كما سبق أن أشرنا إلى ذلك ، وقد قسم إفريقيا إلى ثلاثة أقسام رئيسية وفقاً لمفهومه هذا وهى أراضى البربر ـ ليبيا ـ السودان الغربى ، كما أشار إلى إثيوبيا ، وإن كان لم يتعرض لها إلا بإشارات طفيفة (١) ، كما عرض فى وصفه العام إلى نشأة السكان الأصليين فى إفريقيا والسكان البدو أو الرحل وعن سكنى العرب المدن الإفريقية ، ويقتصر هنا على مدن الشمال الإفريقى فلم يتعرض مثلا إلى المدن العربية فى ساحل شرق إفريقيا ، وإن كان قد أشار إلى هجرات العرب والبربر إلى أقاليم السودان الغربى . كما تعرض فى ذلك الكتاب أيضاً إلى عادات وتقاليد السكان وأساليب حياتهم فى صحراء ليبيا وعن العقائد التى كان يمارسها السكان الأقدمون فى إفريقيا . أما الكتاب الثانى فقد تعرض فيه بالوصف التفصيلى لمدن الشمال الأفريقى ، كما حوى بعض الإشارات

---

(١) cf. The First book of the Historie of Africa and of the memorable thing Contained therein Translated by John Pory, A Geographical Historie of Africa Written in Arabicke and Italie, 1600.

عن تاريخ مراكش ، والصراع البرتغالى الأسبانى ضد القوى الإسلامية فى شمال إفريقيا، كما نجد إشارات عن بعض المغامرين البحريين المشهورين من أمثال خيرالدين بربروسا وأخيه عروج،وإن كان يركز فى معظمه على الناحية الجغرافية من حيث وصفه للمدن والجبال مما جعل البعض يعتبرون هذا الكتاب يكاد يكون هو المصدر الوحيد فى جغرافية مراكش المتميز بالأصالة والترتيب الذى ظهر فى القرن السادس عشر .

أما القسم الثالث، أو الكتاب الثالث،كما أسماه،فقد اختص به مملكة فاس على عهد أسرة بنى وطاس وصراعها ضد البرتغاليين ؛ كما تعرض بالوصف أيضاً لمدينة مكناس وغيرها من المدن المراكشية،غير أنه ركز فى وصفه على مدينة فاس باعتبارها المدينة الرئيسية للمغاربة فى ذلك الوقت ، وعلى ذلك فقد اختصها بمزيد من الوصف حيث أشار إلى مكاتبها العلمية ومدارسها وعلمائها .

أما الكتاب الرابع فقد خصصه لوصف مملكة تلمسان،والكتاب الخامس لبجاية وتونس،أما الكتاب السادس،فقداختص به ليبيا حيث نجدفيه وصفاً لكل من برقة ومصراتة وسجلماسة وغريان التى تحدث عن غناها بالزعفران، وفزان وسرت والجبل الأخضر، كماسجل لنا بعض النواحى التى تميزت بها ليبيا كشهرة طرابلس بالحرير أو إلى غنى بعض أقاليمها بالفاكهة ؛ وإن كان الوزان لم يضبط وصفه من حيث تعرضه لسكان جبل نفوسة الذى ذكر عنهم أنهم ليسوا سنيين وأنهم يتبعون شيخ القيروان ، ولكن من المعروف أن شيخ القيروان كان سنياً ،وقد يكون من المهم أنه أكد اتصال كل من فزان ومصراتة بالسودان الغربى ، وأنهما كانا مركزين هامين من مراكز التجارة وطرق القوافل التى كانت تذهب إلى السودان الغربى ، كما أكد على أهمية الطريق الصحراوى التجارى الذى كان يصل بين شنقيط ومصر ، والواقع أننا نجد فى الكتب الستة المشار إليها تعريفاً دقيقاً بمدن الشمال الإفريقى

وقد تحدث عن الشعوب التى بنيت هذه المدن المختلفة كأن يقول وهذه من بناء البربر أو من بناء الرومان أو من بناء المسلمين ، ولكنه إذا جاء إلى هدم المدن وتخريبها فإنه يلوم الأعراب فى ذلك ، ولعل هذا كان تأثراً منه بانطباع معين .

أما الكتاب السابع فهو من أهم ما كتبه الوزان نظراً لأنه خصصه لمناطق كانت لا تزال فى حكم الأراضى المجهلة بالنسبة للمعرفة الأوربية ، ولذلك ركز كثير من الباحثين اهتمامهم بذلك الكتاب ؛ وبالإضافة إلى مشاهداته وملاحظاته التى سجلها عن هذا القسم من إفريقيا فقد أشار إلى من سبقه من الكتاب والجغرافيين العرب الذين تعرضوا إلى هذه المنطقة واختص منهم المسعودى والبكرى بذكر خاص ، ولكن من الإنصاف أن نذكر أن الوزان يختلف عمن سبقه من هؤلاء الكتاب ، باستثناء ابن حوقل والبكرى وابن بطوطه ، فى أنه كان يكتب عن المناطق التى زارها بنفسه فإن الكثيرين من المؤرخين والجغرافيين العرب قد اقتصروا فى تعريفهم بهذه المناطق على الرحالة أو المغامرين الذين ارتحلوا إليها ، ولذلك تعتبر المعلومات التى أوردوها بمثابة مادة ثانوية وليست مادة أصلية ، ويمكن أن نذكر من هؤلاء الإدريسى الذى اقتصر على جمع ما توارد إلى سمعه من أخبار الرحلات عند تعرضه لكل من شرق وغرب إفريقيا إذ ليس هناك ما يثبت أن الإدريسى قد ارتحل بنفسه إلى المناطق التى تحدث عنها فى كتابه المعروف « نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق »[١] .

وعلى الرغم من أهمية كتابات الوزان عن السودان الغربى إلا أنه لم يجانبه الصواب فى ذكره أن هذه المنطقة لم يصل إليها العرب قبل السنوات الأخيرة من القرن العاشر الميلادى حينما بدأ التجار العرب والمغاربة يصلون إليها منذ ذلك الوقت عن طريق الصحراء ، ولكن من الثابت أن العرب وصلوا إلى السودان الغربى فى فترة سابقة عن الفترة التى ذكرها الوزان .

(١) انظر الفصل الأول من الكتاب .

وقد تعرض الوزان فى حديثه عن ممالك السودان الغربى لعادات الزنوج ومعيشتهم فى المنطقة، ويتفق ما أورده مع ابن بطوطه بشأن زنوج السودان من حيث الصفات التى يتميز بها هؤلاء وحبهم للعدل وشدة رغبة سلاطينهم فى إقرار العدالة وتوقيع أشد العقوبات على المسيئين للأمن مما يضفى على بلادهم جواً من الاستقرار والأمان، وقد ذكر ليو من صفاتهم السيئة أن نسائهم يذهبن عرايا إلى السلطان، وكذلك تخرج بناته شبه عرايا، ويثرن الغبار على رؤوسهن رمزاً للاحترام . وقد عدد الوزان صفاتهم الحسنة والسيئة، وأكد أن زنوج مالى يتفوقون على جميع الزنوج فى حضارتهم وثقافتهم وذكائهم . كما تحدث عن معتقدات الزنوج وأشار إلى أنهم كانوا يتبعون ملك مراكش ، كما ذكر اعتناقهم الدين الإسلامى واختلاطهم بالتجار البربر والعرب مما ترتب على ذلك نشر العربية فى هذه المناطق من إفريقيا . ولا شك أن فى إشارات الوزان عن تبعية أقاليم السودان الغربى لمراكش فى الماضى إنما يكون بذلك قد ساهم فى إرساء الأسس التاريخية التى سيرتكز عليها أحمد المنصور الذهبى فى حملته المشهورة لإخضاع ممالك السودان الغربى إلى السلطنة المراكشية حول السنوات الأخيرة من القرن السادس عشر الميلادى .

وقد تحدث الوزان عن ملك تنبكتو ( سنغاى )، ولعل ذلك لأنه كان موفداً إليه، وكان يدعى أبو بكر اسكيا قال عنه أنه غزا ممالك الزنج وسافر للحج إلى مكة ، كما حدد الوزان مواقع هذه الممالك وذكر أنها تقع جميعها على نهر النيجر وفروعه[1] ، ومن الملاحظ أنه ذكر النيجر بالاسم على خلاف ابن بطوطه الذى حسبه نهر النيل[2] ، فقد ذكر الوزان أن النيجر يمر

---

(١) Browne, op, cit. cf. The Seventh book of the Historie of Africa, vol III P. 820.

(٢) ابن بطوطة : تحفة النظار ص ٣٠٠ جـ ٢، مهذب الرحلة — القاهرة ١٩٣٣ .

«فى أواسط بلاد السود ويبدأ فى صحراء تسمى السو حيث يخرج من بحيرة كبيرة ، وفى رأى بعض جغرافيينا أن النيجر فرع من النيل الذى يختفى ويخرج ليكون هذه البحيرة، وبعض الناس يقولون أن النهر يخرج من الجبال فى الغرب ويتجه إلى الشرق ليكون البحيرة وهذا ليس مضبوطاً، ونحن أنفسنا أبحرنا فى النهر من تنبكتو فى الشرق إلى ممالك جن ومالى ، وهما يقعان إلى الغرب من تنبكتو»، والعبارة الأخيرة توضح لنا أن ليو كان يريد أن يدلل أن النيجر يتجه إلى الشرق ، على أنه ينبغى أن نلتمس له العذر إذ أنه لم يضع كتابه لمصممى الخرائط وإنما وضعه أساساً للباحثين فى المعرفة الإفريقية .

والمهم أن الوزان أطنب كثيراً فى وصفه لممالك السودان الغربى، إذ أفرد وصفاً لكل مملكة من الممالك الخمسة عشرة التى زارها، ويتضح من وصفه أن تنبكتو عاصمة سنغاى كانت فى أوج ازدهارها ، ومن أهم الممالك التى ذكرها الوزان فى رحلته من الغرب إلى الشرق والجنوب هى :

جواليتا(١) — غينيا(٢) — مالى(٣) — تمبكتو(٤) - جاجو(٥) — جوبير(٦) — غادير(٧) — كانو(٨) — كاتسينا(٩) - زجزج(١٠) —

---

(١) Gualate

(٢) Ghinea Djene ( Guniea )

(٣) Melli M'ali

(٤) Tombut Tumbktu

(٥) Gago—Gogo

(٦) Guber—Gober

(٧) Agader

(٨) Cano

(٩) Katsena

(١٠) Zejzeg

زامفارا(١) — وانجـــارا(٢) - بورنو (٣) - جوجو(٤) — نوبيا(٥) .

والجدير بالذكر أن وصفه لهذه الممالك يتميز بالدقة والأمانة، فقد دون كل تنوع شاهده ووقف طويلاً أمام ثراء هذه الممالك وخاصة مملكة أيوالاتن فقال إن مقدار التجارة التي تجيء إلى هذا الإقليم وتصدر عنه كل يوم إلى كل صوب مقدار يذهل، ثمن عال وبضائع فاخرة . ثم تصدى للذهب في أسواق المدينة فذكر أنه أكثر مما تطيق قدرات الناس على شرائه ، ولاشك أن العالم الأوربي حينما قدر له أن يقرأ ما أورده الوزان عن ثراء المنطقة قد تاق شوقاً إليها ولكن المراكشيين سبقوا أوربا الى الإقليم(٦) ، إذ كانوا يعرفون عنه ذلك ، بل وأكثر مما أورده الوزان فقد كانت القوافل مستمرة بين الشمال وممالك السودان حيث تجيء القوافل إلى المدن المراكشية في أقصى الشمال وتخرج منها إلى أقاليم السودان(٧) .

لقد كان من حسن حظ الدول السودانية وبالأخص دولة سنغاى أن أعمال الوزان تتصدى لها بالكثير من التوضيح، وليس هناك فيمن نعرف من أعطانا

---

(١) Zamfara

(٢) Wangara

(٣) Burno

(٤) Gaco

(٥) Nubia

(٦) بازل دافيدسون : أفريقيا تحت أضواء جديدة ص ١٧٨ .

(٧) نعني بذلك حملة المنصور الذهبي الى أقاليم السودان ،وهي الحملة التي قامت من مراكش في عام ١٥٩٠ ، وللتعرف على الاتصالات التي كانت قائمة بين مراكش وممالك السودان الغربي يمكن الرجوع إلى Bovill في كل من :

The Caravans of the old Shara and the Golden Trade of the Moors.

وصفاً هاماً لهذه الممالك أكثر مما فعل الوزان، قد يكون حقيقة أن هناك من كتب عن هذه الأقاليم، ولكن الوزان اختلف عن أسلافه فى أنه شاهد بعين فاحصة أكثر المناطق التى تصدى لها بالتحليل والدراسة حين قادته حياته القلقة إلى هناك وهيأ نفسه ليكون خير شاهد وخير من يدون ما يرى ويرقب عن هذه المناطق[1]. ويلاحظ أنه عنى بصفة خاصة بالنواحى الثقافية فى المناطق التى زارها؛ إذ قال الوزان يصف مقاعد العلم والثقافة على مدن النيجر ، والتى كان من أبرزها مدينة تنبكتو ، بأنه يعيش فيها الأطباء والقضاة والفقهاء وغيرهم من سدنة العلم لا يخشون مسغبة ولا سلطة ، ينفق عليهم ملك البلاد ويرعى أمنهم كل الرعاية لينصرفوا لهذه المخطوطات يدرسونها كلما أتتهم من الشمال الإفريقى .

أما الطريق الذى سلكه الوزان لزيارة هذه المناطق فمن المؤكد أن يكون هو نفسه طريق القوافل المتعارف عليه، غير أنه من المحتمل؛ نظراً لما يذكره لنا من وصف لبلدان أخرى تقع فى الطريق المباشر إلى تمبكتو ؛ أنه عاد من طريق آخر، وقد حاول بعض الدارسين استنتاج الطريق الذى سلكه الوزان وهو فى رأيهم خط القوافل من غينيا إلى مالى شرقاً ثم إلى تمبكتو وجاجو إلى جوبير على الحدود الشمالية لأراضى الهوسا ثم غاديز وزجزج وزنفار حتى وانجارا

---

(١) بازل دافيدسون : لفريقيا تحت أضواء جديدة ص ص ١٧٧/١٧٨

وقد ذكر البكرى فى كتابه المسالك والممالك الكثير من مدن شمال إفريقية وخاصة مدن طرابلس والقيروان وسبته وفاس وسجلماسة واغمات وغيرها ، وقد أشار الوزان فى الأجزاء الستة الأولى من كتابه إلى هذه المدن التى أوردها البكرى كما أضاف غيرها بدقة أكثر، كما ذكر البكرى بعض ممالك السودان الغربى واختص بتفصيل أكثر مملكة غانا التى تحدث عن ثرائها ، كما حدد طرق الاتصال بغيرها من المدن ، وقد يكون من المفيد الرجوع إلى ما كتبه كل من البكرى والوزان للتعرف على التطورات المختلفة التى حدثت فى هذه المناطق .

انظر كتاب المغرب فى ذكر إفريقية والمغرب ، وهو جزء من كتاب المسالك والممالك لأبى عبيد الله البكرى ص ١٧٢ وما بعدها ، الجزائر ١٩١١ .

فى الداخل . ومن الملاحظ أيضاً أن الوزان أبدى اهتماماً خاصا ببورنو وبحيرة تشاد التى اعتبرها خطأ منبعاً لنهر النيجر(١) .

وأهمية هذا القسم من كتابه الذى عرض فيه لممالك السودان أنه يمكننا من أن نتعرف من خلاله على التغيرات العديدة التى حدثت فى المنطقة منذ وصف الإدريسى لها نقلا عن المعلومات التى أخذها عن الذين ارتحلوا إلى هذه المناطق، لأنه كما أشرنا لم يثبت أن الإدريسى كان شاهد عيان لما وصفه من أقاليم السودان . قد يكون حقيقة أن الرحالة العربى ابن بطوطه زار هذه المناطق فى النصف الأول من القرن الرابع عشر، ولكن ما ذكره ابن بطوطه لا يمكن أن نضعه على نفس المستوى من كتابات الوزان، إذ اتصف ابن بطوطه بقدر كبير من المبالغة والتهويل بعكس الوزان الذى حاول بقدر الإمكان أن يكون دقيقاً وموضوعياً فى كتاباته، فهو فى هذه الحالة أشبه بالإدريسى الذى التزم الموضوعية فى كتاباته أيضاً، وعلى هذا الأساس يمكن أن نقارن بين الاثنين فى وصفهما لأقاليم السودان فمثلا كانو التى ذكر عنها الإدريسى أنها كانت الدولة المسيطرة توقفت عن سيادتها فى الزمن الذى ساح فيه الوزان وأصبحت هى نفسها تابعة لمملكة سنغاى وعاصمتها تمبكتو، كذلك استقلت وانجارا وبورنو وكاتسينا ولم تصل إلى مجال السيادة والتفوق الذى سوف تحققه كل منها فيما بعد . اما تمبكتوا فكما سبق أن ذكرنا اختصها الوزان بوصف مفصل، وأفرد ملاحظات عن الغزوات الموفقة التى كان يقودها محمد ابن أبى بكر الحاج اسكيا ، وقد استطاعت تلك الغزوات أن تحقق لتمبكتو الزعامة الكاملة على أقاليم السودان حتى أصبحت البلدان المجاورة لها والتى شملتها تلك الغزوات تدفع لها قدراً من الجزية السنوية . على أنه مما يستلفت النظر أن الوزان كرر أخطاء الإدريسى حول تحديد مواقع ممالك النيجر، كذلك أخطأ فى وضع التواريخ الحقيقية عند تعرضه لبعض الأحداث .

(١) Browne, op. cit. PP. XXXVIII

أما الكتاب الثامن الذى لدينا من مجموعة الوزان عن وصف إفريقيا وتاريخها ، فهو قد يهم المتخصص فى تاريخ مصر المملوكية بصفة خاصة فقد ذكر فيه نهر النيل وبعض المدن المصرية ، كما وصف القاهرة وأحيائها المجاورة . ولما كان الوزان قد زار القاهرة فى عام ١٥١٧ ، كما سبق أن ذكرنا ، فقد أشار إلى مقتل السلطان المملوكى طومان باى على أيدى السلطان سليم الكبير سلطان الترك ، كما عرض فى هذا القسم أيضاً إلى عادات المصريين وتقاليدهم ، وذكر أن السلطان سليم الكبير ألغى السلطنة المملوكية وغير وبدل فى الأنظمة التى كانت متبعة فى عهد المماليك ، ومع ذلك فإنه قد عرض الأنظمة المملوكية ولأصل المماليك ، وأهم المناصب المدنية والعسكرية فى السلطنة المملوكية قبل سقوطها . ويعتبر هذا القسم أو هذا الكتاب آخر ما كتبه الوزان من الناحيتين الجغرافية والتاريخية لأن الكتاب التاسع ، وهو القسم الأخير من كتابه قد اختصه بأنهار وحيوانات وطيور وأسماك ونباتات إفريقيا ومعادنها ، ولذلك يعتبر هذا القسم أو الكتاب التاسع ، بمثابة القسم العلمى من كتابات الوزان . وعلى ذلك فإن ما أورده الوزان فى هذا الجزء قد يكون مفيداً بصفة خاصة لمؤرخى العلوم ، إذ يتحدث فيه عن بعض الظواهر الحيوانية والنباتية والطبيعيه ، ومع ذلك فإنه لم يكن دقيقاً إلى الدرجة التى عاهدناها فيه فى كتاباته التاريخية أو الجغرافية ، إذ خانته ملكة النقد فى نواح كثيرة بل إنه يذكرنا عند قراءاتنا لبعض ما كتبه فى هذا القسم بما نعرفه عادة عن كتب عجائب المخلوقات التى حفلت بها المصنفات العربية فى العصور الوسطى . على أنه ما يستلفت النظر نقله عن بلينيوس Plinius[1] ، وقد قال الوزان بصدد ذلك

---

(١) عالم رومانى وضع كتابا فى التاريخ الطبيعى **Historia Naturalis** فى القرن الأول الميلادى ( ٧٧م ) .

فى مطلع هذا القسم أنه سيتكلم عما يوجد فى إفريقيا من الوجهة المشار إليها تاركاً مع ذلك الكثير من الأشياء التى ذكرها بلينيوس، الذى كان بحق رجلا ممتازاً ذو منهج فذ[١] ، ولكنه ذكر أن بلينيوس كثيراً ما وقع فى الخطأ عند معالجته الكلام على أشياء بسيطة تتعلق بإفريقيا ، غير أن مرد ذلك ليس لعيب فيه وإنما نتيجة لما حصل عليه من معلومات خاطئة ولرغبته فى أن يقلد من كتبوا قبله ، وعلى أية حال فإن الخطأ فى أمر صغير كما يذكر الدومبيلى لايكفى لمحو الصفات الطيبة التى من شأنها أن تضفى رونقاً وبهاءً على ما يتصف به المجموع من جمال وزينة[٢] .

وإذا كان واضحاً إشارة الوزان إلى بلينيوس فى الكتاب التاسع من مصنفه ، فإنه قد أشار إلى بعض المصادر العربية عند معالجته الأقسام الأخرى ، ولكن يلاحظ بصفة عامة أنه كان مقلا فى ذكر هذه المصادر ، وهو حين يشير إليها يوردها فى أغلب الظن من الذاكرة ، لأنه كما يؤكد لنا أنه لم يطلع أثناء إقامته بإيطاليا على مصنف عربى واحد ، ولكن مما لا شك فيه أنه اطلع على المصنفات العربية أثناء وجوده بفاس قبل ارتحاله إلى روما ومن بين المؤلفين المعروفين لدينا يورد لنا ذكراً للمسعودى والبكرى والإدريسى وابن الخطيب وابن بشكوال ، ومن الجلى أن معرفته بالمؤلفين المغاربة كانت أقرب إلى ذهنه ، وهذا أمر طبيعى بالنظر إلى ظروف نشأته فى بلاد المغرب ، وقد لاحظ ماسينيون Massignon أنه نقل عن مصنفين من المغاربة ، خاصة بالنسبة للأقسام الثلاثة من كتابه من حيث تصنيفه الأصيل للقبائل العربية والبربرية فى شمال إفريقيا ، بل وبقدر كبير من

---

(١) الدومبيلى — العلم عند العرب ص ص ٥٣٨/٥٣٩ ( مترجم ) القاهرة ١٩٦٢ .

(٢) كراتشكوفسكى « اغناطيوس بوليا نوفتش » : الأدب الجغرافى عند العرب ، القسم الثانى ص ٤٥٣ .

المعطيات المختلفة و بالإطار العام لمصنفه من الناحيتين التاريخية والاثنوجرافية ، ومن أهم من نقل عنهم فى ذلك الصدد مصنف مغربى يدعى ابن الرقيق ، إليه يدين — كما لاحظ ماسينيون — بفضل كبير من حيث إبرازه لهذه الاتجاهات التى أشرنا إليها ، غير أن من المؤسف أن هذا المصنف ، كما يقرر كراتشكوفسكى ، لم يتم التعرف عليه على وجه اليقين ، وإن كان ماسينيون يفترض أن ابن الرقيق عاش فى النصف الثانى من القرن الثالث عشر ، وعلى أى الأحوال فإن قيمة كتاب الوزان لا تكمن فيما نقله عن الغير وإنما تتجلى قيمة هذا المصنف فى ملاحظات المؤلف الشخصية التى تشكل القسم الأساسى منه . ومن الطريف أن الوزان على الرغم من أنه كتب مصنفه باللغة الإيطالية إلا أنه احتفظ بروحه العربية الأصيلة التى تتمثل فى القصص المتحولة التى كان يسردها بين الحين والآخر ليستخرج منها العبرة والموعظة ، شأنه فى ذلك شأن مؤلفى المجموعات الأدبية التى اشتهر بها الأدب العربى . أما الأهداف التى وضعها الوزان نصب عينيه فيمكن استجلاؤها من خاتمة مصنفه حيث يقول « هذا على وجه ما أبصرته من الأشياء الغريبة التى علقت بذهنى أنا جيوفانى ليو عن جميع إفريقية التى عبرتها من أقصاها إلى أقصاها ، وقد دونت بجد واجتهاد ، ومن يوم لآخر تلك الأشياء التى رأيتها بعينى رأسى ، وبدا لى أنها تستحق الذكر ، وما لم أره بنفسى بسبب ضيق الوقت أو صعوبة الطريق ، فقد جهدت فى الحصول عليه من أهل الثقة ممن شاهدوه بأنفسهم [١] » .

والواقع أن الوزان فى هذه الفقرة الختامية التى ينهى بها مصنفه إنما يحدد لنا المنهج الذى اتبعه فى إخراج وتأليف ذلك الكتاب ، وهو منهج يقرظه جميع من توافروا على دراسة هذا المصنف ومؤلفه .

---

(١) كراتشكوفسكى : مصدر سبق ذكره ، القسم الثانى ص ٤٥٣ .

بدأت رحلات الوزان بين عامى ١٥١١ و ١٥١٣ ، وقد يكون من المستحيل تحديد تواريخ تحركاته على وجه الدقة، وهى على أية حال فقد انتهت نهاية بدا كأنها نهاية محزنة فى عام ١٥١٨، فالثابت أنه وقع فى الأسر فى ذلك العام وهو فى طريق عودته من القسطنطينية إلى بلاده[١] ولا ندرى عما إذا كان ذلك من سوء حظه أو من حسن حظه لأنه أتيح له بعد أسره أن يصل إلى معقل هام من معاقل النهضة الأوربية ، كما أتيح له أن يوثق صلته بالعلماء الأوربيين ويتزود باللغات الأوربية ويتردد على المكتبات والأكاديميات والجامعات التى حفل بها عصر النهضة فى إيطاليا ، وتفصيل ذلك أن الوزان وقع فى ذلك العام فى أسر بعض القراصنة المسيحيين الذين كانوا يجوبون البحر المتوسط عند مدينة جربة[٢] ، ومن المحتمل أن يكونوا من قراصنة البندقية أو من جزيرة صقلية ، وكانت مدينة جربة التى وقع فيها فى أسر أولئك القراصنة تعتبر المعقل الرئيسى لقراصنة البحر المتوسط خلال هذه الفترة وما قبلها . وفيما يبدو لنا أن أولئك القراصنة كانوا على درجة من الوعى إذ أدركوا أنهم أمام شاب لم تقع أعينهم على مثله فلم يسمحوا لأنفسهم ببيعه مع غيره من شباب المغرب فى أسواق النخاسة فى الموانى الإيطالية ، كما كان الحال متبعاً[٣] ، إذ وجدوا بين أيديهم شخصاً ذو علم غزير فحملوه إلى نابلى ثم إلى روما حيث قدموه هدية إلى البابا ليو العاشر Leo ، وكان البابا ليو العاشر من الباباوات المستنيرين الذين ظهروا فى أسرة المديتشى Medici وهو ابن لورنزو العظيم أمير فلورنسة ، وقد عرف باعتناقه المذهب الإنسانى

---

(١) ذكرت بعض المصادر أنه أسر وهو فى طريقه إلى القسطنطينية وليس أثناء عودته منها ، ولكن الارجح ما أوردناه آنفا .

(٢) تقع مدينة جربة بين تونس وطرابلس .

(٣) كان العبيد المغاربة فى ذلك الوقت شيئاً مألوفاً فى البلاط ولدى الاسر الثرية ،وكان الحرس المغربى هو الحرس الذى يستعين به أمراء البلاط ، وهو الذى سيخلفه الحرس السويسرى فيما بعد .

المستنير Enlightened Humanism ، وبمعرفته بالمسألة الشرقية،حتى أنه بحث مع فرانسوا الأول ملك فرنسا فى عام ١٥١٥ مشروعاً لإرسال حملة صليبية ضد الأتراك العثمانيين ، وكان من جراء ذلك أن زاد الاهتمام بالشرق فى إيطاليا بحيث كان من المستحيل ألا يسترعى العلامة العربى المأسور نظر البابا ليو العاشر[١] ، الذى لم يلبث أن أدرك أن القراصنة لم يخطئوا حين ظنوا هديتهم له هدية لا تعادلها هدية أخرى خاصة وأن البابا ، وهو سليل أسرة المديتشى، التى اكتسبت مجدها وقوتها من التجارة العالمية كان حريصاً على التعرف على حالة العالم الأفريقى وراء الحاجز الذى أقامه المسلمون فى وجه أوربا فى الشمال الإفريقى ، وفيما يبدو أن البابا قدر أن هذا الشاب سيكون أمله فى هذه المعرفة ، فأطلق سراحه وأعاد إليه حريته وأجرى عليه معاشاً طيباً حتى لا يوجد لديه الرغبة فى تركه وأسماه باسمه، جيوفانى ليونى ، وذلك بعد أن عمده بنفسه إلى المسيحية ، ثم اشتهر بعد ذلك فى العالم الأوربى باسم ليو الافريقى Leo Africanus ، ويعتقد براون أن تحول الوزان إلى المسيحية إنما حدث من تلقاء نفسه دون إجبار فى ذلك ، ونحن نذهب مع براون فى اعتقاده هذا ، خاصة وأنه من المحتمل أن يكون قد أحس أثناء وجوده فى المجتمع الذى انتقل إليه أن من باب اللياقة الأدبية أن يعتنق المسيحية[٢] ، وإن كنا لا نسلم تماماً بما ذكره براون من أن التحول إلى المسيحية كان أمراً مألوفاً لدى المغاربة فى ذلك الوقت . حقيقة حدثت تحولات كثيرة إلى المسيحية وخاصة بعد أن أصدرت الحكومة الأسبانية فى عام ١٤٩٩ قراراً بتعميد أبناء المسلمين قسراً تحت تأثير الأسقف أجزمنيس ، ولكن من الثابت أيضاً أنه قد ترتب على ذلك هجرة آلاف المسلمين إلى الشاطىء الغربى لأفريقية وهم يحملون معهم روح التعصب والنضال ضد الدول المسيحية ، وقد ساهم

---

(١) كراتشكوفسكى : الادب الجغرافى عند العرب ، القسم الثانى ، ص ٤٥١ .

(٢) انظر فى ذلك الدوميلى ، العلم عند العرب ، ص ٥٣١ .

هؤلاء بنصيب كبير فى تنشيط حركة الجهاد فى البحر وفى شن الغارات المفاجئة على سواحل أسبانيا والبرتغال ، والاتصال ببقايا المسلمين هناك وتشجيعهم على الثورة ضد الحكم المسيحى ، كما اتسم تاريخ البحر المتوسط فى القرن السادس عشر بصراع قوى بين القوى المسيحية وبين القوى الإسلامية ،وقد حاول كل من الأسبانيين والبرتغاليين تخفيف حدة الصراع من قبل المسلمين متخذين سبيلهم إلى ذلك الإرساليات التبشيرية التى أكثروا من إيفادها إلى المعاقل الساحلية التى نجحوا فى انتزاعها من أيدى المسلمين .

وفى روما عاش الوزان أو ليو الأفريقى ،كما أصبح يعرف منذ ذلك الحين ، تحت رعاية البابا الذى كان معروفاً بحمايته للعلماء وبتشجيعه للعلوم والآداب فيسر له سبل التفرغ للنشاط العلمى . ولما كان البابا ليو مهتما بالدراسات الإفريقية فقد شجع ليو على الكتابة باللغة الإيطالية ليصف رحلاته فى إفريقيا حيث أخرج منها كتابه الذى سبق أن عرضنا له(١) والذى اعتبر من أهم المصنفات التى وضعت عن داخل إفريقيا فى القرن السادس عشر(٢) ، وقد ذكر رامسيو أنه بفضل إجادته اللغة الإيطالية تمكن من ترجمة كتابه العربى وصف إفريقيا وتاريخها الذى أكد أنه كان يحمله معه أثناء أسره ، وذكر رامسيو بصدد ذلك أن البابا استقبله استقبالا حسناً حينما عرف أنه يحمل معه كتاباً فى الجغرافيا، واستند بورى صاحب الترجمة الإنجليزية ، على ماذكره رامسيو فقال إن القراصنة أهدوه هو وكتابه إلى البابا ، وبعد أن أجاد الإيطالية قام بترجمة كتابه الذى كان مكتوباً أصلا باللغة العربية،ويمكن أن نستدل على ذلك مما ذكره بورى عند

---

(١) الثابت أن كتاب ليو الافريقى قد انتهى من إخراجه بعد وفاة البابا ليو بثلاثة أعوام،ولكن هذا لا يمنع من أن يكون ليو الافريقى قد حصل على تشجيع من البابا قبل وفاته فى عام ١٥٢٣ وفى أثناء اعداده للكتاب .

(٢) cf. Hary Johnston, The Colonisation of Africa P.391

نشره للترجمة الإنجليزية ، وأكثر من ذلك أن بورى وضع عنواناً الكتاب يتضمن تلك الفكرة :

A Gerographical Historie of Africa Wrilten in Arabicke and Italie .

ويميل الدومبيلي إلى الاتفاق مع ماذكره كل من رامسيو وبورى فى أنه من المؤكد أن ليو قد سجل كتابه استنادا على ملاحظات قيدها فى مستهل حياته وفى أثناء أسفاره وربما يكون قد وضعه عن كتاب سبق له أن صنفه باللغة العربية ، ويستند فى ذلك على ماذكره الوزان بنفسه فى خاتمة كتابه الذى جاء فيه ، وها هو ذا مجموع مارأيته من خبر ومن جدير بالتذكار ، أنا جون ليونى ، فى جميع إفريقيا التى كشفتها من جانب إلى جانب والأشياء التى بدا لى أنها تستحق الذكر كتبتها على حسب مارأيتها فى جد واجتهاد ومالم أره بنفسى فإنى حصلت عليه بواسطة أخبار حقيقية واضحة من أشخاص جديرين أن يوثق بهم رأوها بأنفسهم ومنذ ذلك الوقت كتبت حسب الإمكان مجموعةهذه الأعمال وجعلتها كتاباً فى وقت وجودى بمدينة روما يوم ١٠ من مارس ١٥٢٦ من ميلاد المسيح[1] » .

أما شيفر Schefer ، صاحب الترجمة الفرنسية للطبعة العلمية لكتاب ليو ، التى صدرت بين عامى ١٨٩٦ و ١٨٩٨ ، فعلى الرغم من أنه لا ينفى أن ليو كتب الكتاب سابقاً باللغة العربية إلا أنه يشير فى مقدمته أن النسخة العربية من الكتاب قد تكون فقدت منه فى الأسر ، واعتمد ليو فى تدوين كتابه باللغة الإيطالية على بعض ملاحظات سجلها وليس عن الكتاب الأصلى لأنه أضاف فى النسخة الإيطالية إضافات كثيرة بعد ماترتب على وجوده

---

(١) الدومبيلي : العلم عند العرب ص ٥٢٦ .

فى إيطاليا من استحداث جديد فى معلوماته وانتعاش فى تفكيره[١] .

أما روبرت براون، صاحب الترجمة الإنجليزية للطبعة العلمية لكتاب ليو التى صدرت فى عام ١٨٩٦ ، فلا يعتقد أن ليو كان يحمل كتابه معه وفقاً لما أشاعه رامسيو ؛ وإن كان لا يستبعد مع ذلك أن يكون قد سجل مسودات واحتفظ بها لأنه من الصعب بطبيعة الحال أنه يجمع هذه المعلومات الكثيرة التى أوردها فى كتابه اعتماداً على ذاكرته ، وإن مايدلل عليه براون فى أن ليو كتب هذا الكتاب فى إيطاليا وباللغة الإيطالية كان استدلالا على نقاط ثلاث هى :

أولا : أنه أشار فى كتابه إلى بعض أحداث وقعت بعد وصوله إلى روما .

ثانياً : أنه أشار إلى مصادر ومؤلفين لا يمكن أن يصلا إلى معرفته مالم تتاح له الفرصة لدراسة اللغة اللاتينية ، والتردد على المكتبات الإيطالية التى أمدته بمعارف واسعة .

وأخيراً فإن براون يستدل من الحقيقة الواقعة لما ذكره ليو بنفسه فى نهاية الكتاب ، كتب فى روما فى عام ١٥٢٦ فى ١٠ مارس أو الثلاث سنوات بعد وفاة البابا ليو »[٢] .

أما كراتشكوفسكى فيرى أن القول أو الجزم بأنه قد وجد مصنف كامل فى يد ليو عند وصوله إلى إيطاليا قول ضعيف ، وأغلب الظن أن الأمر اقتصر على قطع متفرقة وتخطيط ذى طابع عام ، أما عن ماسينيون فلا يعتقد بوجه

---

(١) Schefer, Desciptione de l'Afrique ecrite Par Jean leon Africain Torme I p, XV.

(٢) Robert Browne, History and description of Africa Vol I p XIV FF

عام فى وجود مخطوطة عربية للكتاب ، ويعتبر القول بذلك خطأ ، ويرى خلافا لما ذكرناه أن ليو الإفريقى لم يدون الكتاب باللغة العربية وإنما صاغ مذكراته وملاحظاته باللغة الإيطالية رأساً ، ويستند فى ذلك على ماذكره ليو بأنه قد دون مصنفه من الذاكرة وذلك بعد مضى عشر سنوات، لم تقع فيها عينه على مصنف لمؤرخ عربى واحد، ويعلق ماسينيون على ذلك أن ذاكرته لم تكن تسعفه تماماً ، فعلى الرغم من أنه يعطى انطباعاً لقارئه بدقة الوصف الجغرافى إلا أن مادته التاريخية وتواريخه ليست فى المستوى المرجو .

ويمكن أن نرجح لما سبق أن ذكرناه باستثناء مايراه ماسينيون أن الكتاب كان أصلا أو مسودته على الأقل باللغة العربية ، وإن كان مايدعو للأسف أن الأصل العربى لكتابات ليو لم تصل إلينا . أما النسخة الإيطالية ، وهى النسخة الوحيدة فى العالم ، فقد احتفظ بها فى احدى المكتبات الإيطالية خلال الفترة من١٥٣٥ إلى ١٦٠١،أما بعد ذلك التاريخ فلايعرف من أمرها شيئاً . أما أقدم نسخة لدينا من ذلك الكتاب فهو النسخة التى ترجمها بورى إلى الإنجليزية ونشرها فى لندن سنة ١٦٠٠(١) .

أما عن حياة ليو فى إيطاليا فقد استمرت من عام ١٥١٨ إلى عام ١٥٥٠ فيما يرجح(٢) فعندما نشر رامسيو مجموعته فى ذلك العام لم يكن هناك مايستدل منه على أن ليو كان مقيما فى روما ولا فى إيطاليا بأسرها . والأرجح أنه تمكن من الإفلات بطريقة ما إلى تونس حيث عاش بقية حياة لا ندرى من أمرها شيئاً ، وللأسف أننا لانعلم ماذا فعله ليو حينما عاد إلى تونس أكثر من عودته إلى الإسلام . وفيما يبدو أنه لم يعش طويلا فى تونس إذ أنه قد توفى بعد سنتين . ويقول الدوميبلى بصدد ذلك إن إقامة ليو بمعزل عن

---

(١) توجد نسخة من هذه الطبعة بدار الكتب المصرية .

(٢) ذكر كراتشكوفسكى أنه عاد إلى تونس فى عام ١٥٢٨ .

محيطه العربى الأصيل كانت بلا ريب ثقيلة على نفسه، وقد رجع إلى تونس ليحظى بالوفاة فى أرض الإسلام وفى حمى دينه الحقيقى . . . ونفتقد آثاره من ذلك العهد، ويبدو أننا لا نعرف تاريخ وفاته . . وإن كان هناك من يرجح أنه توفى فى عام ١٥٥٢ فى تونس فى عهد آخر ملوك بنى حفص » .

والمهم أن كتاب ليو اعتبر لمدة ثلاثة قرون المصدر الوحيد لجغرافية شمال وغرب إفريقيا ،وأهمية كتابه كما يقول بوفيل Bovill فى نظر معاصريه من الأوربيين أنه أطلعهم على مناطق لم يعرفونها من قبل،ووضع خطاً فاصلا بين الأسطورة والواقع . كما ذكر المستشرق الألمانى هارتمان Hartman أن كتاب ليو كنز من ذهب ولولا لوجودة لخفيت علينا أشياء ، كثيرة أما المستشرق الفرنسى شيفر Schefer،فقد ذكر فى تقديمة للكتاب أن ما أورده ليو يتميز بالدقة الشديدة، بل ولقد أثبتت الأبحاث الأخيرة صدق قوله حتى فى تلك المواضع التى أثارت الشكوك فيما مضى ، وإن كان شيفر مع ذلك ينتقد ليو بقوله إنه لم ير كل ما وصفه فضلا عن أنه لم يكن دائماً شاهد عيان لما كتب عنه .

أما المستشرق الإيطالى أمارى Amari فيفترض أن ما أملاه ليو قد تم جمعه بعد رجوعه إلى إفريقيا ، أى أنه لم يستطع تنقيح المسودة النهائية أثناء وجوده بروما ، وهو رأى لم يذهب إليه أحد غيره(١) .

ولا شك أن الوزان ومصنفه قد حظيا بكثير من اهتمام وعناية الأوربيين فى حين أنهما لم يحظيا بهذا القدر من المؤرخين أو الجغرافيين العرب، ونأمل أن تتاح الظروف لنشر هذا التراث الإنسانى وإخراجه فى ترجمة عربية

---

(١) راجع فى ذلك كراتشكوفسكى : الأدب الجغرافى عند العرب — القسم الثانى ص ص ٤٥٣ — ٤٥٤ .

أمينة طالما لا يحتمل التعرف على النسخة العربية من ذلك الكتاب إذا ما افترضنا وجودها بالفعل .

ولعل أكبر أهمية لكتاب الوزان هو أنه سجل لنا آخر ماوصلت إليه أقاليم السودان الغربى من حضارة وتقدم . ولقد ظلت الحضارة قائمة فى ممالك السودان حتى ظهرت جيوش مراكش فى عام ١٥٩١ على عهد أحمد المنصور يقودها قائد من مرتزقة الأسبان يدعى جودر، واستولت على تنبكتو وجنى وأوقفت الحروب التجارة الزاهرة التى كانت تعبر شمال الصحراء إلى جنوبها يضاف إلى ذلك تدهور الحضارة فى الشمال الأفريقى خاصة بعد أن سيطر البرتغاليون على تجارة الشرق ، وفقدت مدن الساحل الشمالى لأفريقيا ذلك الازدهار الذى عرفته من قبل ،كما فقدت بالتالى قدرتها على حمل الأفكار والحضارة مع تجارتها الواسعة عبر الصحراء الإفريقية ، وكان من أثر ذلك أن عزل السودان الغربى عزلا تاماً عن دنيا العرب ، التى أصابها التدهور والتى كانت مصدراً جوهرياً فى خلق حضارة وثقافة السودان الغربى، كما عزلت إفريقيا عن أوربا فى العصر الذى شهدت فيه القارة الأوربية مراحل مختلفة من التطور، وفى خلال ذلك الوقت لم يعد للسودان الغربى صلة بالعالم الخارجى بعد أن خمدت الحياة فى الشمال الافريقى الذى كان صلة الوصل بينهما، وأخذت أوربا تفتح عينيها تجاه الهند والعالم الجديد ، وهى المناطق الجديدة التى وصل إليها كل من البرتغاليين والأسبان، فلم تعد ثروات السودان تستهوى المغامرين والتجار كما كانت تستهويهم من قبل، إذ انهالت الغنائم والأسلاب من هذه البلاد الجديدة وتضاءلت أمامها ثروة السودان الغربى، ومع ذلك فإن ما يستلفت النظر أن حضارة غرب السودان غالبت عوامل الفناء وبقيت محتفظة بشىء من سماتها، وقد تحدث هنريك بارت، وهو أحد رواد حركة الكشف الجغرافى فى غرب إفريقيا فى القرن التاسع عشر، عن ازدهار بعض أقاليم غرب السودان كما تعرض لومضات من حضارته .

وبالاضافة إلى التدهور الاقتصادى والثقافى الذى ألم بمنطقة البحر المتوسط على أثر الانقلاب التجارى الذى حدث نتيجة لتحول التجارة إلى طريق رأس الرجاء الصالح، عانت المنطقة تدهوراً سياسياً أيضاً حينما فكر أحمد المنصور سلطان مراكش فى فتح أقاليم السودان الغربى وضم ممالكه إلى ملكه ، وهذه الحادثة كان لها سوابق تاريخية وهى المحاولات المختلفة التى ظهرت لتوحيد القوى الاسلامية فى إفريقيا والسودان الغربى، وكان أحمد المنصور يأمل فى تحقيق هذه الغاية،وبالاضافة إلى ذلك كان هناك عامل آخر قوى وهو أن المنصور شعر بالحاجة إلى مورد جديد يستعين به لتقوية دولته وسط الأزمات التى كانت تواجهها ، ولما كانت ممالك غرب السودان تشتهر بثروتها الكبيرة بسبب مناجم الذهب الكثيرة فى أراضيها فقد فكر المنصور فى فتحها وضمها إليه حتى يستعين بالذهب فى تقوية دولته . ويقال أنه جمع العلماء والقواد ، وقد حاول هؤلاء أن يثنوه عن تحقيق هذه المغامرة محذرين له من صعوبة الطريق ومهالكها، ولكنه أجابهم بأن الطريق مأمونة وإذا كانت القوافل تجتازها بانتظام فهل تعجز جيوشه المنظمة عن اجتيازها؟ وأكد أن الدول السابقة لولا انشغالها فى جهات أخرى لوجهت اهتمامها نحو غرب السودان، وأن أقاليم السودان الغربى أغنى من المغرب وفتحها أجدى من حرب الترك لأن حرب الترك تقتضى جهداً أكبر، وانتهى الأمر بتسيير الحملة المراكشية لفتح مملكة سنغاى . وكان أهالى سنغاى فيما يبدو على علم بذلك ولكنهم كانوا واثقين بأن حدودهم الصحراوية لايمكن اقتحامها ، ولكن تمكن الجيش المغربى من التوغل فى السودان الغربى حيث وجد ترحيباً من أهل الثقافة والعلم والتجار ومعظمهم كانوا من المغرب . وهكذا نجحت حملة المنصور ودخلت جيوشه تنبكتو وسقطت مملكة سنغاى ، وحاز المنصور بالفعل على كميات كبيرة من الذهب حتى لقب بالمنصور الذهبى ، وكان لفتح أقاليم السودان الغربى أثر سيء جداً، حتى لقد شبه البعض حكم المغرب للسودان الغربى بحكم العثمانيين للولايات العربية من حيث ضعف الثقافة إلى جانب قيام عصبيات تستبد

بالحكم ، ومما ساعد على زيادة الاضمحلال انشغال مراكش طيلة القرنين السابع عشر والثامن عشر بأحداث أخرى جرت فى منطقة البحر المتوسط وبدأت مراكش تهمل أمر حامياتها العسكرية فى السودان الغربى وتركتها دون تجديد، مما أفسح المجال للاضطراب والفوضى ، كما تزاوج أهل المغرب من الزنوج ونشأ عن ذلك عنصر الرماة. وأصبح الباشوات المراكشيين ألعوبة فى أيديهم ، ولاشك أن هذه الأوضاع السيئة بالإضافة إلى الأوضاع العامة التى عانت منها منطقة البحر المتوسط ،كان لها أثر كبير فى انهيار تجارة السودان وبذلك أصبحت أقاليم السودان الغربى فى عزلة ثقافية وروحيـــة بانقطاع الإمدادات التى كانت تأتى إليها من الكتل الرئيسية الحضارية فى إفريقية بسبب انقطاع التجارة وتعطل الطرق واضطراب الأمن ،وكان لهذا كله أثر خطير إلى درجة أنه عندما بدأ الاستعمار الأوربى يطرق إفريقيا ، كان السودان الغربى أشبه ما يكون فى عزلة سياسية وثقافية واقتصادية،وكان عليه أن يعتمد على موارده ومقوماته الذاتية فى مواجهة الضغوط الامبريالية ، وقد حاول الصمود والإحياء، حيث قامت فى غضون النصف الثانى من القرن الثامن عشر والنصف الأول من القرن التاسع عشر حركات إحياء إسلامى بدأت فى عام ١٧٧٦ بإعلان الجهاد ضد القبائل الوثنية فاعتنق الإسلام فى السنغال مايقرب من نصف عدد السكان ، وتبعتها حركات إصلاحية أخرى تستهدف إحياء الدين الإسلامى من غلبة الوثنية ولكن هذه الحركات لم تستطع أن تواصل مسيرتها بسبب اصطدامها بالموجة الامبريالية التى ظهرت واضحة فى إفريقيا منذ النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، وكان مما ساعد على تقدم الحركة الاستعمارية فى غرب إفريقيا العوامل التالية :

أولا : إغارة العشائر البدوية على ممالك السودان الغربى ومن أشهرها قبائل الفولانى .

ثانياً : سقوط مملكة سنغاى وما ترتب على سقوطها من إزالة الحاجز

الذى كان يصد التحركات القبلية، وبذلك اتسع نطاقها وتحولت إلى موجات كبيرة واستطاعت أن تؤسس إمارات خاصة بها .

ثالثاً : ضعف القوى الإسلامية نتيجة الصراع الذى قام بينها وبين القوى الوثنية ، وقد بلغ هذا الصراع ذروته خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر مما مكن للوثنية أن ترفع رأسها من جديد، وسيترتب على ذلك رد فعل مضاد خلال القرن التاسع عشر الذى شهد عدة حركات إسلامية إصلاحية ،ولكنها اصطدمت بالاستعمار الأوربى الذى بدأ ينفذ إلى المنطقة خلال هذه الفترة كما سنتعرض لذلك فيما بعد[1] .

---

(١) انظر خاتمة الكتاب .

# الفصل الخامس

## سلطنة زنجبار وامتدادها في الكونغو وهضبة البحيرات

# سلطنة زنجبار

## وامتدادها إلى الكونغو والبحيرات الاستوائية

أشرنا فى الفصل الثانى من ذلك الكتاب كيف استطاع عرب الخليج والجزيرة العربية تأسيس عدة مدن وإمارات إسلامية على الساحل الشرقى لافريقيا . وقد شهد النصف الأول من القرن التاسع عشر نجاح سلطنة عمان فى ضم المقاطعات الساحلية فى شرق إفريقيا تحت زعامتها ، وفى عام ١٨٣٢ قدر سلاطنة عمان أهمية القسم الافريقى من السلطنة فنقل السيد سعيد بن سلطان ١٨٠٦/١٨٥٦ عاصمة حكمه من مسقط إلى زنجبار . ولاشك أن هناك دوافع كثيرة دفعت به إلى إحداث ذلك الانتقال، من ذلك أهمية جزيرة زنجبار باعتبارها مركزاً وسيطاً للتجارة وعمليات التبادل التجارى لمقاطعات الشرق الافريقى ، هذا فضلا عما تتمتع به جزيرة زنجبار وغيرها من جزر ومقاطعات شرق إفريقيا من موارد كثيرة[1] .

ونستطيع أن نقرر أنه بتلك الخطوة التى أقدم عليها السيد سعيد تبدأ المؤثرات الفعالة فى تاريخ زنجبار والشرق الافريقى بصفة عامة ؛ إذ وفد معه عند انتقاله إلى زنجبار مئات من عرب عمان والجزيرة العربية ، فازدهرت التجارة وانتعشت بمقدمهم إلى درجة لم تكن معهودة من قبل، كذلك ازداد عدد الهنود فى الشرق الافريقى . وبينما كان نشاط الهنود يقتصر على الساحل فى المعاملات التجارية وأعمال النقل البحرى، نجد أن التجار العرب يتوغلون

---

(١) Younghusband, Glimpses of East Africa and Zanzibar p. 238 See also F.O. Zanzibar p. 40

فى المناطق الداخلية التى لم يرتدها أحد من قبل ،واستقر الكثيرون منهم فى الداخل وأسسوا المراكز التجارية التى جهدوا فى تقويتها ومن ثم أصبحت تلك المراكز تشع بعضاً من السيطرة والنفوذ للسلطان فى الداخل؛حتى لقد اشتهر المثل السواحلى القائل ، حينما يلعب أحد على المزمار فى زنجبار يرتص الناس طرباً على البحيرات[١] .

When One Pipes on Zanzibar, They dance on the Lakes

ويبدو أن حلم تأسيس امبراطورية عربية إفريقية قد تراءى للسيد سعيد بعد بضعة سنوات من قدوم عرب عمان إلى الشرق الافريقى،وكان يأمل أن يمتد بنفوذه إلى داخل القارة الافريقية بعد أن تأكدت له السيطرة على الساحل من رأس جردفون شمالا إلى خليج دلجادو جنوباً . وليس من شك فى أن تلك السيطرة الداخلية كانت ترتبط بالناحيـــة التجارية إذ نشطت القوافل التجارية فى تحركاتها الدائبة،وأصبحت تصل إلى جهات بعيدة فى قلب القارة الافريقية كبحيرات نياسا وتنجانيقا وفيكتوريا نيانزا ، بالاضافة إلى أن المغامرين من التجار كانوا يذهبون فى مغامراتهم بحثاً وراء العاج أو الرقيق إلى الأجزاء العليا من نهرى الكونغو والنيل ، وسط الغابات الكثيفة وفى ظروف مناخية وطبيعية شاقة ، وإذا ماعرفنا أن الوحدة من تلك الرحلات أو بالأحرى تلك المغامرات؛كانت تستغرق زمناً طويلا كان من اللازم أن أن يقوم هؤلاء التجار بتأسيس المحطات والمراكز التجارية التى يعتمدون عليها فى أسفارهم،وعلى هذا النهج قامت عدة مستوطنات عربية على طول تلك الخطوط التجارية التى كانت تطرقها قوافل التجارة العربية[٢] .

---

(١) Pearce, op. cit. P. 113

(٢) Coupland. Exploitation of East Africa p. 5

ولن يكون مجالنا دراسة تلك المستوطنات بقدر ما يعنينا أن نؤكد أنها كانت تعد ولاشك امتداداً لنفوذ وسيطرة سلاطنة زنجبار فى تلك الأنحاء، وانتشار شهرتهم فى أجزاء كثيرة من القارة الافريقية ، وكانت تنمى تلك السيطرة وتدعمها حركة مرور القوافل التى كانت تصل بين هذه المراكز فى طريقها إلى الساحل. كما كان يؤكد تلك السيطرة أيضاً أن الطرق التجارية عبر القارة الافريقية كانت تقع فى أيدى عرب عمان الذين وفدوا مع السيد سعيد للإقامة الدائمة فى زنجبار[١]. غير أنه من الصعب علينا تحديد ممتلكات السلطنة العربية فى داخلية شرق إفريقيا أو فى أواسط القارة بصفة عامة فإن السمة التجارية التى طبعت حكام هذه السلطنة حالت دون قيام فواصل قاطعة تحدد مدى اتساع السلطنة فى الداخل[٢] ، إذ أن سلطنة زنجبار قامت على أسس اقتصادية بحيث كانت لا تعترف بالفواصل طالما كانت عمليات التبادل التجارى قائمة والقوافل تنشط فى تحركاتها من مكان إلى آخر، ولم تكن تحمى تلك الطرق إلا محطات أو مراكز تجارية أنشئت خصيصاً لتسهيل عمليات التبادل التجارى ، وبفضل النشاط التجارى امتد النفوذ الاقتصادى للسلطنة إلى مناطق بعيدة فى الكنغو والبحيرات الاستوائية[٣] .

ومما تجدر الاشارة إليه أن الأنظمة الخاصة التى وضعتها سلطنة زنجبار كانت تتمشى مع إنعاش الناحية الاقتصادية ، إذ كان اتجاهها إلى تنشيط حركة التجارة بين الداخل والساحل عن طريق فرض أقل المكوس الجمركية بالنسبة للتجارة الخارجية بصفة خاصة . ويرجع للسلطنة العربية فى زنجبار فضل تشجيع الزراعة، خاصة زراعة القرنفل وقصب السكر، وذلك باستغلال خصوبة بعض الجزر الإفريقية ، وعلى الأخص جزيرتى بمبا وزنجبار حتى

---

(١) Pearce, op. cit. p. 128

(٢) Coupland, East Africa and it Invaders p.229.

(٣) Colomb, Slave Catching in the Indian Ocean p. 365

أن هاتين الجزيرتين لاتزالان تقومان حتى اليوم بإمداد العـــالم بالقسط الأعظم من استهلاكه من القرنفل ، إذ يبلغ مقدار ماينتجانه مايقرب من ٩٠٪ من الإنتاج العالمى[1] .

وقد حرص سلاطنة زنجبار فى إدارتهم لممتلكاتهم فى شرق إفريقيا على تعيين حكام محليين من أهالى البلاد يدينون لهم بالتبعية والولاء ، وفى بعض الأحيان كان السلاطين يبعثون بحكام من العرب أو السواحلية إلى المقاطعات الداخلية مع إمدادهم بحاميات من الجند تكون بمثابة نواة يحرص الحكام المعينون على تنميتها بأنفسهم ، بشكل يحفظ لهم نفوذهم وللسلطان هيبته . غير أنه من الملاحظ بصفة عامة أن الســـلاطين لم يهتموا بوضع حاميات عسكرية قوية فى مقاطعات الشرق الإفريقى ،ولعل تحقيق الأهداف الاقتصادية التى كانوا يستهدفونها من وراء امتداد ممتلكاتهم هو الذى حال دون قيام نزعات انفصالية فى تلك الممتلكات ،إذ كانت المصالح الاقتصادية والرغبة فى تقدم التجارة وازدهارها تستدعى استتباب الأمن والمحافظة على تبعية المقاطعات الإفريقية إلى السلطنة العربية .

وقد تزايد عدد السكان العرب تزايداً مطرداً خلال عهد السلطنة العربية،وكان هذا التزايد يرتبط ارتباطاً شديداً بموسم هبوب الرياح الموسمية الشمالية الشرقية حيث تصبح جزيرة زنجبار ملأى بالتجار العرب الذين كانوا يفدون من سواحل الخليج والجزيرة العربية ، وكان يستتبع ذلك انتعاش الحركة التجارية إذ تصبح كثير من مقاطعات الشرق الإفريقى فى موسم رائج من الحياة والمعاملات .

---

(١) Coupland, Exploitation of East Africa p. 4
See also Pearce, op. cit p. 122
ومما يذكر أن العرب قد نقلوا هذه الزراعة من جزيرة موريس وكان الفرنسيون أول من أدخلوها إلى تلك الجزيرة عام ١٧٧٠ .
cf. Ruete, Said bin Sultan, pp. 73,74

وكان عرب زنجبار يشكلون الطبقة الارستقراطية إذ كانت تقع فى أيديهم ملكية أكثر الأراضى . ويبدو أن السيد سعيد حرص على أن يكون للعرب ذلك المركز الممتاز إذ تعمد أن يأخذ معه عند انتقاله إلى زنجبار أغنياء العرب وأثرياء التجار[١] .

ويمكننا أن نقسم العرب فى شرق إفريقيا فى عهد السلطنة العربية إلى عرب الحضارمة الذين وفدوا من الساحل الجنوبى للجزيرة العربية، وكانوا يعيشون فى مناطق خاصة بهم ، وكونوا قسما متمايزاً هاماً من السكان العرب، ومنهم من جاء إلى زنجبار بغرض الإقامة الدائمة ؛ وإن كانت أكثريتهم قد وفدت بغرض الكسب والتجارة،وكان كثير منهم يشتغلون فى عمليات النقل البحرى فى موانى الشرق الإفريقى ، وكان هناك أيضاً عرب جزر القمر وإن كان عددهم قليلا بعض الشيء ، ولا يعرف على وجه الدقة أصل أولئك العرب ؛ وإن كان من المحتمل أنهم أتوا من سواحل البحر الأحمر واستقروا فى جزر القمر ، ومن المحتمل أيضاً تسرب الدماء الفارسية إليهم . ثم هناك بالإضافة إلى ذلك عرب الساحل الشرقى لإفريقيا، وهم أولئك العرب الذين استقروا فى سواحل شرق إفريقيا قبل عهد السلطنة العربية،ثم أخيراً عرب عمان،وهم العرب الذين ازدهرت بهم السلطنة العربية فى زنجبار بعد قدومهم إليها[٢] .

ومما تجدر الإشارة إليه أن سيطرة سلاطين زنجبار على ممتلكاتهم فى شرق إفريقيا لم تكن سيطرة حاسمة،ولا شك أن ذلك هو الذى شجع الدول الاستعمارية لكى تنفذ إليها . وقد حاول كثير من سلاطنة زنجبار الامتداد بنفوذهم ؛ من ذلك محاولة السيد سعيد فى عام ١٨٣٢ الزواج من ملكة

---

(١) جمال زكريا قاسم : دولة بوسعيد فى عمان وشرق إفريقيا ص ٢١٨ .

(٢) Pearce, op. cit. pp. 215-218

مدغشقر ولكنه اصطدم بالنفوذ الفرنسى الذى كان عائقاً له عن التوسع جنوباً(١) ، على أنه وإن كان قد أخفق فى مد سيطرته نحو الجنوب فلاشك فى أنه كان أكثر توفيقاً ونجاحاً فى مد سيطرته نحو الشمال ، وإن ظل نفوذه مرتبطاً إلى حد كبير بالدوافع الاقتصادية ؛ إذ نجح السيد سعيد فى ربط الموانى الشمالية فى الصومال بنظامه الاقتصادى ، وفى الواقع أن الهدف الاقتصادى كان هو الهدف الرئيسى الذى سعى إليه سلاطنة زنجبار، ولذلك لم يرتكزوا فى نفوذهم على احتلال عسكرى أو سيطرة مباشرة وعلى الرغم من أنه قد وقعت فى عهد السيد سعيد ، وفى عهد خلفائه من بعده ، كثير من الثورات الداخلية إلا انهم لم يلجئوا إلى قمع تلك الثورات بالقوة خوفاً لما قد يؤدى إليه ذلك من اضطراب العلاقات بشكل قد يعوق التجارة التى كانوا يحرصون على تنشيطها غاية الحرص، ومن ثم كانت معالجة السلاطين لمشكلاتهم الإفريقية تتم غالباً بالطرق السلمية وذلك بهدف ضمان استقرار الحياة الاقتصادية وازدهارها ، وتأكيد سيادتهم الاقتصادية فيما يختص بفرض الضرائب المقررة على التجارة ،وكل ذلك بطبيعة الحال لايمكن أن يتم إلا عن طريق السلم وليس عن طريق القوة أو العنف ،الأمر الذى يجعلنا نميل إلى الاعتقاد بأن سيادة زنجبار على كثير من المقاطعات الإفريقية كانت سيادة اقتصادية أكثر من كونها سيطرة سياسية أو عسكرية .

وكان مما يعزز هذه السيادة الاقتصادية حركة مرور القوافل التجارية من الساحل إلى الداخل والعكس . وقد يكون من المفيد أن نشير هنا إلى أنه حينما نقل السيد سعيد عاصمة حكمه إلى زنجبار انتظمت طرق القوافل التجارية إلى الداخل، وأصبحت زنجبار بمثابة المركز الرئيسى للتجارة . وكانت أهم طرق القوافل الطريق الذى يبدأ من بجمايو أو بانجانى على ساحل

(١) Coupland, East Africa and its Invaders p. 342

شرق إفريقيا فى مواجهة جزيرة زنجبار حيث يمتد على السهل الساحلى صوب الداخل إلى طابورة التى كانت فى الداخل مثل ما كانت عليه زنجبار للساحل بمثابة المركز الرئيسى للتجارة . والثابت أن طابورة قد أسسها تجار من العرب فى عام ١٨٣٠ ، وقد أشار المستكشفان سبيك وجرانت عندما زارا طابورة إلى أنه كان يوجد فيها جالية عربية وبعض الهنود . ومن طابورة كان هناك طريق يمتد فى اتجاه الغرب حتى بحيرة تنجانيقا ؛ بالاضافة إلى طريق آخر يتجه إلى الشمال . وكانت بعض الطرق التجارية تنتهى عند أوجيجى حيث تبدأ منها مجموعة من الطرق الأخرى تصل إلى بونيورو وبوغندا(١) ، ومنذ عام ١٨٥٢ ظهرت سيطرة التاجر العربى سناى بن عامر على الطريق الممتد من طابورة إلى كمبالا .

وبالاضافة إلى الطرق التى كانت تبدأ من الساحل فى مواجهة جزيرة زنجبار ؛ كانت هناك طرق أخرى تبدأ من الساحل المواجه لجزيرة كلوة حتى بحيرة نياسا .

وكان حجم القافلة يختلف طبقاً لطبيعة الطريق الذى تسلكه ، فكان عدد أفرادها لا يتعدى الخمسين رجلا وذلك فى الطرق القصيرة المألوفة ، أما فى الرحلات البعيدة فى الداخل فقد كانت القوافل تتصل بعضها بالبعض الآخر حيث يبلغ عدد أفرادها أكثر من ألف رجل يتقدمها أدلاء وطنيون يحملون رايات حمراء رمزاً لحماية السلطنة العربية فى زنجبار .

وكانت الرحلة من طابورة إلى أوجيجى تستغرق ثلاثة أسابيع ، ولكنها قد تمتد إلى عدة أشهر فى المناطق البعيدة ، كما اعتادت قوافل التجارة أن تبدأ

---

(١) Ruth Slade, King Leopold's Congo pp. 84 ff London, 1962, See also Cenleman, la Question Arabe et Congo p .31 Brussels, 1959.

مسيرتها خلال فترات الجفاف إذ كانت الأمطار تسبب عقبات كبيرة في حركة مرور القوافل .

وبالاضافة إلى حرص سلطنة زنجبار على إنعاش التجارة الداخلية فقد حرص سلاطنة زنجبار، خاصة فى عهد السيد سعيد، على وصل المقاطعات الافريقية التى كانوا يحكمونها بالاقتصاد العالمى،وذلك عن طريق مجموعة من المعاهدات والاتفاقيات التى عقدها أولئك السلاطين مع كل من إنجلترا وفرنسا والولايات المتحدة الأمريكية وبعض الولايات الألمانية التى كانت مشتركة فى اتحاد الهانسا[١] .

ولم يقتصر اهتمام الأوربيين على التجارة أو النواحى الاقتصادية وحدها بل أن الرحلات الاستكشافية والبعثات التبشيرية قد بدأت نشاطها هى الأخرى فى القارة الافريقية ، وتغلغل المبشرون الأوربيون فى مقاطعات الشرق الافريقى منذ منتصف القرن التاسع عشر الميلادى، ونجحوا فى تأسيس عدة مراكز تبشيرية فى الداخل[٢] ، ومن أولئك المبشرين يمكن أن نذكر كرابف Krapf وريبمان Rebmann[٣] اللذان استقرا فى بعض المقاطعات التابعة لسلطنة زنجبار يبشران بالمسيحية . ومن المهم أن نذكر أن كثيراً من المبشرين والمستكشفين لاقوا كثيراً من عناية ورعاية حكام السلطنة العربية فقد ذكر كرابف فى الكتاب الذى وضعه عن شرق إفريقيا مقدار مامنحه له السيد سعيد من تسهيلات ومعونات، وكيف كان يستعين بنفوذه فى التوغل فى مقاطعات الشرق الإفريقى، وفى مباشرة نشاطه التبشيرى حيث أمده السيد

---

(١) Lyne, Zanzibar p. 34 see also F. O. *Zanzibar* p. 41.

(٢) Mona Macmillan, Introducing East Africa. p. 167

(٣) يرجع إلى ريبمان فضل اكتشاف جبل كليمنجارو — انظر المصدر السابق نفس الصفحة،وقد وضع كرابف كتابا هاما عن بعثته التبشيرية فى شرق إفريقيا بعنوان :

**Travels, and Missionary labours in East Africa. London 1868**

سعيد بخطابات توصية للرؤساء التابعين له يطلب فيها منهم أن يعاملوا كرابف أحسن معاملة لأنه رجل يعمل على تحويل الوثنيين إلى معرفة الله، وعلى ذلك ينبغي أن يقدموا له كل مايحتاج إليه من مساعدة(١) . وقد أقام كرابف عدة أشهر في زنجبار، ثم قام بعد ذلك بحركة ارتياد إلى لامو وبلاد الجالا حيث أنشأ هناك مركزاً تبشيرياً استقر فيه بعض الوقت وفي ذهنه آمالا كبيرة(٢) ولكنه، كغيره من المبشرين ، وجد أن الطبيعة كانت أقسى عليه من القبائل الإفريقية المعادية له،ففي خلال بضعة أشهر من إقامته في بلاد الجالا فقد زوجته وابنته وكاد هو نفسه يموت من جراء إصابته بالحمى(٣)، كذلك قام الفرنسيون بدور كبير في النشاط التبشيري في المقاطعات التابعة لسلطنة زنجبار إذ نجحت إحدى البعثات الفرنسية الكاثوليكية في تأسيس مستشفى ومدرستين لتعليم أبناء الزنوج، كما حذا الإنجليز حذو الفرنسيين في ممارسة بعض أنواع من النشاط التبشيري .

وكما لقى المبشرون عناية سلاطنة زنجبار وتشجيعهم فقد لقى نفس هذه المعاملة المستكشفون والرواد الأوربيون الذين قاموا بعملياتهم الكشفية في مجاهل القارة الإفريقية مسترشدين بما أوجده التجار العرب من مراكز ومحطات تجارية في قلب القارة الإفريقية ، وقد نوه ريتشارد بيرتون Burton، وهو واحد من أولئك المستكشفين، أنه بفضل عناية السيد سعيد ورعايته له نجحت بعثته الاستكشافية في شرق إفريقيا(٤) .

---

(١) cf. J. Krapf, Travels, Researches and Missionary labours during an eighteen Years resiednce in Eastern Africa, London 1868 p. 127

(٢) Ibid . p.119

(٣) Coupland, Eeat Africa and its Invaders p. 390.

(٤) Burton, *Z*anzibar, city, Island and Coast Vol 1 p.34

ونحن إذا ماعرضنا لتلك البعثات الأوربية التى اتخذت شكل غزو تبشيرى واستكشافى وما كان قد سبق ذلك من نشاطات اقتصادية قامت بها الدول الأجنبية، ومن وراء ذلك تقع ممتلكات السلطنة العربية، استطعنا أن ندرك جيداً مقدار الخطر الذى كان يتربص بتلك الممتلكات التى حاول السيد سعيد أن يقيم منها امبراطورية عربية فى الشرق الإفريقى، إذ من المؤكد أن تلك الأحلام التى تراءت له لم تصادف ما كانت تستهدفه من نجاح، هذا على الرغم من وضوح رغبته الأكيدة فى وضع دعائم ثابتة لتلك الامبراطورية وانشغاله بها انشغالا كبيراً لدرجة إهماله لشئون ممتلكاته فى الجزيرة العربية والخليج العربى حتى كادت تخرج فى جملتها من بين يديه . ويبدو أن السيد سعيد لم ترعه تلك الحقيقة الواقعة بالنسبة للقسم الآسيوى من ممتلكاته الذى ألف المنازعات والثورات فى الوقت الذى كان مقر الحكم يبعد بضع آلاف من الأميال عنه . ومن المؤكد أن السيد سعيد قد أنس إلى القسم الإفريقى من ممتلكاته فأخذ يحرص، كما أوضحنا، على تنمية موارده واستغلال إمكانياته، بيد أن آمال ذلك الرجل فى تأسيس امبراطورية عربية فى شرق إفريقيا كان من الصعب تحقيقها خاصة فى غضون القرن التاسع عشر ، ذلك القرن الذى شهد تفوق قوة أوربا العسكرية والصناعية ، وشهد هذا الرتل الطويل من المستكشفين والرواد والمبشرين والتجار الأوربيين الذين انتهوا إلى تلك الحقيقة وهى أن هناك أمكنة فى إفريقيا صالحة للاستغلال وأنها قارة جديرة بالامتلاك والسيطرة ، وهكذا شاءت الظروف أن تتصادم رغبة السيد سعيد فى تأسيس امبراطورية عربية فى إفريقيا مع رغبة الدول الأوربية فى السيطرة على تلك القارة واستعمارها واقتسامها فيما بينها . ويمكننا أن نستعير هنا ما ذكره بيرس Pearce فى تعليقه على امبراطورية السيد سعيد أنه ولد متأخراً وفى وقت غير ملائم لتحقيق تلك الآمال التى كان يحرص عليها(١) .

(١) Pearce, op. cit p. 120

على أنه مهما قيل عن فشل السيد سعيد فى المحافظة على ممتلكاته فى الجزيرة العربية ، أو عن فشله أيضاً فى الإبقاء على امبراطوريته فى شرق إفريقيا إلا أننا نستطيع أن نؤكد حقيقة هامة وهى أنه فى خلال السنوات التى قضاها السيد سعيد فى شرق إفريقيا وضح تأثيره فى تلك البلاد تأثيراً ملحوظاً ومعروف أن شهرة السيد سعيد فى العالم الخارجى إنما ترجع إلى حكمه فى زنجبار أكثر مما ترجع إلى حكمه فى عمان ، ولا شك أن النواحى الاقتصادية وما يتبعها من حركة مرور القوافل بين الداخل والساحل كانت من أبرز ما تميزت به سلطنة زنجبار ،وقد أثر عن السيد سعيد قوله إننى تاجر قبل أن أكون سلطاناً ، كما كانت سلطنة زنجبار فى عهـــده ، وفى عهد خلفائه من بعده، عاملا هاماً فى إدخال المؤثرات الحضارية إلى مجاهل القارة الإفريقية ومن المعروف أن توسع السلطنة ظهر واضحاً فى مقاطعات الداخل إلى منطقة البحيرات الاستوائية وحوض نهر الكونغو، وقد حدث ذلك بصفة خاصة فى عهد خلفاء السيد سعيد . والجدير بالذكر أن توسع السلطنة فى الداخل ظل متصلا بالناحية الاقتصادية ، وقد عاصر هذا التوسع صوب الداخل فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر التوسع المصرى فى بلاد السودان وسواحل البحر الأحمر، وامتداده إلى سواحل الصومال، ولا شك أن التوسع المصرى فى إفريقيا فى عهد الخديو إسماعيل ١٨٦٣ — ١٨٧٩ وتوسع سلطنة زنجبار فى عهد خلفاء السيد سعيد ، ماجد وبرغش ترتب عليه ظهور دولتين عربيتين إفريقيتين . وكان من المنتظر لهاتين الدولتين أن تحملا على عاتقهما مهمة نشر الحضارة فى ربوع القارة الإفريقية ، كما كان من المتوقع أيضاً أن تنجح هاتين القوتين فى إنقاذ القارة الأفريقية من تربص الحركة الامبريالية بها ، ولذلك كان الأمر فى اعتقادنا سباق بين الدول الاستعمارية وبين الدول الأفريقية المحلية نحو السيطرة على ما تستطيع كل منها أن تصل إليه من مقاطعات إفريقية .

ولم يكن الاستعمار الأوربى لتخفى عليه الجهود التى كانت تقوم بها كل من مصر وزنجبار، ومن ثم كانت الخطة الاستعمارية تتجه إلى ناحيتين : الأولى هى منع هاتين القوتين من الاتحاد أو التعاون فيما بينهما؛ إذ لو حدث ذلك لأمكن تكوين قوة إفريقية كبيرة قد تستطيع أن تستقطب إليها القوى الأفريقية المحلية وبالتالى تكوين جبهة إفريقية قوية يمكن أن تقف أمام الأطماع الامبريالية التى بدأت تظهر واضحة وتستهدف السيطرة على أقصى ما تستطيع أن تصل إليه من أجزاء القارة الأفريقية ، أما الناحية الثانية فهى العمل على إضعاف هاتين القوتين ، وقد حدث ذلك أولا بالنسبة لسلطنة زنجبار حينما اتجهت الحكومة البريطانية عقب وفاة السيد سعيد فى عام ١٨٥٦ إلى فصل الممتلكات الآسيوية للسلطنة عن ممتلكاتها الأفريقية، إذ انتهزت بريطانيا فرصة وفاة السيد سعيد لكى تستند على ما جاء فى إحدى رسائله التى كان قد بعث بها إلى اللورد أبردين وزير الخارجية البريطانية فى عام ١٨٥٢ من أنه يوصى بتقسيم السلطنة فى عمان وزنجبار بين أكبر أبنائه[١]، وحقيقة الأمر أن السيد سعيد لم يكن يقصد فصل الممتلكات الآسيوية عن الإفريقية فصلا سياسياً تاماً ، وإنما كان كل ما يتجه إليه هو وضع إدارة خاصة لكل من الإقليمين ، نظراً للبعد الشاسع بينهما، ولكن الحكومة البريطانية فى الهند انتهزت فرصة وفاة السيد سعيد لكى تحقق الفصل النهائى بين الإقليمين إذ كانت ترى فى وجود سلطنة كبيرة فى الجزء الجنوبى الغربى من المحيط الهندى خطراً يهدد مصالحها الحيوية على طرق مواصلاتها الامبراطورية إلى الهند ، ولذلك حرصت على تحقيق ذلك الفصل السياسى بين ممتلكات السلطنة، وتنفيذاً لذلك أوفدت فى عام ١٨٦١ لجنة للتحقيق إلى كل من عمان وزنجبار ، وأوصت اللجنة بضرورة فصل الإقليمين، وبناء على تقرير اللجنة أصدر اللورد كاننج Canning ، نائب الملك فى الهند، قراره المشهور بتقسيم سلطنة زنجبار إلى قسمين، على أنه نظراً للفرق

---

(١) يذكر همرتون ، القنصل البريطانى فى زنجبار ، أن السيد سعيد كتب هذه الرسالة إلى بريطانيا لكى يعتمد على تأييدها بعد وفاته فى تنفيذ خطته فى تقسيم السلطنة .

cf. Coupland, Exploitation of East Africa p. 26.

الواضح فى موارد زنجبار وموارد إقليم عمـان، فقد جاء فى قرار التحكيم أن يدفع سلطان زنجبار مبلغاً سنوياً من المال لأخيه سلطان عمان تعويضاً عن الفرق الكبير بين موارد الإقليمين[1]. وفى عام ١٨٧٣ عقدت بريطانيا مع السيد برغش بن سعيد، سلطان زنجبار، معاهدة خاصة بالإلغاء النهائى لتجارة الرقيق من مقاطعات الشرق الإفريقى ، ولما كانت هذه التجارة تدر مبلغاً كبيراً من الأموال، فقد تعهدت بريطانيا أن تعفى سلطان زنجبار من مهمة دفع الإعانة السنوية المقررة لسلطنة عمان حيث تولت هـــذه المهمة عنه ، وهكذا استطاعت بريطانيا السيطرة على كل من السلطنتين ، سلطنة عمان التى أصبحت تعتمد عليها فى مواردها المالية، وسلطنة زنجبار بعد أن أصبح سلطانها يتجه دائماً إلى طلب مساعدتها ليتخلص من المحاولات المتكررة التى كان يبذلها سلاطنة عمان لإعادة توحيد السلطنة تحت سيطرتهم .

ولم يقف الأمر عند حد فصل القسم الأفريقى عن القسم الآسيوى وإنما أخذت بريطانيا وغيرها من الدول الاستعمارية تعمـل على التغلغل فى القسم الأفريقى الذى أصبح سلطنة قائمة بذاتها، وقامت ألمانيا بدور كبير فى هذا الصدد خاصة بعد أن قام جماعة من تجار ألمانيا بتأسيس شركة شرق إفريقيـــا الألمانية التى عهد برئاستها إلى كارل بيترز Karl Peters الذى تمكن من منازعة سيطرة سلطان زنجبار فى داخلية الشرق الأفريقى ، ونجح بالفعل فى عقـد ما يقرب من اثنى عشرة معاهدة مع زعماء القبائل الأفريقية هدف بها بسط نفوذ الشركة الألمانية على المناطق الداخلية من سلطنة زنجبار منتهزاً فرصة ضعف السلطنة وعدم تمكنها من تأكيد نفوذها على أجزائها الداخلية، ونتيجة للنشاط الألمانى المتزايد فى المناطق الداخلية فى السلطنة خشيت بريطانيا على نفوذها فاتفقت الدولتان ، ألمانيا وانجلترا ، فى عام ١٨٨٦ على تشكيل لجنـة لتقسيم المقاطعات الداخلية من سلطنة زنجبار فيما بينهما . وقد أصدرت اللجنة

(١) راجع كتابنا دولة بوسعيد فى عمان وشرق إفريقيا ص ٢٦٤ وما بعدها ، القاهرة ١٩٦٧ .

قرارها الذى كان ينص على أن حدود سلطنة زنجبار تقتصر فقط على جزيرتى بمبا وزنجبار وبعض الجزر الصغيرة المجاورة لهما، بالإضافة إلى شريط ساحلى يمتد عشرة أميال على طول الساحل المواجه ولا يتجاوز امتداده فى الداخل أكثر من ثلاثمائة ميل ومعنى ذلك أن ما يلى هذا التحديد يعتبر غير تابع للسلطنة العربية، وهذه المناطق قسمت إلى منطقتى نفوذ بين انجلترا وألمانيا، كما مكنت انجلترا لإيطاليا السيطرة على بعض سواحل الصومال، التى كانت تتبع كل من مصر وزنجبار .

كذلك نجحت بريطانيا فى هدم الامبراطورية المصرية فى سواحل البحر الأحمر والسودان ومنطقة أعالى النيل، وذلك تمكيناً للحركة الاستعمارية فى إفريقيا، وتطلعاً إلى بسط سيطرتها على هذه المناطق . والجدير بالذكر أن الامبراطورية المصرية كانت قد وصلت إلى أقصى حد لها من الاتساع فى عهد الخديو إسماعيل، على أن هذه الامبراطورية لم تلبث أن بدأت تظهر فيها عوامل الانهيار نتيجة للأزمة المالية التى تعرضت لها مصر مما أتاح الظروف للدول الأوربية وعلى رأسها انجلترا لتفكيك هذه الامبراطورية ثم تصفيتها نهائياً عقب قيام الثورة العرابية بمصر ١٨٨١، والثورة المهدية بالسودان ١٨٨٥، وما ترتب على هاتين الثورتين من احتلال انجلترا لمصر ، وتطلعها بعد ذلك إلى سحب القوات المصرية من السودان ومن غيره من المناطق التى وصل إليها الحكم المصرى حتى تصبح هذه المناطق أرضاً لا صاحب لها No Man's land ومن ثم تستطيع أن تبسط سيطرتها عليها .

وهكذا كانت الدول الأوربية وبخاصة انجلترا تدرك خطورة وجود هاتين القوتين العربيتين الإفريقيتين، مصر وزنجبار، وما يمكن أن يشكلا أمامها من عقبات فى سبيل تحقيق مشروعاتها الاستعمارية فى إفريقيا . ومما لاشك فيه أن هاتين الدولتين الإفريقيتين قد أدركتا ما يمكن أن يترتب على اتحادهما من قوة تمكنهما من مواجهة النفوذ الاستعمارى الذى أخذت تتعرض

له القارة الإفريقية منذ النصف الثانى من القرن التاسع عشر، حتى أننا نلاحظ اتجاهاً للتعاون بالفعل بين هاتين القوتين الإفريقيتين، ثم اتجاهاً آخر للعداء أو على الأقل التوتر الذى حدث بينهما بفعل السياسة البريطانية، إذ حرصت بريطانيا أن توقع بينهما حتى تتمكن من السيطرة على ممتلكات كل منهما بعد تقسيمها وتجزئتها مما يسهل عليها عملية السيطرة هذه .

ولدينا من الوثائق المصرية ما توضح لنا العلاقات التى قامت بين مصر وزنجبار ، وكيف بدأت العلاقات ودية فيما بينهما بهدف تحقيق التعاون والاتحاد بين هاتين القوتين الافريقيتين، ثم كيف توترت العلاقات فيما بينهما بفعل السياسة البريطانية ، فهناك رسالة بعث بها السلطان ماجد بن سعيد سلطان زنجبار فى شهر محرم ١٢٨٢هـ (١٨٦٦) إلى الخديو اسماعيل وسلمها إلى قائد السفينتين المصريتين [ الابراهيمية وسمنود ] بمناسبة مرورهما بزنجبار فى طريقهما إلى مصر، وذلك قبل افتتاح قناة السويس للملاحة، وكانت هاتان السفينتان قد أوصى الخديو اسماعيل بشرائهما من أوربا . وعندما وصلت السفينتان إلى زنجبار أكرم السلطان وفادة قبطانها ومن معه ، وأهداه سيفاً مرصعاً وهدايا أخرى، كما أرسل معه رسالة إلى الخديو رد عليها الأخير برسالة ودية أخرى[١] .

على أن ما يعنينا هنا بصفة خاصة مشروع معاهدة بين مصر وزنجبار ولا شك أن اتجاه سلطنة زنجبار إلى عقد معاهدة مع مصر إنما كان يعد اعترافاً بالنفوذ الذى بلغته ، فمن المعروف أن الحملات العسكرية المصرية كانت منذ عام ١٨٧٠ تصل إلى قلب القارة الافريقية ، لبث النفوذ المصرى بين قبائلها وسكانها ، وكانت تلك القبائل تعامل المصريين بمزيد من الحفاوة والترحيب ، ففى عام ١٨٧٢ وصلت إحدى البعثات المصرية عن طريق

---

(١) اسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار ج ٢ ص ص ٣١٨/٣١٩ .

أوغندة إلى زنجبار ، وهناك استقبلت بترحاب بالغ ، إذ أظهر السكان ميلهم إلى الحكومة المصرية ، وقابل قائد البعثة المصرية برغش بن سعيد ، سلطان زنجبار الذى أكرم مثواه ، وأظهر له شديد رغبته فى مصادقة الحكومة المصرية ، وأنه يريد الاستظلال بالعلم المصرى العثمانى على شرط أن يكون صاحب امتياز يضمن له حقوقه وحقوق أسرته ورعاياه ، وأخبره أنه يخطب باسم السلطان العثمانى فى كل بلاده ، ثم اتفق مع القائد المصرى على مشروع معاهدة تتكون من ستة مواد تنص المادة الأولى على أن تكون سلطنة زنجبار تحت الحماية العثمانيـــة المصرية ، على أن يكون الملك محصوراً بالتوارث بين ذرية السلطان الحالى أو بين أعضاء أسرته بمعنى أن يكون امتياز السلطان فى سلطنته شبيها بامتياز الخديو إسماعيل وأسرته فى مصر ، وتنص المادة الثانية على أن ترسل الحكومة المصرية موظفين من قبلها ليقوموا بتأليف هيئة الحكومة فى زنجبار ، وبتنظيم المالية والجند طبقا للأنظمة المتبعة فى الحكومة المصرية ، ولا يجوز تعيين مصرى لأية وظيفة كانت إذا وجد وطنى يقدر على القيام بها .

وتنص المادة الثالثة على أن ترسل الحكومة المصرية مبعوثين من رجالها الأكفاء ليؤدوا كل النظامات التى تسن فى سلطنة زنجبار بشأن إنشاء نظارات مالية وداخلية وحربية ونظارة معارف ونظارة أشغال ويكون التلاميذ المتخرجون فى مدارس السلطنة مقدمين على غيرهم فى الترشيح للوظائف ، ولا يجوز لمصر أن تطلب عساكر من زنجبار إلا إذا حدثت حرب دينية بين أمير المؤمنين ( السلطان العثمانى ) وعدو آخر فيطلب هو نفسه حينئذ جنوداً من زنجبار . ثم أن علاقات سلطنة زنجبار مع الدول الأجنبية يكون ( عقدها وحلها ) على يد نظارة الخارجية المصرية .

وتنص المادة الرابعة على أنه لا يجوز للحكومة المصرية أن تعين أحداً من الأجانب الغير مسلمين فى سلطنة زنجبار ، أما إذا كان هؤلاء تابعين

للحكومة المصرية فلا بأس من تعيينهم فى الوظائف ، أما المادة الخامسة فقد نصت على أن جميع الأموال التى تجبى من سلطنة زنجبار تنفق فى شئونها وما بقى بعد ذلك يودع فى الخزانة المصرية؛ حيث تكون مصر فى هذه الحالة ملزمة بصرف كل أزمة مالية أو عسكرية تصيب سلطنة زنجبار ، أما المادة السادسة، وهى المادة الأخيرة من مشروع هذه المعاهدة ،فقد نصت على أن تكون المعاهدة سارية المفعول بعد اطلاع خديو مصر عليها وإصدار أمر بقبولها .

لقد عرضنا هذه المعاهدة كى نوضح حقيقة هامة ، وهى إدراك مصر للضغط الأوربى الذى كانت تتعرض له سلطنة زنجبار،فأصبح الأمر إذن كما سبق أن أشرنا بمثابة سباق بين مصر وبين الدول الأوربية فى الوصول إلى ممتلكات السلطنة العربية ، والأمر الذى لا شك فيه أنه إذا ما كان قد قدر لهاتين القوتين العربيتين الافريقيتين ، مصر وزنجبار ، من التعاون فيما بينهما لأمكن بذلك إيجاد جبهة قوية تستطيع مواجهة الضغوط الاستعمارية التى كانت تتعرض لها هاتين الدولتين فى آن واحد ، على أن هذه المحاولة لم يقدر لها شيئاً من النجاح ،إذ تؤكد لنا بعض المصادر التى تناولناها أن غوردون باشا، وكان حينئذ حاكما باسم مصر على مديرية خط الاستواء ، عرقل هذه المساعى فكتب إلى السلطان برغش بن سعيد يحذره من وقوع سلطنته تحت الحماية المصرية،وفى نفس الوقت أوفد إلى الخديو اسماعيل من يخبره بأن سلطان زنجبار يسىء معامله التجار المصريين[1] .

وفى السجلات المصرية (وثائق القلعة) توضيح للعلاقات الودية بين مصر وزنجبار ، كما فيها توضيح آخر لتوتر العلاقات بين هاتين الدولتين ، فنجد مثلا فى محافظ السودان لسنة ١٢٩٢ هـ ( ١٨٧٥ ) بعض الوثائق التى تتناول

---

(١) سرهنك : حقائق الاخبار عن دول البحار ، ج ٢ ص ٣١٩ .

مرور السلطان برغش بن سعيد فى قناة السويس عند سفره إلى إنجلترا لزيارة الملكة فيكتوريا[١] ، وحرصه على البقاء فى مصر عـــدة أيام عقب عودته من لندن ،وعن الهدايا التى قدمت له والتى كانت تتضمن بعض الأسلحة والكتب[٢] ،وعن حضوره احتفال مهرجان جبر الخليج مع الخديو اسماعيل فى عام ١٨٧٥[٣] .

على أننا نجد فى وثائق أخرى بوادر التوتر الذى حدث نتيجة سياسة الخديو اسماعيل فى الصومال ، الذى كان لسلطان زنجبار السيادة على الجزء الجنوبى منه ، وذلك بعد أن حاول الخـــديو اسماعيل تنفيذ مشروعه الخاص بضم البلاد الواقعة جنوب غندكرو بإيجاد طريق يصل بين أوغندة وممبسة، وكان هذا المشروع قد عرضه الضابط الأمريكى شاى لونج Chaille Longue ، وكان يعمل فى خدمة الحكومة المصرية ، على الخديو الذى عرضه بدوره على غوردون باشا حاكم مديرية خط الإستواء ، ويفهم من الوثائق التى تناولناها أن الإنجليز كانوا يعملون على عرقلة المشروع المصرى وذلك بادعائهم المحافظة على حقوق سلطان زنجبار على ساحل الصومال، وقد ظهر ذلك على وجه خاص فى عام ١٨٧٥ عقب نجاح مصر فى الإستيلاء على هرر، وبدأت تمتــــد للسيطرة على ساحل الصومال لتحقيق امتلاكها لمنفذ على ساحل إفريقية الشرقى فى موازاة خط الإستواء

---

(١) وثائق عابدين ( القلعة حاليا ) : صورة التلغراف رقم ١٥٦ بتاريخ ١٨ ربيع الثانى ١٢٩٢ من محافظ السويس إلى المعيه السنية . انظر أيضاً تلغراف رقم ١٧٥ بتاريخ ٢٠ ربيع الثانى ١٢٩٢ من محافظ بور سعيد إلى مهر دار الخديوى .

(٢) انظر محافظ السودان ١٢٩٢ دفتر رقم ٣٢ صورة التلغراف العربى رقم ٩٥ — ٩٩ ، ١٠٩ بتاريخ ٨ رجب ١٢٩٢ من محافظ مصر إلى مهر دار الخديوى .

(٣) وثائق عابدين — دفتر رقم ٣٢ صورة التلغراف العربى رقم ١٠٩ من محافظ مصر إلى سعادة مهردار الخديو .

بهدف إنشاء مواصلات سريعة مع المديريات الاستوائية التى كان قد تم فتحها تكون أسهل وأقصر من مواصلات النيل [1] ، ومن الطريف أن هذا المشروع الضخم الذى عملت إنجلترا على إحباطه كان يشابه من وجوه كثيرة المشروع الذى عملت بريطانيا على تنفيذه فيما بعد ، وان كان ذلك بصورة أخرى حينما عملت خلال الحرب العالمية الأولى على إنشاء سكة حديد كمبالا ممبسة .

والجدير بالذكر أن تفكير مصر فى هذا المشروع يرجع إلى عام ١٨٧١ وكانت آخر محاولة لتنفيذه فى عام ١٨٧٦ ، وقد مرت جميع محاولات تنفيذ ذلك المشروع بتكتم بالغ، كما حرص الخديو اسماعيل على أن يرسل تعليماته إلى قواد حملاته بألا يسيئوا إلى القبائل الإفريقية، وتتضح هذه السياسة فى رسالة بعث بها الخديوى اسماعيل إلى الكولونيل بوردى يطلب فيها منه أن يتبع سياسة معتدلة إزاء القبائل الافريقية، ويذكر فى هذه الرسالة « يجب أن تفهم أن مهمتنا لا يربطها بمهمة تجار العاج والرقيق أى غرض مشترك ، والتجار يجب أن يفهموا أنك لا تذهب للاضرار بمصالحهم »، غير أن هذه المحاولات لم يقدر لها النجاح، ومن ناحية أخرى أن التوسع المصرى فى منطقة البحيرات الإستوائية لم يكن قد استتب بطريقة تسمح بأن يتم هذا الإتصال بين الساحل والداخل ، ولكن فى عام ١٨٧٤ حينما أخذت الممتلكات المصرية تتسع فى جنوب السودان، وأعلن الخديو رسمياً أن البلاد التى حول غندكرو قد دخلت فى حوزة الخديوية المصرية، وعين الكولونيل غردون حاكماً لمديرية خط الإستواء ، عزم الخديو على إرسال تجريدة عسكرية إلى بلاد الصومال الجنوبية لإدخال البلاد الواقعة على نهر الجوبا تحت الإدارة المصرية حتى يمكن وصل ممتلكات مصر فى إفريقية الشرقية بممتلكاتها فى مديرية خط

(١) انظر بصدد ذلك اسماعيل سرهنك: حقائق الاخبار عن دول البحار، ح٢ص٣١٩ القاهرة ١٩٢٣ .

الإستواء، وقد عهد بالقيادة إلى ماكيلوب باشا، رئيس مصلحة المنارات، بدلا من القائد الأمريكى بوردى[١] . وفيما يبدو أن الخديو اسماعيل باسناده قيادة هذه الحملة إلى قائد إنجليزى إنما كان يستهدف من وراء ذلك محاولة استمالة الإنجليز إلى مشروعاته ، وان كان ذلك لم يمنع الخديو من مراقبة ماكيلوب بواسطة شاى لونج الأمريكى ؛ الذى أشركه معه فى قيادة هذه الحملة ، وكذلك بواسطة بعض الضباط والمهندسين المصريين[٢] .

وقد أقلعت هذه الحملة من ميناء السويس فى ١٧ فبراير ١٨٧٥ ، ولما وصلت إلى رأس حفون نزل ماكيلوب باشا ، واستدعى رؤساء القبائل ، وطلب منهم إعلان ولائهم للحكومة المصرية ، فأجابوه إلى ذلك طائعين بعد أن قدم لهم شيئا من الهدايا ، وتم رفع العلم العثمانى، ثم بارح حفون دون أن يترك حامية عسكرية ، وما زال يتقدم ويركز الأعلام المصرية العثمانية حتى وصل إلى براوة شرقى نهر الجوبا ،وكانت تتبع سلطنة زنجبار ، وفيها نزلت القوات المصرية ومعها ماكيلوب الذى استدعى إليه شيوخ القبائل ، فلما حضروا إليه عرض عليهم أمر الاتحاد مع مصر ، وأفهمهم ما فى ذلك من الفوائد لهم فأجابوه بالقبول بسبب ماوجدوه من عظمة القوة المصرية التى هالتهم وأدهشتهم بحركاتها الحربية التى أجرتها أمامهم ، وقد ترك ماكيلوب حامية فى المدينة ومحافظ لها ، ثم تقدم حتى وصل إلى مصب نهر الجوبا وأراد السير فيه ، إلا أن الأمواج صدته وغرقت بعض المراكب والعساكر ، ولما أخذ ما يلزم من مياه الشرب عاد إلى قسمايو، التى سميت فى الخريطة التى وضعها ضباط أركانحرب الجيش المصرى باسم بور اسماعيل، التى اندهش أهلها لما رأوا هذه

(١) راجع بحث بوردى عن هذه البعثة بمجلة الجمعية الجغرافية بمجموعة (١) عدد ٨ ص ٥ والخرائط الملحقة به .

(٢) محمد صبرى : تاريخ الامبراطورية السودانية فى القرن التاسع عشر ص ص ٢٩ — ٣١ — القاهرة ١٩٤٨ .

التجريدة وأقبلوا فى زوارقهم سائلين من أين أنت، وما المقصود من حضورها؟ وقد أجابهم ماكيلوب بأن القصد اكتشاف نهر الجوبا .

ويستدل من المصادر التى تناولناها أن الغرض الأساسى من حملة الجوبا بالإضافة إلى تحقيق كشف المنطقة ،هو محاولة الوصول إلى منطقة البحيرات الاستوائية(١). والجدير بالذكر أن حملة الجوبا كانت تنتظر اتصال الكولونيل غردون بها ، ولكنها قضت فترة طويلة دون أن تتلقى منه أى اتصال ، وفيما يبدو أن غردون تعمد إهمال الاتصال بهذه الحملة، نتيجة تعليمات وصلت إليه من الحكومة البريطانية ، وقد أكد هذا الرأى شاى لونج ، على أن مراسلات غردون مع الخديو اسماعيل تؤكد أن فكرة ربط المناطق الاستوائية بساحل شرق إفريقيا قد نبتت أساساً فى ذهن غردون ، وذلك بعد تأسيس عاصمته الأولى فى مديرية خط الاستواء فى إقليم اللادو؛ إذ اقترح غردون على الخديو أن يرسل قوة مؤلفة من مائة وخمسين جندياً فى باخرة إلى خليج ممبسة الذى يقع على مسافة مائتى وخمسين ميلا شمالى زنجبار ، وأن يؤسس مركزاً يمكن الوصول عن طريقه إلى الداخل حتى بلاد المتيسا ، وكان من رأى غردون أن احتلال ممبسة يعطى لمصر فرصة السيطرة على الأقاليم الغنية فى إفريقيا الوسطى ، كما كان يرى أن هذه الخطة لن تجد معارضة من قبل الإنجليز بل كان يعتقد أنه من الممكن للخديو اسماعيل أن يتوقع مساندة من الحكومة البريطانية ، وخاصة من قبل الأسطول الإنجليزى الرابض فى زنجبار؛ مؤكداً أن مشروع ممبسة هو الطريق الوحيد لفتح المناطق الاستوائية لأنه لا يمكن التغلب على المواصلات البطيئة والصعاب الطبيعية بين الخرطوم واللادو . وعلى الرغم من أن غردون كان يدرك جيداً الصعوبات السياسية التى تعترض تنفيذ هذا المشروع ، خاصة حينما ضم الإنجليز ميناء ممبسة

---

(١) Shoukry, Equatoria Under Egyptian Rule p. 4

للسلطان برغش بن سعيد ، إلا أنه رأى أن يستبدل ذلك الميناء بخليج فرموزا . وفى الواقع أننا نجد فى مراسلات غردون إلى الخديو محاولة لتبرير مواقفه ، وكثير من هذه المواقف لا يخلو من تناقض واضح ، ولذلك فنحن أميل ما نكون إلى ما ذكره شاى لونج فى محاولة غردون القضاء على المشروع المصرى؛ خاصة وأن الوثائق المصرية تسجل لنا صحة ما ذهب إليه لونج فى اعتقاده هذا[١] . ففى برقية سرية مؤرخة فى ٩ محرم ١٢٩٢ ( ١٨٧٥ ) من الخديو اسماعيل إلى شاى لونج جاء فيها « بخصوص اتخاذ الطريق الموصل من ممبسة إلى محل إقامة العساكر بقرب الملك متيسه لأجل الحصول على البلاد الكائنة بجنوب كندكرو حيث أن هذه المسألة يقتضى الوقوف فيها على أفكار ومعلومات غردون باشا فيقتضى مذاكرتكم والوقوف على حقيقة آراءه ومعلوماته ، وذلك مع أخذ التقارير والتعليمات التى تختص بهذه المسألة منه بحيث تكون مستوفية،وتكون هذه المسألة سرية بينكم وبينه دون أن يشعر بها أحد[٢]» . كما بعث الخديو إلى غردون باشا يطلب منه التعاون مع شاى لونج وإمداده بمعلومات عن المنطقة، كما طلب منه الخديو أن يأتى إلى القاهرة ومعه كافة التقارير والخرائط والرسومات الخاصة بهذا الموضوع لفتح الطريق من البحيرات الاستوائية إلى المحيط الهندى . ولكن من المؤكد أن غردون أهمل عن عمد الاتصال بشاى لونج وبعث إلى الخديو يقول « إنه من المستحسن أن تترك الفكرة بافتتاح السكة إلى البحر المالح مؤقتاً لأنه باطلاعنا على الفرمانات وجدنا أن الإنجليز أخذوا ممباز ( ممبسة) لأجل إعطائها إلى سلطان

---

(١) ذكر شاى لونج أن الغرض لم يكن مجرد كشف وإنما محاولة الوصول إلى منطقة البحيرات الاستوائية ، وكانت الحملة تنتظر اتصال غردون بها بهذا الشأن ولكنها لم تتلق أى اتصال من الخديو ، ويبدو أن ذلك كان نتيجة لوصول تعليمات من الحكومة البريطانية إلى غردون توجب عليه عدم التعاون مع الحملة ، وفى الواقع أننا نجد فى وثائق عابدين ما يؤيد هذا الاعتقاد .

(٢) محافظ السودان ١٢٩٢ دفتر ٢١ عابدين صورة التلغراف العربى .

زنجبار ، وما دام أخذوها فلا يمكن لنا فيها مدخل » ، ويقترح على الخديو أن يعدل عن هذا المشروع ويستعيض عنه بمشروع آخر وهو المشروع الذى يوصل المنطقة بطريق النيل ، «وأن فتوح السكة لحد البرك أمر مهم جداً »(١) .

وبينما كانت الحملة المصرية تنتظر اتصال غردون بها بلا جدوى بدأت الحملة المصرية تتعرض لضغط الإنجليز عليها . وتسجل الوثائق المصرية أن الإنجليز تدخلوا فى هذه المناطق باسم سلطان زنجبار ، على الرغم مما حاولته الحملة المصرية من أن تتحاشى بقدر الإمكان التعدى على المناطق التى تظهر فيها السيادة الواضحة لسلطنة زنجبار ، ولكن رؤساء القبائل كانوا يخشون على مراكزهم من الحملة المصرية ، ومن المؤكد أن الدعاية الإنجليزية كان لها أثر فى ذلك ؛ فعلى الرغم من أن رؤساء القبائل قد أعلنوا ترحيبهم بالحملة المصرية فى بداية الأمر ، إلا أنهم لم يلبثوا بعد ذلك أن بعثوا إلى السلطان برغش بن سعيد سلطان زنجبار يحذرونه من أن الحكومة المصرية تريد الاستيلاء على بلادهم ، كما أن قبائل براوة حاصرت محافظ براوة المصرى هو ومن معه من الجنود . وتكشف بعض الوثائق أن قائد الحملة المصرية بعث يشترى فحماً لوقود السفن من زنجبار ، وهذا مما يثبت لنا أن المناطق التى استولت عليها الحملة المصرية فى ساحل الصومال الجنوبى لم تكن تحت التبعية المباشرة لسلطنة زنجبار . وقد طلب سلطان زنجبار من قائد السفينة التى ذهبت لشراء الوقود، بعد أن أجابه إلى طلبه ،ضرورة مغادرة هذه المناطق قبل أن يتفاقم الأمر ، وقد رد عليه قائد السفينة بأن القوات المصرية لا تفكر فى احتلال هذه المناطق ، وإنما قدمت فقط لاكتشاف تلك الجهات

---

(١) محافظ السودان ١٢٩٢ — صورة التلغراف العربى — الشفرة رقم ٢٢٩ ص ٣٩ من مأمور جهات خط الاستواء إلى خيرى باشا فى ٨ ربيع الثانى ١٢٩٢ هـ

ولكن السلطان ألح عليه بضرورة الانسحاب ؛ وإلا فإنه سيعلم انجلترا بما حدث ، لأنه هو وبلاده تحت حمايتها . وبطبيعة الحال لم تكن الحكومة البريطانية فى حاجة إلى أن يطلعها سلطان زنجبار على التحركات المصرية إذ أسرع القنصل البريطانى فى زنجبار، الدكتور جون كيرك، بإرسال قوة عسكرية بريطانية إلى براوة للوقوف على حقيقة الأمر ، كما تقابل مع ماكيلوب باشا قائد الحملة المصرية الذى كان قد تمكن من فك حصار القوات المصرية فى براوة وأعاد الأمن إلى المدينة . وقد رد الخديو على إنذار الحكومة البريطانية بأنه حين أرسل هذه الحملة كانت تحدوه فكرة قمع تجارة الرقيق ، ولم يكن يقصد منها التعدى على ممتلكات زنجبار ، وتبع ذلك أن أصدر الخديو أوامره بسحب الحملة من براوة إلى قسمايو ، على أنها لم تلبث بعد ذلك أن عادت إلى السويس فى يناير ١٨٧٦ . وهكذا تنتهى حوادث حملة استكشاف الصومال الجنوبى خاصة بعد أن تم توقيع الاتفاقية الإنجليزية المصرية المتعلقة بقمع تجارة الرقيق فى عام ١٨٧٧ . والجدير بالذكر أن الخديو آثر عدم التصادم مع الإنجليز ، ومن ناحية أخرى يفهم من التقرير الذى أعده فردريجو باشا مفتش عموم وابورات البوستة الخديوية، الذى كان قد أوفده الخديو للتفتيش على النقاط التى احتلتها هذه الحملة، بأن المواصلات بين هذه النقاط صعبة للغاية ولذلك طلب الخديو من ماكيلوب الانسحاب ، خاصة وأن بريطانيا لم تكن ترحب بوصول الحملة المصرية إلى هذه المناطق[1] .

---

(١) توجد فى سجلات وزارة الخارجية البريطانية عدة ملفات فى الفترة من ١٨٢٥ — ١٨٧٧ تسجل الادعاءات البريطانية والمصرية فى البحر الأحمر وسواحل الصومال بعنوان :

Claims to Sovereignty in Red Sea, Africa and Arabia (Somali Coast ).

كما توجد مذكرة هامة مؤرخة فى مارس ١٨٧٤ وضعها هرتزلت Hertzlet بعنوان :

Memorandum on the Turkith claims to Sovereignty Over the eastern Shores of the Red sea and the Whole of Arabia and on the Egyptian Claim to the whole of the western Shores of the Same Sea including the African Coast from Suez to Guardafui cf Equatoria p. 69.

وقد يكون من المناسب أن نعرض فى هذا المجال لتقرير عن حوادث مأمورية سواحل إفريقيا الشرقية ؛ لما ترتب على هذه الحوادث من علاقة بين مصر وزنجبار. وهذا التقرير مقدم من عبد الرازق بك رئيس أركان حرب المأمورية وناظر المدرسة الحربية، وهو مؤرخ فى ٨ ذى القعدة سنة ١٢٩٢ ( ٦ ديسمبر ١٨٧٥ ) ،ويحتوى هذا التقرير على ثلاث وقائع هامة مرتبطة بعضها بالبعض الآخر ، وهى توضح لنا التطورات التى مرت بها حملة الصومال الجنوبى، ويمكننا إبراز هذه الوقائع الثلاث على الوجه الآتى :

الواقعة الأولى : وهى توضح أن ماكيلوب باشا وفريدريجو باشا والكولينول وورد بك قاموا على رأس قوة لاستكشاف جهتى لامو وفور،وزا فى طريق ممبسة ، وأن أحد أمراء جزر القمر أخبر البعثة المصرية بوجود معدن الفحم الحجرى والنحاس غربى ممبسة، وأن أهالى تلك الجهات يودون التتبع للحكومة المصرية .

والثانية : أن الأمير محمد بن السلطان عبد الله سلطان جزيرة خزوان أبدى رغبته فى التتبع للحكومة المصرية ، وقد حمل معه كتاباً من سلطان جزيرة القمر يبدى فيه نفس هذه الرغبة

أما الواقعة الثالثة فتتضمن وصول كتاب من قومندان براوة جاء فيه « إنه بتاريخ ٢٩ نوفمبر ١٨٧٥ وصلت سفينة حربية إنجليزية بالقرب من براوة ، وأن قومندان السفينة بصحبة أحد قناصل الإنجليز وبعض الجنود حاولوا النزول إلى البر ولكن اليوزباشى قومندان براوة أفهمهم أنه لا يستطيع[1] الإذن لهم بإنزال جنود مسلحين على أرض تابعة للحكومة المصرية » .

والجدير بالذكر أن بريطانيا استغلت حركة مكافحة تجارة الرقيق للسيطرة على الموانى التابعة لمصر وزنجبار فى سواحل شرق إفريقيا . غير

---

(١) محافظ السودان — من مأمور جهات خط الاستواء إلى خيرى باشا ٨ ربيع الثانى ١٢٩٢ هـ .

أن مايعنينا أن نؤكد هنا أن وصول القوات المصرية إلى ساحل الصومال الجنوبى كان محاولة من جانب مصر لكى تسبق انجلترا فى السيطرة على هذه المناطق التى لم تكن تابعة لسلطنة زنجبار تبعية فعلية ، ومع ذلك فقد أوعزت إنجلترا للسيد برغش بن سعيد بأن يحتج على احتلال مصر لهذه المناطق ، وبادرت من جانبها إلى تأييده وحملت الخديو على التراجع عن هذه الحملة ، واضطرت مصر إلى الانسحاب دون أن تنفذ مشروعها الحيوى الذى كان يقضى باتصال سواحل إفريقية الشرقية بمنطقة البحيرات الاستوائية وتدعيم النفوذ المصرى فى سواحل جنوب الصومال المواجهة للمديريات الاستوائية ومنطقة أعالى النيل[1] .

وعلى الرغم من أن اتفاقية منع تجارة الرقيق التى وقعتهـــا مصر مع انجلترا فى عام ١٨٧٧ قد نصت على اعتراف انجلترا بسلطان الخديوية المصرية على بلاد الصومال حتى رأس حفون، إلا أنها اشترطت تعهد الخديو بعدم التنازل لأية دولة أجنبية عن أية قطعة من هذه البلاد، وتخويل الحكومة البريطانية حق تعيين قناصلها فى الموانى الواقعة على سواحل الصومال التابعة لمصر .

وتشير الوثائق المصرية إلى الدور الحضارى والعمرانى الذى حاولت أن تقوم به الحملات المصرية فى سواحل إفريقيا الشرقية التى وصلت إليها ، ففى تقرير بعث به رضوان باشا إلى مهردار الخديو بتاريخ ١٨ شوال ١٢٩٢ ( ١٧ نوفمبر ١٨٧٥ ) يعرض فيه بعض الأعمال التى قامت بها البعثة المصرية فى منطقة نهر الجوبا وخاصة من الناحية الزراعية ، كما جاء فى التقرير وفرة الأشجار على ضفاف النهر وأن خشبها يشبه الخشب الذى يستورد من تركيا ويطلب التقرير إرسال حطابين ونجارين وبنائين لتشييد بيوت من الحجر، وفى وثيقة أخرى بعث بها ماكيلوب باشا فى ١٢ ديسمبر ١٨٧٥ إلى مهردار الخديو يذكر فيها أن عبد الرازق بك يطلب أكثر من ثلاثمائة من جميع

(١) Coupland, R. Exploitation of East Africa p. 285 ff.

الحرفيين والمهنيين فى مصر لترقية المدائن . وكان عبد الرازق بك قد قام باكتشاف منطقة نهر الجوبا ، كما سبق أن أشرنا ، وإن كانت انجلترا لم تمهله لإتمام مشروعاته ، كما لم تمهل الحملة المصرية لتنشر الحضارة فى هـذه الربوع المتعطشة إليها[1] ، غير أن الأمر الذى لاشك فيه أن الإدارة المصرية فى سواحل الصومال قد أشاعت الأمن يدل على ذلك خضوع مشايخ قسمايو وبراوة وترحيبهم بالإدارة المصرية[2] .

إن العلاقات بين مصر وزنجبار فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر لاتزال تحتاج إلى مزيد من الدراسة والإيضاحات التفصيلية، خاصة وأن الدور الذى لعبته الدولتان كان متشابهاً من حيث اتجاههما إلى نشر الحضارة فى أواسط القارة الإفريقية ، كما أن المصير الذى آلت إليه ممتلكات هاتين الدولتين كان متشابهاً أيضاً من حيث وقوعهما تحت السيطرة الاستعمارية، إذ يسجل لنا عام ١٨٨٦ تقسيم ممتلكات سلطنة زنجبار بين القوى الاستعمارية انجلترا وألمانيا وإيطاليا. مع ملاحظة أن ذلك التقسيم قد تم بعد إجبار مصر على الانسحاب من سواحل الصومال، وبالتالى انفسح المجال أمام الدول الاستعمارية لاجتياح القارة واقتسام مناطقها فيما بينها، وذلك بعد أن أمضت تلك الدول النصف الأول من القرن التاسع عشر فى محاولات دائبة لاستكشاف القارة الإفريقية ونجاح كثير من المستكشفين والمبشرين الأوربيين فى تمهيد السبيل لدولهم لاستعمار القارة ، وليس من شك فى أن عمليات الكشف والتبشير لم يكن مقدر لأصحابها النجاح لولا اتخاذهم من المراكز التجارية الحضارية التى أقامها العرب ركائز استطاعوا بواسطتها تحقيق غاياتهم والتمهيد للحركة الامبريالية

---

(١) محمد صبرى : مصر فى إفريقيا الشرقية ص ص ٥٧ — ٥٨ .

(٢) انظر وثائق حملة الصومال الجنوبى فى كتاب الدكتور شوقى الجمل : الوثائق التاريخية لسياسة مصر فى البحر الاحمر ص ص ١٥٤ — ١٦٦ .

التى شهدتها القارة الإفريقية فى السنوات الأخيرة من القرن الماضى .

ومما تجدر الإشارة إليه أن تأثير سلطنة زنجبار الحضارى لم يقتصر على مقاطعات الساحل الشرقى من القارة الإفريقية،وإنما كان لهذه السلطنة دورها الواضح فى تسليط الأضواء على المقاطعات الداخلية خاصة فى حوض الكونغو وهضبة البحيرات الاستوائية، حيث احتك عرب زنجبار بشعوب هذه المناطق وقبائلها؛ فمما لاشك فيه أنه قبل أن تلتقى الشعوب الإفريقية من قبائل البانتو التى تسكن بين لوالابا والبحيرات العظمى بالأوربيين كان لهذه الشعوب سبق اتصال بالتجار العرب من الشرق ، إذ كان العرب يأتون من الساحل الشرقى لإفريقيا بحثاً عن الذهب والعاج والرقيق ، كما كان الساحل الشرقى لإفريقيا بمثابة نقاط تجمع للموارد الإفريقية ، ولذلك كانت موانئه ومدنه أسواقاً تجارية رئيسية فى الجزء الغربى من المحيط الهندى .

وفى البداية كان التجار العرب يتعاملون مع القبائل الإفريقية التى كان رؤساؤها يتجهون إلى الساحل بقصد التعامل مع العرب ، وغيرهم من العناصر الأخرى التى كانت تفد على الساحل الشرقى لإفريقيا،ولكن بمضى الزمن بدأ تجار العرب يتوغلون فى الداخل حيث كثرت الجاليات العربية فى كثير من المقاطعات الافريقية ، وإن كان من المآخذ التى نأخذها على تلك الجاليات عدم عنايتها بالنواحى السياسية أو التنظيمية من حيث إخضاع المناطق التى آلت إليها فى أواسط القارة لادارة سياسية يمكن أن ترتبط بالسلطنة من الناحية السياسية أو التنظيمية . وتفسير ذلك القصور فى اعتقادنا يرجع إلى أن العرب كانوا تجاراً بطبيعتهم ولذلك انصرف اهتمامهم إلى التنظيم الاقتصادى . حقيقة أن هناك جماعات عربية كانت تستقر فى منطقة من المناطق وتحكمها بالفعل، ولكن مع ذلك كانت هذه التحركات العربية تتميز بأنها ذات طابع تجارى بسبب ما كانت تتصف به من عدم استقرار، ولهذا عندما وصل الاستعمار إلى المناطق الداخلية فشل العرب فى مقاومته ، لأن النشاط

العربى افتقر إلى التنظيم السياسى أو العسكرى ، وبمعنى آخر اختلف النشاط العربى عن الاستعمار الأوربى فى أن الاستعمار الأوربى كان يضع يده على مساحات واسعة من الأراضى ، ويضع فيها حامية وقلاعاً مسلحة فضلاً عن معاهدات أو اتفاقيات كانت الدولة الاستعمارية تحرص على عقـــدها مع الزعماء الافريقيين لتعطى استعمارها صفة ( المشروعية ) ، والأهم من ذلك فإن الجماعات الأوربية المستعمرة التى وصلت إلى المناطق الداخلية كان من ورائها دول قوية مستعدة لتأييدها وحمايتها ؛ أما العرب فمن كان وراءهم؟ حقيقة كانت هناك السلطنة العربية فى زنجبار ، ولكن أين هذه السلطنة من الدول الاستعمارية الكبرى كانجلترا وألمانيا وفرنسا وإيطاليا وغيرها ؟ هذا بالاضافة إلى ما كانت تتعرض له السلطنة العربية من عوامل الانهيار والتفكك من قبل هذه القوى الاستعمارية .

وعلى الرغم من قصور العرب فى تنظيماتهم العسكرية والسياسية إلا أنهم نجحوا نجاحاً كبيراً فى تنظيماتهم الاقتصادية ، خاصة فيما يتعلق بإيجاد خطوط منتظمة من القوافل التجارية التى كانت تصل بين الساحل والداخل ، كما أنهم أسسوا على طول طرق القوافل مراكز تجارية نمت وازدهرت وغدت من الوسائل الهامة التى اعتمد عليها العرب فى نشر نفوذهم فى الكونغو وأواسط إفريقيا . ففى عام ١٨٣٠ أسس التجار العرب مركزاً تجارياً هاماً فى طابورة وبعد ذلك بعشر سنوات امتد النشاط العربى إلى بحيرة تنجانيقا ، ونجح التجار العرب فى تأسيس مركزاً تجارياً هاماً فى أوجيجى ، ثم عبروا بحيرة تنجانيقا حتى وصلوا إلى إقليم المانيا ، واستقرت جماعات منهم فى اللوالابا وبدأوا يسيطرون على منطقة البحيرات الاستوائية سيطرة اقتصادية معتمدين على القبائل الافريقية فى نقل العاج إلى الساحل ، كما كان شيوخ الباتتو يبيعون أسراهم من أفراد القبائل التى كانوا يغيرون عليها للتجار العرب على سبيل التبادل التجارى .

ويلاحظ أن العرب قد صادفوا في توغلهم في الداخل مجتمعات بدائية، كما صادفوا أيضاً مجتمعات نظامية ، وفى المجتمعات البدائية كان حظ العرب من الاستقرار والتنظيم أوسع حظاً من علاقتهم بالجماعات القوية المتماسكة خاصة فى أوغندة وأوزمبارا، ورغم توغل النفوذ العربى فى هذه المناطق الذى وصل إلى حد سيطرة العرب الاقتصادية وتقلدهم لبعض الوظائف، إلا أن السيادة العليا استمرت بأيدى الزعماء الافريقيين ، والجدير بالذكر أنه فى الفترة من ١٨٦٠ إلى ١٨٨٠ امتد نفوذ ميرامبو ، رئيس أنياموزى ، على الطريق الرئيسى للقوافل العربية ؛ مما عرضه لمنافسة شديدة مع العرب في طابورة وأوجيجى ومع ذلك كان التنظيم الذى أقامه ميرامبو قوياً إلى الدرجة التى مكنته من المحافظة على نفوذه فى تلك المناطق .

وينبغى أن نشير هنا أن كثيراً من المصادر الأوربية تعطى للقارىء انطباعاً مؤداه أن النشاط العربى فى داخل إفريقيا كان يستهدف فى الدرجة الأولى عمليات التسلط والاستغلال فضلا عما كان يتميز به من القسوة(١) . ولكن الدراسة المنصفة والموضحة للحقائق تستطيع أن تدفع هذه الاتهامات جانباً ، ويمكن الرجوع بصدد ذلك إلى كتابات الرحالة والرواد الأوربيين الذين وصلوا إلى المناطق التى وصل إليها العرب؛ وقد اعترف كثير من أولئك الرواد الأوربيين، من رحالة ومبشرين ومستكشفين، بأن العرب كانوا عنصراً هاماً من العناصر التى حملت لواء الحضـــارة إلى أواسط القارة الافريقية ومجاهلها. فقد نظم التجار العرب قوافل التجارة، ووصلوا بها إلى مناطق بعيدة كما أقاموا مستودعات لخزن بضائعهم، ولم يحاولوا فى كثير من الأحيان إخضاع القبائل الافريقية بالقوة أو التسلط عليهم عن طريق السيطرة على أراضيهم وإنما حرص العرب على توثيق العلاقات التجارية بينهم وبين زعماء القبائل

---

(١) Ruth Slade, King Leopold's Congo pp. 84 ff London 1962.

الافريقية والتعامل معهم فى حدود هـذه العلاقات ، كما ينسب إلى العرب ادخالهم زراعة الأرز وقصب السكر وغيرها من الزراعات التى عرفوها ، من الهند وجزر المحيط الهندى .

ومن الأوربيين المنصفين الذين نوهوا بدور العرب الحضارى فى إفريقيا يمكن أن نذكر جيروم بيكر وأدولف بوردو ، وقد ركز الأخير على الجهود الزراعية التى قام بها العرب فى سهل طابورة ، فذكر أنهم أحلوا الأمن بدلا من الفوضى والاضطراب ، وأن كثيراً من قبائل البانتو قنعت بالعيش حول المراكز التى أنشأها العرب ، وتحت حمايتهم [١] .

وقد يكون حقيقة أن العرب توغلوا فى الداخل قبل تأسيس السلطنة العربية فى زنجبار خلال العقد الرابع من القرن التاسع عشر ، وقد يكون حقيقة أيضاً استخدام العرب للطرق التجارية قبل عهد سلطنة زنجبار ، لكن الذى لاشك فيه أنه منذ تأسيس تلك السلطنة بدأ التقدم العربى فى داخل إفريقيا يحرز تقدماً ملحوظاً ، إذ يؤكد لنا ريتشارد بيرتون Burton ، وهو واحد من رواد الحركة الكشفية فى إفريقيا فى خلال النصف الثانى من القرن التاسع عشر الميلادى ، عن تقدم التجارة العربية فى داخلية القارة الإفريقية كما عدد لنا المراكز التجارية التى أوجدها العرب فى كل مكان تنقل إليه فى مقاطعات الداخل . ويذكر بيرتون أن التجار العرب كانوا أول من وصلوا إلى أوجيجى فى عام ١٨٤٠ ، كما تتبع بيرتون خط القوافل الذى أنشأه العرب من بجمايو إلى أوزانجا ومنها إلى أوجيجى على بعد مائة ميل صوب الجنوب ، وتحدث بيرتون عن أوجيجى فذكر أنها كانت مركزاً رئيسياً للتجارة العربية ، وكانت قوافل التجارة من طابورة تذهب وتأتى إليها ،

---

(٢) Burton, R, Lake Region of Central Africa, Vol I p. 324 London 1860.

كما أوجد العرب مركزاً استيطانياً لهم فى جاز نجا، كما توغلوا على طول طرق القوافل التى امتدت من أوجيجى إلى رواندا إلى بو نيورو، ومن طابوره إلى فيكتوريا نيانزا ، وذكر بيرتون أن أحد تجار العرب المولدين من أب عربى وأم إفريقية، وهو سناى بن عامر، سيطر فى عام ١٨٥٢ على المنطقة الممتدة من طابورة إلى كبالا فى إقليم بوغندة[١] .

ويعتقد المؤرخ البريطانى السير ريجنالد كوبلند Coupland، وهو أحد الباحثين المعروفين فى تاريخ شرق إفريقيا ، أن هذا الارتياد الذى قام به العرب من أجل التجارة يشكل أولى المحاولات الكشفية المناطق الداخلية من إفريقيا وقامت هذه المحاولات على أيدى الجماعات التجارية العربية من أجل بحثها عن العاج والرقيق فى داخلية القارة الافريقية .

حقيقة أن الجماعات العربية فى الداخل لم تمكن تعترف لسلطنة زنجبار إلا بالسيادة الإسمية؛ إلا أننا نلحظ مع ذلك وقت قوة السلطنة؛ خاصة فى عهد السيد سعيد بن سلطان وبرغش بن سعيد، أن المناطق الداخلية كانت تعترف بسيطرة السلطنة عليها ، كما توضح لنا التقارير التى كان يبعث بهـــا الرواد والمبشرون الأوربيون إلى الجمعيات التبشيرية أو الجغرافية الموفدون من قبلها إلى أهمية خطابات التوصية التى كانوا يحرصون على الحصول عليها من سلطان زنجبار لأن عرب الداخل ، وغيرهم من رؤساء المقاطعات الافريقية، كانوا يحترمون الأوامر التى تصدر إليهم من حكام السلطنة العربية فى زنجبار[٢] .

أما من حيث معاملة عرب الداخل للرحالة الأوربيين فقد تحدث عنها هؤلاء وأكدوا أن التجار العرب الذين استقروا فى مقاطعات الداخل كانوا

---

(١) Zoe Mareh, op. cit. p. 116 – 117.

(٢) Coupland, East Africa and It's Invaders p. 307 London 1954.

يقدمون لهم كل ما يستطيعونه من رعاية . ويؤكد لنا الرحالة سبيك Speke أن الرحلة من طابورة إلى أوجيجى، على الرغم من أنها لم تكن تتجاوز مائة ميل، إلا أنها كانت تقطع فيما لا يقل عن خمسة وعشرين يوماً ، وكانت المحطات التجارية التى أوجدها العرب هى المعالم الرئيسية على الطريق . وقد تحدث سبيك بصفة خاصة عن المحطات التجارية التى أنشأها العرب فى سنا وذكر أنه قضى بضعة أيام فى منزل الضيافة التابع للشيخ سناى بن عامر، وتمتع بالكرم العربى الأصيل ، وأكد أنه بوجوده وسط جماعات عربية شعر أنه يعيش فى بلاد متحضرة(١) .

أما المبشران كرابف ورفيقه ربمان، فقد اعتمدا فى عملياتهما الاستكشافية والتبشيرية على قوافل التجارة العربية ، حيث نجحا فى الوصول إلى كثير من مقاطعات شرق إفريقيا إذ كانا أول من وصلا من الأوربيين إلى جبال كينيا وكليمنجاور ، وأول من تحدثا ، من الأوربيين، عن وجود بحيرات كبيرة فى أواسط القارة كان العرب يعرفونها من قبل(٢) .

وفى عام ١٨٤٤ استفاد ميزان، وكان ضابطاً من ضباط البحرية الفرنسية من تقارير كرابف وربمان، فى التوغل فى الشرق الأفريقى، ونجح فى الوصول إلى منطقة البحيرات العظمى، وقد اتخذ طريقه من جزيرة البوربون الواقعة فى الجنوب الغربى من المحيط الهندى، وعندما وصل إلى زنجبار قدم له السيد سعيد الكثير من العون والمساعدة، وإن كان ميزان قد رفض أن يستصحب معه قوة عسكرية مكتفياً ببعض الأدلاء العرب العارفين بالطرق والمسالك الموصلة من الساحل إلى الداخل، وبمساعدة أولئك وصل ميزان إلى بجمايو ومنها إلى مقاطعة الواكمبا، بيد أنه لقى حتفه فى الداخل حينما قتله أفراد من قبيلة الماساى

---

(١) Coupland, op cit. pp. 308—310

(٢) الرواد : نشر مجلة المقتطف ص ٩٤ .

وتحت ضغط الحكومة الفرنسية أوفدت حكومة زنجبار قوة عسكرية لتأديب هذه القبيلة وزعيمها ما زنجرى .

كذلك ساعدت سلطنة زنجبار المستكشفان الانجليزيان بيرتون وسبيك اللذان قاما بعملياتهما الكشفية فى عام ١٨٥٦ ، وكان مما ساعد على نجاح بعثتهما الجهود التى بذلها سلاطين زنجبار فى تأديب قبائل الداخل ومحاولتهم نشر الأمن ، مما أدى إلى تخفيف حدة التعدى من قبل هذه القبائل على الأوربيين وبالتالى نجاح حركات الكشف والارتياد الأوربى . وقد بدأت رحلة بيرتون وسبيك حينما وصلا إلى زنجبار ثم ذهبا فى جولة إلى بمبا وممبسة ، حيث جمعا معلومات كثيرة من التجار العرب عن الجبال المغطاة بالثلوج ، والبحيرة الكبيرة التى كان يسميها العرب بحيرة أوكيروى ، وفيما يبدو أنها كانت التسمية المحلية التى عرفتها بها القبائل التى كانت تعيش على جوانبها ، وهى نفس البحيرة التى أطلق عليها فيما بعد اسم فيكتوريا نيانزا .

وفى نهاية عام ١٨٥٧ وصل الرحالتان إلى أنياموزى ، وهناك استقبلهما العرب الذين كانوا يعيشون فى هذه المنطقة بترحاب كبير . وقد أشاد الرحالتان بالمساعدات القيمة التى قدمها لهما الشيخ سناى بن عامر الذى أخبرهما بوجود ثلاث بحيرات مختلفة الحجم ، وهى البحيرات التى أطلق عليها فيما بعد ، نياسا وتنجانيقا وفيكتوريا نيانزا . وبعد أن جمع بيرتون وسبيك هذه المعلومات المحلية عادا إلى زنجبار استعداداً لرحلة أخرى ، وقد استعانا فى الرحلة الثانية التى قاما بها فى عام ١٨٦٠ بقوة عسكرية من الفرق التابعة لسلطان زنجبار ، كما استعانا بالكثير من الأدلاء العرب الذين رافقوهما من زنجبار إلى فازة ، التى كانت محط رجال القوافل العربية إلى أواسط إفريقيا وبحيراتها العظمى ، ثم وصلا إلى أنياموزى ، ومنها إلى أوجيجى ، على بحيرة تنجانيقا ، التى كانت من أعظم المستوطنات العربية حيث كانت تنتهى عندها إحدى طرق القوافل الرئيسية .

وبينما عاد بيرتون إلى فازة، واصل سبيك رحلته إلى بحيرة فيكتوريا، ومنها عاد إلى فازه حيث اصطحب بيرتون إلى البحيرة، وفى أنياموبزى علم الرحالة سبيك من العرب المقيمين هناك بوجود جبل عظيم الارتفاع غرب بحيرة فيكتوريا وعن وجود بحيرة أخرى تميل مياهها إلى الملوحة، ويسميها العرب بالبحيرة الملحة بسبب رواسب الملح الموجودة على شواطئها .

وأقبل بعد سبيك وبيرتون كثير من الرحالة والمستكشفين الأوربيين لارتياد المناطق الداخلية من إفريقيا، ويبرز من أولئك لفنجستون Livingston الذى كان منصفاً إلى حد كبير فى اعترافه بالمساعدات الكبيرة التى قدمت له من قبل السيد ماجد بن سعيد سلطان زنجبار فى عام ١٨٦٥، وكان الهدف العلمى من رحلة لفنجستون حل مشكلة تقسيم المياه والتأكد من المنابع الرئيسية للنيل فى المناطق الواقعة بين نياسا وتنجانيقا[١] . وقد استقبله السيد ماجد استقبالا طيباً ، وزوده بكثير من خطابات التوصية إلى الرؤساء العرب التابعين له فى الداخل . والجدير بالذكر أن لفنجستون تعرف فى رحلاته بأحد التجار العرب ويدعى حميد الدين المرجبى ، واستمد منه معلومات كثيرة عن الطرق والمسالك التى كان يتبعها العرب فى تنقلاتهم فى داخلية القارة . وقد رافق لفنجستون قافلة عربية وصل معها إلى بحيرة ميروى وتمكن بمساعدة بعض الأدلاء العرب من اختراق إقليم كازمبى . وفى بداية عام ١٨٦٩ وصل لفنجستون إلى الشاطىء الغربى لبحيرة تنجانيقا وتمكن بمساعدة بعض التجار العرب من الوصول إلى أوجيجى التى كانت ، كما ذكرنا ، محطاً للتجار العرب . .

أما الرحالة الامريكى هنرى مورتون ستانلى ، الذى كان يعمل لحساب ليوبولد الثانى ملك بلجيكا، فقد نجح فى اختراق القارة الأفريقية من بجمايو

(١) cf. The Last Journal of David Livingston in Central Africa from 1865 to His Death 2 vols London 1880.

إلى الكونغو ، وقد أشاد بدوره بالمساعدات التي قدمت له من قبل السيد برغش بن سعيد سلطان زنجبار ، الذى أمده بحامية عسكرية صحبته إلى بحيرة تنجانيقا حيث التقى بلفنجستون فى أوجيجى . وكان الهدف من رحلة ستانلى تتبع نهر اللوالابا، وإثبات اتصاله بنهر الكونغو. كما تمكن من الوصول إلى منابع النيل الاستوائية ، وقد استمرت رحلات ستانلى سنوات طويلة خاصة فى منطقة الكونغو التى اعتمد فيها على حميد الدين المرجى اعتماداً كبيراً[١]. والجدير بالذكر أنه قد أوكل لستانلى فى عام ١٨٨٧ رئاسة حملة إنقاذ أمين باشا التى نظمتها بعض الجمعيات الجغرافية الأوربية بمعاونة مادية من الحكومة المصرية، للبحث عن أمين باشا حاكم مديرية اللادو؛ بعد أن أطلقت الصحافة الأوربية دعايتها عن تعرضه للخطر الشديد بسبب انتشار الثورة المهدية فى مديريته، ولم يكن الأمر إلا خطة استعمارية محكمة لإخراج مصر من مديرية خط الاستواء حتى تصبح هذه المنطقة لا صاحب لها ؛ وبالتالى تستطيع الدول الاستعمارية السيطرة عليها خاصة وأن منطقة أعالى النيل عدت من المناطق الهامة فى ميزان الاستعمار فى القارة الأفريقية حتى أنها كانت هدف الدول الاستعمارية فى السيطرة عليها وتنافسهم من أجل ذلك . وقد لقى ستانلى فى بعثته هذه مساعدات كثيرة من المرجى[٢] .

لقد كانت شخصية حميد الدين المرجى هى الشخصية المسيطرة على مقاطعات الكونغو، وبعض المقاطعات الأخرى فى أواسط إفريقيا، ولذا قد يكون من المفيد أن نعرف بتلك الشخصية الفريدة فى نوعها، وإن كان من المؤسف أننا لا نملك مصادر عربية تتحدث عن هذا الرجل باستثناء ما أورده جورجى زيدان

---

(١) Ruth Slade, op. cit p. 198

(٢) Cenlemans, la Question Arabes et la Congo 1883—1892 p. 31 Brussels, 1959

فى كتابه « أشهر مشاهير الشرق »(١) حيث أفرد له ترجمة وجيزة فى الجزء الأول من كتابه هذا عرض فيها للجهود التى بذلها فى السيطرة على الكونغو ، وعن علاقاته بكل من الانجليز والبلجيك ، وذكر جورجى زيدان أنه نقل هذه الترجمة عن الشيخ ناصر اللمكى . على أنه من الممكن تجميع معلومات كثيرة عن المرجبى من سجلات الرحالة الأوربيين خاصة أولئك الذين حدثت بينهم وبينه علاقات أو احتكاكات مباشرة من أمثال لفنجستون وستانلى ، ويستفاد من المعلومات التى لدينا انتماء حميد الدين إلى قبيلة المراجبة ، وهى قبيلة عربية رحلت فيما يرجح من منطقة الساحل العمانى على الخليج العربى إلى سواحل شرق إفريقيا حيث كانت عاملا هاماً فى توطيد النفوذ العمانى إذ استعان بها أئمة اليعاربة فى التصدى للنفوذ البرتغالى خلال النصف الثانى من القرن السابع عشر والسنوات الأولى من القرن الثامن عشر ، وفى عهد السيد سعيد بن سلطان استقرت هذه القبيلة فى إحدى مقاطعات الساحل الشرقى من إفريقيا إلى الجنوب من مدينة دار السلام الحالية .

وقد ولد المرجبى لأحد تجار العرب فى طابورة فى عهد السيد سعيد بين عامى ١٨٣٠ و ١٨٤٠ وإن كان نشاطه التجارى والسياسى لم يتضح إلا فى عهد ماجد وأخيه برغش بن سعيد ، إذ استعان به كل منهما فى تأكيد نفوذ السلطنة العربية فى المناطق الداخلية من شرق إفريقيا . وكانت كل من أوجيجى وطابورة ومقاطعات الكونغو من أهم مناطق نشاطه فى التجارة حيناً وفى السيطرة حيناً آخر(٢) . ويستدل من ترجمة المرجبى على أنه كانت له صلات وثيقة بسلاطنة زنجبار الذين كانوا لا يوالون عن تقديم المساعدة والأسلحة له ، وفى سجل المراسلات السياسية للسلطان برغش بن سعيد بعض الرسائل التى كان يبعث بها إلى المرجبى يهنئه فيها بالانتصارات التى كان يحرزها فى المناطق

---

(١) جورجى زيدان — تراجم مشاهير الشرق حـ ١ ص ص ١٦٨/١٧٣ ،

(٢) Zöe March, op. cit. p. 133—134.

التي وصل إليها خاصةفي كل من طابورة وأوجيجي ، مما يوضح لنا أن المرجبي كان عاملا هاماً من عوامل النفوذ للسلطنة العربية في الداخل .

وكان من أهم العوامل التي ساعدت المرجبي على السيطرة على المناطق الواقعة إلى الغرب من بحيرة تنجانيقا عدم وجود تنظيمات قبلية متماسكة ولذلك كان المرجبي يرى أن إقامة تنظيم قوى للتجار العرب في تلك المناطق سيتبعه فرصاً كبيرة لجمع العاج من هذه المناطق التي تشتهر بكثرة الفيلة بها . وفي عام ١٨٦٧ أحرز المرجبي نجاحاً كبيراً في ضم الأراضي الواقعة بين جنوب بحيرة تنجانيقا وبحيرة ميروى إلى نفوذه ، ولكن دور المرجبي الهام بدأ في عام ١٨٧٠ حينما قاد حملة لضم المناطق الواقعة بين فرعين من فروع الكونغو في مقاطعة أوتيرا Utera حيث أخذ يمارس سيطرة سياسية وتجاريةمباشرة وضحت في فرضه الضرائب وقيامه بدور التحكيم في المنازعات التي تنشب بين القبائل، كما أعطى لنفسه فرصة عزل الرؤساء وتعيين الأوصياء. وفي عام ١٨٧٠ كانت قوة المرجبي قوة يحسب لها حسابها في مقاطعات كثيرة من أواسط القارة الأفريقية،وظهر أن الذين اخترقوا القارة الافريقية من المستكشفين الأوربيين ، قد تقابلوا معه في مرحلة أو أكثر من مراحل عملياتهم الاستكشافية،فقد التقى به،كما أشرنا، الرحالة لفنجستون على مقربة من بحيرة ميروى في عام ١٨٦٧ ، كذلك اشترك المرجبي أيضاً في حملة ستانلي الاستكشافية التي كان يقوم بها لصالح ليوبولد الثاني ملك بلجيكا في عام ١٨٧٧، حيث قدم له المرجبي الكثير من العون والمساعدة إلى أن تضاربت المصالح بينهما بعد ذلك . والثابت أن بريطانيا كانت ترحب باستيلاء ليوبولد على الكونغو ضماناً من وقوع المنطقة في أيدى الفرنسيين وماقد يترتب على ذلك من إتاحة الفرصة لفرنسا لإيجاد حزام يربط بين مستعمراتها في كل من شرق وغرب القارة . في عام ١٨٧٩ أبلغ المرجبي أو تيبو تيب — وهو الاسم الذي كان يطلق عليه واشتهر به — من قبل مبعوثي السلطان برغش

بن سعيد بالعودة إلى زنجبار لأنه مطالب بمبلغ كبير من المال كان متراكماً عليه منذ عشر سنوات، وقد اضطر بالفعل للعودة إلى زنجبار فى عام ١٨٨٢ وفيما يبدو أن ذلك كان تخطيطاً من القنصل البريطانى العام فى زنجبار، السير جون كيرك Kirk، لكى يتيح لحملة ليوبولد فرصة الاستيلاء على الكونغو، ومع ذلك فإن المرجبى لم يلبث أن خضع لتأثير الإنجليز والبلجيك الذين قدروا أهمية الاستعانة به، وبالنفوذ الذى كان يتمتع به، لتهدئة ثائرة العرب والإفريقيين ضد استعمار ليوبولد للكونغو؛ خاصة وأن ليوبولد وجه بمقاومة شديدة، وتحت الإغراءات التى قدمت له من قبل رابطة ليوبولد الدولية عاد المرجبى إلى الكونغو ومعه كميات كبيرة من الأسلحة للسيطرة على المناطق الواقعة فى أعالى الكونغو، وعندما علم برغش بن سعيد بذلك خشى أن تتحول التجارة الأفريقية من زنجبار إلى موانى غرب إفريقيا، وما قد يؤدى إليه ذلك من تعرض موارد السلطنة للانهيار، ولذلك حاول استمالة المرجبى إليه بأن عينه والياً على طابورة، وطلب منه التوسع فى الكونغو ووسط إفريقيا باسم السلطنة العربية فى زنجبار، وكان المرجبى أسرع إلى الاستجابة لأوامر السلطان واستطاع بالفعل فى السنوات الثلاث من ١٨٨٣ إلى ١٨٨٦، أن يؤكد نفوذ السلطنة العربية فى المناطق الداخلية. ولا شك أنه كان مدركاً لمدى النفوذ الاقتصادى الذى يتمتع به العرب، ولذلك حاول أن يقرن ذلك النفوذ بتنظيم سياسى يتبع السلطنة العربية فى زنجبار، ويدين لها بالولاء، واتضح ذلك حينما نجح فى السيطرة على معظم مقاطعات الكونغو، وعين وكلاء للعمل فى هذه المناطق لكى يقروا الأمن ويجمعوا الضرائب التى كان يفرضها على القبائل التى تدين له بالولاء، وقد امتد هذا التنظيم السياسى والاقتصادى امتداداً واسعاً إلى الداخل بفضل الانتشار العربى الذى رافق عملية التنظيم هذه. غير أن ذلك التقدم لم يلبث أن توقف فى عام ١٨٨٥ بعد اعتراف الدول الاستعمارية بدولة الكونغو الحرة خلال انعقاد مؤتمر برلين ١٨٨٤ / ١٨٨٥، هذا بالإضافة إلى اتفاق بريطانيا وفرنسا وألمانيا على تقسيم سلطنة زنجبار فى العام التالى ١٨٨٦، وكان من

نتيجة اتفاقية التقسيم إجبار سلطنة زنجبار على التنازل على المناطق الداخلية، حيث قصرت هذه الدول الاستعمارية اعترافها في المادة الأولى من اتفاقية التقسيم على تحديد سلطنة زنجبار بالمناطق الواقعة على الساحل الشرقي من إفريقيا من لامو شمالا حتى بنجاني جنوباً بعمق لا يمتد في الداخل سوى عدة أميال، وعلى مدن قسمايو وبراوة ومركة ومقديشيو في دائرة قطرها عشرة أميال، وورشيخ في دائرة لا يتعدى قطرها خمسة أميال، هذا بالإضافة إلى جزيرتي بمبا وزنجبار، وبعض الجزر الصغيرة المجاورة لهما[1] . وواضح هنا أن لجنة التقسيم تجاهلت الروابط الاقتصادية التي كانت تربط السلطنة بالمقاطعات الداخلية ، وبعد توقيع اتفاقية التقسيم ١٨٨٦ أدرك المرجبي أنه من العبث أن يواصل نشاطه في الداخل بعد أن فقد الدعامة التي كان يستند عليها، ومع ذلك فقد حاول أن يحتفظ بالسيطرة على الجزء الشرقي من الكونغو ( مناطق شلالات ستانلي ) على أنه لم يلبث أن وقع الاصطدام بينه وبين دولة الكونغو الحرة، ولكن هذه الدولة اضطرت مع ذلك إلى تعيينه حاكماً على هذه المنطقة بهدف الاستعانة بنفوذه ، وفي عام ١٨٨٧ عقد مع ستانلي، الذي عين في ذلك الوقت، قائداً لحملة إنقاذ أمين باشا في مديرية خط الاستواء اتفاقية تم توقيعها بين الطرفين، وقد نصت هذه الاتفاقية على أن يكون المرجبي حاكما على الكونغو بمرتب ثلاثون جنيهاً شهرياً ، على أن يرفع علماً خاصاً ، وأن يوافق على قبول موظف بلجيكي يعاونه في مباشرة اتصالاته الخارجية، وفي مقابل ذلك يقدم المرجبي مساعداته لحملة الإنقاذ، والأمر الذي لا شك فيه أن المرجبي لم يقبل توقيع هذه الاتفاقية إلا بعد أن أدرك تماماً تفكك سلطنة زنجبار وعدم فاعلية الاعتماد عليها لتأكيد نفوذه في الداخل .

والحقيقة أن دولة الكونغو الحرة استفادت كثيراً من تنظيمات المرجبي

---

(١) عن تقسيم سلطنة زنجبار : انظر صلاح العقاد ، جمال زكريا قاسم ، زنجبار — القاهرة ١٩٥٩ .

وإقراره الأمن، وفى مد السكك الحديدية، وإنشاء الطرق، على أنه ما كاد يستقر الأمر للدولة الجديدة حتى طرد المرجبى من خدمة المستعمرة واستولى عمال ليوبولد على تجارته ومراكزه كما قمعت حركة أتباعه . وأخيراً عاد المرجبى إلى زنجبار حيث توفى بعد سنوات قليلة من عودته إليها ، وباعتزال المرجبى نشاطه السياسى والاقتصادى انتهى العهد المجيد لدور العرب فى الكونغو ووسط إفريقيا واختفت الآمال العريضة فى ايجاد تنظيم عربى إفريقى فى الداخل يمكن أن يلحق بالسلطنة العربية على الساحل .

والأمر الذى لاشك فيه، وكما يقرر الكثير من الباحثين المنصفين، ونذكر منهم Ruth Slade فى دراسة لها بعنوان King Leopold's Congo أن دولة الكونغو الحرة استفادت فائده كبيرة من الجهود التى بذلها العرب فى إنشاء المحطات والمراكز التجارية وباتباع نظام دقيق فى النقل النهرى حتى أن دولة الكونغو احتفظت بهذه الجهود وعملت على تنميتها . وهناك تقرير كتبه أحد المسئولين فى دولة الكونغو الحرة ويدعى Van Etveld ، وبعث به إلى حكومته فى بروكسل جاء فيه أن دولة الكونغو كانت حريصة كل الحرص على الاحتفاظ بالتقدم الذى أحرزه العرب فى الكونغو[1] .

والجدير بالذكر أن توغل العرب لم يقتصر على الكونغو ، وإنما الثابت توغلهم فى منطقة البحيرات الاستوائية ، ولكنهم لم ينجحوا فى تأسيس ممالك أو إمارات لهم؛ على نحو ما فعلوا فى الساحل، وذلك بسبب صعوبة المواصلات والتنقل فى هذه المناطق، هذا بالإضافة إلى أنهم وجدوا فى الداخل تشكيلات محلية على جانب كبير من القوة والتنظيم فاكتفوا بتوثيق العلاقات التجارية معها . ومما لا شك فيه أن وصول العرب إلى المقاطعات التى تتكون منها أوغنده كان له أثره بين الجماعات الإفريقية التى تحول أكثرها إلى الدين الإسلامى، ومما يذكر أن ملك بوغندة، الذى كان يلقب بالكاباكا، رحب بالعرب

(١) Ruth Slade, op. cit. p 117

ترحيباً كبيراً، وقد استعان بهم للتغلب على منافسيه من حكام المناطق المجاورة وخاصة حكام أونيورو ، التى الآن تشكل جزءاً من أوغندة .

وقد يكون من المفيد أن نؤكد هنا أن العرب دخـــلوا فى علاقات مع الشعوب الإفريقية، وسكنوا كثيراً من مقاطعات إفريقيا، وذلك قبل أن يصل إليها الاستعمار الأوربى، والمؤكد أن الكثير مما سجله العرب عن علاقاتهم برؤساء وشعوب المقاطعات الداخلية من إفريقيا قد مسته يد الضياع، ولذلك فإننا فى أشد ما نكون احتياجا إلى دراسات مستفيضة عن دور العرب وتأثيرهم الحضارى فى أواسط القارة الإفريقية(١) خاصة فى مناطق الكونغو والبحيرات الاستوائية، وقد تفيدنا فى ذلك الصدد كتابات وتقارير الرحالة والمستكشفين من رواد حركة التبشير والكشف الجغرافى فى إفريقيـا ، خاصة وأن معظم هؤلاء استفادوا فائدة كبيرة من المراكز التجارية الحضارية التى أوجدها العرب على طول طرق القوافل والتى كانت بمثابة مراكز حضارية هامـــة ساهمت فى نقل المؤثرات العربية والإسلامية ، كما ساهمت مساهمة كبيرة فى تسليط الأضواء على مجاهل القارة الإفريقية ، حتى يمكننا أن نؤكد أن الحركة الاستكشافية التى شهدتها القارة الإفريقية فى القرن التاسع عشر لم تكن فى حقيقة الأمر إلا تسجيلا علمياً لمناطق وشعوب كان يعرفها العرب من قبل .

---

(١) cf. James Stevenson, The Arab in Central Africa p.4

# الفصل السادس

## دور مصر الحضاري في افريقيا في القرن التاسع عشر

# دور مصر الحضارى فى إفريقيا

## فى القرن التاسع عشر

يمكن تأريخ دور مصر الحضارى فى إفريقيا فى العصر الحديث ابتداءاً من السنوات الأولى من القرن التاسع عشر، أى ابتداءاً من الفترة التى أخذت تظهر فيها طلائع الدولة الحديثة فى مصر، وما تبع ذلك من نشر الأمن وتأمين طرق التجارة وارتباط ذلك بعامل هام، وهو اتجاه مصر للتوسع وتكوين امبراطورية لها ضمت مناطق كثيرة من القارة الإفريقية، كان لها أثر كبير فى بث إشعاعات الحضارة داخل أرجاء القارة. ولعل هذا الدور الحضارى كان من أهم الأدوار التى حملتها مصر على عاتقها باعتبارها دولة عربية إفريقية ولعل من أبرز الأدوار الحضارية التى قامت بها مصر مساهمتها فى حركة الكشوف الجغرافية، ويمكن تقسيم هذا الدور إلى قسمين :

القسم الأول : وهو الذى ساهمت فيه مصر بطريق غير مباشر، من ذلك مساعدتها للرحالة الأوربيين وتشجيعهم فى عملياتهم الاستكشافية، هذا بالإضافة إلى ما استفاده هؤلاء بما حققته الإدارة المصرية فى السودان وسواحل البحر الأحمر وأعالى النيل من نشر الأمن، الأمر الذى أدى إلى سهولة تحرك الكثير من الرحالة والتجار الأوربيين الذين نجحوا فى الوصول إلى أقاليم إفريقية كثيرة مستفيدين بما حققه الحكم المصرى من توطيد الأمن والطمأنينة فى تلك الأقاليم.

والقسم الثانى : وهو الذى تحملته مصر على كاهلها فى حركة الكشف الجغرافى، ويمكن أن نطلق على هذا القسم الدور الرئيسى أو الدور المباشر الذى قامت به مصر فى هذه الحركة الكشفية التى تعرضت لها القارة الإفريقية.

وكانت الحركات الاستكشافية التى قامت بها مصر فى القرن التاسع عشر ترتبط بتحقيق عاملين رئيسيين :

العامل الأول : وهو الكشف من أجل تحقيق مشروعات توسعية ، فالواقع أن كثيراً من الاستكشافات الجغرافية التى قامت بها مصر خلال القرن التاسع عشر قد ارتبطت ارتباطاً كبيراً بهذا العامل، حتى لقد أطلق كثير من الباحثين على الكشوف الجغرافية المصرية بأنها كانت نوع من الاستكشافات العسكرية، وبطبيعة الحال أننا لايمكننا أن ننكر تلك الحقيقة، فالكثير من الكشوف الجغرافية التى قامت بها مصر اضطلعت بها بعثات من الجيش المصرى، وإن كان ذلك لا يمنع من تقرير الدور الحضارى الذى ساهمت به مصر فى ربوع القارة الأفريقية . وينبغى أن نلفت الانتباه بصدد ذلك إلى أن الكشوف الجغرافية التى قام بها الأوربيون ، كانت تخدم فى أساسها حركة التوسع الاستعمارى ؛ بل لقد اعتبرت من المقدمات الطبيعية للحركة الامبريالية التى شهدتها القارة الإفريقية منذ السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر الميلادى ، هذا على الرغم من أن البعثات الكشفية الأوربية اتخذت من الجمعيات الجغرافية سنداً لها، وظهرت شعارات كثيرة بالرغبة فى إدخال الحضارة والمدنية إلى إفريقيا، كما عقدت كثير من المؤتمرات الدولية، ولكن سرعان ما اختفت الدوافع الإنسانية ، وأصبح اتجاه كل دولة يتركز فى اتجاهها للعمل على تحقيق أطماعها معتمدة فى ذلك على ماتستطيع أن تضع يدها عليه على أكبر مساحة ممكنة من أراضى القارة الإفريقية .

أما العامل الثانى : فيرتبط بالبعثات الكشفية التى أرسلتها بها مصر من أجل الرغبة فى العثور على معدن الذهب أو غيره من ثروات طبيعية، يمكن أن تساهم فى بناء متطلبات الدولة الحديثة التى ظهرت فى مصر فى النصف الأول من القرن التاسع عشر . وثمة ملاحظة تستدعى انتباهنا، وهى أن مصر اعتمدت

على الكثير من الأوربيين في تحقيق عمليات الكشف الجغرافي ، وبالفعل تظهر أمامنا أسماء أوربية عديدة دخلت في خدمة الحكومة المصرية من أمثال غوردون وصمويل بيكر وشفايتزر ( أمين باشا ) وغيرهم كثيرون .

وفي اعتقادنا أن الدافع من وراء استخدام مصر لأوربيين يرجع إلى أن مصر كانت لاتزال ، وهي في دور إنشاء الدولة الحديثة، تفتقر إلى الخبرات المتوافرة لدى الأوربيين ، هذا بالإضافة إلى اضطرار حكام مصر إلى استخدام موظفين أوربيين حتى يجدوا عطفاً من الدول الأوربية أو موافقة منها على مشروعاتهم التوسعية في إفريقيا . وقد وضح ذلك بصفة خاصة في عهد الخديو إسماعيل ١٨٦٣ — ١٨٧٩ الذي حاول أن يقنع الدول الأوربية ولاسيما انجلترا أن سياسته في إفريقيا يمكن أن تخدم الحضارة الأوربية التي كان فريق من الإنسانيين ينادون بها في ذلك الوقت؛ بل إن إسماعيل تأكيداً على حسن نواياه دخل مع بريطانيا في معاهدة خاصة بإلغاء تجارة الرقيق من شرق إفريقيا في عام ١٨٧٧ ، وكان يأمل من وراء ذلك أن يجد اعترافاً من انجلترا بالدور الحضاري الذي تقوم به مصر في المناطق التي وصلت إليها في إفريقيا، ولكن لم تلبث أن تغلبت الأطماع الامبريالية وانتهى الأمر بالقضاء على الامبراطورية المصرية في إفريقيا وتقسيمها بين الدول الأوربية.

ومما تجدر الإشارة إليه إلى أنه على الرغم من أن كثيراً من الاستكشافات التي قامت بها مصر قد اضطلع بها كثير من الأوربيين، إلا أن معظم أعضاء البعثات الكشفية كانوا من شباب الضباط والجنود المصريين؛ بل لقد استطاع الكثير من أولئك الضباط أن يحققوا استكشافات جغرافية علمية اعتمدت على جهودهم ، ويعزى الفضل في ذلك إلى تأسيس قسم الجغرافيا الذي كان تابعاً لهيئة أركان حرب الجيش المصري ، وسوف نتعرض لنشاط ذلك القسم فيما بعد[١].

---

(١) عن دور مصر في كشف إفريقيا يمكن الرجوع إلى فردريك بنولا : مصر والجغرافيا وهو خلاصة عن الأعمال الجغرافية التي أنجزتها مصر في القرن التاسع عشر، وقد وضع الكتاب أصلا باللغة الفرنسية وترجمه أحمد زكي إلى العربية ، القاهرة ١٣١٠ هـ .

وكان أهم مايميز البعثات الكشفية فى السنوات الأولى من عهد محمد على ( ١٨٠٥ — ١٨٤٨ ) اتجاهها للبحث عن موارد الثروات الطبيعية ،ففى عام ١٨١٢ أوفد محمد على بعثة إلى الصحراء الشرقية للبحث عن معادن الذهب والزمرد التى دلت بعض المصادر العربية القديمة على وجودها فى تلك المنطقة، وقد رأس هذه البعثة المسيو فردريك كايو، أحد العلماء الفرنسيين ،وقد بدأ رحلته من قنا إلى جبل زبارة حيث وجـــدت بعثته كهوفاً عميقة ودهاليز ومغائر عميقة ، كما وجدت آلات وأدوات متنوعة وأثار عديدة استدل منها على استخراج المعادن من هذا الجبل، ثم انقطاع العمل فيه فجأة، وقد التقطت البعثة من هناك بعض قطع من الزمرد قويت بها آمال محمد على واشتدت رغبته وسعيه لإنجاز مشروعاته فأرسل كايو ، على رأس بعثة أخرى رافقها كثير من العمال غادرت القاهرة فى ٢ نوفمبر ١٨١٧ ، ولكنها لم تحقق الهدف من إرسالها ، وعلى الرغم من أنها لم تعثر على المعادن المتوقعة ، إلا أن كايو ومن معه عثروا على أطلال مدينة قديمة ، كما حددت البعثة موقع إحدى المدن الإغريقية القديمة وهى مدينة بيرينيس المعروفة الآن برأس بناس ، كما زارت البعثة بعض الواحات الغربية ورسمت خريطة لهذه البقاع . وكان كايو أول من نقل بعض الأخبار العلمية والروايات الصحيحة عن قبيلة العبابدة ، كما أفادت هذه البعثة فى إيضاح بعض التفصيلات الخاصة بالجغرافية الطبيعية والتاريخية لهذه المنطقة(١) .

وشهدت الصحراء الغربية بعثة أخرى أوفدها محمد على فى عام ١٨١٩ ، للبحث عن مناجم الكبريت ، وذلك لحاجته الشديدة إليه لاستخدامه فى صناعة البارود ، وقد اتجهت هذه البعثة إلى المنحدر الشرقى لصحراء مصر الغربية ، وكانت تتألف من عدد كبير من الضباط والجنود المصريين وإن كان قد عهد برئاستها إلى فورنى ، وهو أحد الموظفين الأجانب الذين عملوا فى خدمة محمد على . وبين عامى ١٨٢١ و ١٨٢٣ أرسل محمد على

(١) نعوم شقير ، تاريخ السودان القديم والحديث جـ٣ ص ٢٠٢ .

بعثة إلى شبه جزيرة الطور للبحث عن معدن الذهب ، كما أرسل بعثة أخرى برئاسة المسيو بروشى الإيطالى إلى الصحراء الشرقية لنفس ذلك الغرض .

وقد يكون من المفيد أن نشير هنا إلى أن الحملة العسكرية التى أرسلتها مصر إلى واحة سيوة فى فبراير عام ١٨٢٠ كانت تستهدف تحقيق سيطرة مصر على أقاليمها من ناحية وكشفاً لهذه الواحة من ناحية ثانية(١). ومما يستلفت النظر أن واحة سيوة ظلت خارجة عن نطاق الولاية المصرية حتى تم لمصر إخضاعها فى عام ١٨٢٠ ، وقد عهد بالحملة العسكرية إلى حسن بك الشماشرجى، وكانت تستهدف إخضاع سكان الواحة وإلزامهم بالخضوع للإدارة المصرية . والجدير بالملاحظة أن فتح سيوة وقع فى أوائل عام ١٨٢٠ ، أى قبيل الحملة العسكرية التى أرسلها محمد على لفتح السودان ، مما يغلب على الظن أن محمد على أراد تأمين حدود مصر الغربية قبل أن يزحف جنوباً إلى السودان. وقد تبعت حملة سيوة عدة بعثات استكشافية ، وكان من بين العلماء الذين رافقوا هذه البعثات أو الذين جابوا أنحاء المنطقة بعد أن انتظمت شئونها فى عهد الحكم المصرى ، كل من المسيو لينان دى بلفون Linant de Bellefon كبير مهندسى محمد على، والمسيو ريتشى Ricci أحد الأطباء الإيطاليين ، ودرفتى Drovetti قنصل فرنســـا العام فى مصر ، وقد وقع على كاهل هؤلاء باسم مصر استكشاف تلك المناطق واستطلاع ما بها من آثار والبحث فى كل مايتعلق بها، إلى جانب وضع الخرائط والمصورات الخاصة بها . وعلى أثر نجاح الحملة العسكرية فى إخضاع الواحه سهل الشماشرجى لمن كان فى صحبته من علماء مهمة عملهم، فى الوقت الذى اشتدت فيه معارضة الأهالى الذين كانوا يرون فيما يقوم به المستكشفون والعلماء منافراً لطباعهم ومخالفاً لعاداتهم .

وقد نشر المسيو جومار Joumar كتاباً بعنوان « الرحلة إلى سيوة » ضمنه الكثير من التفصيلات الخاصة بهذه البعثة ، إلى جانب مايقرب من

---

(١) عن حملة سيوة ، انظر عبد الرحمن الرافعى ، عصر محمد على ص ١٦٦ .

عشرين خريطة ، بالإضافة إلى بعض الصور والرسوم التى ألحقها بكتابه هذا ، وذكر أنه استعان فى وضع هذه الخرائط بالرسوم الطبوغرافية التى وضعها المسيو دروفتى . كما يتضمن كتاب جومار تفصيلات دقيقة عن حملة سيوة وما وقع فيها من حوادث .

وبفضل بناء الدولة الحديثة فى مصر فى السنوات الأولى من القرن التاسع عشر ، واستتباب الأمن فى ربوع البلاد ، وحماية محمد على للرحالة تسنى للكثيرين منهم القيام بعدة استكشافات هامة فى بلاد النوبة والسودان. كما تيسر للكثير من العلماء من أمثال ستزن وبلزونى وكايو ودروفتى القيام بأبحاث ودراسات جغرافية هامة ، واستطاع كثير من الرحالة الأوربيين أن يتخطوا أسوان وإبريم جنوبا ، وإن ظلت بقية البقاع الواقعة فيما وراء الشلال الثانى فى حكم الأراضى المجهولة ، باستثناء ماكان يرد بشأنها من أخبار أو معلومات نقلها نفر قليل من الرحالة الأوربيين الذين جازفوا باجتياز هذه المناطق .

ولعل جون لويس بوركهاردت Burchardt مثل هام من أمثلة أولئك الرحالة الأوربيين الذين استفادوا بما نجم عن الحكم المصرى من استتباب الأمن فى تحقيق استكشافاتهم فى بلاد النوبة . وقد وصل بوركهاردت إلى القاهرة فى عام ١٨١٢ ، معتزماً القيام برحلة استكشافية إلى مصر العليا وبلاد النوبة. وقد ذكر فى الكتاب الذى وضعه عن رحلاته(١) هذه أنه استعان فى أسفاره فى بلاد النوبة بالخبراء والأدلاء العرب الذين كانت لهم سابق معرفة بتلك البلاد ، كما أنه يعترف فى كتابه عن بلاد النوبة أنه حصل على توصية من محمد على ومن بعض كبار موظفيه فى صعيد مصر ، وقد مكنته هذه التوصيات من اجتياز كثير من مناطق النوبة . كما زوده حاكم إسوان من قبل محمد على بأحد الأدلاء العرب الذى صحبه إلى مدينة الدر فى بلاد النوبة ، وكانت هذه المدينة من أهم مدن النوبة فى ذلك الحين .

---

(١) نشرت الجمعية المصرية للدراسات التاريخية كتاب بوركهاردت مترجماً الى العربية بعنوان « رحلات فى بلاد النوبة والسودان » .

ولم يصادف بوركهاردت طوال تنقلاته فى بلاد النوبة إلا مجموعات من الحجاج السودانيين أو التكارنة ، وهؤلاء الحجاج كانوا يأتون من جميع مقاطعات السودان الغربى ، ومنهم من كان يسير بطريق كردفان إلى سنار وإما إلى دنقلة رأسا ، ومن النيل يسلك بعضهم طريق سواكن ، حيث يعبرون البحر الأحمر إلى جدة ، بينما كان يتبع بعضهم الآخر طريق النيل مخترقين دنقلة والمحس ، حيث يسيرون فى نفس الطريق الذى كان يتبعه الحجاج المصريين لتأدية فريضة الحج بعد أن يقيموا فترة من الوقت للاستراحة فى أروقة الأزهر ، وقد عنى بوركهاردت بتسجيل هذه الطرق التى كان يتبعها حجاج السودان ، ولا شك أن بوركهاردت استفاد من توصيات محمد على وحكام أقاليمه، كما استفاد أيضاً بما كتبه المصنفون العرب والمسلمين عن إفريقيا ، إذ كان يبعث إلى الجمعية الإفريقية التى كان موفداً من قبلها ترجمة لما كتبه المقريزى عن بلاد النوبة، جغرافيتها وتاريخها . وأكد بوركهاردت أن أفضل من كتب عن النوبة من مؤرخى العرب هو ابن سليم الأسوانى ، وإن كان لم يعثر على كتابه ، وإنما اعتمد على الفقرات الكثيرة التى أوردها المقريزى ، نقلاً عن هذا الكتاب ، كما استفاد بوركهاردت أيضاً من العرب القاطنين فى المناطق التى تنقل فيها ، ولكنه ذكر أن المرء ينبغى عليه أن يتشكك فى صدق رواياتهم، فقد حاولوا تضليله كلما كان يوجه إليهم أسئلة تبدو لهم خارجة عن موضوعات أحاديثهم المألوفة ، مما جعله يذهب فى قوله أنه ليس لديهم تقديراً واضحاً عن المسافات ، وفى الواقع أن بوركهاردت ربما يكون قد تعرض لبعض هذه المتاعب التى أشار إليها ، وهذا يرتبط بوضعه كأجنبى ، ثم إلى ظروف بلاد النوبة فى ذلك الوقت ، والتى كان يحكم بعض أجزائها شراذم من المماليك الذين فروا من وجه محمد على بعد مذبحة القلعة فى عام ١٨١١ ، وتخوف هؤلاء من بوركهاردت باحتمال كونه عيناً من عيون محمد على ، مما أدى إلى تعرضه لبعض المتاعب التى حدثنا عنها فى رحلاته هذه .

ولعل بوركهاردت قد استفاد بصورة عملية من القوافل التجارية العربية التى كانت تفد من صعيد مصر إلى بربر وسواكن عبر الصحارى النوبية، كما أن الدروب القائمة فى الصحراء الشرقية كان لا يستطيع أى أجنبى أن يعبرها إلا بالاستعانة بالأدلاء الوطنيين، وأن الذين يحاولون ارتياد مجاهل القارة وحدهم أو التغلغل فى أقاليم لا يطرقها التجار الشماليون، إنما يعرضون أنفسهم للضياع. على حد قوله، وذكر بوركهاردت أيضا أن أبعد الحدود التى يبلغها التجار الشماليون هى دارصليح (الباجرمى) الواقعة فى الشمال الغربى من دارفور، أما الأقاليم الواقعة فيما وراء ذلك، فعلى الرغم من اتصالها بدارفور، إلا أنها كانت تغلق أبوابها فى وجوه أولئك التجار، وعبثاً حاول نفر منهم التوغل فى هذه المناطق، وإن كانت تجارة فزان تبدأ فى الانتشار فيما وراء بحر الغزال فى اتجاه بورنو، ومن ذلك الإقليم كانت تصل إلى أقصى الغرب عبر أقاليم غرب السودان.

وعلى الرغم من أن الغرض العلمى من مهمة بوركهاردت، كان يستهدف منها التحقق من مشكلة منابع نهر النيجر، إلا أنه فشل فى تحقيق مهمته هذه، لعدم تمكنه من اللحاق بالقوافل العربية التجارية المتجهة إلى غرب إفريقيا. ويقرر بوركهاردت أهمية مصاحبة القوافل التجارية العربية، وذلك فى الرسالة التى بعث بها إلى المستر جوزيف بانكس Joseph Bankes رئيس الجمعية الإفريقية(١) التى تأسست فى لندن فى عام ١٧٨٨، بهدف تقديم وتشجيع الكشف الجغرافى فى إفريقيا، حيث ذكر فى تلك الرسالة «لقد مضى على عامان لا أفعل فيهما سوى التعليق على رحلاتى السابقة أو التحدث عن رحلاتى المستقبلة ... إنى أقدم وعوداً بدلا من أن أؤدى أعمالا، ومع ذلك فلا أزال غير قادر على التحرك من مصر، فلم تصل بعد قافلة من الغرب، ومنذ زمن طويل ونحن

(١) The African Association For Promoting the discovery of the interior Parts of Africa.

نتوقع وصولها ، وقد حال الانتظار بيني وبين القيام بأى رحلات أخرى ، ولو أن طريقاً آخر يصل إلى داخل إفريقيا غير طريق فزان لما تأخرت عن سلوكه لما أشعر به من ألم خوفاً من أن يظن بي الكسل أو يفهم أن روحي قد ضعفت ، لقد مضى على ثمانية أعوام ، ولكني بذلت كل ما في وسعي لاكتساب المؤهلات التي تلزمني في مشروعي ، فإذا فشلت فإن خلفي سيحتاج إلى سنوات طويلة يتدرب فيها ليلج أبواب ليبيا بنفس الثقة التي أستطيع أن ألجها بها الآن » .

وقد علل بوركهاردت السبب في تأخر وصول القوافل من فزان باشتداد الطلب على الأرقاء السود في الساحل الشمالي الغربي من إفريقيا ليحلوا بدلا من الأرقاء البيض الذين حررتهم حروب الرقيق في منطقة الحوض الجنوبي للبحر المتوسط ، وما استتبع ذلك من معاهدات دولية . وذكر بوركهاردت أنه يتوقع وصول القوافل إلى مصر بمجرد أن يستوفى السوق المغربي احتياجاته من هذه التجارة ، خصوصاً بعد أن قضى الطاعون على كثير من العبيد في مصر ، وأصبح السوق المصرى في حاجة إلى وارد جديد . وقد كان في نية بوركهاردت في عام ١٨١٧ أن يترك القاهرة بصحبة الحجاج العائدين إلى ديارهم في بلاد المغرب بدلا من أن يستمر في انتظار القوافل التجارية لو لم يوافيه أجله في القاهرة في نفس ذلك العام .

ولم يقتصر الدور الذى ساهمت به مصر في حركة كشف إفريقيا في النصف الأول من القرن التاسع عشر عند حد تهيئة الظروف المواتمة للأجانب للقيام برحلاتهم ؛ بل أن الظروف تهيأت أيضاً للرحالة العرب ليسهموا بدورهم في تلك الحركة ، وقد برز من أولئك الرحالة العرب الشيخ محمد بن عمر التونسى ، الذى قام برحلات في بلاد دارفور وواداى في السنوات الأولى من القرن التاسع عشر ، ويعتبر كتابه « تشحيذ الأذهان بسيرة بلاد العرب والسودان » أهم مصدر للتعريف بأحوال دارفور ، التي قامت فيها سلطنة

إسلامية ، كانت تكون حلقة هامة في سلسلة الممالك والسلطنات الإسلامية التي ظهرت في المناطق الواقعة بين الصحراء الكبرى ومصر في الشمال ، وبين منطقة الغابات الاستوائية في الجنوب، وتمتد من البحر الأحمر شرقاً إلى المحيط الأطلسي غرباً .

وتتضمن رحلات التونسي معلومات هامة عن تاريخ دارفور وواداي والباجرمي ، وماجاورها من أقاليم ، فضلا عن دراسة الأحوال الاجتماعية والاقتصادية والعلاقات التي قامت بين هذه الممالك ، وما كان ينشب في داخليتها من صراعات ومحن وحروب أهلية[١] . وتعتبر رحلات التونسي من هذه النواحي إضافات هامة للمعلومات الخاصة بإفريقيا لا يخفض من قيمتها إهمال الأوربيين لذكرها أو قلة تقديرهم لها ، كما أنها بالنظر إلى ظروف تدوينها بالقاهرة يمكن أن نلحقها بالعصر الذى أسهمت فيه مصر في حركة الكشف الجغرافي لإفريقيا ، سواء بتيسيرها للرحالة الأجانب القيام برحلاتهم ، أو بفضل توطيدها للأمن في ربوع المناطق التي هيمنت عليها أو فيما اضطلعت به بصفة مباشرة من إرسال البعثات لكشف منابع النيل . كما أن تدوين التونسي لرحلاته كانت ثمرة من ثمرات البيئة العلمية التي هيأتها مصر وأوجدت فيها تعاوناً وتزاملا بين العلماء العرب والأجانب ، ومن جهة أخرى تعتبر رحلات التونسي حلقة متأخرة من حلقات الكتابات العربية عن إفريقيا ، إذ أنها تذكرنا بما كتبه الرحالة العرب في العصور الوسطى الذين لم يقتصروا في كتاباتهم على إيراد ما أمكنهم من وصف للمعالم الجغرافية للبلاد التي جابوا ربوعها ؛ بل كتبوا عن نظمها ووقائع تاريخها ومآثر أعلامها وعادات أهلها ومذاهبهم . وإذا صح ماقاله أحد المستشرقين من أن الشيخ عبد الرحمن الجبرتي

---

(١) لوثروب ستودارد — حاضر العالم الاسلامي — تعليق شكيب ارسلان ج ١ ص ٣٠١ .

المؤرخ المصرى المعروف هو آخر من مثل المؤرخين العرب فى الكتابة طبقاً للتقاليد العربية فى تدوين التاريخ ، فإن الشيخ محمد بن عمر التونسى ، كان يمثل أيضاً آخر من كتب طبقاً لأساليب الرحالة الأقدمين من العرب[١] .

وقد نشر المستشرق الفرنسي الدكتور ا . بيرون A. Perron مدير المدرسة الطبية فى مصر على عهد محمد على ، وأحد أعضاء الجمعية الملكية الآسيوية بلندن ، رحلة التونسى فى طبعة حجرية بباريس عام ١٨٥٠ ، كما وضع ترجمة فرنسية نشرها قبل ذلك بخمس سنوات ، ولاتزال طبعة بيرون هى الطبعة المعتمـدة ، إذ لم يتوصل حتى الآن على الأصـل الذى دونه التونسى فى هذه الرحلة ، حيث من المعروف أن التونسى قد دون أخبار رحلاته بعد أن اقترح عليه بيرون[٢] أن يجمل من مشاهداته وذكرياته عن البلاد السودانية التى زارها وأقام بها عشر سنوات ١٨٠٣/١٨١٣ ،وهى دارفور ووادای جزءاً من دروس اللغة العربية التى كان يتعلمها من التونسى إبان تزاملهما معاً فى العمل فى مدرسة الطب بأبى زعبل ، حيث كان التونسى يشتغل هناك مصححاً للكتب العلمية المترجمة إلى اللغة العربية ، كما كان بيرون أستاذاً للمادة الطبية بها ، كما تزاملا الإثنان عندما رقى الأول كبيراً للمصححين والثانى ناظراً لمدرسة الطب عندما انتقلت إلى قصر العينى .

---

(١) راجع عبد العزيز عبد الحق : استدراكات على رحلة التونسى الى دارفور . انظر محاضرات الموسم الثقافى للجمعية المصرية للدراسات التاريخية ١٩٦٧/١٩٦٨ ص ص ٦٣ — ٦٤ .

(٢) نشر بيرون الذى كان يعمل مديراً لمدرسة الطب المصرية فى عهد محمد على وأحد أعضاء الجمعية الملكية الآسيوية بلندن . رحلة التونسى فى عام ١٨٥٠ فى طبعة حجرية صدرت فى باريس ، كما وضع لها ترجمة فرنسية نشرت قبل ذلك فى عام ١٨٤٥ ولا تزال طبعة بيرون هى الطبعة المعتمدة لذ لم يعثر على الأصل الذى دونه التونسي عن رحلاته وإن كان هناك من يعتقد أن يكون النص العربى لدى ورثة بيرون .

وعلى الرغم من أن رحلات التونسى لم تذكر فى المؤلفات الأوربية الخاصة بتاريخ الكشوف الجغرافية الخاصة بإفريقيا ، فإن كثيراً من المستشرقين قد أشادوا بها من أمثال جومار الذى ذكر فى تصديره لرحلة التونسى لدارفور . لقد اتضح لى عند قراءاتى لهذه الرحلة ، أنها ستضيف الكثير إلى ما الدنيا فى الوقت الحاضر من معلومات عن إفريقيا . وأنها ستكون نعم العون لأولئك الذين سوف يعتزمون السياحة إلى ذلك البلد النائى ، الذى يمكن أن نعده مدخلا إلى البلاد السودانية ، كما أكد جومار صدق ما اشتملت عليه الرحلة من البيانات بقوله « إن المؤلف إذا كان قد أخطأ فى بعض ما أورده فقد حدث ذلك عن حسن نية ، فهو حين لا يرى شيئاً بعين رأسه لا يتردد فى أن يصرح لنا بذلك ، كما أنه يروى لنا ما يحكى له دون أن يؤكد لنا صحته » .

وقال بيرون فى تقديمه لكتاب التونسى بأن كان عليه أن يتأكد من صحة البيانات التى أوردها فى رحلتيه ، فرجع إلى عدد من أبناء دارفور وكردفان ووداى ، وقد وجد فى أقوالهم ما هو مطابق تماماً لما كتبه التونسى وزيادة فى التأكد سعى بيرون فى الحصول على بيانات عن رحلات الإنجليز فى البلاد السودانية ابتداء من عام ١٨٢٢ ، وقد تأكد لديه أن الشيخ التونسى لم يعرف شيئاً البتة عن كتابات كلابرتون Claperton ودنهام وأدونى والآخرين لاندر Lander عندما دون رحلاته ، كما لم تكن لديه فكرة عن هؤلاء الرحالة ومشاهداتهم ، عندما وصف القبائل العديدة التى التقى بها وخبر التقاليد والعادات التى درج عليها أفرادها وألم بتاريخ سلاطينها الذين اتصل بهم وقتا طويلا[1] .

---

(١) عبد العزيز عبد الحق : استدراكات على رحلة التونسى لى دارفور — محاضرات الموسم الثقافى للجمعية المصرية للدراسات التاريخية ١٩٦٧/١٩٦٨ ص ٦٣ .

وقد انتقد كل من بارت وناختيجال رحلات التونسى بأنها لاتتضمن معلومات وثيقة عن البلاد التى زارها من النواحى الجغرافية والإحصائية ، كما أخذ عليه كل من جومار وبيرون ميله إلى الاستطراد الشديد حتى فى الموضوعات التى قد لاتتصل بموضوع رحلاته ، كما انتقده آخرون بأن كثيراً من بياناته رغم صحتها ، إلاأنها تفتقر إلى منهج منسق فى البحث ؛ وعلى الرغم من كل هذه الانتقادات ، إلا أن الأمر الذى لاشك فيه طبقا لما يؤكده ستريك Streck محرر مادة التونسى فى دائرة المعارف الإسلامية ، « أن كتابات التونسى تعد مصدراً هاما لدراسة الأحوال الاثنوغرافية والثقافية والسياسية لبلاد السودان التى زارها ، ولكنها مع ذلك لاتلق سوى قليل من الاهتمام والتقدير »(١) . على أنه ينبغى أن نشير هنا أنه على الرغم من أن رحلات التونسى لم ترد كثيراً فى المصنفات الأوربية الخاصة بالكشوف الجغرافية فى غرب إفريقيا ، إلاأنها كانت من المصادر الهامة التى رجع إليها بومان ووسترمان Bauman and Westermann فى كتابهما عن شعوب إفريقيا وحضارتها ، كما رجع إليها الباحثون فى تاريخ السودان ومن أبرزهم نعوم شقير فى كتابه تاريخ السودان القديم والحديث(٢).

وقد اختار التونسى لرحلاته عنوانا هو تشحيذ الأذهان بسيرة بلاد العرب والسودان . وهذا العنوان قصد به التونسى إطلاقه على الرحلتين اللتين قاما بهما إلى كل من دارفور ووداى ، أماتقسيمهما إلى كتابين ، فقد كان من صنع بيرون نفسه، والجدير بالذكر أن التونسى كان يقصد ببلاد العرب جميع القبائل العربية التى تعيش فى السودان بمفهومه الجغرافى الواسع ،

---

(١) انظر مادة التونسى فى دائرة المعارف الإسلامية .

(٢) يعتبر كتاب نعوم شقير الذى وضعه عن تاريخ السودان القديم والحديث وجغرافيته تتمة لكتاب التونسى فى الفترة التى تتعلق بسلطنة دارفور منذ نشأتها حتى الفتح المصرى .

هذا إلى جانب الإضافات غير القليلة التى أوردها عن مصر وتونس وطرابلس .

ولرحلات التونسى أهمية بالغة ، خاصة من الناحية الاجتماعية ، أما من الناحية التاريخية فلا تتضمن رحلاته سوى نبذا بسيطة ، ومع ذلك فقد تكون الأهمية التاريخية فى تقديرنا أن التونسى يطلعنا على مشروع كان قد أعده محمد على لفتح دارفور[1]، كما أنها تحوى بعض التواريخ الهامة الخاصة بسلطنة الفور ، وذكر بعض سلاطينها .

وقد بدأ التونسى تدوينه لرحلاته بترجمة ذاتية له ذكر فيها الدوافع التى حفزته للقيام بها ووقف فيها إلى وقت عودته إلى مصر ، وكان مما ذكره أنه بدأ رحلاته إلى دارفور فى عام ١٨٠٣ وعاش فيها نحو سبع سنوات ونصف ألم فى خلالها بأحوال البلاد إلماماً تاماً ثم ارتحل إلى وادای الواقعة إلى الغرب من دارفور حيث قضى فيها ثمانية عشر شهراً ، ثم استأذن السلطان صابون فى السفر إلى تونس فأذن له وبلغها حوالى عام ١٨١٣ ، ثم عاد إلى القاهرة ليلتحق بخدمة الجيش المصرى فى وظيفة واعظ بإحدى فرق المشاة التى حاربت فى المورة عام ١٨٢٧ ، ولما عاد منها فى عام ١٨٣٢ اشتغل بتنقيح كتب الطب المترجمة إلى العربية[2] .

ويقتضى حديثنا عن سيرة التونسى الإشارة إلى مواطن آخر له يدعى زين الدين التونسى ، وإن كنا لا نعرف شيئاً عنه سوى أنه كان معاصراً للتونسى ، وأن سيرته تكاد تشابه سيرته ، فقد كان بدوره عالماً ، درس

---

(١) كان هذا المشروع يقتضى تسيير حملة من كردفان إلى طرابلس تتبعها حملة أخرى من مصر وقد أشار مصطفى بعيو فى دراسته « ملامح تاريخ ليبيا فى القرن التاسع عشر » إلى هذا المشروع وأنه يوجد فى دار وثائق طرابلس بعض المعلومات التفصيلية الخاصة بذلك .

انظر مؤتمر ليبيا عبر العصور ١٩٦٨ ، ملامح تاريخ ليبيا فى القرن التاسع عشر .

(٢) عبد الرحمن زكى : المراجع العربية لتاريخ غرب إفريقيا ص ١٨ .

فى الأزهر ، وكان على اتصال وثيق بالعلماء الأوربيين الذين أقاموا بمصر فى عهد محمد على ، وأنه سافر إلى السودان فى مقتبل حياته حيث قضى فيها وعشر سنوات ، فقد ذهب أولا إلى سنار ، ثم كردفان وأقام فترة طويلة فى دارفور ووادای ، وكان يتكسب فى البلاد التى كان يجول فيها ، وذلك بالعمل بالوعظ أو التدريس ، وبعد أن قضى ما يقرب من ثلاث سنوات فى وادای عاد إلى تونس عن طريق فزان . وقد سجل لنا مشاهداته فى البلاد السودانية فى كتاب طبع ونشر دون تحديد لمكان وتاريخ الطبع ، ولكن المهم أن ذلك الكتاب ترجم من العربية إلى التركية ، وطبعت ترجمته التركية فى استانبول عام ١٨٤٦ ، وترجم إلى الألمانية من قبل المستشرق الألمانى فون روزن Von Rozen فى عام ١٨٤٧ . ومن المحتمل أيضاً أن يكون زين الدين التونسى قد بدأ رحلاته فى الأقاليم السودانية بين عامى ١٨١٨ و ١٨١٩ . وتنحصر أهمية كتاباته فى وصفها لحضارتى دارفور ووادای وأنظمتها الاجتماعية ، إذ أورد زين الدين التونسى بيانات مفصلة عن حياة القبائل والتجارة والعقائد الدينية والتقاليد الشعبية فى المناسبات المختلفة مما قد يعد تكملة هامة لما أورده لنا محمد بن عمر التونسى فى صورة أكثر تفصيلا .

أما عن كتاب تشحيذ الأذهان فيعد مصدراً هاماً فى التعريف بأحوال إقليمين من أقاليم السودان هما دارفور ووادای . وقد عرف إقليم دارفور باسم أقدم شعب سكن ذلك الإقليم وهو شعب الفور . وحوالى منتصف القرن السابع عشر الميلادى قامت فى هذا الإقليم سلطنة إسلامية كانت امتداداً للسلطنات الإسلامية التى ظهرت فى أقاليم السودان الغربى . وليس من شك فى أن معلوماتنا عن إقليم الفور معلومات قليلة تعتمد أساساً على الروايات المتناقلة التى حفظها الأهالى ومعظمها يكتنفه التناقض والغموض . غير أنه من الثابت أن الهجرات العربية قد وصلت إلى هذا الإقليم خلال السنوات الأخيرة من القرن السابع الميلادى ، وأدى اختلاط العرب بشعب الفور إلى

ظهور طبقة الكنجارة التى نالت نصيباً من الدماء العربية ، ومن هذه الطبقة ظهرت أسرة حاكمة انتزعت حكم دارفور من شعب التنجور الذى كان يحكم المنطقة ابتداءاً من القرن الخامس عشر الميلادى ، وقد ظلت الأسرة الجديدة تحكم دارفور منذ منتصف القرن السابع عشر حتى نهاية حكم على بن دينار فى عام ١٩١٦ .

وكان من أهم الرحالة الأوربيين الذين زاروا دارفور برون W.G.Browne ١٧٩٣ — ١٧٩٦ ، ولكنه ظل هذه السنوات الثلاث أشبه ما يكون بالسجين ، إذ لم يسمح له بالتجول فى البلاد بسبب ارتياب سلطان دارفور فى نواياه باعتباره أجنبياً ، ومن ناحية أخرى أن برون لم يعثر فى دارفور على تاريخ مدون لهذه البلاد ، ومن ثم جاءت المعلومات التى استطاع الحصول عليها من الأهالى سطحية يشوبها القدر الكبير من الاضطراب باستثناء بعض الملاحظات الخاصة التى أوردها عن أحوالها الاقتصادية والجغرافية(١). ولذلك يعتبر الشيخ محمد بن عمر التونسى أول رحالة عربى زار المنطقة فى العصر الحديث وأتيحت له عروبته أن يلم إلماماً واسعاً بأحوال دارفور من النواحى الاجتماعية والاقتصادية ، بالإضافة إلى أنظمتها السياسية والإدارية والعسكرية وعلاقاتها بجيرانها ، هذا فضلا عن لمحات من تاريخها . وقد أعان التونسى على تسجيل هذه النواحى جميعها قدرته على التحرك فى الإقليم الذى كان موطناً لكثير من القبائل العربية التى تربطه وإياها روابط الأصل واللغة والدين .

حقيقة أن التونسى لم يذهب إلى دارفور حباً فى الدراسة أو الاستطلاع أو الكشف الجغرافى ، ولكنه ذهب كما يعترف بنفسه للحاق بأبيه عمـــر

---

(١) cf. Browne W-G, Travels in Africa, Egypt and Syria London 1799

التونسى الذى ارتحل إلى سنار ، ثم إلى دارفور ، ومن قبـــل ذلك رحل جده سليمان إلى سنار . ولكنه على الرغم من كل هذه الدوافع الذاتية إلا أنها لا تؤثر فى النتيجة التى انتهى إليها أخيراً ، إذ أنه استطاع فى نهاية الأمر أن يخرج لنا عملا ضخما .

وليس من شك فى أنه مما أفاد التونسى فى الإلمام بأحوال البلاد السياسية والاجتماعية والاقتصادية علاقة أبيه وجده بهذه البلاد من قبل ، اللذان صاهرا أهلها، وأضحى لمحمد بن عمر التونسى فيها أخوة وأعماماً ، وقد اشتغل هؤلاء جميعاً بالعلم والتجارة وتنقلوا بين تونس ومصر والحجاز وسنار ودارفور ووادای، وصارت لهم مصالح تجارية واسعة ومراكز سياسية مرموقة ومكانة دينية عظيمة عند سلاطينها وفقهائها . ومما لا شك فيه أيضاً أن خبرة هؤلاء جميعاً أضافت كثيراً إلى ما اكتسبه الشيخ التونسى بنفسه من خبرة ذاتية بأحوال هذه البلاد خلال سنوات إقامته بها .

ومما يسر للتونسى التعرف على نواحى الحياة فى البلاد سهولة التخاطب مع كافة الطبقات باللغة العربية، التى كان لا يعرفها إلا القليلين من أهالى دارفور ، كما أتيح للتونسى بما ناله أبوه من حظوة لدى السلطان والأمراء والوزراء والفقهاء أن يحضر مجالسهم ويقف على كثير من أسرار السياسة وتقاليد البلاد ونظم الحكم والإدارة والقضاء ويشهد بعض الحوادث السياسية والحربية الهامة ، وأتيح للتونسى أيضاً أن يتجول فى كل أنحاء دارفور فى حرية تامة وأن يمر بمدنها وقراها وأسواقها، وأن يدخل المناطق الجبلية الوعرة التى كان لا يسمح لأحد بالدخول فيها إلا بإذن من السلطان، وهى المناطق التى يسكنها « أعجام الفور » على حد تعبيره، ولذا تتميز كتابات التونسى لما شهده فى هذه البلاد بالدقة وقوة الملاحظة والقدرة على النفاذ إلى أعماق الأمور رغم حداثة سنه وقتذاك وبذلك استطاع أن يدرس حياة الناس على اختلاف عناصرهم وطبقاتهم ولغاتهم ، دراسة علمية طيبة .

وفى مقدمة كتابه عرض لترجمته الذاتية ، ومنها نلحظ أن مصر كانت كعبة العلماء ، حج إليها جد المؤلف سليمان ووالده عمر ، ثم المؤلف نفسه . إذ تلقى الجد علومه الدينية واللغوية فى الأزهر ، ثم خرج من تونس للحج ، ثم عاد إلى سنار حيث طاب له العيش ونسى أهله فى تونس . ثم خرج سليمان فى قافلة من سنار إلى مصر للتجارة فالتقى بابنه وبحفيده ، وتواعد الجميع على اللقاء بعد انتهاء موسم الحج على أن سليمان مات فى مكة فعاش ابنه فى مصر وتزوج من فتاة مصرية ، ثم انتقل إلى سنار ، أما ابنه محمد فقد نشأ فى مصر وتلقى دروسه فى الأزهر، حتى إذا بلغ الرابعة عشرة من عمره اعتزم البحث عن أبيه فى بلاد السودان ، وكان مما دفعه إلى ذلك التقائه بأصدقاء أبيه فى القاهرة ، وسافر مع أحدهم فى صحبة قافلة مسافرة إلى دارفور سلك فيها طريق درب الأربعين ، وهو الطريق الذى سلكه قبل ذلك بعشر سنوات الرحالة الإنجليزى براون الذى سبق أن أشرنا إليه ، وقد بقى هذا الطريق من بين الكثير من المسالك التجارية التى كانت تسير عبر الصحراء الغربية ، وقد أغلقت هذه الطرق بسبب أو آخر ، من أهمها ساقية الريح التى كانت تردم القوافل بأكملها ، وقد لعبت هذه الطرق دوراً هاماً فى نقل الحضارة إلى قلب القارة الأفريقية وإلى أقسامها الغربية ، كما كانت أيضاً الطريق الذى سلكته الهجرات المتتابعة بخاصة من حوض وادى النيل الأدنى .

ولما وصل الشيخ محمد بن عمر التونسى إلى دارفور استقبله هناك أحد أعمامه ، وصحبه إلى حيث يقيم أبوه عمر فى اقطاعه ، الذى منحه إياه السلطان عبد الرحمن الرشيد فى «أبو الجدول» ، وكان السلطان فى ذلك الوقت (١٨٠٣)، هو الحدث محمد فضل الذى خلف أباه عبد الرحمن الرشيد على حكم دارفور ، وتولى الوصاية عليه الوزير الأعظم الشيخ محمد كرّا . ولم يفت على الأب أن يقدم ابنه إلى أولى الأمر فى البلاد ، فأرسله إلى تفولتى محملا بالهدايا إلى الوزير الأعظم الشيخ محمد كرّا ، والفقيه مالك الفوتادى ، ولما عاد محمد بن عمر إلى

أبى الجدول ، سافر والده إلى تندلتى ليستأذن فى السفر إلى تونس لرؤية أهله وأقاربه، وليخبر الوزير أنه سيترك ابنه فى (أبو الجدول) ليجمع خراج إقطاعه وينتفع بزراعته ، فسمح له الوزير بالسفر بعد أن وعده عمر بالعودة ثانية إلى دارفور ، وقد أعطى عمر ابنه وثيقة الاقطاع فى «أبو الجدول» ، ثم غادر دارفور قاصداً تونس بطريق واداى ، غير أنه لما وصل إلى واداى تطلع للحصول على منصب رفيع فى حاشية السلطان محمد عبد الكريم صابون سلطان واداى ، وظل هناك عدة سنوات ، ثم رحل بعد ذلك إلى تونس .

أما عن الشيخ محمد بن عمر التونسى ، فإنه عاش فى دارفور سبع سنوات ونصف ألم من خلالها بأحوال البلاد إلماماً تاماً ، ولم يتمكن من مغادرة دارفور إلى واداى إلا بعد انتهاء الحرب بين البلدين حيث سافر إلى واداى على رأس وفد من قبل السلطان محمد فضل ، واستقبله السلطان محمد عبد الكريم صابون استقبالا طيباً وأسبغ عليه من عطفه ما أسبغه على أبيه من قبل. وقد أقام التونسى فى وادى مدة لم يلبث بعدها أن واجهته بعض المشاكل التى تغيرت بسببها أحواله ، وأولى هذه المشاكل أن عمه طمع فى أملاكه لنفسه ، وثانيهما توتر العلاقات بينه وبين وزير سلطان واداى ، ولكن والد التونسى استطاع بنفوذه لدى السلطان أن يعزل وزيره أحمد الفاس ، وإن كان لم يلبث أن استرد منصبه بعد رحيل عمر إلى تونس ، وبعد أن قضى محمد بن عمر وقتاً فى واداى استأذن السلطان صابون فى السفر إلى تونس ، فأذن له حيث بلغها حوالى عام ١٨١٣ ، أى بعد عشر سنوات تقريباً منذ غادر القاهرة إلى دارفور . ومن تونس رحل التونسى إلى مصر حيث وضع فيها كتابه .

وقد يكون من المفيد بعد أن ألممنا بالتونسى ، وعن ظروف تواجده فى بلاد السودان ، أن نعرض لكتابه المسمى بتشحيذ الأذهان فى سيرة بلاد العرب والسودان .

يبتدىء الكتاب بمقدمة تفصيلية تشتمل على ثلاثة أبواب : الباب الأول

عن السبب الذى دفعه إلى رحلته ، والباب الثانى وصف الطريق الذى اجتازه من الفسطاط إلى دارفور ، وبه إشارات مفيدة عن طريق درب الأربعين[1]. أما الباب الثالث فقد تعرض فيه لبعض الجوانب التاريخية ، كما عنى بوضع ترجمة للسلطان عبد الرحمن الرشيد سلطان دارفور .

وانتقل التونسى بعد المقدمة بأبوابها إلى محتوى الكتاب وقد قسمه بدوره إلى ثلاثة أبواب : الباب الأول وينقسم إلى خمسة فصول ، تناول فى الفصل الأول جغرافية دارفور وقبائلها ، والفصل الثانى عوائد الفور ، وعادات ملوكهم ، والفصل الثالث فى مناصب ملوك الفور ، والرابع فى كيفية مجلس السلطان ، أما الفصل الخامس فقد عنى فيه بوصف أزياء ملوك الفور .

والباب الثانى من محتوى الكتاب : ينقسم إلى فصلين : أحدهما فى اصطلاح تزويج الفور ، والثانى فى الخصيان . كما أنه يستمد من مسحه الاجتماعى لمنطقة الفور فى الباب الثالث ، ففى الفصل الأول من ذلك الباب يعرض لأمراض السكان وكيفية معالجتها بالطرق البدائية . أما الفصل الثانى من ذلك الباب فقد خصصه للمعاملات التجارية ، وأخيراً يختتم رحلته فى دارفور فيما يثبت فيها وفى السحر والتعزيم وضرب الرمل والتنجيم ، وما إلى ذلك مما قد يفيد المتخصص فى الدراسات الاجتماعية على وجه خاص .

---

(١) بقى طريق درب الأربعين من بين الكثير من المسالك التجارية التى كانت تسير عبر الصحراء الغربية أكثر استخداما ، وقد لعبت هذه الطرق دورا هاما فى نقل الحضارة إلى قلب القارة وأقسامها الغربية كما كانت أيضا الطريق الذى سلكته الهجرات المتتابعة بخاصة من حوض وادى النيل الأدنى .

راجع الشاطر بصيلى — مملكة موريتانيا المصرية ص ص ٤/٥ — محاضرة ألقيت فى الموسم الثقافى للجمعية المصرية التاريخية ٦٧/٦٨ ، وقد أورد على مبارك فى خططه بيانات هامة عن درب الأربعين .

انظر على مبارك : الخطط التوفيقية حـ ١٧ ص ص ٣١/٣٣ .

ومما لا شك فيه أن التونسى استطاع فى رحلتيه إلى دارفور ووادای أن يمدنا بوصف جغرافى واجتماعى، كما أعطى تقسيمات للسودان، كما كانت على عهده: كمملكة سنار، وكردفان، ودارفور، ووادای - المعروفة بدار صليح - والباجرمى، وبورنو، وتمر، وتنبكتو ومالى.

وعلى الرغم من أنه قرر أن عهد تأسيس كل من وادای، ودارفور ليس بقديم، اذ أن ذلك لا يزيد على مائتى سنة من وقت رحلته، إلا أن ذلك لا يمنع من أن يكون الدين الإسلامى واللغة العربية قد انتشرت فى تلك الأقاليم، فى زمن أسبق بكثير، كما نفهم ذلك من كتابات الرحالة السابقين عليه، وإن كان التنظيم السياسى لم يظهر بصورة واضحة إلا منذ أوائل القرن السادس عشر الميلادى طبقاً لما يقرره التونسى.

وعلى الرغم من أن التونسى قد تنقل فى كثير من بلاد السودان، إلى أن كتاباته انصبت فى معظمها على كل من دارفور، ووادای من حيث أقسامها وجغرافيتها ومناخها ونباتاتها وصناعات أهلها، ولا شك أن وصفه التفصيلى لدارفور يعطى القارىء انطباعاً بأن ما ذكره عن الإقليم لم يقتصر على مشاهدته الخاصة، وإنما استعان فيما يبدو على جمع المعلومات بفقرات من الكتب التى من المؤكد أن يكون قد اطلع عليها، وإن لم يأت بذكر لها، ذلك لأن الوصف الدقيق الشامل الذى أتى به أمر يعجز عنه المشاهد السطحى، ولا شك أن رحلة التونسى تعد مسحاً دقيقاً من الناحيتين الطبيعية والبشرية، لإقليمى دارفور ووادای، كما ترجع أهميتها إلى أنه عنى فيها بتوضيح الأصول العربية للقبائل السودانية، كما ذكر طرفاً من القبائل العربية التى طاب لها الاستيطان فى بعض أقاليم السودان. فقد ذكر مثلا أن حول إقليم وادای تسكن قبائل عربية أهمها: الزبيدية (زبيد)، كما أن هناك عرب العريقات، الذين وفدوا من العراق، كما تسكن إلى الشمال من وادای قبائل المحاميد، وهم يتألفون من

بطون وأفخاذ عديدة وعندهم ، كما يذكر ، أموال لاتحصى من الإبل والخيل وغيرها . أما فى الجنوب فيوجد عرب المسيرة والفلان ، وهم ينتشرون بكثرة فى الإقليم . والأمر الذى لا شك فيه أن مطالعتنا لما أورده التونسى عن هذه القبائل توضح لنا الأثر العربى الهام الذى تأثرت به أقاليم السودان .

### التوسع المصرى فى أفريقيا :

وبالاضافة إلى الدور الذى أسهمت به مصر فى النصف الأول من القرن التاسع عشر فى مجال التأثير الحضارى فى إفريقيا ، سواء فى التعرف على الأقاليم الافريقية باتاحة الفرصة للرحالة عرباً أو أجانب للتوغل فى تلك الأقاليم ، أو تهيئتها المناخ العلمى لتدوين هذه الرحلات ، فقد كان لمصر دور آخر أكثر إيجابية فى مجال إدخال الحضارة إلى كثير من الأقاليم الافريقية ، ويرتبط هذا الدور ارتباطاً وثيقاً بالتوسع المصرى ، وامتداد الفتوحات المصرية إلى مناطق نائية فى قلب القارة الأفريقية ، وصلت إلى البحيرات العظمى ومناطق أعالى النيل ، إلى جانب سواحل البحر الأحمر . وقد امتد الحكم المصرى قرابة ستين عاماً من ١٨٢٠ — ١٨٨١ ، أى منذ بداية فتح السودان حتى قيام الثورة المهدية ، ثم الانسحاب من المناطق التى وصل إليها الحكم المصرى عام ١٨٨٥ . ولا شك أن هذه السنوات التى قضتها مصر تركت تأثيرها على كثير من الأقاليم التى شملها الحكم المصرى ، إذ أتاحت لها مجالات كبيرة للتقدم والازدهار ، على عكس مارددته بعض المصادر الاستعمارية من اتهام الإدارة المصرية بالاستغلال لتبرير الخطة الاستعمارية التى انتهت بالاستيلاء على المناطق التى امتد إليها الحكم المصرى .

وقد يكون من المناسب أن نشير هنا إلى أن أولى مراحل التوسع المصرى فى إفريقيا بدأت فى عام ١٨٢٠ ، بفتح السودان ، وهنالك دوافع عديدة أدت إلى هذا الفتح ، لعل أبرزها أو على الأقل ما رددته بعض

المصادر من حاجة محمد على إلى تجنيد السودانيين لتعويض ما فقده فى حروبه العنيفة فى الجزيرة العربية ، هذا بالاضافة إلى اضطراب التجارة بين مصر والأقاليم التى تليها جنوباً نتيجه سيطرة المماليك الذين فروا إلى النوبة عقب مذبحة القلعة فى عام ١٨١١ ، ووضوح سيطرتهم فى المنطقة الواقعة بين إسنا ووادى حلفا ، وحاجة محمد على إلى تأمين طرق التجارة ، والتخلص من بقايا المماليك ، كما يمكن أن نضيف إلى تلك العوامل رغبة محمد على فى اكتشاف منابع النيل لما يرتبط ذلك باحتياجات الزراعة التى كانت تعنيه بصفة خاصة ، وكذلك ســـد حاجته من الأيدى العاملة السودانية لخدمة مشروعاته الزراعية والصناعية أو العسكرية ، هذا فضلا عن رغبته فى توسيع حدود مصر من الجنوب وإيجاد تكامل اقتصادى بينها وبين السودان وبالتالى ربط البلدين بسياسة الاحتكار التى سار عليها .

وقد يكون من المفيد أن نشير هنا إلى أنه لم يكن يقصد أقاليم السودان من المشتغلين بالتجارة قبل الفتح المصرى سوى فئة قليلة من التجار ، أو المغامرين ، وكان معظمهم من سكان الوجه القبلى ، وكانت مغامراتهم عرضة للأخطار فى كثير من الأحيان . أما معظم تجارة السودان فقد تحولت إلى طرق أكثر طمأنينة نسبيا نحو موانى سواكن ومصوع على البحر الأحمر . ولا شك أن ظروف السودان المضطربة قد يسرت كثيراً من أسباب الفتح ، ومما يسترعى الانتباه أن الحملات العسكرية المختلفة التى تتابعت من مصر ، إلى أقاليم السودان كانت تصاحبها عادة بعثات من العلماء ، وكان الهدف من ذلك واضحا وهو الرغبة فى توسيع نطاق المعارف الخاصة بالأقاليم التى يمكن أن تصل إليها القوات المصرية .

ولذلك فقد يكون من اليسير علينا أن نقيم الجهود الكشفية التى قامت بها مصر من خلال تتبعنا للحملات العسكرية التى أرسلت لفتح أقاليم السودان من ذلك مثلا أن حملة اسماعيل باشا بن محمد على بعد أن نجحت فى السيطرة

على بلاد النوبة فى عام ١٨٢٠ ، بدأت توغلها فى جهات السودان ، ونظراً للمصاعب التى واجهتها فى اختراق الصحراء آثرت التقدم بمحاذاة نهر النيل إلى أن بلغت بربر فشندى فالحلفاية ، وكان لذلك التقدم الذى أحرزته الحملة هاماً للغاية من حيث تأكيده أن البحر الأبيض (النيل) هو المجرى الرئيسى لنهر النيل . وفى العام التالى ١٨٢١ وصلت من مصر امدادات عسكرية بقيادة إبراهيم باشا الذى اشترك مع اسماعيل باشا ، فى اتخاذ مايلزم من وسائل بغية استكشاف النيلين الأبيض والأزرق ، والوقوف على حقيقة مجراهما ، وبالفعل انقسمت القوات المصرية إلى قسمين : قسم سار على النيل الأزرق حتى وصل إلى فازوغلى ، أما القسم الثانى فقد اجتاز جزيرة الخرطوم متتبعاً النيل الأبيض إلى بلاد الدنكا ، وكانت هناك بعض الآمال المعلقة على هذه الحملة منها إمكانية الوصول إلى أقاليم السودان الغربى ، إذ كان من المعتقد فى ذلك الوقت اتصال النيل الأبيض بنهر النيجر الذى يخترق أقاليم غرب السودان . ومع ذلك فقد أعدت خطة أخرى فى حالة فشل الخطة الأولى ، وهى أن تواصل الحملة سيرها بعد استعانتها بجنود من بلاد كردفان ، ثم الزحف إلى دارفور وبورنو ، وأخيراً يمكن للحملة العودة إلى مصر عن طريق طرابلس الغرب . ومع ذلك فلم يقدر لهذا المشروع أن يأخذ طريقه إلى مجال التنفيذ .

وكان من أهم العلماء الأوربيين الذين رافقوا حملات السودان سجاتو ، وزوكولى ، وفريديانى ، وريتشى ، وكورتر ، وليتورزك Letorzec ، وكايو Cailliaud ؛ وقد يهمنا الأخير بصفة خاصة حيث أمدنا بوصف تفصيلى لحملة النيل الأبيض[1] ، وكان فردريك كايو قد صحب الحملة المصرية

(١) يقع هذا الوصف فى أربعة أجزاء بعنوان :

Voyage à Méroé et au Fleuve blanc Paris 1826.

بعد فتح دنقلة وتوغل مع الحملة فى النيل الأبيض بقصد الاستكشاف والبحث عن مناجم الذهب، وقدوضع كتاباً هاما يعد من أهم مصادر فتح واستكشاف أقاليم السودان ، بعنوان : رحلة مروى والنيل الأبيض ، وفازوغلى . ويقع هذا الكتاب فى خمسة أجزاء ، كما وضع كايو خريطة لمجرى النيل من وادى حلفا إلى مصب نهر التومت عين فيها ما فى هذه المنطقة من مواقع طبيعية . وقد عنى كايو بوضع التقارير الهامة عن الطرق والمسالك والجغرافية للمناطق التى مرت بها الحملة ، كما وضع كتاباً آخر فى لهجات القبائل السودانية المختلفة ، القاطنة فى هذه المناطق ، وأضاف إلى ذلك كله معلومات مفيدة عن تاريخ السكان ، ووصف طبائعهم وبيان أحوالهم ومعيشتهم .

وعقب الفتح المصرى للسودان ، بدأ محمد على فى تعيين الولاة على الأقاليم المختلفة . وقد برز من ولاة السودان فى عهد محمد على ، خورشيد باشا ، الذى عين فى عام ١٨٢٦ . وعمل على توسيع الفتوحات المصرية إلى القلابات الواقعة فى شرقى السودان ، كما تم فى عهد الوالى أحمد باشا أبوودان فتح إقليم التاكا ( كسلا ) الواقع بين نهر عطبرة والبحر الأحمر ( ١٨٤٠ ). وإلى هذا الوالى يعزى تأسيس مدينة كسلا التى اتخذت عاصمة لإقليم التاكا[١] كما زار محمد على السودان فى عهد أحمد باشا أبو ودان فى عام ١٨٣٨ ، وكان محمد على يستهدف بهذه الزيارة تفقد أحوال الإدارة المصرية والبحث عن معدن الذهب، ولذلك وصل فى رحلته إلى جبال فازوغلى ، وكان يصحبه فى رحلته هذه طائفة من الباحثين والمهندسين من أبرزهم ليففر Lefevre ، ودارنو D'Arnaud ، ولامبرت Lambert .

وعلى الرغم مما اتجهت إليه بعض المصادر الاستعمارية من التهوين من

---

(١) Holt, A Modern Histoly of the Sudan From the Funj Sultanate to the Present day p. 52 - 55 London, 1967

أهمية الحكم المصرى للسودان ، ودمغه بأعمال القسوة والعنف ، مركزة فى ذلك على بعض التصرفات الشاذة التى نسبت إلى بعض الولاة الأتراك ، الذين توالوا على حكمدارية أقاليم السودان ، إلا أن الأمر الذى لا شك فيه أن هذه الأعمال لم تكن تصدر من سياسة مقررة فى الحكم . كذلك حرصت المصادر الاستعمارية أيضاً على وصف الحكم المصرى بكل نقيصة ، والتأكيد على فضل الإدارة الإنجليزية فى إدخال الحضارة إلى ربوع السودان ، ولا شك أن ما ذهبت إليه هذه المصادر إنما هى إتهامات باطلة ، اعتمدت فى أساسها على تشويه متعمد للحقائق ، إذ من المعروف أن الفضل فى التقدم الذى أحرزته أقاليم السودان منذ الفتح الأول فى عهد محمد على ، ثم الفتح الثانى فى عهد الخديو إسماعيل ، إنما يرجع إلى الحكم المصرى ، وإلى الدماء والسواعد والجهود والأموال التى بذلها المصريون بسخاء . فقد ضحى المصريون بأرواحهم فى سبيل فتح السودان وتعميره ، وإقرار سلطة الأمن فى ربوعه . وقد يكون من المفيد أن نشير هنا إلى التضحيات الكثيرة التى بذلتها مصر من أجل تحقيق هذه الغاية الكبرى ، إذ بلغ عدد من فقدهم الجيش المصرى فى الفتح الأول للسودان، سواء ممن قتلوا فى المعارك ، أو ممن فقدوا فى الرحلات الكشفية البعيدة الشاقة ، أو ممن اجتاحتهم الأوبئة والأمراض ، ما يقرب من ثلاثة آلاف شخص[1] ، وكان ذلك ثمن ما دفعته مصر لنشر لواء الحضارة والعمران ، وتأسيس إدارة نظامية لم تكن تعرف البلاد لها وجوداً من قبل . وعلى الرغم مما ينسب إلى محمد على من أهداف واضحة حول استغلال السودان إلا أن نظرة المصريين إلى السودان لم تنصرف إلى تحقيق أطماع استغلالية ، وإنما كانت النظرة منصرفة دائماً إلى أن السودان يرتبط برباطات اقتصادية وروحية وثيقة بمصر .

وكان تأسيس المدن من أهم ما عنى به الحكم المصرى ، وقد أصبحت

---

(١) عبد الرحمن الرافعى : عصر محمد على ص ١٩٢ ، القاهرة ١٩٥١ .

هذه المدن منبعاً للحضارة والتقدم فى كثير من الأقاليم السودانية . وكانت من أهم المدن التى أنشأت : مدينة الخرطوم ، التى كرس خورشيد باشا جهوده لتنميتها وتطويرها ، فقد شجع الكثيرين على الإقامة بها بمنحهم امتيازات ، عديدة مما أثر على إزدياد عـــدد سكانها ، حتى أن المسجد الذى أنشىء بها فى عام ١٨٢٧ قد أزيل ليحل محله مسجداً أكبر ، كما أقيم مستودع عسكرى وميناء نهرى للشحن ، وشجع سكان الخرطوم على بناء منازل ثابتة بدلا من الخيام حيث أمدوا بأدوات البناء ، كما وجه الاهتمام بإنعاش التجارة بتأمين طرقها حتى استطاع عدد كبير من التجار تكوين ثروات كبيرة خاصة بهم ، وفى مجال الزراعة أرسل فلاحون مصريون لتعليم السودانيين أساليب الزراعة وفنونها ، وأدخلت زراعات جديدة ، كما طورت زراعة قصب السكر والنيلة، ثم أدخلت بعد ذلك زراعة القطن[1] .

وقد ذكر المسيو ديهيران فى كتابه « السودان المصرى فى عهد محمد على » حول تأسيس مدينة الخرطوم ، أن المصريين حينما فتحوا بلاد السودان لم يقع اختيارهم على بلدة من بلاده القائمة مثل بربر ، أو سنار ، أو الأبيض عاصمة لممتلكاتهم ، وإنما أنشأوا عاصمة جديدة هى الخرطوم التى لم يكن فى مكانها قبل الفتح المصرى سوى قرية صغيرة ، بها بضعة أكواخ للصيادين تقع على رأس النيليين الأبيض والأزرق، وقد أصبحت منذ عامى ١٨٢٣/١٨٢٤ مدينة آهلة بالعمران ، ومن الملاحظ أن الحملات العسكرية كانت تتخذ من سنار نقطة تجمع لها ، ولما كان المناخ فى سنار قد أضر كثيراً من الجنود ، فقد أنشأت مدينة الخرطوم ، ولكن منذ عام ١٨٣٠ بدأ خورشيد باشا يتخذ منها مقراً للحكم ومركزاً للإدارة ، وبعد أن تأسست المدينة أصبحت ملتقى المتاجر القادمة من أنحاء السودان ، وداخلية إفريقيا ، أو الواردة إليها

---

(١) Holt. A Modern History of the Sudan p. 52—55.

من مصر والخارج ، فازدهر عمرانها ، وصارت من أعظم المدن التجارية ، كما أصبحت مركزاً للرحلات والاستكشافات الجغرافية والعلمية .

ولم تكن الخرطوم هى الوحيدة من نوعها ، وإنما تأسست كثير من المدن فى أقاليم السودان المختلفة ، أبرزها : كسلا ، وفاوكه على النيل الأزرق التى اتخذت عاصمة لمديرية فازوغلى .

ومهما اختلف بعض الكتاب الذين تعرضوا للحكم المصرى فى السودان فى تقديرهم لذلك الحكم على عهد محمد على ، فإن المصنفين منهم قد أجمعوا على امتداح الوسائل الإدارية الحديثة التى أدخلتها مصر ، كما اعترف الكثيرون بنجاح مصر فى بسط الأمن فى كثير من الأقاليم النائية . وقد يكون من المفيد أن نقرر هنا بعض الحقائق التى تعنينا فى توضيح أهمية الدور الذى قامت به مصر ، من ذلك أن الرحلات التى كانت تتجه إلى السودان قبل الفتح المصرى كانت مليئة بالأخطار ، نظراً لاضطراب الأمن وانقطاع الطرق والسلطة الواهية للحكام أو الرؤساء المحليين ، وكان من جراء ذلك تعرض قوافل الحج والتجارة لعمليات السلب والنهب . وفى إقليم كردفان مثلا حيث لم يكن أى تاجر يأمن على نفسه أو أمواله ، استطاع الرحالة الإنجليزى بالم Palme أن يجتاز الاقليم ، ولم يكن فى صحبته سوى تابع واحد ، كذلك ساح فى السودان الرحالة كوتشى Kotchy فى عام ١٨٣٩[١] ، وأحد أمراء الألمان ويدعى Muskau ، كما جاءت عائلة ملى Melly للسياحة فى مدينة الخرطوم فى عام ١٨٥٠ ، كما لو ساحت فى ربوع إيطاليا نفسها ، وذلك على حد وصف ديهيران لمظاهر الأمن التى حققها الحكم المصرى فى السودان . وكان من نتائج الفتح المصرى لأقاليم السودان تنظيم البريد

---

(١) حسن أحمد محمود : انتشار الإسلام والثقافة العربية فى إفريقيا ص ٢٩٤ — ٢٩٥

خاصة بعد أن جعلت مدينة الخرطوم مركزاً للبريد ، الذى كان ينقل فى السفن ، ثم يحمل على ظهور الجمال فيرسل إلى مصر ، وجميع المديريات السودانية . وقد انشأت على طول الطرق محطات تستريح فيها الإبل وتبدل، وكانت الرسائل تصل إلى الخرطوم مرتين فى الشهر ، وتقطع المسافة بينهما فى خمسة وعشرين أو ثمانية عشر يوماً . وقد عقب المسيو جومار على انتظام البريد بقوله « من ذا الذى كان يظن قبل أربعين عاماً بل خمسة عشر عاماً فقط ، أن تصلنا الرسائل من ضفاف النيل الأبيض ، إلى ضفاف السين فى اثنتين وثلاثين يوماً ، وتصلنا من قزنقور ( جنوب فازوغلى ) عند الدرجة العاشرة من خط الإستواء فى خمسين يوماً » ؟

ومن المظاهر الحضارية الأخرى التى أدخلتها مصر فى السودان توجيه العناية إلى إدخال زراعات جديدة فى التربة السودانية ، كما بذلت مصر جهوداً لتسهيل المواصلات بينها وبين السودان ، وظهر الإهتمام بصفة خاصة بطرق القوافل التجارية ، ومن أجل ذلك حفرت الكثير من الآبار فى الطريق بين كرسكو ، وأبو حمد ، وكان ذلك الطريق من أشد الطرق وعورة فى صحراء النوبة .

وقد تعنينا بصفة خاصة ما حققته مصر من جهود فى كشف بعض الأقاليم النائية ، كذلك اهتم كثيرون من رواد حركة الكشف بمنابع نهر النيل ، وشملتهم الحكومة المصرية بعناية خاصة . كما حظوا بعناية الحاميات العسكرية التى كانوا يصادفونها فى رحلاتهم المختلفة ، والأمر الذى لا شك فيه أنه لولا هذه المساعدات لما تمكن هؤلاء من أن يحرزوا نجاحاً فى عملياتهم الكشفية ، وكما سبق أن أشرنا أصبحت مدينة الخرطوم مركزاً هاماً للرحلات الاستكشافية التى كانت تخرج منها بهدف اكتشاف منابع النيل .

ويمكننا ملاحظة دلائل عناية مصر بأعمال الكشف منذ بداية حملاتها

إلى السودان ، وكما سبق أن أشرنا اصطحب إسماعيل باشا بن محمد على بعض المهندسين فى فتوحاته الأولى ، وأن محمد على رحل بنفسه إلى أقاليم السودان مصطحباً معه أيضاً بعض العلماء والباحثين بهدف التوصل إلى معدن الذهب ، ثم أنه لما عاد من رحلته إلى السودان ، تولى بنفسه تنظيم البعثات العلميــة والجغرافية للكشف عن منابع النيل . وليس من شك فى أن العمليات الكشفية التى قامت بها مصر قد مهدت السبيل للرحلات الاستكشافية الكبرى . التى انتهت باكتشاف منابع النيل ، وإذا كانت هذه العملية الاستكشافية قد تمت خلال الفترة من ١٨٥٨ إلى ١٨٦١ ، أى عقب انتهاء الرحالتان سبيك ، وجرانت من الوصول إلى بحيرة فيكتوريا نيانزا وشلالات ريبون ، فإن الأمر الذى لا شك فيه أن الرحلات والحملات المصرية التى شهدتها أقاليم السودان ، قد مهدت الطريق أمام المستكشفين الأوربيين ، وأضاءت لهم السبيل ، وفتحت أمامهم بلاداً وأقاليم ومناطق لم يكن فى مقدورهم أن يجوبوا فيها لولم يشملها الحكم المصرى . وقد ذكر ديهيران بصدد ذلك فى كتابه عن السودان فى عهد محمد على ، بأن مصر بإنفاذها الرحلات والبعثات لاكتشاف منابع النيل ، قد ساعدت على تحقيق الأمل الكبير الذى كان يطمح فيه علماء الجغرافية، خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر . وقد قيل أن إبراهيم باشا كان شديد التطلع إلى تحقيق هذه الغاية ، فقد أفضى ببرنامجه الخاص بصدد ذلك إلى فردريك كايو، حينما قابله فى عام ١٨٢١ ، وأكد له أنه سيعمل على اكتشاف النيل الأبيض فى حملة من مراكب مسلحة ، وعدد كبير من القوارب الخفيفة التى تستطيع أن تمضى فى النهر بسهولة دون أن تعترضها الشلالات ، وستكون وجهة هذه العمارة النيلية أن تنحدر فى النهر وروافده، حتى تصل إلى منابعه . كذلك كان إسماعيل باشا قائد حملة السودان يطمح أيضاً إلى كشف منابع النيل ، فقد أخبر المسيو كايو حينما استأذنه فى العودة إلى مصر فى فبراير ١٨٢٢ أن ينشر المعلومات التى تم التوصل إليها فى فرنسا ، وأنه إذا عاد إلى مصر فإنه سيجد أن المصريين لن يقتنعوا بالاستكشافات

الضئيلة التى تم التوصل إليها ، بل إنهم سيبذلون جهوداً أخرى للوصول إلى منابع النيل الأبيض .

ومما تجدر الإشارة إليه أن الحكم المصرى كان عاملا فى تشجيع الرحلات الاستكشافية فى حوض النيل ، ولدينا بصدد ذلك رحلة هاى وهوشت Hay-Hocht اللذان وصلا فى عام ١٨٢٤ إلى ما يلى الخرطوم جنوباً ، وفى عام ١٨٢٧ وصل لينان دى بلفون إلى جنوب الخرطوم فى النيل الأبيض ، كما وصل إبراهيم بك كاشف إلى بلاد الشلك والدنكا الواقعة قرب بحر الغزال فيما بين عامى ١٨٢٨ و ١٨٣١ .

وقد يكون من المناسب أن نشير هنا إلى ما حققته الإدارة المصرية من توطيد الأمن فى أقاليم السودان خلال عمليات الفتح الأولى ، فقد وصلت حدود مصر شرقاً إلى البحر الأحمر ، وذلك عقب فتـــح إقليم التاكا ، والقضارف ، والقلابات على مقربة من حدود الحبشة ، وكان ذلك فى عام ١٨٤٠ ، كذلك دخلت موانى سواكن ومصوع فى حدود السودان المصرى بعد أن رأت مصر استئجارهما من السلطان العثمانى باعتبارهما منفذان هامان للأقاليم السودانية بصفة عامة ، ولإقليم التاكا بصفة خاصة ، ولم يكن الغرض من ذلك تحقيق أغراض توسعية خاصة فى الوقت الذى انهارت فيه قوة مصر المادية والعسكرية ، وإنما كان الهدف تأمين حدود الممتلكات المصرية من الحبشة . أما من جهة الجنوب ، فقد بلغت الحملات المصرية جزيرة جونكر الواقعة فى مقابل غندكرو على النيل الأبيض ، أما فيما يلى جونكر جنوباً وهو الإقليم الذى صار يعرف باسم مديرية خط الاستواء ، وإقليم أوغنده الذى يشمل منطقة البحيرات الاستوائية ، فقد تم فتحهما فى عهد الخديو اسماعيل . أما من الناحية الغربية ، فقد شمل الحكم المصرى إقليم كردفان بينما تأخر فتح سلطنة دارفور إلى عهد الخديو اسماعيل ، هذا على الرغم من أنها دخلت تحت الحكم المصرى من الناحية الرسمية فى عهد محمد على ، وذلك بمقتضى فرمان ١٣ فبراير

عام ١٨٤١ ، الذى أسند إلى محمد على ولاية أقاليم السودان ، وقد ورد فيه أقاليم النوبة — دارفور — كردفان — سنار وجميع توابعها وملحقاتها .

والأمر الذى لا شك فيه أن الجهـــود التى بذلتها مصر لفتح أقاليم السودان ، كانت جهوداً عنيفة ، ولـكن كان يمكن أن تـكون أشد قوة مما كانت عليه لولا انشغال محمد على بحروبه فى سوريا والأناضول ، وإلى غير ذلك من المشكلات العـديدة التى تعرض لها وخاصة خلال السنوات الأخيرة من حكمه .

وقد يكون من المفيد أن نركز هنا على الحملة التى قام بها محمد بك الدفتردار ، بهدف فتح إقليم كرفان الذى كان من المتوقع الإستفادة منه اقتصادياً لما اشتهر به من معدن الذهب وريش النعام والصمغ العربى ، وبالفعل نجحت حملة الدفتردار فى ضم الإقليم إلى الممتلكات المصرية . وقد يكون من أهمية حملة الدفتردار ، أن ما تحقق فيها من استكشافات جغرافية وقع أكثره على كاهل الحملات العسكرية المصرية ، إذ رفض الدفتردار أن يصحبه فى حملته أوربى واحد وإنما أخذ يعمل على تقرير الحقائق الجغرافية والطبيعة البشرية ، فكتب عدة تقارير هامة عن أحوال البلاد وحاصلاتها وما يصدر منها من تجارة وما يرد إليهـا موضحاً الوسائل اللازمة لإنعاش التجارة ومساعدة التجار ، وبث روح النشاط فى نفوسهم . كما اهتم بذكر طبائع السكان وبيان عاداتهم وتقاليدهم وأحوالهم المعيشية ، وقد ضمن ذلك كله فى التقارير الكثيرة ، التى كان يبعث بها إلى القاهرة ، وكثير منها لا يزال محفوظاً حتى الآن فى وثائق القاهرة بالقلعة ، وبالإضافة إلى ذلك أمر الدفتردار بتصميم خريطة لإقليم كردفان ، وكانت أول خريطة وضعت لذلك الإقليم ، وقد وصفها المسيو لينان دى بلفون بأنها «كانت عبارة عن قطعة طويلة من القماش ملفوفة على بعضها وقد رسم عليها بمقتضى قياس ما جميع الطرق المتنوعة التى تم السير فيها ، وهى طريق النيل ، وطريق دنقله إلى كردفان ، وطريق كردفان إلى سنار ،

ثم إلى فازوغلى ، وطريق قضارف إلى التاكه إلى شندة ، وقد وضح فيها المدن والآبار والجبال والمياه بأسمائها ، ولكنها كانت كلها مرسومة على خط مستقيم بحيث أنها كانت تذكر من ينظر إليها بخرائط الطرق والدروب التى كان يرسمها الرومان فى قديم الزمان[1] » .

وينبغى أن نلاحظ أن البحث عن المعادن فى أقاليم السودان كان من بين العوامل الهامة التى دفعت مصر إلى إرسال الحملات والبعثات المختلفة للتنقيب عنها ، وعلى الرغم من أنه لم يتيسر الحصول على المعادن بكميات وفيرة فقد قدر لبعثات التنقيب أن تصل إلى تحقيق نواح جغرافية هامة . وكان من أهم البعثات التى أرسلت للتنقيب عن المعادن بعثة رابل وهاى فى بلاد بربره ودنقله وكردفان،وقد نشر رابل كتاب بعنوان رحلة فى النوبة وكردفان،[2] وقد نجحت هذه البعثة فى وضع خريطة جغرافية لبلاد كردفان وتعيين مواقع متعددة عليها إلى جانب استكشاف أجزاء من مجرى نهر النيل . ولدينا بالإضافة إلى ذلك بعثة بروكى التى اتجهت إلى سنار بهدف العثور على معدن الذهب .

غير أن أهم الأعمال الكشفية التى قامت بها مصر فى النصف الأول من القرن التاسع عشر هى محاولة كشف منابع النيل ، إذ أن منابع النيل الاستوائية ظل أمرها مجهولا ، فلم تتعد رحلات القرن الثامن عشر بلاد النوبة والحبشة ، وكانت جميع الجهود التى بذلها المستكشفون فى ذلك القرن تنتهى فى منطقة السدود النباتية فى النيل الأبيض ، ولكن الفتح المصرى

---

(١) فردريك بنولا : مصر والجغرافيا ص ٢٩٦ وما بعدها — القاهرة ١٣١٠هـ ، تعريب أحمد زكى . وينبغى الإشارة هنا إلى الكتاب الذى وضعه المسيو لينان دى بلفون الأعمال ذات المنفعة العمومية فى الديار المصرية .

(٢) راجع أهم ماذكره رابل فى سياحته فى النوبة وكردفان فى كتاب فردريك بنولا مصر والجغرافيا ص ٢٠٦ وما بعدها .

للسودان كان فاتحة عصر جديد فى تاريخ الاستكشافات الإفريقية بصفة عامة ، واستكشافات منابع النيل الاستوائية بصفة خاصة ، فقد يسر الفتح المصرى للسودان دخول الرحالة والمستكشفين إلى مناطق جديدة فقام عدد كبير منهم بزيارة أقاليم السودان فى السنوات التى أعقبت الفتح المصرى واقتفت رحلاتهم المناطق التى امتدت إليها الإدارة المصرية فى بلاد النوبة ، وسنار ، وكردفان ، وإقليم التاكا ، أما أقاليم السودان الجنوبى ، التى لم تكن الإدارة المصرية قد امتدت إليها ، فلم يستطع الرحالة التوغل فيها[1] . ولذلك عنيت مصر منذ عام ١٨٣٦ بإرسال حملات كشفية إلى أعالى النيل الأبيض ، وكانت النتائج التى توصلت إليها هذه الحملات هى الأساس الذى ارتكز عليه حل مشكلة منابع النيل الاستوائية ، وكانت أول الحملات المصرية التى أرسلت لذلك الهدف بعثة سليم قبودان ، التى غادرت الخرطوم فى ١٦ نوفمبر سنة ١٨٣٩ ، وعادت إليها فى ٣٠ مارس ١٨٤٠ ، وقد وضع البكباشى سليم قبودان تقريراً سجل فيه رحلته هذه وضمنها تفاصيل كثيرة عن حالة المناطق والقبائل التى صادفها ، وألحق بهذا التقرير جداول تتعلق بالإرصادات الجوية ، كما أورد معلومات مفيدة عن مجرى النيل والروافد التى تصب فيه ، كما أضاف إلى ذلك بياناً بالطرق والمسالك خصص لها ما يقرب من عشرين جدولا . وقدم المسيو جومار هذا التقرير إلى الجمعية الجغرافية الفرنسية بباريس ، ونشر فى مجلتها فى عام ١٨٤٢ وصدّر جومار ذلك التقرير بمقدمة أثنى فيها على الجهود التى بذلها ذلك الضابط المصرى ، وكان مما ذكره أن حملة سليم قبودان تألفت من أربعمائة جندى ، وكان غايتها تحقيق اكتشافات جغرافية ، وكانت أولى بعثة من نوعها تصل إلى تقرير حقائق جغرافية هامة ، وأن البعثة كانت ثمرة من ثمرات الحضارة والبيئة العلمية التى ظهرت فى مصر فى النصف الأول من القرن التاسع عشر .

---

(١) Hill, Egypt in the Sudan 1820—1881 p. 32

وكانت البعثة الثانية التي أرسلت إلى النيل الأبيض أكثر أهميه من البعثة الأولى ، وقد قاد سليم قبودان هذه البعثة أيضاً فى ٢٣ نوفمبر ١٨٤٠ ، وإن كانت رئاستها العلميه قد ألقيت على عاتق المسيو دارنو D' Arnaud ، وقد اتجهت البعثة متتبعة نهر السوباط مقتربة من خط الاستواء إلى الدرجة الرابعه من خطوط العرض الشماليه ، ولكنها لم تستطع أن تتوغل إلى أبعد من ذلك بسبب ضحالة المياه فعادت إلى الخرطوم فى ١٨ مايو ١٨٤١ .

وكان من نتائج هذه البعثة رسم خريطة كبيرة فى عشر صفحات عن مجرى النيل الأبيض والمناطق المحيطة به ، إلى جانب وضع خريطة أخرى عنيت بتوضيح الطرق والمسالك التي قطعتها البعثة ، وقد نشرت الجمعية الجغرافية الفرنسية صوراً مصغرة من هاتين الخريطتين . وفى مؤتمر الجغرافيا الدولى الذى انعقد فى باريس فى عام ١٨٨٩ ، وصف الدكتور فردريك بنولا رحلات سليم قبودان باعتبارها الأساس الذى بنى عليه حل مشكلة منابع النيل ، وذلك بفضل ما توصل إليه من دراسات طبيعية وجغرافية لمجرى النيل الأبيض . والأمر الذى لا شك فيه أن رحلات سليم قبودان أدت إلى نتائج هامة ، كان أبرزها التمهيد لارتياد منطقة أعالى النيل ، ونقل بعض الغلات الزراعية إليها ، والأهم من ذلك أنها كانت عاملا فى فتح الطريق بين النيل الأبيض ومقاطعات السودان الجنوبى ، إلى جانب ربط السودان الشمالى بجنوبه . والجديد فى بعثات سليم قبودان أنها اكتشفت بلاداً ومناطق كثيرة كانت تعد حتى ذلك الوقت فى حكم المناطق المجهولة ، إذ لم يطرقها من قبل أحد من الرحالة أو المستكشفين ، كما أعطت هذه البعثات فرصة لدراسة جغرافية الأقاليم التى وصلت إليها ومعرفة سكانها ونباتاتها ومناخها ، كما أنها مهدت السبيل للحملات الأخرى التى أرسلت من مصر فى النصف الثانى

من القرن التاسع عشر لكشف منابع النيل[1] .

وبالنظر إلى النجاح الكبير الذى حققته البعثات الاستكشافية المصرية ، فقد كان من المنتظر أن تستمر هذه البعثات فى التوغل إلى أبعد من ذلك ، وبالفعل أرسلت عدة بعثات أخرى . ولكنها أخذت تواجه بعض الصعوبات بسبب تعسف بعض الحكمداريين الذين تولوا أقاليم السودان ، حتى أن المسيو دارنو ألقى كثيراً من اللوم على أحمد باشا أبو ودان ، وحمله مسئولية فشل البعثة الثالثة فى النيل الأبيض ، فقد تعرضت هذه الحملة لكثير من المشاق وفقد الرجال ، بالإضافة إلى ما تعرضت له من صعوبات ومتاعب أخرى ، إذ ضاعت أبحاث دارنو ومصنفاته العلمية ، ومع ذلك فقد استطاعت هذه الحملة أن تقوم بحفر الآبار لتيسير الاتصال وتسهيل طرق القوافل ، إلى جانب ما حققته من رسم خريطة لمجرى النيل من الخرطوم إلى أبى حمد .

ومما تجدر الإشارة إليه إلى أن الحملات المصرية كان لها أثر كبير فى إبطال الوهم الذى كان يسود اعتقاد الجغرافيين والمستكشفين ، من أن نهر للنيل ينبع من جبال القمر ، الواقعة شمال خط الاستواء ، إذ أثبتت أن النيل يبتدىء مجراه من الجنوب ، وليس من شك أن فى الدراسات العلمية والجغرافية التى أجريت على مجرى النيل التى وصلت إليها هذه البعثات ، وما جمعته من معلومات وأخبار عن هذه الأقاليم النائية ، مهدت السبيل لارتياد أعالى النيل واكتشاف عن منابعه .

وعلى أثر هذه البعثات المصرية وما انتهت إليه من التغلب على منطقة السدود النباتية وبفتح طريق للملاحة إلى الأجزاء العليا عن النيل ، توافد عدد

---

(١) عن البعثات المختلفة التى أرسلت إلى منطقة السدود النباتية ، انظر الكتاب الذى وضعه الدكتور نسيم مقار عن البكباشى المصرى سليم قبودان .

من التجار والمغامرين والمبشرين الذين أمكنهم إلى جانب تحقيق أهدافهم التجارية أو التبشيرية جمع مزيد من المعلومات الجغرافية من هذه المناطق البعيدة . وكما سبق أن أشرنا أنه قد ترتب على نشر الإدارة المصرية فى السودان إقرار الأمن ، مما ساعد أولئك على التوغل فى هذه الأقاليم ، ويمكن أن نشير بصدد ذلك إلى الرحالة الفرنسى برون رولليه ، وباتريك وترانوفا،وإخوان بونسيه وغيرهم ، الذين عنوا بتأسيس المراكز التجارية ، ثم دفعتهم احتياجاتهم التجارية إلى الإمعان فى الداخل ، وساهموا فى أعمال استكشافية مفيدة . كما وصلت عديد من البعثات التبشيرية إلى الخرطوم ، وغندكرو ، وأسهمت بدور كبير فى توسيع نطاق المعلومات الجغرافية . وقد استمرت مصر توالى البحث وتواصل الاستكشاف وتقدم التسهيلات المختلفة للرحالة والتجار الأوربيين ،كما ظهر فى ذلك الوقت مشروع هدف به محمد على توسيع نفوذه إلى دارفور فجهز حملة عسكرية لإعادة السلطان أبى مديار إلى حكم دارفور ، ولكن الظروف السياسية التى واجهها فى نزاعه مع السلطان العثمانى وتدخل الدول الأوربية عاقته عن تنفيذ ذلك المشروع . ولا شك أن فتح السودان والتسهيلات التى قدمتها مصر أتت بمزايا عديدة ، إذ كانت مصر مصدر إنعام لكثير من الرحالة والمستكشفين والباحثين ، ولولا تذليل الحكومة المصرية للصعوبات التى كانت تعترض المستكشفين لاستمرت بلدان السودان فى حكم الأراضى المجهولة ، ولما أمكن التوصل إلى معلومات وثيقة عن كثير من أقاليم السودان مثل النوبة العليا ، وكردفان ، والبحر الأزرق إلى جانب الأقاليم الاستوائية التى كانت غير معروفة تماماً(١) .

ومن المعروف أن الحملات المصرية . قد توقفت فى الفترة التى أعقبت

---

(١) جمال زكريا قاسم : دور العرب فى كشف إفريقيا ، مجلة عالم الفكر ،المجلد الأول العدد الثانى ١٩٧١ .

تسوية لندن ١٨٤٠/١٨٤١ ، ولكن هذه التسوية على الرغم من أنها حتمت على مصر الانسحاب من الأماكن التي توسعت فيها في الجزيرة العربية وبلاد الشام إلا أن أقاليم السودان استمرت داخلة ضمن نطاق الولاية المصرية بمقتضى فرمان فبراير ١٨٤١[٢]، وبذلك استطاعت مصر على الرغم من تداعى قوتها المادية والعسكرية أن تضع الأساس الذى ارتكزت عليه امبراطوريتها الإفريقية فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر . ففى المرحلة الثانية من مراحل التوسع المصرى ، تم لمصر فى عهد الخديو إسماعيل فتح أقاليم دارفور، ومنطقة البحيرات الاستوائية ، هذا بالإضافة إلى التوسع المصرى على ساحل البحر الأحمر ، وخليج عدن ، فى كل من الصومال ، وأرتيريا ، وهرر ، وبذلك تكونت لمصر امبراطورية إفريقية أصبحت عاملا حاسماً فى السياسة الإفريقية ، خاصة فى الوقت الذى بدأت فيه الأطماع الاستعمارية تتضح من أجـــل السيطرة على القارة الإفريقية . فكأن مصر أرادت بتكوين امبراطوريتها أن تسبق الاستعمار الأوربى ، ولكن ارتباك الأوضاع المالية وما تبعها من اختلال سياسى ، وتدخل أجنبى ، انتهى بالاحتلال البريطانى فى مصر ، ثم قيام الثورة المهدية فى السودان ، وإلزام مصر بالجلاء فى ممتلكاتها الإفريقية ، كان لكل هذه العوامل أثرها فى أن أصبحت القارة الإفريقية نهباً للاستعمار الأوربى . وعلى الرغم من أن مصر اضطرت إلى الجلاء عن الأقاليم التى توسعت فيها فإن العمل الذى قامت به مصر ظل باقياً وظهر ذلك فيما يأتى :

أولا : أن مصر كانت عاملا هاماً فى إدخال الحضارة الحديثة إلى كثير من الأقاليم الإفريقية .

---

(٢) انظر عبد الرحمن الرافعى : عصر محمد على ص ٣٦٤ ، القاهرة ١٩٥١ .

ثانياً : وقع على كاهل مصر تنظيم الإدارة ووصل كثير من الأقاليم الإفريقية بالعالم الخارجي حضارياً وثقافياً .

ثالثاً : تمكنت مصر من أن تجعل من الأقاليم السودانية المشتتة وحدة إدارية وسياسية لأول مرة في التاريخ ، فأعطت لهذه البلاد كياناً سياسياً لم تعرفه من قبل ، وهذا الكيان هو الذي قامت عليه جمهورية السودان الحديثة ، إذ لم تكن هناك كلمة سودان ، وإنما مناطق مشتتة مثل : سنار ، وكردفان ، ودارفور ، وغيرها .

رابعاً : لاشك أن التدخل المصري في السودان فتح أمام الإسلام والثقافة الإسلامية العربية باباً جديداً ، ولج منه إلى داخلية القارة الإفريقية ، إذ انتشرت الثقافة العربية ، وقويت في ظل الحكم المصري ، كما بدأ الإسلام يتسرب إلى الأقسام الجنوبية من السودان التي تسكنها العناصر الزنجية ، ولولا أن الاستعمار دخل هذه المناطق وطبق فيها سياسة خاصة لكان من المنتظر أن تتحول هذه الأجزاء كلية إلى العقيدة الإسلامية ، وبالتالي كان من الممكن أن يتخلص السودان من مشكلة كبيرة ظلى يواجهها ، ونعني بها مشكلة جنوب السودان ، إذ حرص الإنجليز خلال سيطرتهم على السودان على عزل هذه المنطقة عن الشمال ، وأصدروا قانوناً عرف بقانون المناطق المغلقة Closed Districts في عام ١٩٢٣ ، وبرروا إصدار هذا القانون بأنه حماية لشعوب الجنوب من (استغلال) الشماليين لهم ، وأخذوا يغرسون في نفوسهم الكراهية الشديدة نحوهم، ولم يكن يسمح خلال الإدارة الإنجليزية لأي فرد من سكان الشمال بالاستقرار في الأقاليم الجنوبية إلا بقيود شديدة، كذلك حالوا دون إنشاء مدارس أو مساجد في الجنوب إلا في أضيق الحدود ، في الوقت الذي

أفسحوا فيه المجال أمام البعثات التبشيرية المسيحية ، وأكثر من ذلك كانوا يعملون على الاحتفاظ بالحالة البدائية لشعوب الجنوب ، بحجة المحافظة على أوضاعهم الاجتماعية وتماسكهم القبلى ، ولاشك أن سياسة الجنوب هذه كان لها نتائج خطيرة ، ظل السودان يعانى منها ، ففى الوقت الذى استطاعت فيه الأجزاء الشمالية والوسطى من السودان أن تصل إلى درجة كبيرة من الترابط الثقافى والعنصرى عانت مناطق الجنوب من تفكك حضارى وثقافى وطائفى إذ يتحدث سكان الجنوب لهجات مختلفة ويدينون بعقائد متعددة ، حتى وصل الأمر إلى مناداة البعض بمنح مناطق الجنوب حكما ذاتياً ، أو حتى تحقيق استقلالها وانفصالها عن السودان أو ربطها بإحدى الدول المجاورة لها .

كذلك ينبغى أن نشير هنا إلى أن عصر التوسع المصرى فى إفريقيا كان يعد بمثابة عصر الأحياء للقوى الإسلامية المحيطة بالحبشة . حقيقة أن هناك بعض الدول الإسلامية كانت تجاور الحبشة وأبرزها دولة الفونج فى سنار ، ولكن هذه الدولة كانت قد وصلت إلى درجة كبيرة من الضعف والاضمحلال فى القرن الثامن عشر . ويرى كثير من الباحثين أنه لو لم تأت مصر إلى هذه المناطق فى القرن التاسع عشر لكان من المحتمل أن تستولى الحبشة على المقاطعات والسلطنات الإسلامية المجاورة لها ، خاصة مملكة الفونج أو المملكة الزرقاء كما كان يطلق عليها أحياناً . وبالفعل حدثت عدة معارك بين الفونج والأحباش حتى جاء الحكم المصرى وضم دولة الفونج إليه ، وبذلك أصبحت الحبشة تجاور دولة إسلامية قوية متحضرة ، مما سيؤدى إلى حرب بين مصر والحبشة فى عام ١٨٧٧ ، وكان ذلك على عهد الخديو إسماعيل . وعلى الرغم من فشل حملة مصر العسكرية ، إلا أنها استطاعت أن تحقق نتائج جغرافية هامة . ولاشك أن الفضل فى الإنجازات الكشفية والحضارية التى حققتها مصر فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر يرجع إلى تأسيس هيئة

أركانحرب الجيش المصرى[1] ، وقد عهد بإدارة هذه الهيئة إلى الكولونيل تشارل ستون Stone وهو أمريكى الجنسية ، وكان القسم الثالث أو الفصل الثالث من هذه الإدارة يطلق عليه القسم الجغرافى ، حيث كان الغرض من إنشائه القيام بالأعمال العلمية والكشفية إلى جانب تدريب شباب الضبـاط المصريين على الأعمال التى تقتضيها طبيعة الاستكشافات الجغرافية .

وكان من أهم الأعمال التى تولاها القسم الجغرافى استكشاف الصحارى المصرية الواقعة بين النيل والبحر الأحمر ١٨٧٠/١٨٧١ ، وقد ذكر ستون بصدد ذلك أن الضباط المصريين الذين اشتركوا فى هذه المهمة ، عادوا منها وقد شحنوا دفاترهم بإرشادات هامة كما رسموا كثيرا من الطرق والدروب .

كذلك ارتبطت البعثات الاستكشافية الكبرى بحركة التوسع المصرى فى إفريقيا على عهد الخديو إسماعيل ، وكان السير صمويل بيكر قد اشتهر أمره بعدة رحلات كشفية قام بها فى إفريقيا ، وقد جاء إلى مصر فى عام ١٨٦٩ بصحبة الأمير دوجال ولى عهد انجلترا ، الذى أصبح الملك ادوارد السابع فيما بعد ، حيث دارت محادثات بين الخديو إسماعيل وولى عهد انجلترا ، حول تولى صمويل بيكر قيادة حملة عسكرية إلى الجنوب لضم الأراضى الواقعة فى فاشودة حتى البحيرات العظمى إلى أملاك الخديوية المصرية ، وقد أيد ولى عهد انجلترا تأليف هذه الحملة وشجع على إرسالها وتم الاتفاق بين الحكومة المصرية وصمويل بيكر على تعيينه حكمداراً لمديرية خط الاستواء ، بعقد مدته أربع سنوات من عام ١٨٦٩ إلى ١٨٧٣ ، وبراتب سنوى قدره عشرة آلاف جنيه . وكان الغرض من هذه الحملة بالإضـــافة إلى تحقيق التوسع

---

(١) يرجع الفضل أيضا إلى الجمعية الجغرافية المصرية التى تأسست فى عام ١٨٧٥ وقامت بنشر الأبحاث والاستكشافات الجغرافية — انظر عبد الرحمن الرافعى عصر اسماعيل ص ٢٤٤ ، وما بعدها القاهرة ١٩٤٥ .

إدخال الحضارة إلى ربوع المناطق الإستوائية وتوطيد دعائم المدنية وتنظيم الإدارة وإلغاء الاسترقاق ، إلى جانب تنشيط التجارة على أساس قوى ونظام متين .

ولاشك فى أن مصر كانت تتحمل الكثير من الجهد والنفقات فى سبيل تحقيق الأهداف الحضارية فى إفريقيا ، فقد ذكر السير صمويل بيكر فى كتابه « الاسماعيلية » جميع التفاصيل المتعلقة بهذه الحملة التى أنفقت عليها مصر مامقداره مائتى مليون فرنك فى الفترة من فبراير ١٨٧٠ حتى أغسطس ١٨٧٤ . وقد حفل عهد إسماعيل بكثير من البعثات والحملات التى أرسلتها مصر ، وكان قوامها ضباط أركان حرب الجيش المصرى ، الذى كان لهم الفضل الكبير فى امتداد الحكم المصرى ، ونشر الحضارة بالسودان ، وفى تقدم علوم الاستكشافات الجغرافية بما أسهموا به من إضافة الكثير من الحقائق والبيانات والخرائط والرسوم الدقيقة .

ومن أهم هذه البعثات بعثة صمويل بيكر إلى منابع النيل ، وهى التى سبق أن أشرنا إليها ، ثم بعثة بوردى بك أحد ضباط أركان حرب الجيش المصرى الذى استطاع بمن كان برفقته من الضباط المصريين مسح المناطق الواقعة بين النيل والبحر الأحمر من القاهرة والسويس شمالا إلى قنا والقصير جنوباً ، وتمكنت هذه البعثة من اكتشاف عدة طرق إلى جانب بعض المناجم والمحاجر المتناثرة فى تلك الجهات . وفى عام ١٨٧٣ وصل بوردى إلى موقع مدينة برنيس ( برنيقه ) القديمة على ساحل البحر الأحمر غربى رأس بناس ، حيث لحق به كولستن Colston عن طريق قنا برا ، وتمكنا من تخطيط المناطق الواقعة بين برنيس وبربر على النيل ، وقضيا فى هـــذه المهمة مايقرب من سبعة شهور .

وفى عام ١٨٧٤ تمكن شاى لونج Chaille Longue من اكتشاف بحيرة

كيوجا ( إبراهيم ) ، كما اكتشف جزءاً من مجرى النيل ، الذى عرف باسم نيل فيكتوريا ، وتمكن من تحقيق بعض المشكلات الجغرافية التى كانت لاتزال غامضه ، وهى أن نيل فيكتوريا يصب فى بحيرة البرت ، كما رسم الطريق بين اللادو ومكركه ، الواقعة جنوب بحر الغزال . وبعد أن تم لمصر فتح دارفور فى عام ١٨٧٤ ؛ أوفدت الحكومة المصرية عـــدة بعثات استكشافية للتعرف على أقاليم دارفور وكردفان كان أهمها البعثة التى نجحت فى كشف المواقع وطرق المواصلات بين النيل وحفرة النحاس الواقعة فى أقصى حدود دارفور الجنوبية الغربية ، وقد جابت أرجاء هذه المنطقة ، وكشفت من الطرق ماطولها ٦٥٠٠ ميل ؛ وحققت اثنى وعشرين موقعاً من المواقع الفلكية ، وكانت البعثة الثانية برئاسة كلستون ونجحت فى اكتشاف جهات كردفان ، وحققت مواقعها ومدنها وطرق المواصلات فيها ، ورسمت خريطة دقيقة لها .

أما البعثة الثالثة فكانت برئاسة أحد المهندسين الأمريكيين ، ويدعى ميشيل ، وقد عنيت باكتشاف مواقع المناجم بين النيل والبحر الأحمر ، وأبرزت منجم الذهب فى الحمامة شمالى قنا ، ثم طافت بموانى البحر الأحمر فى القصير ومصوع وتاجوره وزيلع ، واهتمت بمسح الأقاليم الشرقية من الحبشة . وإلى جانب هذه البعثات الكبرى سبق أن أشرنا إلى البعثة الاستكشافية التى هدفت مصر من ورائها فتح الطريق من ممبسة إلى بحيرة فيكتوريا عن طريق الوديان الممتدة من الساحل الشرقى لإفريقيا ، إلى مناطق أعالى النيل من اجتياز جبال كينيا وكليمنجارو ، ولكن الصعاب السياسية التى واجهتها هذه الحملة أدت بمصر إلى العدول عن هذا المشروع الكبير .

كذلك امتدت الفتوحات المصرية إلى أوغندة ؛ ومهدت مصر إلى ذلك بإرسال البعثات إليها ، ففى نوفمبر ١٨٧٤ أرسل شاى لونج رسالة من الخرطوم

إلى المستر بردسلى R. Beardsley القنصل الأمريكى بالقاهرة ؛ تحتوى على تقرير مفصل عن البعثة التى قام بها إلى أوغندة ، وفى هذا التقرير توجد بعض الإشارات التى تتضمن أنه إلى جانب المعلومات الجغرافية التى قصد بها تسهيل فتح طريق النيل بين غندكرو وبحيرة فيكتوريا ، فإن شاى لونج كان مزوداً ببعض التعليمات الخاصة بالاتفاق مع المتيسا على إرسال موارده إلى المديرية الإستوائية بدلا من بيعها إلى تجار زنجبار ، باعتبار أن ذلك يحقق له إستغلالا أكبر ،وبطبيعة الحال عارض تجار زنجبار فى فتح الطريق التجارى بين أوغندة والمديرية الإستوائية، وبالتالى تمكنوا من التأثير على المتيسا الذى آثر الإحتفاظ بالعلاقات الإقتصادية مع سلطنة زنجبار .

وبينما كان نشاط ضباط أركان حرب الجيش المصرى يظهر واضحاً فى الأقاليم الجنوبية والغربية ، فتحت الحكومة المصرية المجال لتوسيع ممتلكاتها فى المقاطعات الشرقية ، وذلك بفتحها إقليم هرر ، وكان استيلاء مصر على ذلك الإقليم يعنى فتح أبواب القسم الشرقى من قارة إفريقيا للتيارات الحضارية التى حملتها مصر على عاتقها رغم ظروفها الحرجة فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، ويمكننا أن نعرض ثلاث مراحل توضح هذا التوسع .

المرحلة الأولى : من عام ١٨٦٣ حتى استيلاء مصر على ميناء زيلع فى عام ١٨٧٥ وهى فترة تبلغ اثنتى عشر عاماً ، وفى هذه المرحلة كان كل مايهم مصر أن تجد اعترافا بسيادتها على المناطق الواقعة فيما يلى مضيق باب المندب إلى رأس حفون الواقعة على بعد مائتى ميل جنوبى رأس جردفون .

المرحلة الثانية . إتجاه مصر نحو مد سيطرتها إلى الجنوب حتى نهر الجوبا ولذلك قررت إرسال بعثة الجوبا التى سبق أن أشرنا إليها فى الفصل السابق.

المرحلة الثالثة : إضطرار مصر نتيجة الضغوط الإنجليزية إلى الموافقة على وجهة النظر البريطانية بتحديد رأس جردفون باعتبارها نهاية لسيادتها

على الساحل الشرقى من إفريقيا ، وقد تم ذلك بالفعل على أثر توقيع المعاهدة المصرية البريطانية فى عام ١٨٧٧ . ولما كانت سياسة مصر فى إفريقيا تؤدى إلى الإضرار بالمصالح البريطانية على الساحل الأفريقى للمحيط الهندى ، فقد كان من الطبيعى أن يبقى وكلاء الإنجليز وقناصلهم عيناً ساهرة على النشاط المصرى وتطوره فى تلك المناطق . والحقيقة أن مصر كانت قد قطعت شوطاً كبيراً من النجاح فى توطيد سيادتها على ممتلكاتها فى الساحل الشرقى من إفريقيا ، وقد تأكد ذلك بتنازل الباب العالى عن ميناء زيلع للحكومة المصرية فى عام ١٨٧٥ ، نظير جزية سنوية قدرت بـ ١٥٣٣٦٥ر١ جنيها . وكان لسيطرة مصر على ذلك الميناء أثر كبير فى مواصلة عمليات الكشف الجغرافى ؛ إذ قاد رؤوف باشا حملة عسكرية فى نفس ذلك العام اتجهت من زيلع صوب المناطق الداخلية من الحبشة ، كما كان لاحتلال هرر عاملا ما فى دراسة ذلك الإقليم الذى آل إلى الإدارة المصرية والذى كان فى حكم الأراضى المجهولة . وقد برز فى حملة رؤوف باشا البكباشى محمد مختار أفندى . وكان من أحذق الضباط المصريين بفصل ثالث أركان حرب الجيش ؛ وقد باشر عدة أعمال جغرافية هامة ، منها تعيين عدة مواقع تعييناً فلكياً ، إلى جانب وصف المسالك التى نفذت منها حملة رؤف باشا إلى الداخل . كما وضع رسومات جغرافية لكل من مدينة زيلع وهرر ، ووصف قبائل الصومال [1] ، وأبرز بعض المعلومات الهامة التى تتعلق بمعيشة هـــذه القبائل . وفى أثناء عمليات

---

(١) للتعرف على ما سجله البكباشى محمد مختار عن بلاد الدناقل وقبائل الجالا وحملات رؤوف باشا يمكن الرجوع إلى مجلة الجمعية الجغرافية المصرية فى أعدادها الصادرة عام ١٨٧٧ الجزء الرابع من القسم الأول

cf. Notes sur le Pays de Harar Par Mohamed Muktar, Bulletin Trimstrie de la Societe Khediviale de Geogrophie du Caire 1877

كما يمكن الرجوع إلى جريدة أركان حرب الجيش المصرى الصادرة فى سبتمبر ١٨٧٦ .

احتلال هرر قتل مونزنجر باشا قائد الحملة ، ولكن تمكن أحد معاونيه من الضباط المصريين ويدعى عزت أفندى من مواصلة الحملة وإتمام كشف الطرق التى قطعتها حملة هرر ، كما رسم خريطة للجهات الواقعة بين تاجوره وبحيرة أوسا بالحبشة .

وعندما بلغت الفتوحات المصرية أقصى حدود توسعها جنوبا وغربا وشرقاً ، عملت الحكومة المصرية على تنظيم ما آل اليها من ممتلكاتها فقسمت هذه الممتلكات إلى قسمين ، القسم الأول ويشمل أقاليم السودان إلى فاشودة جنوبا ، وقد ولى عليه إسماعيل أيوب باشا ، أما القسم الثانى . فيشمل أقاليم خط الإستواء ومناطق أعالى النيل . وقد عهد الى غردون باشا إدارة ذلك القسم خلفاً لصمويل بيكر بعد انتهاء تعاقده مع الحكومة المصرية . ويتضح من ذلك أن غردون لم يأت إلى أعالى النيل مستكشفاً ، وإنما قدم إلى هذه المناطق بصفته الرسمية كحاكم على مديرية خط الإستواء . وكان غردون من مهندسى الجيش البريطانى ، وكان قبل تعيينه حاكماً على مديرية خط الاستواء يشغل منصب العضو البريطانى فى اللجنة الدولية الخاصة بالإشراف على الملاحة فى نهر الدانوب . واتفق أن تقابل نوبار باشا معه فى السفارة البريطانية فى الآستانة حيث عرض نوبار باشا تعيينه حاكما على مديرية خط الإستواء بمرتب سنوى قدره ألفين من الجنيهات وقبل غردون ذلك فى فبراير عام ١٨٧٤ . وقد تم فى عهد إدارته تحقيق المزيد من الإستكشافات لعل أبرزها وضع خريطة لمجرى النيل من خط الاستواء إلى مدينة الخرطوم كما تمكنت مصر بفضل البعثات المختلفة التى أرسلتها إلى أوغندة من إكتشاف بعض روافد النيل وكان من أبرز هذه البعثات الإستكشافية بعثة أمين باشا .

وفى عام ١٨٧٦ تمكنت القوات المصرية من احتلال بلاد أونيورو ودارت عدة اتصالات بين ضباط الحملة المصرية والمتيسا الذى أعرب عن رغبته فى الإرتباط بمصر بعلاقات ودية وطلب إرسال بعض العلماء المسلمين لنشر الإسلام فى بلاده . وبفضل حملة مصر إلى بلادالصومال أمكن التوصل إلى بعض الإستكشافات الجغرافية الهامة من ذلك الأراضى الواقعة على ضفتى نهر الجوبا ، كما نجح اليوزباشى حسن أفندى واصف فى رسم مجرى النهر ، كما أتت هذه الحملة أيضاً بعدة فوائد هامة لعل أبرزها تصحيح خريطة سواحل الصومال إلى جانب تحديد مواقع كل من قسمايو ودنفورد الواقعتين على الساحل الشرقى من إفريقيا . كما رسم محمد مختار وعبد الله فوزى خريطة تفصيلية لإقليم هرر إلى جانب عناية الأول بوضع خريطة لرأسى جردفون كما وضع القائمام عبد الرزاق نظمى خريطة لبربرة وملحقاتها إلى جانب ماعنى به الضباط المصريون من اكتشاف ساحل البنادر وجهات قسمايو وجوبا وغيرها من الجهات التى وصلت إليها حملة الصومال(١) .

وفى عام ١٨٧٧ قام الأمير الاى ميزون Maison ، تساعده بعثة من الضباط المصريين باكتشاف بحيرة البرت وأتم بذلك الإكتشاف الذى كان قد بدأه السير صمويل بيكر ووضع خريطة دقيقةللبحيرة وحوضها، كما حدد ضباط أركان حرب الجيش المصرى برئاسة عبد الله فوزى حدود الحبشة

---

(١) فى عام ١٨٧٧ وضع ضباط أركان حرب الجيش المصرى خريطة مفصلة لأفريقيا اعتبرت من أدق الخرائط التى كانت معروفة حتى ذلك الحين وقد اشترك فى وضعها كل من الاميرالاى لوكهت Lochett ومحمد مختار وعبد الله فوزى ولا تزال هذه الخريطة مودعة ضمن محفوظات الجمعية الجغرافية المصرية وتشتمل على البلاد الواقعة بين مصوع وهضبةالحبشة وقد ذكر هل Hill أن وضع هذه الخريطة كان يعد بحق من أبرز مآثر هيئة أركان حرب الجيش المصرى

Of. Hill, Egypt in the Sudan p. 141

الشمالية والطرق الواصلة من مصوع إلى الخرطوم ورسموا عدة خرائط خاصة بذلك، كما حقق جيسى باشا مواقع بحر الغزال، وعنى محمد مختار بمسح أقاليم السودان الشرقى وذلك فى خلال السنوات التى كان فيها رئيساً لأركان حرب القوات المصرية فى السودان وله دراسة مفصلة وضعها فى عام ١٨٨٠ خاصة بتخطيط مدن السودان الشرقى . كما اكتشف أمين باشا حاكم مديرية خط الإستواء نهر السمليكى الواصل بين بحيرتى ادوارد والبرت .

وقد يكون من المفيد أن نشير هنا إلى ما ذكره ستون باشا رئيس بعثة أركان حرب الجيش المصرى فى عهد الخديو اسماعيل من أن المناطق التى جابها ضباط أركان حرب الجيش المصرى وحققوها و حددوا مواقعها تبلغ فى اتساع مساحتها مجموع مساحة فرنسا وألمانيا والنمسا والمجر بحدودها التى كانت معروفة فى ذلك الوقت . وذكر ستون أيضاً أن الأعمال الكشفية قضت على كثير من العلماء الأوربيين إلى جانب بعض الضباط والجنود المصريين الذين قضوا نحبهم وهم سالكون سبيل العلم والمعرفة .

وعندما تولى غردون باشا حكومة السودان فى عام ١٨٧٧ استمرت البعثات الكشفية التى كانت توفدها وتمولها الحكومة المصرية إلى كثير من الأقاليم الإفريقية . وفى عهد غردون أنشأت الكثير من المراكز التجارية فى أعالى النيل ،وعلى الرغم مما ترتب على فتح الأقاليم الإستوائية من تنشيط فى تجارة الرقيق ؛إلا أن مصر استجابت لإلغاء هذه التجارة بمقتضى المعاهدة التى عقدتها مع بريطانيا فى عام ١٨٧٧ . وقد عنى ستون باشا بمعاونة لفيف من الضباط والعلماء الأجانب والمصريين برسم خريطة كبيرة شاملة للممتلكات المصرية فى إفريقيا كان الغرض من وضعها جمع النتائج المتحصلة فى مدى ثمانية عشر عاماً انقضت فى الفتوحات والإستكشافات ( ١٨٦٩ - ١٨٧٧ ) غير أنه مما يدعو إلى الأسف أن هذه الخريطة الهامة قد فقدت عند سقوط الخرطوم فى عام ١٨٨٥ خلال اندلاع الثورة المهدية فى السودان .

يتضح لنا مما سبق مدى ما بلغته الحركة الكشفية فى مصر من تقدم خاصة فى عهد إسماعيل، وبالإضافة إلى الأعمال التى قام بها ضباط الجيش المصرى فقد وجد الرحالة الأوروبيون من الحكومة المصرية كل تشجيع وتأييد واستطاع كثيرون منهم أن يجوبوا كثيرا من المناطق والطواف فى ربوعها ومباشرة المزيد من الإستكشافات كما تسنى للقوافل التجارية أن تغدو جيئة ورواحا عبر المسالك الصحراوية التى أشيع الأمن فى ربوعها إلى حد كبير وفضلا عن ذلك أنشأ الحكمداريون جملة من المحطات والمنازل كانت تستريح فيها القوافل ويأوى إليها الرحالة وكان الكثيرون منهم يحصلون على فرمانات من حكام مصر تحتوى على أوامر صادرة لممثلى الحكومة المصرية لمساعدتهم فى حركاتهم الكشفية ،وبالإضافة إلى أعمال الأجانب الكشفية سجل المستكشفون المصريون دوراً مجيــداً فى حركة الكشوف الجغرافية وعلى الرغم من أن معظم البعثات الكشفية كان يعهد برئاستها إلى الأوربيين إلا أن غالبية أعضاء تلك البعثات كما لاحظنا كانوا من الضباط والجنود المصريين .

ومما يدعو إلى الأسف حقيقة أن كثيراً من أبحاث هذه البعثات قد مسته يد الضياع خاصة أن الإحتلال الإنجليزى لمصر تعمد أن يبدد أعمال هذه البعثات وخرائطها وتقاريرها مستهدفاً بذلك قطع الصلة بين الجيش المصرى ـ الذى كان لمصر ـ وبين الجيش الذى أقامه الإنجليز بعد احتلالهم للبلاد .

ومع ذلك فإن الأبحاث المتبقية توضح الجهد الذى قامت به مصر خدمة للعلم والحضارة الإنسانية ، وليس من شك فى أن الإكتشافات والحملات البعيدة التى قامت فى أساسها على السواعد المصرية تعد مفخرة من مفاخر تاريخ مصر القومى ، ومن الصفحات المشرقة فى تاريخ مصر بصفة عامة .

وينبغى أن نشير هنا إلى أن الفضل الأكبر فى تحقيق هذه الانتصارات

العلمية كان مرتبطا بتأسيس الجمعية الجغرافية الخديوية فى عام ١٨٧٥ وكان الغرض من إنشائها العناية بالأبحاث العلمية والجغرافية وتدوينها ونشرها وكان أول رئيس لها العالم الألمانى الدكتور جورج شونفرت Scheweinfurth وكان يساعده كل من محمود باشا الفلكى وستون باشا رئيس هيئة أركان حرب الجيش المصرى، وقد عكفت الجمعية الجغرافية الخديوية على نشر الأبحاث والاستكشافات الجغرافية فى مجلاتها الدورية، وإلى جانب الجمعية الجغرافية أشرنا من خلال عرضنا للجهود الكشفية للدور الهام الذى قامت به هيئة أركان حرب الجيش المصرى التى عهد بها إلى طائفة من الضباط الأمريكيين إلى جانب عضوية عدد من الضباط المصريين الذين عادوا من بعثاتهم العسكرية بفرنسا وكان على رأس هذه الهيئة ستون باشا، وهو ضابط أمريكى، غادر الولايات المتحدة الأمريكية بعد انتهاء الحرب الأهلية فى عام ١٨٦٥ حيث وفد إلى مصر وعرض خدماته على الخديو اسماعيل الذى ألحقه بالجيش المصرى وعهد اليه فى عام ١٨٧٠ رئاسة هيئة أركان حرب الجيش المصرى وصار يعرف باسم الجنرال ستون بعد أن منحه الخديو رتبة اللواء وقد استعان ستون بطائفة من الضباط المصريين إلى جانب طائفة أخرى من الضباط الأمريكيين، والمهم أنه أنشأ فى الهيئة قسما للجغرافيا كانت مهمتـــه وضع الخرائط الطبوغرافية الدقيقة عن أنحاء مصر والسودان وقد تولى تخطيط هذه الخرائط الضباط المصريون الذين أوردنا أسماءهم ممن قاموا بالرحلات الإستكشافية فى إفريقيا. كما ينبغى أن نشير أيضـــاً إلى صدور صحيفتين عسكريتين إحداهما تدعى جريدة أركان حرب الجيش المصرى والأخرى الجريدة العسكرية المصرية تولى تحرير كل منهما مجموعة من الضباط المصريين وتوجد فى دار الكتب المصرية أعداد من جريدة أركان حرب الجيش المصرى وكانت تصدر شهرياً، صدر العدد الأول منها فى يوليو سنة ١٨٧٣، واستمرت تصدر بانتظام عدة سنوات وأعدادها كاملة تقريباً حتى أكتوبر ١٨٧٨ وكانت حافلة بالأبحاث الجغرافية الهامة.

وقد يكون من المناسب أن نقيم الجهود التى بذلتها مصر ليس من وجهة النظر المصرية ولكن من وجهة النظر الأوربية ، لأن الحكم قد يكون أكثر موضوعية فى هذا الموقف ، من ذلك ما يؤكده السير صمويل بيكر فى كتابه الإسماعيلية ، الذى صدر فى عام ١٨٧٣ ، أن مصر وحدها هى التى تستطيع تحضير إفريقيا النيلية بانشاء حكومة نظاميـــة وحسبها أن تمد حدودها إلى خط الإستواء، وبذلك تضمن حماية الرحالة والسائحين فى تلك الجهات ، واليوم قد أصبح امتداد حدودها الجنوبية إلى خط الاستواء أمراً واقعاً ، وكان من شأن ذلك فتح أواسط إفريقيا للحضارة والعمران .

وفى تقرير المسيو سوزارا قنصل النمسا فى مصر على عهد الخديو اسماعيل جاء فيه «إذا علمنا ما كانت عليه الشعوب فى تلك الأقطار من الفوضى ، وجب علينا أن نعد خضوعها لسلطة مصر تدرجاً نحو التقدم، فإن كثيراً من الشعوب الأفريقية التى شملتها الإدارة المصرية أخذت تألف الإدارة المنتظمة القائمة على قواعد النظام ، ومن جهة أخرى ، فإن الأقطار السودانية التى كانت مغلقة ، قد فتحت للتجارة والارتياد ، مما مهد السبيل لدخول الحضارة إليها » .

أما سلاتين باشا ، فقد ذكر فى كتابه النار والسيف فى السودان Sword and Fire in Sudan أن السودان ظل سبعين عاما مستظلا بالحكم المصرى مفتوحاً للحضارة والتمدين ، تزدهر المتاجر المصرية والأوربية فى مدنه ، وتوفد الدول الأجنبية قناصلها إلى الخرطوم، ويجوب السائحون على اختلاف أجناسهم فى البلاد دون أن يلقوا ممانعة ، بل يلقون عطفاً ورعاية من ولاة الأمور ، كما انتظمت طرق المواصلات والبرق والبريد ، فسهلت الإتصال بين أرجاء السودان ، ويؤدى الناس شعائرهم الدينية بملء الحرية سواء فى المساجد أو الكنائس ، وقامت مدارس البعثات إلى جانب مدارس

الحكومة ؛ وعلى الرغم من تعدد القبائل التى تسكن السودان وما كان بينها من الصراع وتحفزها للإقتتال ، فإن حزم الحكومة وسطوتها كانا كافيين لتوطيد دعائم الأمن والسلام فى مختلف ربوعه .

ورغم التضحيات الكثيرة والجهود الكبيرة التى تحملتها مصر على عاتقها سنوات طويلة ، إلا أنها اضطرت إلى التخلى عن أملاكها وملحقاتها بعد قيام الثورة المهدية فى السودان ، وهكذا ذهب فى بضعة شهور ما تم انجازه فى سنوات عديدة ، وترتب على ذلك إغلاق كثير من الأقاليم أبوابها فى وجه الرحالة. هذا بالاضافة إلى أن مصر مع ما بذلته من جهود فى إدخال الحضارة والمدنية إلى ربوع إفريقيا وجدت نفسها محرومة من المزايا التى كانت تنتظرها ، إذ قسمت ممتلكاتها بين الدول الأوربية، حيث اختصت انجلترا بالنصيب الأوفى . والجدير بالذكر أنه لم يعد لمصر عند سقوط الخرطوم فى أيدى قوات المهدية فى ٢٦ يناير ١٨٨٥ سوى مديرية خط الإستواء ، التى تشبث أمين باشا فى إبقائها خاضعة لمصر ، ولكن الدعاية التى أطلقتها الصحافة الأوربية عن المصير السيء الذى بات يتعرض له والمبالغة فى وصف ما يعانيه من الشدائد ، كانت خطة استعمارية محكمة لطرد مصر من هذه المنطقة حتى تصبح أرضاً لا صاحب لها No man's land ، وبالتالى تستطيع الدول الإستعمارية السيطرة عليها . وبالفعل تشكلت حملة لإنقاذ أمين باشا عهد برئاستها إلى ستانلى ، وقد يكون مما يدعو إلى الغرابة حقا أن هذه الحملة التى كان من أهدافها طرد مصر من أقاليم خط الإستواء قد أجبرت مصر على تحمل قسما كبيراً من نفقاتها ورجالها ، وبذلك يكون لمصر الفضل فى الإستكشافات التى نجح ستانلى فى تحقيقها ووصوله إلى بعض الأقاليم التى كانت لا تزال بعيدة عن مجال المعرفة الإنسانية .

وعلى الرغم من الاتهامات العديدة التى وجهت إلى الحكم المصرى فى المناطق التى توسعت فيها مصر فى إفريقيا كالتعسف فى فرض الضرائب

والإستغلال أو استبداد بعض الولاة إلى أن ذلك لم يكن يصدر عن سياسة مقررة فى الحكم، إذ من الإنصاف أن نشير هنا إلى ماحققه التوسع المصرى من نتائج إيجابية كان أبرزها بسط الأمن والنظام ، وهما قواما العمران وأساس التقدم الحضارى ، ويكفى دليلا على مآثر الحكم المصرى فى هذه النواحى ما ذكره صمويل بيكر من أن السائح الأوربى أصبح فى إمكانه أن يجوب الأصقاع البعيدة التى امتد إليها الحكم المصرى دون أن يخشى على نفسه أكثر مما يخشاه من يتنزه بعد غروب الشمس فى حديقة هايد بارك . كذلك عنى الحكم المصرى بتأسيس جيش نظامى من السودانيين ، كما انتشرت الزراعات الحديثة ، خاصة زراعة القطن فى الأقاليم الشرقية من السودان[1] ، ونشطت المواصلات بين مختلف بلدان السودان بعد أن عهد إلى مجموعة من المهندسين تخطيط السكك الحديدية التى ربطت بين مصر وأقاليم السودان المختلفة. وقد نشطت التجارة وانتعشت المدن التجارية القديمة كبربر وسنار ، وتوافد كثير من التجار المصريين من صعيد مصر ، بالاضافة إلى كثير من التجار الأوربيين ؛ كما ذهب كثير من الفلاحين المصريين للزراعة فى أقاليم السودان ، ووفدت معهم طوائف من الصناع والتجار. وقد بلغ عدد البيوتات التجارية المملوكة للمصريين فى السودان ما يقرب من ثلاثة آلاف، والمملوكة للأوربيين مايزيد عن ألف، وبلغت واردات السوادن مليونين من الجنيهات ، وصادراته تعادل هذا القدر سنوياً .

وفى عام ١٨٧٣ عهد الخديو اسماعيل إلى موتسى بك مدير مصلحة البريد المصرية انشاء مكاتب للبريد فى كثير من المدن السودانية ، فأنشئت مكاتب فى كل من الخرطوم ودنقله وبربر وكسلا ، وفتحت مكاتب أخرى فى سنار والسلمية والقضارف وفازوغلى وفاشوده والأبيض والفاشر ، إلى جانب

---

(١) Hill, Egypt in Sudan pp.49-50

إدارة عامة للبريد ، تأسست فى مدينة الخرطوم ، وقد بقيت هذه المكاتب البريدية تؤدى مهامها حتى تعطلت بعد نشوب الثورة المهدية . كذلك اهتم الحكم المصرى بالخطوط البرقية ، فتم فى عام ١٨٦٦ ايصال خط برقى من حلفا إلى مصر امتد فى عام ١٨٧٤ إلى مدينة الخرطوم، ثم الى بربر وكسلا وسواكن الى جانب خطوط برقية امتدت الى الغرب حتى الأبيض ودارفور وقد بلغت الخطوط البرقية التى أنشئت فى السودان أكثر من ألفين كيلومترا، كما بلغ عدد مكاتب البريد فى مدن السودان ما يزيد عن عشرين مكتباً حتى عام ١٨٧٧ .

وقد بلغ من اهتمام مصر بالسودان وبأقاليمها الأفريقية حرص حكام مصر على زيارة تلك الأقاليم . وقد سبق أن أشرنا إلى زيارة محمد على للسودان وتبعه سعيد باشا الذى زار السودان فى عام ١٨٥٦، وحاول تنظيم الإدارة السودانية وإحلال الشيوخ المحليين بدلا من الحكام المصريين ، وإتباع طريقة اللامركزية فى الحكم ، بالإضافة إلى محاولته تخفيف عبء الضرائب ، كما درست فى عهد سعيد مشروعات مختلفة لمد الخطوط الحديدية فى أرجاء السودان ، كما عمل على وصل السودان بالعالم الخارجى بمقتضى فرمان أصدره بانشاء خط ملاحى بين موانى البحر الأحمر — سواكن ومصوع — وشرق البحر المتوسط ، وأنشأت من أجل ذلك الغرض الشركة المجيدية التى كان لها أربع سفن تجوب البحر الأحمر . وفى عهد الخديو اسماعيل حدث اهتمام أكبر باقتصاديات السودان فأنشئت الشركة السودانية فى عام ١٨٦٣ بهدف مد السكك الحديدية والاشراف على سير البواخر النيلية ، وقد افتتحت الشركة وكالات لها فى سواكن والخرطوم ، وفى نفس ذلك العام تأسست الشركة العزيزية المصرية للملاحة التجارية ، وكانت تقوم برحلات منتظمة من السويس إلى سواكن ومصوع[1] ، كما

---

(١) Hill, op.cit pp. 49-50

أعطى للشركة حق إنشاء خطوط حديدية من مصر إلى الخرطوم ومنها إلى سواكن وتقدمت المواصلات من بربر إلى سواكن التى كانت مركزاً للخط الملاحى الخديوى، وكانت تستقبل البواخر فى طريقها إلى الموانى الأوربية عبر قناة السويس ، وكان لإنتعاش الملاحة فى موانى البحر الأحمر أثر كبير فى إزدياد حجم التجارة وإزدهارها .

وتجدر الإشارة أيضاً إلى ما أفاده الحكم المصرى من تقدم الكشف الجغرافى وعلوم الأجناس والنبات والحيوان ، كما تمكنت الإدارة المصرية بفضل امتدادها إلى أعالى النيل من وضع يدها على مصادر تجارة الرقيق والسيطرة على منافذها فى البحر الأحمر ، وفى داخلية الأقاليم الأفريقية أخذت الأمور تشق طريقها الطبيعى نحو التنظيم والإستقرار . كما أخذ المجتمع السودانى يكيف مقوماته ويوجهها نحو شعور عام يجمع بين مختلف القبائل ويعمل على توحيد كلمتها ، وكان ذلك تمهيداً لقيام أمة سودانية عملت الإدارة المصرية على تحقيق وجودها . فقد عمل الحكم المصرى على اسقاط الحواجز السياسية بقضائه على السلطنات والمشيخات وإدماجها فى حكم واحد .

كما شملت الإصلاحات المصرية ترقية الزراعة إذ كان لنجاح زراعة القطن فى مصر خلال الحرب الأهلية الأمريكية ١٨٦١/١٨٦٥ أثر كبير فى الاتجاه إلى مشروعات لانتاج القطن فى مقاطعات شرق السودان ،حيث أعد أحمد مختار باشا والى سواكن مشروعا فى منطقة طوكر صادف نجاحا كبيراً بتخصيص ألفى وخمسمائة فدان لزراعة القطن فى دلتا الجاش ، وقد أصبح هذا الاقليم فى عهد الإدارة الانجليزية من أهم مراكز إنتاج القطن فى السودان ، كذلك عنى الحكم المصرى بتحسين وسائل الرى والإكثار من إنتاج الغلات الزراعية ، إلى جانب نشر التعليم وتسهيل المواصلات

وتعبيد الطرق . ولو قدر لتلك الإصلاحات أن تأخذ طريقها الطبيعى ولم تتعرض المؤثرات الأجنبية لكان من المؤكد أن تكون نتائجها أكثر تأثيراً ورسوخاً[١] .

وقد يكون من الضرورى أن نؤكد فى هذا المجال أن مصر لم تذهب فى سياستها إلى استغلال السودان ، وإنما على العكس من ذلك كانت تسد عجز ميزانية ممتلكاتها من ميزانيتها الخاصة رغم ضائقتها المالية الشديدة . ومما يستلفت الإنتباه أن الأنظمة التى أدخلتها مصر فى السودان من حيث الإدارة والحكم ظلت هى الأنظمة التى حرصت الادارة الانجليزية على الإستفادة منها خلال السيطرة البريطانية على السودان فى ظل الحكم الثنائى .

---

(١) الشاطر بصيلى : معالم تاريخ سودان وادى النيل من القرن التاسع عشر ص ١٤٨ — ١٥٠ .

# الفصل السابع

# التوغل العربي في الصحراء الكبرى

## التوغل العربي في الصحراء الكبرى

لم تكن الصحراء الكبرى مع ماتتصف به من طبيعة قاسية ، عاملا من عوامل الإنفصال بين منطقة الشمال الغربي لإفريقيا والمناطق التي تحدها جنوباً في غرب إفريقيا ، بقدر ما كانت معبراً هاماً من معابر الإتصال بينهما . وقد لعبت موانى الساحل الشمالي لإفريقيا دوراً هاماً في ميدان الصحراء ، وذلك بفضل طرق القوافل الممتدة في مسالكها ودروبها ومفاوزها . واستمر تجار هذه الموانى والمدن الشمالية يسيطرون سيطرة تكاد تكون تامة على هذه الطرق إلى أن أدخلت وسائل النقل والمواصلات الحديثة .

ومن الثابت أن موانى الساحل الشمالي كانت تلعب دور الوساطة التجارية بين مناطق الإنتاج المدارى والاستوائى في الجنوب ، وبين شعوب حوض البحر المتوسط في الشمال ، ولعل مما سهل هذه الوساطة الإمتداد الطويل لتلك السواحل وانحناء معظمها إلى الجنوب ، خاصة السواحل الليبية التي غدت أقرب إلى مناطق الإنتاج هذه ، ومن ناحية أخرى ، فإن الواحات الكثيرة المنتشرة عبر الصحراء الكبرى ساعدت التجار العرب على التوغل والمغامرة في الداخل والوصول إلى المناطق البعيدة من غرب إفريقيا ، وقد استقر كثير من التجار العرب في هذه المناطق واحترفوا التجارة في نيجيريا وغيرها من البلاد المجاورة[1] .

ويمكننا أن نضيف إلى طرق التجارة عبر الصحراء طرق الحج التي كانت

---

(١) مصطفى بعيو : دراسات في التاريخ العربي — الأسس التاريخية لمستقبل لوبيا ص ١٦٧ — ١٧١ .

تخترق شمال إفريقيا من الغرب إلى الشرق بحذاء الساحل ، ولم تكن قوافل الحج هذه قاصرة على الغرض الديني فحسب ، بل إننا نلاحظ فى كثرة عددها وتنوع ما كان يحمله الحجاج معهم من بضائع مايدفع بنا إلى الإعتقاد بأن هؤلاء كانوا يقومون بالتجارة إلى جانب قيامهم بأداء فريضة الحج ، إذ أن كثيراً منهم كانوا يستعينون بالتجارة لسد نفقات رحلاتهم . وقد عكف كثير منهم على الكتابة عن البلاد التى ارتحلوا إليها من سائر نواحيها الجغرافيـــة والتاريخية والإقتصادية .

وقد ظلت قوافل الحج والتجارة تمارس نشاطهـــا طيلة العهد العربى الإسلامى، حتى إذا خضعت مناطق الشمال الغربى لإفريقيا، باستثناء مراكش، للحكم العثمانى فى خلال القرن السادس عشر ، انتاب طرق القوافل الشىء الكبير من التدهور ، مما أدى إلى إضعاف شأنها ، وكان ذلك نتيجة أسلوب الحكم العثمانى من ناحية فضلا عن الإنقلاب التجارى الكبير الذى حدث نتيجة اكتشاف البرتغاليين طريق رأس الرجاء الصالح ، وماترتب على ذلك من فقدان منطقة البحر المتوسط لازدهارها الاقتصادى ؛ كما أن كشف البرتغاليين لسواحل غرب إفريقيا كان له أثر كبير فى تأكيد ذلك الضعف ، خاصة بعد أن قاموا بعدة محاولات ناجحة لتحويل التجارة الداخلية من طرقها التقليدية إلى الساحل الغربى مباشرة ، ومع ذلك فقد ظلت بعض موارد الإنتاج الإفريقى بعيدة عن أيدى الأوربيين لوقوعها فى مناطق بعيدة ، مما صعب أمر الوصول إليها ، إلى جانب مايوجد فى سواحل غانا من غابات كثيفة أعاقت الأوربيين عن تحقيق أهدافهم .

ومع ذلك فقد استمر الضعف يشتشرى فى طرق القوافل العربية بسبب فوضى العهد العثمانى وسوء النظام واختلال الأمن . فمن الثابت أن العثمانيين اقتصروا فى تأكيد سيادتهم على الساحل دون الداخل ، مما عرض الأقاليم الداخلية للفوضى والإضطراب ؛ كما أن مسئولية العثمانيين ترجع أيضاً إلى

أنهم لم يعملوا على تنشيط تجارة القوافل ، ويكفى لإثبات ذلك أنهم أصبحوا ينظرون إلى منطقة فزان كمنفى للمغضوب عليهم أو الخارجين عن طاعتهم ، بعد أن كانت هذه المنطقة مركزاً هاماً من مراكز التجارة الداخلية .

ولعل مايساعدنا على إلقاء نظرة على التدهور الذى طرأ على قوافل التجارة العربية نتيجة للسيادة العثمانية ما يمكن أن نستشفه من كتابات الحاج أبو سالم العياشى ، وذلك من خلال رحلاته الثلاثة التى قام بها قاصداً الحج إلى مكة خلال النصف الثانى من القرن السابع عشر الميلادى(١) . وقد مر فى أثنائها بطرابلس ، التى كانت تخضع للوالى العثمانى عثمان باشا الساقزلى ١٦٤٩ — ١٦٧٢(٢) . وقد أفرد العياشى وصفاً مسهباً لطرابلس واتفق فى ذلك الوصف مع من سبقه من الرحالة فى وصف المدينة ومقدار تمتعها بالرخاء والأمن وكثرة مساجدها ومبانيها ورواج تجارتها ، وإن كنا نلاحظ أن هذا الإزدهار لم يتعد أسوار المدينة إلى خارجها ، حيث كانت الفوضى ضاربة أطنابها ، وبالإعتماد على ما أورده العياشى من معلومات ، يمكن استخلاص حالة المناطق التى مر بها من النواحى السياسية والإقتصادية والإجتماعية ، فمن الناحية السياسية ذكر العياشى خضوع طرابلس للدولة العثمانية ، وإن كانت سيطرة الدولة لا تتعدى المدن الساحلية إلى الداخل وكانت طرابلس هى مقر الوالى العثمانى ، وله عامل فى كل من بنغازى ودرنه ، وبعض المدن الأخرى ذات الأهمية ، وعلى الرغم من أنه كان هناك نظام حكم فى المدن إلا أن العياشى لم يذكر لنا هذا النظام بالتفصيل ، أما فى الداخل فلم يكن للولاة العثمانيين سلطات فعلية ، فمثلا لم يكن أهالى الجبل الأخضر يخضعون لوالى

(١) تقع رحلات أبو سالم العياشى فى مجلدين كبيرين توجد نسخة منها مكتوبة بالخط المغربى فى المكتبة التيمورية بدار الكتب المصرية .

(٢) عوض السعداوية : حالة ليبيا كما ذكرها الحاج سالم العياشى فى رحلته ، بحث قدم إلى مؤتمر ليبيا عبر العصور ١٦ — ٢٣ مارس ١٩٦٨

طرابلس خضوعاً تاماً ، وإنما كانت القبائل تتنازع السلطة فيما بينها، كذلك لم يكن للعثمانيين سلطات محسوسة على إقليم فزان[1] .

ومن حديث العياشي يمكننا أن ندرك حالة التأخر التي كانت تعاني منها المناطق الداخلية من الشمال الإفريقي التي كثرت بها عصابات من قطاع الطرق، الذين كانوا يستولون على ما تحمله القوافل التي كانت تمر بها . وقد أشار إلى أن منطقة الجبل الأخضر لم تنعم بالإستقرار إلا في خلال فترة قصيرة استطاع فيها أحد الزعماء العرب ويدعى سيد روحة القضاء على قوة البدو ، ولكن هذه الفترة كانت قصيرة ، أعقبتها فوضى شاملة ، حتى أن الحجاج والمسافرين الذين كانوا يمرون بليبيا كانوا يخشون تلك المناطق التي تبدأ من قصر أحمد غرباً إلى الإسكندرية شرقاً . ويظهر من كتابات العياشي أن الفوضى لم تقتصر على الداخل ، بل إن بعض المدن كانت تثور أحياناً في وجه الوالي العثماني ، وكان معظم سكانها من المغاربة ، وإن مايذكره العياشي عن تلك الثورة وكيفية قمعها ، إنما يدل على مدى ماوصلت إليه الإدارة العثمانية من انحلال وتدهور .

كما يفهم من كتابات العياشي أن السيادة العثمانية كانت اسمية تعطي لولاياتها قدراً كبيراً من الحرية في إدارة شئونها يساعد على ذلك بعد المسافة بين مركز الإدارة العثمانية في الآستانة ، والإدارة العثمانية في ولايات الشمال الأفريقي، خاصة إذا أخذنا في اعتبارنا صعوبة المواصلات في ذلك الوقت .

ولعل أهم مايستلفت نظرنا في رحلات العياشي وصفه لأعمال الجهاد البحري ، ومايجنيه سكان الموانى في شمال غرب إفريقيا وحكامهم من الغنائم الكثيرة المترتبة على ذلك . وكان الجهاد البحري أو ماتسميه المصادر الأوربية

---

(١) رحلة العياشي حـ١ ص ص ١٠٤ — ١٠٦

بالقرصنة يجد تشجيعاً من الدولة العثمانية باعتباره حركة موجهة ضد الفرنجة كما كان الحكام يستمدون له بالسفن الحربية القوية ، وقد أشار بهذه المناسبة إلى الدور المجيد الذى قام به درغوث باشا ، واستيلائه على بعض موانى الشمال الإفريقى وتصديه للأسبان وفرسان القديس يوحنا .

وهناك بعض المعلومات الكثيرة التى أوردها لنا العياشى خاصة بالأحوال الإقتصادية من زراعة وتجارة وصناعة ، كذلك أورد معلومات أخرى عن الأحوال الإجتماعية والثقافية حيث قسم السكان إلى قسمين : (القسم الأول) وهم سكان المناطق العمرانية ، وهم على حظ من الثقافة الدينية والأدبية ، و (القسم الثانى) وهم الذين يقطنون المناطق الداخلية ويتميزون بالتأخر الإجتماعى والتنازع وكثرة حوادث الشغب واختلال الأمن[١] .

وقد استمرت هذه الحالة من التدهور قائمة على هذه الصورة ، مما ترتب عليها ضعف حركة تجارة القوافل ، وذلك باستثناء طرابلس التى تمكنت من تحقيق استقلالها ، أو بالأحرى انفصالها عن الدولة العثمانية فى عهد الأسرة القرمانلية ١٧١١ — ١٨٣٥ ، خاصة بعد أن استطاع أحمد باشا القرمانلى مؤسس تلك الأسرة ، أن يرفع من شأن طرابلس ، مقدراً أهمية استغلال تجارة القوافل فى تحقيق مورداً ليس قليلا من الدخل الذى اعتمد عليه فى إدارة البلاد وتنظيم أمورها ومن ثم وجه جل اهتمامه إلى تنظيم موارد هذه التجارة والإشراف عليها وتأمين سبلها .

وفى عهـــد يوسف باشا القرمانلى ، أعظم حكام هذه الأسرة اقترنت تجارة القوافل بظاهرة جديدة ، كان لها أثرها الفعال فيما بعد ، فى القضاء على هذه التجارة بطريق غير مباشر ، ذلك أن الدول الأوربية بعد أن صعب

---

(١) رحلة الشيخ أبى سالم العياشى ح ٢ ص ٦٦ نسخة بدار الكتب المصرية ( تاريخ تيمور ٤٠٥ ) .

عليها الوصول إلى أواسط إفريقيا من السواحل الجنوبية والغربية للقارة الإفريقية ، أخذت توجه اهتمامها إلى الساحل الشمالى لإفريقيا وتتنافس فيما بينها للوصول إلى داخلية إفريقيا عبر مسالك الصحراء الكبرى . وقد اشتد ذلك التنافس خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر الميلادى ، مما جعل مدينة طرابلس ، وغيرها من المدن الساحلية الأخرى بمثابة محطات أو مراكز للرحالة الأوربيين الذين قصدوا تلك المدن بغية التوغل فى الداخل معتمدين فى ذلك على مايتحصلون عليه من توصيات خاصة متضمنة فى شكل رسائل كانوا يحملونها معهم من حكام المدن الساحلية إلى حكام المناطق الداخلية . وكان كثير من أولئك الرحالة يعمدون إلى إخفاء الغرض الأساسى الذى يكمن وراء رحلاتهم ومن ذلك تعللهم بالكشف عن بعض النباتات الطبية ، أو دراسة بعض المناطق الأثرية ، كما تعلم الكثير منهم اللغة العربية ، وأظهروا اعتناقهم للعقيدة الإسلامية ومزاولة شعائرها على مرأى من رجال القوافل الذين كانوا يصاحبونهم فى رحلاتهم ، إذ كان الكثير من أولئك الرحاله ينتظرون مواسم القوافل للرحيل معها ، لما يخفف عليهم ذلك من متاعب السفر وجهل الطرق ، ولعل ذلك مما دفع بعض الباحثين إلى التأكيد بأن تجارة القوافل العربية قد ساهمت مساهمة فعالة فى كشف كثير من أجزاء القارة الأفريقية وإن كانت قد ساعدت بطريق غير مباشر أيضاً على تنشيط الحركة الإستعمارية فى إفريقيا ، خلال القرن التاسع عشر ، فليس من شك فى أن الجهود التى بذلها أولئك الرحالة الأوربيين كانت من المقومات الطبيعية للحركة الإمبريالية التى شهدتها القارة الأفريقية ، خاصة منذ السنوات الأخيرة من القرن الماضى[1] .

ومن ناحية أخرى اتخذ قناصل الدول الأوربية فى طرابلس أو غيرها من مدن الشمال الأفريقى من قوافل التجارة العربية سبيلا لبث عيونهم صوب

---

(١) مصطفى بعيو : بعض ملامح من تاريخ ليبيا فى القرن التاسع ، دراسة قدمت إلى مؤتمر ليبيا عبر العصور مارس ١٩٦٨ .

الداخل ، والتعرف على الأوضاع والمواصلات الخاصة بالمناطق الداخلية ، وكان وارنجتون Warrington قنصل بريطانيا فى طرابلس متحمسا لجعل طرابلس قاعدة لمشروعات الكشف الجغرافى فى إفريقيا الوسطى خاصة لما كانت تتميز به السواحل الليبية من تعددالدروبوالمسالك ، وكانت مدينتا طرابلس وبنغازى ، هما المنفذان الساحليان لتلك الدروب الصحراوية ، فهناك طريق كان يصل طرابلس باقليم تشاد والآخر يمتد من مدينةطرابلس إلى إقليم النيجر جنوباً ، كذلك كانت بنغازى تتصل بإقليم تشاد عبر واحة أوجله والكفرة ، كما كانت هناك بالإضافة إلى ذلك عشرات من الطرق والدروب الفرعية .

على أنه يجدر الإشارة هنا أن وارنجتون لم يكن هو صاحب فكرة إتخاذ طرابلس قاعدة لكشف الصحراء الكبرى ، وإنما سبقته فى ذلك جمعية كشف أواسط إفريقية ، التى تأسست فى لندن سنة ١٧٨٨ ، وكانت أولى محاولاتها فى ذلك الصدد المهمة التى كلفت بها وليام لوكاس Lucas الذى ارتحل فى عام ١٧٨٩ من طرابلس إلى غامبيا ثم أعقبه فردريك هورنمان Hornemann ١٧٩٨ الذى نجح فى التوغل فى أقاليم نهر النيجر[١] بيد أنه لاقى حتفه هناك ، وكانت النهاية الأليمة التى تعرض لها هورنمان ، سبباً فى توقف النشاط الكشفى الذى كانت تضطلع به جمعية كشف أواسط إفريقيا لعدة سنوات ، حتى عادت إلى استئناف محاولاتها فى عام ١٨١٨ بتشجيع وارنجتون ، الذى استطاع الحصول من يوسف باشا القرمانلى والى طرابلس على تعهدات خاصة بضمان سلامة المستكشفين فى الأراضى التابعة لطرابلس

---

(١) Cf. Bovill, Missions to the Niger, the Journal of the Frederick Hornemann, Travels and Letters of Alexander Gordon Laing, Hakluyt Society second series No. CXXIII Vol II, III,IV Cambridge, 1962.

ومنحهم كل مساعدة ممكنة . ولاشك أن ذلك كان دافعاً إلى تدفق كثير من الرحالة ورواد الكشف الجغرافى الذين كانوا يمثلون معظم الدول الأوربية، وكثير من الجمعيات الجغرافية ، وقد أفاد أولئك الرحالة الكثير من تشجيع يوسف باشا القرمانلى كما صحبوا قوافل التجارة العربية فى طريقها الى الداخل حيث كانت الأهداف العلمية التى كان يضطلع بها معظم أولئك المستكشفون كشف مقاطعات السودان الغربى ، الى جانب التحقق من مشكلة منابع نهر النيجر ، وتحديد مجرى ذلك النهر ، باعتبارها من المشكلات الجغرافية التى لم يتفق فى ذلك الوقت على الآراء الحقيقية بشأنها .

وتحت اغراءات وارنجتون تشكلت فى عام ١٨١٨ بعثة كشفية للذهاب الى اقليم واداى وكان من أبرز أعضائها الدكتور ريتشى Richie والكابتن ليون Lyon الذى كان يعمل قائداً للأسطول البريطانى فى البحر المتوسط ودى بونت De Pont أحد العاملين بمتحف التاريخ الطبيعى بباريس ، وقد غادر هؤلاء جميعاً طرابلس مع قافلة عربية كبيرة مسلحة بقيادة محمد المكنى حاكم فزان أو سلطان فزان كما جاء فى تقارير أولئك الرحالة . والجدير بالذكر أن أعضاء هذه البعثة تسموا بأسماء عربية وتعلموا الصلاة وغيرها من للشعائر الاسلامية المختلفة ووصلت هذه البعثة الى واحة مرزوق وفيها توفى ريتشى فى نوفمبر ١٨١٩ ، وواصل ليون رحلته الى الأراضى الواقعة جنوب مرزوق ثم عاد فى مارس ١٨٢٠ الى طرابلس .

وعلى الرغم من أن وارنجتون قد وجه أشد عبارات التأنيب الى يوسف باشا القرمانلى بسبب هذا الفشل الذى أرجعه الى مسلك محمد بك المكنى نحو الرحالتان فانه كتب تقريراً الى حكومته يطلعها على النتائج الهامة التى توصلا إليها هذان الرحالتان، وكان من أثر ذلك أن أوفدت الجمعية الجغرافية البريطانية بعثتين أخريتين كلفت احداهما بالقيام بمسح شامل لسواحل مصرت وبرقه ودراسة آثارها ،أما البعثة الثانية فقد وقع على عاتقها كشف بلاد السودان الغربى وكان

من أبرز أعضائها دكتور والتر أودنى Walter odney والكابتن أوج كلابرتون Og Clapperton والماجور دانهام ديكستون Dunham Dixton[1] وقد أمد يوسف باشا القرمانلى أعضاء البعثة بكل مايحتاجونه من اتباع وتوصيات نظير مبالغ معينة من الأموال أخذها يوسف باشا من وارنجتون مع تعهد القنصل البريطانى بدفع مبالغ مماثلة بمجرد وصول البعثة الى بورنو [2] .

وفى مارس ١٨٢٢ غادرت البعثة طرابلس متجهة نحو واحة مرزوق التى كانت هدفاً للبعثات الكشفية باعتبارها على الطريق المؤدى الى الداخل وكان هدف البعثة عبور الصحراء الكبرى الى بحيرة تشاد وفيما يبدو أن الأهداف التى كان يسعى اليها وارنجتون مد النفوذ الإنجليزى الى بورنـو .

وكان يصحب البعثة فى تنقلاتها تاجر عربى من فزان يدعى محمد الوردى وفى عام ١٨٢٤ توفى أودنى واستمر كلابرتون فى رحلته إلى كانو التى تحتل مركزاً وسطا بين بحيرة تشاد ونهر النيجر .

وكان للنجاح الذى حققه كلابرتون سببا فى قيام لاينج Laing بعملية استكشافية أخرى فى أقاليم النيجر ، وقد بدأ رحلته من طرابلس متجها إلى غدامس وقد أوضح له يوسف باشا القرمانلى الصعوبات والأخطار التى يمكن أن تتعرض لها بعثته مؤكداً له أنه لا يستطيع ضمان سلامته إذا ماتعدى حدود غدامس ودخل فى أقاليم لا تخضع لسلطانه ومع ذلك فإن باشا

---

(١) نشرت حكومة برقة أعمـــال البعثات الاستـكشافية التى قامت من ليبيا بعنوان « الـكشف الجغرافى فى ليبيا لمورى أتيليو » .

(٢) ميكاكى : طرابلس الغرب تحت حكم الأسرة القرمانلية ص ٣١٢ القاهرة ١٩٦١

طرابلس قد عهد برعاية لاينج إلى أحد تجار غدامس وهو الحاج محمد بابانى ، كما أمده ببعض خطابات التوصية لرؤساء تنبكتو وغيرها من المدن والأقاليم التى كان من المقرر له اجتيازها ، على أن لاينج لم يلبث أن لقى حتفه فى اقليم بابيرا على أيدى أحد الحراس الوطنيين الذى كان مكلفاً بحمايته ، وقد وجه وارنجتون احتجاجاً إلى يوسف باشا بكونه هو المسئول عن مصير لاينج وعندما عارض الباشا فى ذلك أصر وارنجتون على موقفه وعندما وصل الى يوسف باشا فى يناير ١٨٢٨ خطابا رسميا من الحكومة البريطانية تبدى فيه أسفها بعبارات شديدة اللهجة لعدم اهتمامه بمسألة لاينج وكلابرتون وجميع الرحالة الإنجليز احتج الباشا بدوره على هذا الإتهام مؤكدا أنه بذل كل مافى وسعه لنجاح حركات الكشف الجغرافى وان كان فى نفس الوقت لايمكن أن يعتبر نفسه مسئولا عن حوادث تقع خارج حدود ممتلكاته .

وفى تقديرنا أن بريطانيا كانت تحاول أن تستغل الظروف لتثبت نفوذها فى طرابلس خاصة وأنها كانت تعمل على مناهضة النفوذ الفرنسى ويفهم ذلك من المشكلة التى أثارها وارنجتون مع القنصل الفرنسى روسو Rousseau الذى اتهمه صراحة بسرقة أوراق لاينج(١) ، بل أن وارنجتون طلب من يوسف باشا التحقيق فى كيفية انتقال أوراق لاينج الى القنصل الفرنسى وعلى الرغم من فشل وارنجتون فى الحصول على أى سند يمكن بواسطته إدانة القنصل الفرنسى ؛ الا أنه عمد إلى استكتاب المرافقين للاينج اقرارات تدين القنصل الفرنسى تحت ضغط التهديد، وقدأدى هذا الحادث الى خلاف سياسى بين انجلترا وفرنسا اضطر يوسف باشا فى خلاله أن يتخذ جانب الإنجليز

---

(١) Cf. Bovill. Travels and letters of Alexander Gordon laing Hakluyt society No. CXXIII. Cambridge 1962.

ولعله كان مدفوعا الى ذلك خوفه من أطماع محمد على والحكومة الفرنسية فى الجزائر وما قد يترتب على ذلك من التهديد الذى يمكن أن تتعرض له بلاده .

ولعل هذه الحوادث التى أشرنا إليها تؤكد لدينا أن وصول الرحالة الأوربيين الى أقاليم السودان الغربى عبر مسالك الصحراء لم يكن إلا خطوة تمهيدية للتأهب والإستعداد لتحقيق أهداف حركة التوسع الإستعمارى التى ستشهدها القارة الأفريقية خلال النصف الثانى من القرن التاسع عشر الميلادى .

## الزوايا السنوسية وامتدادها عبر الصحراء :

وكان لظهور الدعوة السنوسية وانتشار الزوايا التى تقوم عليها هذه الدعوة أثر كبير فى ربط مناطق الصحراء الكبرى بعضها بالبعض الآخر وأصبحت الزوايا السنوسية ملاجىء عمرانية هامة لا نظير لها فى جوف الصحراء وخاصة للرحالة والمسافرين والتجار ، كما أن هذه الزوايا خدمت انتشار الإسلام فى أواسط افريقيا خدمة جليلة اذ أنها حملت رسالة الإسلام الى الشعوب الوثنية فى قلب افريقيا بسبب امتداد هذه الزوايا فى الصحراء الكبرى جنوبا حتى اقليم تشاد(١) .

وقد تمتع شيوخ السنوسية بنفوذ عظيم فى الأقاليم التى توجد بها زواياهم وعنوا بنقل رسالة الإسلام إلى المجاهل الافريقية، وكان من أهم

---

(١) مصطفى بعيو : دراسات فى التاريخ اللوبى ص ص ٢٠٠ / ٢٠٨ انظر أيضاً الدجانى : الحركة السنوسية نشأتها ونموها فى القرن التاسع عشر ص ٢٦٥ — القاهرة ١٩٦٧ ، وكذلك محمد فؤاد شكرى السنوسية دين ودولة ص ٥٠ القاهرة ١٩٥١ .

الأسباب التى جعلت مؤسس السنوسية يختار إقليم برقة مركزاً لدعوته أن منطقة الجبل الأخضر تتصل بالعالم الخارجي بمينائى درنه وبنغازى ، كما تمر بالجبل الأخضر جميع القوافل الذاهبة إلى طرابلس وفزان وبرنو وواداى أو تلك الآتية من كل هذه البلدان وما يجاورها ولذلك تستطيع الدعوة أن تجد فى جميع هذه الإتصالات سبلا لبسط نفوذها[1] .

وقد أنشأ السنوسى الكبير زاوية البيضاء ( أم الزوايا ) فى عام ١٨٤٢ وبلغ عدد الزوايا أثناء حياته سبعة وثلاثون زاوية ثم تضاعف عددها فى عهد خلفائه من بعده .

على أنه لم يلبث أن انتقل من الزاوية البيضاء إلى زاوية الجغبوب لأن انشاء الزاوية البيضاء على مقربة من الساحل جعلها قريبة من سلطان الحكومة العثمانية فى بنغازى التى راعها أن الزاوية البيضاء بعد فترة قصيرة من انشائها أصبحت مدينة كبيرة فأراد السنوسى أن ينشأ زاوية غيرها تكون بعيدة عن الساحل وعن متناول سلطات الحكومة القائمة، ووقع الإختيار على واحة جغبوب وذلك لأن هذه الواحة كانت تقع فى مكان تكثر فيه القبائل العربية التى قبلت الدعوة السنوسية وأصبح من المستطاع أن يعتمد السنوسى على أهلها فى نشر الدعوة الإسلامية فى مجاهل الصحراء .

وكان يربط الجغبوب بداخل إفريقيا الغربية حتى بحيرة تشاد طريقان أحدهما شرقى وينتهى عند مرزوق، والآخر غربى من غدامس والعابر، وكانت جغبوب فى تلك الآونة واحة يأوى إليها الدعار واللصوص ولا تجسر القوافل أن تمر بها من جراء العبث فى أنحائها فلما اختارها السنوسى مقرا له

(١) الطيب الأشهب — المهدى السنوسى ص ص ٣٠ — ٣١ .

وبنى بها زاويته الكبرى صارت مهد أمان ومركز عبادة واطمئنان، وكانت الزاوية هى الدعامة الأساسية التى يقوم عليها نظام السنوسية فهى المكان الذى يجتمع فيه الإخوان للعبادة ونشر الدعوة والإرشاد بين أهالى البلدان المجاورة وبين القبائل القاطنة أو رجال القوافل الذين كانوا يمرون بهذه الزوايا، ولم تكن الزوايا مراكز دينية بل كانت فوق ذلك مراكز للنشاط الإجتماعى لأن الطريقة السنوسية تحرم على أتباعها التسول أو الإنقطاع للعبادة، وإنما كانت تطلب منهم العمل فى الزراعة والتعمير والإنشاء.

وقد بلغ من نفوذ شيوخ الزوايا فى الأقاليم التى توجد بها زواياهم أن القافلة لم تكن تأمن على متاجرها وأموالها ورجالها إلا إذا أخذت قبل قيامها وتوغلها فى الصحراء محررات من شـــيوخ الزوايا تصبح بمثابة جوازات مرور تمكنها من اجتياز أراضى قبائل الطوارق وتبو ؛ لأن هذه القبائل كانت على ماعرف عنها من إخلال بالأمن تحترم محررات شيوخ السنوسية. وعلى هذا أصبحت السبل آمنة فى إفريقيا الوسطى والشمالية، كما نجحت السنوسية بفضل تحول الكثيرين إليها أن تجعل من القبائل التى اشتهرت بالنهب وقطع الطرق هى القبائل المسئولة عن الأمن فى المفاوز الصحراوية.

وبفضل ماأدخلته الزوايا السنوسية من طمأنينة وأمن فى مجاهل الصحراء زاد نشاط القوافل التجارية وأقدم المسافرون والتجار على قطع الصحارى والفيافى، كما أصبح من الميسور على دعاة السنوسية أن يصحبوا قوافل التجارة فى طريقهم يدعون الى الاسلام ويقضون على الوثنية. وليس من شك فى أن انتشار الزوايا والإكثار من إرسال الدعاة كان سببا فى انتشار الإسلام غرب افريقيا وأواسطها، إذ وجدت عديد من الزوايا فى بلاد النيجر وتشاد ومناطق واداى وبرنو وداهومى وغيرها.

وقد عنى بريتشارد Pritchard بحصر الزوايا السنوسية ولاحظ أن معظمها أقيمت على طرق القوافل ، وعدد الخدمات التى تقوم بها بالنسبة للمجتمع المحيط بها وشبهها بالأديرة المسيحية من ناحية الخدمات التى تؤديها(١) ، ومن المؤكد أن الزوايا السنوسية خدمت أغراضا أخرى غير الأغراض الدينية فقد كانت مدارس واستراحات للقوافل ومراكز تجارية واجتماعية وحصونا ومحاكم ومعارف ومخازن وبيوتا للفقراء .

وقد تم تنظيم الزوايا السنوسية التى ربطت بين الجغبوب وبين بقية الزوايا بانشاء نظام محكم من المراسلات بواسطة الخيول تمتد من جغبوب إلى مصر ، ومن جغبوب إلى طرابلس وبرقة وفزان ووادای ، كما حفرت الآبار على طول الطرق الموصلة بينها . وقد أشاد كثير من الرحالة الأوربيين بمدى النفوذ الذى كانت تتمتع به السنوسية فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، ولاشك أن ذلك النفوذ الذى بلغته الدعوة السنوسية كان أمراً مقلقاً بالنسبة للدول الاستعمارية فانجلترا بعد احتلالها لمصر ١٨٨٢ واخلائها السودان ثم اتجاهها إلى استرداده اضطرت لأن تحسب حسابا كبيراً للدعوة السنوسية وتسعى لأن تتجنب خطر هذه الدعوة عليها من السودان الفرنسى. أما فرنسا التى نجحت فى التوغل فى غرب إفريقيا ووصل نفوذها إلى وادای كان من المحتم أن تصطدم بالسنوسية، ومن ناحية أخرى كانت فرنسا تخشى من انتشار الدعوة السنوسية فى مناطق احتلالها فى الجزائر وتونس وبلاد غرب السودان ولذلك وقفت من السنوسية موقفا عدائيا كما وقفت ارسالياتها

---

(١) فى أواخر القرن التاسع عشر قدر عــدد الزوايا فى برقة باحدى وخمسين زاوية، وثمانى عشرة زاوية فى طرابلس، والثنتين وعشرين زاوية فى فزان ، وأربع عشرة فى السودان وست زوايا فى الكفرة، وخمس فى الجزائر، وثلاثة فى مراكش، راجع تعليق الأمير شكيب أرسلان على الدعوة السنوسية فى كتاب حاضر العالم الإسلامى للوثروب ستودارد .

التبشيرية مثل هذا الموقف العدائى للدعوة السنوسية لما كانت تتجه إليه من تحويل القبائل الوثنية إلى الاسلام[١] .

وكان لانتشار الزوايا السنوسية أكبر حافز للرحالة الأوربيين على التوغل فى داخل القارة الأفريقية ، وبالاضافة إلى تحقيق أهداف الكشف الجغرافى كان كثيرون منهم يهتمون بدراسة الدعوة السنوسية ومعرفة أهدافها وموقفها من الدول الاستعمارية ، وكان الرحالة الفرنسيون من أنشط الجماعات الأوربية التى اهتمت بدراسة الدعوة السنوسية ، نظراً لما أشرنا إليه من العداء الذى احتدم بين فرنسا وزعماء السنوسية الذين وقفوا ضد الغزو الفرنسى للجزائر وغرب إفريقيا .

وعلى أى حال فقد نجحت الدعوة السنوسية بزواياها ونظامها الإخوانى فى إيجاد إدارة محلية ساعدت على حفظ الأمن وتوطيد العلاقات بين القبائل وتأمين تجارة القوافل . وفى أواخر القرن التاسع عشر قدر عدد الزوايا السنوسية فى برقة باحدى وخمسين زاوية ، وثمانية عشرة فى طرابلس ، واثنتان وعشرون فى فزان ، وأربعة عشرة فى السودان ، وست زوايا فى الكفرة ، إلى جانب خمس زوايا فى تونس ، ومثلها فى الجزائر ، وثلاث فى مراكش . كما انتشرت الزوايا فى الأصقاع السودانية ، إذ دان بالخضوع للدعوة السنوسية معظم أهالى واداى وبرنو وكانم وداهومى[٢] . وقد عرفت السنوسية زعماء أربعة هم على التوالى : السيد بن على السنوسى مؤسس الدعوة والسيد المهدى والسيد أحمد ، وأخيراً السيد إدريس السنوسى ، والدعوة السنوسية مثلها فى ذلك مثل الدعوات الإسلامية الإصلاحية ، كانت تستهدف العودة بالإسلام إلى أصوله الأولى ، وكانت ترتكز على دعامات ثلاث هى: الزاوية والإخوان والوكيل ، أما الزاوية فبناء مكون من ثلاث حجرات

---

(١) محمد الطيب بن ادريس الاشهب : المهدى السنوسي ص ٧٠ — ٧١ طرابلس ١٩٥١
(٢) المصدر السابق ص ٣٠ وما بعدها .

يتوقف حجمها على أهمية المكان المقامة فيه ، واحدى هذه الغرف خاصة باعطاء الدروس التى يتلقاها صغار البدو ، والثانية أشبه بمضيفة ينزل فيها المسافرون لتمضية بضعة أيام ، والغرفة الثالثة لسكنى الإخوان ، وعادة كانت تقام الزاوية بالقرب من بئر أومورد ماء يقف عندها التجار أو المسافرون . ويجاور الزاوية فى أغلب الأحيان قطعة أرض يزرعها الإخوان، والإخوان هم الأعضاء العاملون، وهم الذين ينشرون تعاليم الدعوة السنوسية وأغراضها ، أما الوكيل فهو ممثل شيخ السنوسية والقائم عنه بالأمر فى تلك الزاوية .

وقد أسست أول زاوية سنوسية فى واحة سيوة ثم تقدم مؤسس السنوسية من سيوة غربا إلى برقة ، فأسس زوايا فى كل من جالو وأوجلة ، وتوغل فى طرابلس ، ثم فى تونس يبشر بتعاليم دعوته بين البدو ، ثم عاد مؤسس السنوسية إلى برقة حيث أسس الزاوية البيضاء بالقرب من درنة فى الجبل الأخضر ، ثم تعددت الزوايا السنوسية فى مناطق أخرى أهمها واحة الكفرة ، وقد ذكر الرحالة المصرى أحمد حسنين أنه اطلع على أصل رسالة فى الكفرة كان قد بعث بها السنوسى الكبير إلى أهل واجنجة فى واداى ، يطلب فيها منهم التمسك بأهداب الدين ، وقد جاء فى رسالته هذه بعض الفقرات التى توضح الفكرة التى أقام عليها السنوسى دعوته ، وهى تنبيه الغافل وتعليم الجاهل وهـــدى من ضل سواء السبيل . وفى عام ١٨٥٥ أسس السنوسى زاوية الجغبوب التى أصبحت بعدذلك أهم مركز من مراكز العلوم والدين، ولم يكن اختياره الجغبوب اعتباطاً ، وانما قصد السنوسى باختيارها أن تكون مركزاً للتوفيق بين قبائل الصحراء المختلفة ونشر الدعوة بينهم جميعاً، إذ جاء فى رسالة السنوسى التى سبق أن أشرنا إليها إلى أهل واجنجة أنه يريد أن ينشر الإسلام بينهم وبين الأعراب الذين يغيرون عـــلى بلادهم « ويستعبدون أولادكم ويبتزون أموالكم ، وإننا بعملنا هذا نقوم بما أمر الله

(١) عن أهمية واحة الجغبوب انظر :

Prichard, Sanusi of Cyraneica p. 15

به فى كتابه العزيز . . وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما » .

وكانت جغبوب مركزاً أحسن السنوسى اختياره لتحقيق أغراضه فى وسط قبائل كان النزاع بينهما مستمرا ، ومن ثم أمكن للسنوسى أن يبسط نفوذه على المتنازعين وأن يصلح ذات بينهم ، وبالفعل انقطعت بعد إقامته فى الجغبوب،واتخاذها مقراً لدعوته ، تلك الإغارات التى كانت مستمرة بين قبائل الشرق والغرب ، وقد تحولت الجغبوب بعد انتقال السنوسى إليها من واحة مالحة يأوى إليها الدعار واللصوص ولا تجسر القوافل أن تمر بها إلى مهد أمان ومركز عبادة[1] ، كما عنى السنوسى بتزويدها بمكتبة كبيرة حوت الكثير من المصادر والمخطوطات النادرة التى ضاع أكثرها عقب الاحتلال الإيطالى لليبيا[2] ، كما أقبل عليها الطلاب والعلماء وازداد عدد سكانها . وعندما مات السنوسى الكبير كانت الدعوة السنوسية قد حققت نجاحا كبيراً وخلفه ابنه محمد المهدى الذى نقل مركز إقامته من الجغبوب إلى الكفرة لأنه أدرك أن الدعوة السنوسية يمكن أن تجد فى البلاد الجنوبية مجالا أوسع مما تجده فى الشمال ، وكان انتقاله إلى الكفرة حدثاً جديداً فى تاريخ السنوسيين ، إذ تقدمت التجارة بين السودان الغربى وشاطىء البحر المتوسط عن طريق الكفرة ، وفى عهده أيضاً كان الإخوان السنوسيون يجوبون الفيافى فى الصحراء الكبرى ، وفى إفريقيا الاستوائية الغربية ،وبين القبائل الرحل ، وقبائل الطوارق ، والقبائل الوثنية ، وقد نجح السنوسيون فى عهده فى نشر دعوتهم فى كل من واداى والباجيرمى والبوركوه وتبو ونهر بينوى ، إلى أن بلغوا النيجر الأدنى ،وبواسطة السنوسية ودعاتها وزواياها صارت نواحى بحيرة تشاد مركزا للاسلام فى أواسط إفريقيا . وهكذا

---

(١) أحمد صدقى الدجانى : الحركة السنوسية نشأتها ونموها فى القرن التاسع عشر ص ١١٣/١١٤ .

(٢) المصدر السابق ص ١١٦ .

تغلغلت الدعوة السنوسية من البحر المتوسط شمالا إلى قلب السودان الغربى جنوباً[١] .

وقد شمل نفوذ السنوسية الدينى والسياسى مناطق كثيرة من الصحراء وانقطعت الفوضى والشقاق اللذان سيطرا زمناً طويلا على الصحراء ، ويمكن أن نستدل على ذلك بما ذكره الرحالة الحشائشى[٢] الذى يحدثنا فى كتابه جلاء الكرب عن طرابلس الغرب « أن أهل الجبل الأخضر طباعهم حسنة وأخلاقهم طيبة لينة يعتقدون فى شيخهم السنوسى إعتقاداً لاتزحزحه الجبال ويخافون الله ورسوله ، وهم أصحاب عبادة ، وقد ضرب الأمن وعدم الخوف أطنابهما بأرضهم ، فالغريب والسائح عندهم لا يهضم لهما جانب ولو كانت معهما حمول الذهب والفضة ، وأصبح تبادل التجارة فى الأراضى الواقعة بين البحر المتوسط شمالا ومختلف أنحاء إفريقيا الاستوائية جنوباً مرتبطاً برباط وثيق واستمر سفر القوافل جيئة وذهاباً ، وذللت عقبات الصحراء التى أقل مايخشاه الإنسان فى جوفها ، هو الموت المحتم عطشا ، إذا افترضنا نجاته من الدعار واللصوص من قطاع الطرق ، وحفرت الآبار فى جوف الصحراء ، وأصبح التاجر يحمل كل غال ونفيس على جماله ، من بنغازى إلى وادای ومن طرابلس إلى بحيرة تشاد ماراً بفزان ، ومن مصر إلى برقة أو السودان مطمئنا لا يخشى على أى شىء » . وقد احتوت رحله الحشائشى الكثير عن السنوسية وأثرها الدينى والعلمى والسياسى، بل تعد من أخصب المصادر فى ذلك

---

(٣) أحمد حسنين : فى صحراء ليبيا ج ١ ص ص ٥٣ / ٥٦ ، وعن انتشار الدعوة السنوسية انظر كذلك محمد فؤاد شكرى : السنوسية دين ودولة ص ٥٠ وما بعدها .

(١) الشريف التونسى الشيخ محمد بن عثمان الحشائشى قام برحلاته فى أواخر القرن التاسع عشر (١٨٩٥) وقد اهتم الفرنسيون برحلاته كما أشار اليها عدد كبير من المستشرقين وكان الحشائشى يشغل مركز متفقد خزائن الكتب بجامع الزيتونه وقد ساعده ذلك على الاطلاع على المصادر الهامة فجاءت رحلاته تمزج بين التاريخ والمشاهدة .
وللكتاب عنوان آخر هو النفحات المسكية فى أخبار المملكة الطرابلسية .

الميدان(١) وإن كان من الأسف أن التفصيلات الكثيرة التى أتى بها الحشائشى عن رحلاته فى الصحارى لم تصل إلينا كاملة ، فمن الثابت أنه وضع كتاباً بعنوان الرحلة الصحراوية ، ولكن هذا الكتاب فقد ولم يصل إلينا وكل معرفتنا بهذا الكتاب تقتصر على بعض الإشارات التى أوردها عنه فى ثنايا كتابه جلاء الكرب .

ولم يكن الحشائشى وحده هو الذى أشاد بالأمن الذى حققته الزوايا السنوسية ، وإنما أشاد بذلك أيضاً كثير من الرحالة الأوربيين ، نذكر منهم الرحالة الانجليزى بل Bell ، الذى أقام فترة فى الكفرة ، وكان ذلك بعد الحرب العالمية الثانية ، وقد ذكر بل أنه قبل العهد السنوسى لم يحدث توغل فى منطقة الكفرة إذ تحاشى الكثيرون التوغل فى الصحراء المترامية الأطراف التى تمتد من المنطقة الساحلية إلى مجموعة واحات الكفرة ، لما فى ذلك من الأخطار الداهمة ، أما بعد انتشار السنوسية ، فقد فتحت طرق جديدة بين الساحل والداخل ، ولاسيما بعد أن قامت الثورة المهدية فى السودان، وما ترتب عليها من تحول التجارة ، إذ كان يصل إلى جالو من الكفرة أسبوعياً قوافل ضخمة يقدر عدد إبلها بين مائتين وثلاثمائة ، كما ازدهرت التجارة ازدهاراً كبيراً فى تلك الواحة . ولاشك أن انتقال المهـــدى إلى الكفرة فى قلب الصحراء بعيداً عن أى إشراف أو تدخل من جانب الدولة العثمانية ، قد كشف عن نواياه الحقيقية ، أو بالأحرى الأهداف السياسية التى صارت السنوسية تبغى تحقيقها ، وهى إنشاء ملك مستقل كامل السيادة يمتد عبر القارة الإفريقية من الحدود المصرية شرقاً ، إلى شواطىء الأطلنطى غرباً ، يضم بين جوانبه برقة وطرابلس وفزان ، ثم صحراء الجزائر ومنطقة بحيرة تشاد،

---

(١) انظر جلاء الكرب عن طرابلس الغرب ، عن نسخة مكتوبة على الآلة الكاتبة بدار الكتب المصرية تحت رقم تاريخ ٣٢٩٥٧، كما حققت هذه الرحلة وطبعت طبعة علمية فى بيروت باشراف على مصطفى المسراتى فى عام ١٩٦٥ .

ويسيطر على طرق التجارة من البحر المتوسط شمالا إلى السودان جنوباً . وليس من شك فى أن النفوذ الذى كان يتطلع إليه المهدى كان سبباً فى أن توجه الدول الأوربية اهتمامها به وبدعوته ، ففرنسا كان تتوجس خيفة من المهدى على مستعمراتها فى إفريقيا الاستوائية وأواسط إفريقيا وشمالها ، وبريطانيا كانت تعد المهدى خطراً على نفوذها ، أما إيطاليا فكانت تدرك أن السنوسية هى القوة التى تستطيع الصمود فى وجه أطماعها .

وهناك من الدول الاستعمارية من سعت إلى خطب ود المهدى السنوسى وخاصة ألمانيا التى كانت تحاول التفاهم معه للوقوف ضد الفرنسيين فى الشمال الإفريقى وإفريقيا الغربية ، بيد أن المهدى لم يستجب لهذه الدعوة ، ويبدو أنه كان من أهداف الرحالة الألمانى جيرارد رولفس فى زيارته لبرقة والكفرة والجغبوب التعرف على المهدى السنوسى ولكنه لم يتمكن من مقابلته، وإن كان قد التقى بوكيله على مقربة من الجغبوب ، وفى عهد المهدى عمد السنوسيون إلى إرسال البعثات الاستكشافية ، الواحدة تلو الأخرى ، لدراسة أحوال الطرق المختلفة فى جوف الصحراء والواقعة بين الكفرة وفزان من جهة ، وبين الكفرة وأقاليم غرب السودان من جهة أخرى ، ودراسة الطرق الواقعة بين الكفرة ومصر ، وآخر هذه البعثات هى تلك التى كانت برئاسة السيد مصطفى السمالوسى ، وقد اكتشفت هذه البعثة حطية العوينات والخطايا التى تكتنفها[١] ، ولم تكن معروفة قبل ذلك ، ومن المعروف أن الرحالة المصرى أحمد حسنين قد حدد مواقع هذه الخطايا جغرافياً ، عندما وصل إليها بين سنتى ١٩٢٢ و ١٩٢٣ مصحوباً بالأدلاء السنوسيين .

وفى عام ١٩٠٠ توفى الإمام المهدى السنوسى ، وخلفه ابن أخيه السيد أحمد الشريف ، وصيا على السيد إدريس السنوسى ، وقد خرج السيد أحمد الشريف عن نهج أسلافه ، إذ أراد أن يجمع بين يديه السلطتين الدينية

---

(١) أحمد صدقى الدجانى: الحركة السنوسية نشأتها ونموها فى القرن التاسع عشر ص ٢٢١.

والسياسية ، ووضح ذلك حينما استولى الإيطاليون على برقة وطرابلس من الأتراك العثمانيين ، إذ حاول السيد أحمد أن يضيف إلى نفوذه الدينى ماتركه العثمانيون من فراغ سياسى وعسكرى ، وعندما نشبت الحرب العالمية الأولى قام تحت تحريض البعثات العسكرية التركية والألمانية بمهاجمة الإنجليز فى مصر ، ولكن محاولاته لم يقدر لها النجاح ، واضطر إلى اللجوء إلى الآستانة(١) ، وخلفه السيد إدريس السنوسى ، الذى وقع اتفاقاً مع الحكومة الإيطالية فى عام ١٩١٧ ، أقرت فيه بحقه فى إدارة شئون واحات جالو ، أوجله ، إجدابية والكفرة ، وإن كان الإيطاليون قد نكثوا باتفاقهم . وفى عهد السيد إدريس السنوسى انتشرت الزوايا السنوسية فى الصحراء مما دفع كثير من الرحالة إلى القيام برحلات استهدفوا من ورائها كشف الصحراء الكبرى ، ويمكننا أن نضيف إلى الرحالتين الألمانيين رولفس وناختنيجال الرحالة الإنجليزية روزيتا فوربس(٢) ، التى قامت برحلتين فى الصحراء كانت إحداهما برفقة الرحالة المصرى أحمد حسنين ثم رحلة أخرى قامت بها بمفردها فى عام ١٩٢٠ ، اتجهت فيهما إلى واحة الكفرة للتثبت من موقعها وإصلاح بعض الأخطاء الجغرافية التى وقع فيها الرحالة رولفس .

وليس من شك فى أن روزيتا فوربس قد استفادت فائدة كبيرة من الزوايا السنوسية فى تنقلاتها عبر الصحراء ، إذ نزلت ضيفة على السيد رضا شقيق السيد إدريس السنوسى ، واستعانت بإحدى القوافل التجارية حتى وصلت إلى واحة أوجلة ، وأمدها السيد رضا بمن يعنى بشأنها ، كما زودها برسالة إلى قائمقام جالو يوصيه بها ، وتقرر فوربس أنها استفادت كثيراً من معاونة السنوسيين لها ، ولكنها ذكرت أن السنوسيين كانوا ينقسمون إلى فريقين،

---

(١) Duncan Cumming, Sanusyia in the First World War Paper Sumbitted to libya in History Conference, March 1968.

(٢) وضعت روزيتا فوربس كتاباً ضمنته أخبار رحلتها بعنوان :
The Secret of the Shara.

الفريق الأول : وهم أنصار السيد أحمد الشريف ، والفريق الثانى وهم أنصار السيد إدريس ، والفريق الأول يسيء الظن بالفريق الثانى ، ويعمل على مقاومة اتباعه ، وفى الكفرة أقامت فى دار السيد إدريس السنوسى وارتدت الملابس العربية ، غير أن تصرفاتها لم تلق فى نظر شيوخ القبائل لأن نساء العرب لم يعتدن الخروج من منازلهن . وبعد أن أقامت فى الكفرة بعض الوقت أرادت أن ترجع بطريق آخر غير الطريق الذى ذهبت منه ، لعلها تستكشف طريقاً جديداً ، ولكن لم يلبث أن اتضح لها أن الطريق الذى سارت فيه من الكفرة إلى جغبوب هو من الطرق التى عرفها السنوسيون لتسهيل الاتصال مع مصر ، وقد وصلت أخيراً إلى الجغبوب ، وأقامت فى زاويتها ، ثم غادرتها إلى واحة سيوة ، ومنها إلى الاسكندرية(١) .

ويمكننا أن نعرض فى هذا المجال للرحالة المصرى أحمد حسنين الذى قام برحلته فى عام ١٩٢٣ من السلوم إلى الأبيض عاصمة كردفان ، وتقدر هذه المسافة بما يقرب من ثلاثة آلاف وخمسمائة كيلومتراً قطعها على ظهر الإبل ، وتم فى خلالها التعرف على واحتى اركنو والعوينات ، كما نجح فى الوصول إلى الكفرة ، ولم يكن قد زارها من قبله إلا المستكشف الألمانى رولفس الذى فقد نتائج ملاحظاته ومدوناته العلمية فى أثناء رحلته .

والواقع أن رحلات أحمد حسنين لم تكن لتنجح لولا المساعدات التى قدمت له من قبل زعماء السنوسية وشيوخ زواياها خاصة وأن الطرق التى قطعها كانت غير مأمونة العواقب . وكان السنوسيون فى وقت رحلات أحمد حسنين يتخذون من الكفرة مقراً لحكمهم ، ويقرر أحمد حسنين استفادته من المساعدات الكبيرة التى قدمها السنوسيون له ، وقدمهد لرحلاته فى جوف الصحراء منذ عام ١٩١٥ ، أى قبل أن يبدأ رحلته بعدة سنوات حيث التقى فى ذلك العام بالسيد إدريس السنوسى فى القاهرة ، عند عودة الأخير

---

(١) الرواد ، نشر مجلة المقتطف ص ١٤٨ وما بعدها .

من الحج ، حيث تعرف عليه فى الفترة التى بدأ يظهر فيها كشيخ للطائفة السنوسية ، وعندما تولى الإدريسى الحكم فى عام ١٩١٧ ، اشترك أحمد حسنين مع طالبوت باشا ، وهو أحد الضباط الانجليز الذين كانوا يعملون فى الجيش المصرى ، فى بعثة إلى الشيخ كان الهدف منها الاتفاق معه على منع البدو من الإغارة على حدود مصر الغربية ، ومنع القلاقل التى قد تحدثها الحرب ، إذ أن الانجليز كانوا حريصين على ضرورة حفظ الأمن على الحدود خاصة بعد أن تعرضت لاضطرابات عنيفة ، وكانت هذه البعثة فرصة للرحالة المصرى كى يجدد علاقاته بالسيد إدريس السنوسى ، الذى التقى به فى الزويتنية ، وهى ثغر صغير يقع بالقرب من أجدابية ، فى ولاية برقة ، ومرة أخرى التقى به فى عكرمة ، بالقرب من مدينة طبرق ، حيث وعده الإدريسى بالتسهيلات اللازمة لنجاح رحلته التى رافق فيها روزيتا فوربس ، ووصلا معا إلى الكفرة فى يناير ١٩٢١ .

وفى عام ١٩٢٣ قام أحمد حسنين برحلة ثانية فى أعماق الصحراء الكبرى وكان يتجه فى هذه الرحلة للوصول جنوبا إلى واداى والسودان ، وتمكن فى خلالها من ضبط مواقع الآبار وواحات الكفرة ، إلى جانب التحقق من النتائج العلمية التى توصل إليها الرحالة الألمانى رولفس والتثبت من موقع الكفرة على الخرائط الجغرافية . وقد سجل أحمد حسنين أخبار رحلته هذه فى كتابه المعروف « فى صحراء ليبيا » الذى ضمنه وصفاً مفيداً لأحوال بدو الصحراء وعاداتهم ، كما تتضمن الكثير من أخبار السنوسية وزواياها وممثليها فى الصحراء . وقد ذكر عن السنوسيين أنهم أهم عامل من عوامل النفوذ فى الصحراء ، وأنهم لايكونون شعباً أو مملكة أو وحدة سياسية ، وإن كان فيهم من هذه الأشياء خواص كثيرة ، ولعله بذلك أول من تنبأ بالمكانة السياسية التى قدر للسنوسيين أن يصلوا إليها خلال السنوات التالية . وقد أشار إلى أنهم يبسطون نفوذهم على مساحة كبيرة من الصحراء ،

كما وصف السنوسية باعتبارها رابطة دينية زعامتها وراثية ونفوذها قوى فى إدارة شئون سكان الصحراء .

وقد اتخذ الرحالة المصرى طريقه من السلوم إلى سيوه ، ومنها إلى جغبوب حيث قابله هناك وكيل السيد إدريس السنوسى، وقد أشاد أحمد حسنين بالجغبوب فذكر بأنها بلد عامر بالعلم والدين، ولكنها ليست مركزاً هاماً للتجارة أو للزراعة ومن الواضح أن جغبوب كانت قد وصلت إلى أقصى ازدهارها فى عهد السيد بن على السنوسى ، حين اتخذها مركزاً لدعوته ، وقد ظلت محافظة على شهرتها وازدهارها فى عهد خليفته المهدى ، حتى انتقل منها إلى الكفرة ، فأصبحت الكفرة هى المركز الرئيسى للدعوة ، وبالتالى كانت أهمية جغبوب تزداد أو تقل تبعاً لترك السنوسيين لها أو رجوعهم إليها . ومن الجغبوب اتخذ أحمد حسنين طريقه إلى جالو على بعد ثلاثمائة وخمسين كيلومترا ، وكان السيد إدريس قد طلب من سكان جالو أن يرحبوا بلقائه . وقد أمدنا أحمد حسنين بوصف لواحة جالو ، فذكر أنها من أهم واحات برقة عـــلى مسافة مائتى وأربعين كيلومترا من أقرب نقطة من شاطىء البحر المتوسط ، وعلى مسافة ستمائة كيلو مترا من الكفرة ، وأنها تنتج كميات كبيرة من التمر ، وفوق هذا فإنها المنفذ الذى تصدر عن طريقه حاصلات دارفور ووادای بعد مرورها بالكفرة ، ويمر بواحة جالو كل ما يرسل من الجهات الأخرى إلى الكفرة . ومن جالو اتخذ أحمد حسنين طريقه إلى واحة أوجله ، على مسافة اثنتى عشر ميلا غرب جالو . وسجل فى كتابه النتائج الاقتصادية التى ترتبت على سيطرة الإيطاليين على سواحل ليبيا ، لأنه فى أثناء إقامته فى جالو ، كانت العلاقات متوترة بين السلطات الإيطالية، وبين السيد إدريس حيث منع الايطاليون إرسال البضائع من بنغازى وغيرها من موانى برقة إلى البلاد الداخلية ولذلك ارتفعت أثمان الحاجيات إرتفاعا شديداً فى مدن الصحراء . وقد إتجه أحمد حسنين بعد ذلك إلى واحة الكفرة ، وكان المستكشف جيرارد رولفس قد أطلق إسم الكفرة على الواحات الأربع المتفرقة المسماة تبزوبو — بوزيمة

ـ ريبيانه ـ كبابو، ولكن اسم الكفرة، كما أكد أحمد حسنين، كان يطلق على الواحة الأخيرة فقط، وقد تحدث عن الكفرة باعتبارها طريقاً هاماً للتجارة كما أنها تتميز بالزراعة خاصة زراعة أشجار الزيتون الذى يستخرج زيته بمعاصر عتيقة .

ومن الكفرة تمكن أحمد حسنين من الوصول إلى واحتى أركنو والعوينات ، ذكر عنهما أنهما واحتان مجهولتان ، ولكنه استطاع أن يحدد موقعهما على الخريطة الجغرافية ، وكما سبق أن أشرنا أن هاتين الواحتين لم تكونتا مجهولتين تماما لأن السنوسيين كانوا يعرفونهما بل ويعترف أحمد حسنين أنه قبل وصوله كانت هناك اشاعات بوجود واحتين قريبتين من ركن مصر الجنوبى الغربى، وإن كان يذكر أن المكان الذى حدد لهما بالتقريب كان بعيداً جداً عن موقعهما الحقيقى، وقد أثبت أحمد حسنين أن إحدى هاتين الواحتين وهى أركنو تدخل فى حدود مصر الجنوبية، بينما تقع العوينات على مسافة قصيرة من حدود السودان .

وقد يكون من المفيد أن نستخلص فيما يلى أهم النتائج التى توصل إليها الرحالة المصرى من رحلاته فى الصحراء خاصة وأن هذه النتائج عدت بمثابة إضافات جديدة للمعلومات الجغرافية من ذلك أن الكفرة لا تطلق إلا على الجزء الذى أطلق عليه رولفس إسم كبابو، كما أن رحلات أحمد حسنين ساعدت على تحقيق موقع آبار الظيفين إلى جانب اكتشاف طريق يقع فى الجنوب الغربى من مصر يجتاز سهل أروى نيدى فى إفريقيا الاستوائية الفرنسية إلى دارفور وتعيين موارد المياه الواقعة عليه، والأهم من ذلك إثبات حقيقة وجود واحتى أركنو والعوينات ، حقيقة أن هاتين الواحتين كانتا معروفتين لدى السنوسيين ، كما سبق أن أشرنا ، بل ولعلهما أيضا عرفا فى بعض الخرائط الجغرافية من ذلك خريطة إفريقيا التى نشرها Justus Perter فى عام ١٨٩٢ التى عينت واحة صغيرة غير مسماة بين خطى عرض ٢١° ، ٢٣,٢° شمالا ثم

واحة أخرى على مسافة صغيرة إلى الشرق منها، وقد وضعنا هاتين الواحتين على الخريطة استناداً على أقوال العرب الشائعة عن وجودهما وإن كانا مع ذلك لم يثبتا على الخرائط العسكرية الانجليزية أو الفرنسية .

وعلى أية حال فقد يكون من أهمية اكتشاف هاتين الواحتين أنهما فتحتا مجالا لاستكشاف الزاوية الجنوبية الغربية لمصر، تلك الزاوية التي لم تكن قد وصلت إليها حتى ذلك الوقت الحاميات العسكرية، وبالتالى فقد أصبح من الممكن فيما بعد على أى رحالة أن يصل إليها ويحصل على المياه اللازمة التى تعينه على استكمال رحلاته ، كما أنه من الممكن الاستفادة من قيمة واحة أركنو من الناحية العسكرية نظراً لوقوعها فى ملتقى خطى الحدود الغربية والجنوبية لمصر وعلى الجملة فإن النجاح فى تحقيق موارد المياه ومواقع الواحات قد فتح آفاقا لرحلات جديدة فى جوف الصحراء(١).

ولاشك فى أن الرحالة المصرى ومن سبقه من الرحالة الأوربيين قد استطاعوا خلال رحلاتهم فى الصحراء ، وبالاستعانة بإدلاء من السنوسيين وباتخاذ الزوايا السنوسية معالم لهم على طول الطريق أن يفتحوا مناطق شاسعة فى جوف الصحراء كانت تعد فى حكم الأراضى المجهولة، وقد استطاع أحمد حسنين بصفة خاصة أن يضع تحديدات جغرافية ويأتى بأرصاد فلكية دقيقة ، مما جعل رحلاته تحتل مركزاً هاما بين الرحلات الاستكشافية ، وقد استمرت رحلاته تسجل سبقاً فى تاريخ حركة الكشوف الجغرافية التى وجهت إلى مجاهل الصحراء الكبرى .

---

(١) أحمد حسنين — فى صحراء ليبيا — مجلدان — القاهرة ١٩٣٠ .

# خاتمة

لعل أهم ما وضح لنا فى مجالات هذه الدراسة أن العلاقات العربية الأفريقية كان لها أثر كبير فى نشر الإسلام فى إفريقيا وإدخال الحضارة إلى شعوبها. ويعتقد كثير من الباحثين أنه لو أتيح وقت أطول أمام تيارات الاسلام والعروبة لكان مصير إفريقيا اليوم مصيراً آخر إذ أن الاستعمار الأوربى عمل على إضعاف المقومات العربية والاسلامية فى المناطق التى سيطر عليها. حقيقة أن القرن التاسع عشر شهد حركات إحياء اعتمدت على إنعاش الثقافة العربية ونشر الإسلام بين القبائل الوثنية، إلا أن ذلك القرن أيضاً كان يعد عصر الصدام بين القوى الاسلامية من ناحية والاستعمار الأوربى من ناحية أخرى ولكن القوى الإسلامية افتقرت إلى القوة المادية التى تعينها على مواصلة هذا الصراع، فكانت النتيجة الحتمية هى استسلام المسلمين ونشر الاستعمار نفوذه بين الشعوب الافريقية.

ولقد كان من الطبيعى أن يجد الاستعمار فى الاسلام والثقافة العربية عقبات تهدد نفوذه، ومن ثم عمل على إضعاف المقومات العربية والاسلامية التى لاقت قدراً كبيراً من الانتعاش خلال القرن التاسع عشر الميلادى. وقد يكون من المفيد أن نشير هنا إلى ما كان للطرق الدينية من فضل كبير فى نشر الإسلام وإعلاء شأن الثقافة العربية فى مناطق كثيرة من ربوع القارة الافريقية، ومن الجدير بالذكر أن معظم هذه الطرق دخلت إلى أفريقيا من العالم العربى أو على الأقل أسسها علمـــاء إفريقيون تلقوا تعليمهم الدينى فى حواضر العالم العربى ثم عادوا إلى بلادهم ينشرون تعاليمهم الدينية. وقد بدأت الطرق الصوفية يتضح أثرها فى العالم الاسلامى منذ النصف الثانى من القرن الثالث عشر الميلادى، على وجه خاص، ولعل من أهم الطرق التي ظهرت حول

هذه الفترة الطريقة القادرية التى أسسها فى العراق الشيخ عبد القادر الجيلانى وصادفت انتشاراً كبيراً فى بلدان المغرب العربى ، وإن كانت قد انقسمت إلى فرق ثلاث كان من أبرزها البكائية التى اتخذت من غزوات مركزاً لها فى حين امتدت الفرقتين الأخريتين إلى كثير من مناطق غرب إفريقيا ، وقد كان لاتباع الطريقة القادرية دور كبير فى نشر الدين الإسلامى فى كثير من جهات غرب إفريقيا ، عن طريق تعليم النجباء من تلاميذهم ومريديهم ، وإرسالهم إلى المراكز الدينية فى طرابلس وجامع القرويين فى فاس أو الجامع الأزهر فى مصر ، وذلك لتلقى العلوم الدينية ثم العودة إلى بلادهم لنشر مبادىء وتعاليم الدعوة الإسلامية . كما شهدت أجزاء كثيرة من القارة الإفريقية عند نهاية القرن الثامن عشر ، وخلال سنوات القرن التاسع عشر ظهور طرق دينية جديدة برزت من بينها الطريقة التيجانية التى أسسها أحمد بن محمد التيجانى ، المتوفى فى فاس ١٧٨٢ ، والتى صادفت انتشاراً كبيراً فى شمال غرب إفريقيا ، كما امتدت إلى أقاليم غرب السودان وسيطرت على المناطق الممتدة من تنبكتو شرقاً حتى المحيط الأطلنطى غرباً ، وعلى الرغم مما أخذ على الطريقة التيجانية من مهادنة بعض شيوخها للفرنسيين خلال احتلالهم للجزائر ، إلا أنها تميزت برفعها راية الجهاد ضد الفرنسيين فى غرب إفريقيا[(١)] .

وليس من شك فى أن الطرق الدينية قد صادفت نجاحاً كبيراً إذ أقبل على الخضوع تحت رايتها كثير من الإفريقيين ، خاصة حينما نجح الدعاة بفضل استخدامهم لبعض العناصر الثقافية المحلية ، بعد وضعها فى إطار إسلامى ، أن يحفظوا ماضى الشعوب الإفريقية ، والابقاء على مقوماتهم وعاداتهم وتقاليدهم. ومما تجدر الإشارة إليه إلى أن العصر الزاهر لانتشار الإسلام فى إفريقيا ،

---

(١) لوثروب ستودارد : حاضر العالم الاسلامى ، جـ٢ ص ص ٣٩٥/٣٩٦ .

تم عن طريق تلك الجماعات الدينية التى انتعشت انتعاشاً بالغاً فى القرن التاسع عشر ، وتحولت إلى الدعوة الدينية إلى جانب التعليم والتهذيب .

وقد سبق أن أوضحنا ما كان للطريقة السنوسية التى أسسها محمد بن على السنوسى من دور كبير فى نشر الإسلام ، وإحياء الثقافة العربية عبر الصحراء الكبرى إلى جهات النيجر والسنغال ، كما قد يكون من المفيد أن نشير هنا أيضاً إلى الطريقة الميرغنية التى أسسها محمد بن عثمان الميرغنى فى النصف الأول من القرن التاسع عشر . وقد تلقى الميرغنى تعاليمه الدينية فى الحجاز ، وتأثر إلى حد كبير ، بالتعاليم السلفية وانتشرت طريقته فى جهات شرق السودان بين قبائل البجه وفى أقاليم النيل الأزرق ، وقد استمرت الميرغنية تشكل طائفة دينية قوية فى السودان إلى عهد قريب .

ولعل ما يؤكد لنا عمق الروابط العربية الإفريقية تلك الصلات الروحية والثقافية التى جمعت بين الشعوب الإفريقية من ناحية ، والشعوب العربية من ناحية أخرى ، ومما لا شك فيه أن الحركة السلفية التى ظهرت فى الجزيرة العربية حول منتصف القرن الثامن عشر ، ونعنى بها الحركة الوهابية ، كانت بمثابة المعين الذى غذى مختلف الحركات الإصلاحية السلفية فى إفريقيا ، وتظهر أمامنا بصفة خاصة حركة عثمان بن فودى (دانفوديو) ١٧٥٤ — ١٨١٧ فى غرب إفريقيا ، وكان زعيم هذه الحركة قد ارتحل إلى الحجاز حيث اتصل بدعاة الحركة الوهابية وتحمس لمبادئهم وعندما عاد إلى بلاده بدأ بالدعوة السلفية عن طريق إعداد التلاميذ والمريدين ، ثم انتقلت دعوته إلى مرحلة أخرى ، وهى الاتصال بالأمراء ودعوتهم إلى محاربة البدع التى دخلت على الدين الإسلامى والعمل على نشر الإسلام بين الشعوب الوثنية فى غرب إفريقيا ، وقد نجح فى عام ١٨٠٢ فى تأسيس سلطنة سكت التى مدت نفوذها على معظم الأقاليم الواقعة بين تنبكتو وبحيرة تشاد ، وفى عام ١٨٠٦ أعلن دانفوديو الجهاد الدينى ضد أمير جوبير ،

ولم يأت عام ١٨١٠ إلا وتم له إخضاع كثير من إمارات الهوسا الوثنية[١] وعندما توفى فى عام ١٨١٧ خلفه ابنه الذى تابع رسالته التى كان لها أثر كبير فى إحياء الدعوة الإسلامية وإعلاء شأن الثقافة العربية فى غرب إفريقيا؛ إذ من الملاحظ أن عثمان دانفوديو وأبنائه من بعده كانت لهم اهتمامات خاصة بالثقافة العربية والعلوم الدينية ، وقد وضع دانفوديو نفسه الكثير من المصنفات العربية فى العلوم الدينية والفقهية[٢].

وهناك الكثير من الحركات الدينية التى عاصرت حركة دانفوديو وإن كان قد تأثرت بالمهدوية، وانتشرت تلك الحركات فى المناطق الواقعة بين النيجر والسنغال ، كان من أبرزها حركة أحمد ولوبو الذى اتخذ من ماسنه مركزاً له، وحاول الاتصال بمسلمى شمال غرب إفريقيا فى الجزائر وتونس ومراكش ومصر وغيرها من الأقطار الإسلامية الأخرى، وقد توفى فى عام ١٨٤٤ وخلفه ابنه أحمدو شيخو. كذلك يمكن الإشارة إلى الحاج عمر الفوتى الذى نشأ بين شعب التكرور ، وارتحل إلى الشرق العربى ، حيث اتصل بعلماء مصر والحجاز واتخذ من فوتاجالون مركزاً لدعوته[٣]، وقد استهل حركته الدينية بغزوه لشعب البمباره ١٨٥٤، وقد اصطدمت حركته بالفرنسيين، ولعلها كانت من أولى الحركات الإسلامية التى اصطدمت بالاستعمار الأوربى فى إفريقيا فى القرن التاسع عشر (١٨٥٧)، وقد حاول الحاج عمر الفوتى أن يتخذ من تنبكت عاصمة لمنطقة نفوذه التى امتدت إلى السنغال ١٨٦٣، ولكنه لم يستطع الصمـــود أمام الاستعمار الفرنسى إذ استمرت الحرب قائمة بينه وبين الفرنسيين أو بينهم وبين خلفائه من بعده؛ حتى تم للفرنسيين السيطرة على هذه المناطق الواقعة فى غرب إفريقيا فى عام ١٨٨١ .

---

(١) Bovill, E.W., The Golden Trade of the Moors P. 229

(٢) عبد الرحمن زكى : الإسلام والمسلمون فى إفريقيا ص ٩٧ — ١٠٠ وكذلك حسين أحمد محمود : الحضارة العربية فى غرب إفريقيا العدد ١٤ من المجلة المصرية التاريخية .

(٣) توماس أرنولد : الدعوة إلى الإسلام ص ٣٦٧ .

ومن الحركات التى اصطدمت بالفرنسيين أيضاً حركة رابح بن الزبير فى عام ١٨٩٣ الذى أسس ملكا له فى واداى حتى نجح الفرنسيون فى طرده منها[١] ، كذلك شهدت سلطنة برنو عند بحيرة تشاد حركة دينية إصلاحية تزعمها محمد الأمين الكانمى الذى بويع على عرش السلطنة فى عام ١٨٢٦ وقد تأثرت حركته إلى حد كبير بمنابع الثقافة العربية والإسلامية، إذ زار مصر وفاس والحجاز ، وقد ظلت أسرته تتعاقب على الحكم حتى خضعت السلطنة للاحتلال البريطانى فى أواخر القرن التاسع عشر الميلادى . كذلك تجدر الإشارة بصدد ذلك إلى الحركة المهدية فى السودان الذى استغلها الإنجليز لبسط سيطرتهم على السودان ، وكانت سلطنة دارفور التى وصل إلى حكمها على بن دينار بين عامى ١٨٩٨/١٩١٦ آخر السلطنات الإسلامية التى اصطدمت بالاستعمار الإنجليزى، وقد وصل على بن دينار إلى حكم هذه السلطنة بعد سقوط الدولة المهدية فى عام ١٨٩٨ ، وقد حاول الحصول على اعتراف الإنجليز له بالوضع الجديد فى السلطنة، ولكن وجود الفرنسيين فى منطقة بحيرة تشاد وأطماعهم أثار الكثير من مشكلات الحدود بين دارفور ومناطق النفوذ الفرنسى فى أواسط وغرب إفريقيا، وبطبيعة الحال اتجهت الحكومة البريطانية إلى مراعاة جانب فرنسا بحظر إمداده بالأسلحة والذخائر التى كان يحتاج إليها لمجابهة التوسع الفرنسى، وفضلا عن ذلك فإن العلاقة بينه وبين بريطانيا مرت بأزمة شديدة عند قيام الحرب العالمية الأولى حينما زادت مخاوف الإنجليز من اتصال الأتراك بدارفور خاصة حين وصلت بعثة تركية إلى برقة برئاسة أنور بك كان هدفها إثارة الاضطرابات فى المناطق التى تسيطر عليها كل من انجلترا وفرنسا فى غرب ووسط إفريقيا، وزادت عوامل التوتر حين فتح على بن دينار أبواب سلطنته للفارين من السيطرة الفرنسية فى شمال غرب إفريقيا، وأخذ

---

(١) جمال أحمد : مطالعات فى الشئون الأفريقية ص ص ٢٨/٢٩ — القاهرة ١٩٦٩ . انظر كذلك مجلة نهضة إفريقيا — العدد العاشر — أغسطس ١٩٥٨ ، رابح فضل الله ، لعبده بدوى .

الوضع يتطور بسرعة حينما أعلن استقلاله عن حكومة السودان ، وحاول الاتصال بزعماء السنوسية فى ليبيا للحصول منهم على الأسلحة والذخائر ، وقد لجأ الإنجليز إلى مهاجمة سلطنة دارفور ، وساعدت فرنسا الحكومة البريطانية على تطويق الحصار على هذه السلطنة حتى تم القضاء عليها نهائياً بإسقاط عاصمتها الفاشر فى مايو ١٩١٦(١) .

ومما تجدر الإشارة إليه أيضاً أن القرن التاسع عشر شهد ظهور دول عربية إفريقية كان لها أثر كبير فى إدخال الحضارة الإسلامية ونشر الثقافة العربية فى أصقاع نائية من القارة الإفريقية . ولعل من أبرز نماذج تلك الدول الامبراطورية المصرية وامتدادها إلى السودان وسواحل البحر الأحمر ومنطقة أعالى النيـــــل ، وسلطنة زنجبار العربية وامتدادها إلى الكونغو والبحيرات الاستوائية . وكان الأسلوب الذى اتبعه الإنجليز هو إضعاف تلك الدول وجعلها مفككة عاجزة لا تقو على الدفاع عن نفسها أو ممتلكاتها التى استولت بريطانيا على النصيب الأوفى منها .

وقد اختلف أسلوب الفرنسيين الذى اتجه ، كما لاحظنا ، إلى التصدى المباشر للقوى الإسلامية هذا فضلا عن اتجاههم إلى إحلال اللغة والثقافة الفرنسية محل اللغة والثقافة العربية ، ولكن الاستعمار الفرنسى أخذ يواجه ـ خاصة منذ السنوات الأولى من القرن العشرين ـ حركات قومية ارتبطت ارتباطاً كبيراً بالدين الإسلامى والثقافة العربية ، ومما تجدر الإشارة إليه أن الزعماء الإفريقيين الذين تثقفوا فى الشرق العربى على يد دعاة السلفية فى مصر والشام والحجاز هم الذين عملوا على الحفاظ على التراث العربى والإسلامى خاصة فى شمال غرب إفريقيا بعد أن كاد ينمحى أثره تماماً إزاء محاولات فرنسا فرنسة المناطق التى

---

(١) Cf. A.B. Thebold, Ali Dinar, last Sultan of Darfur 1898—1916 London, 1965

خضعت لها، ولعل أوضح مثال على ذلك حينما قام عبد الحميد بن باديس ١٨٨٩/١٩٤٠ بتأسيس جبهة علماء الجزائر ، ويعد ابن باديس باعث النهضة الإسلامية والعربية فى الجزائر ، ومن الرعيل الأول الذين كافحوا من أجل تحرير الجزائر من الاستعمار الفرنسى فى دائرة العروبة والاسلام[1]، وقد اتخذت جبهة علماء الجزائر، من التربية والتعليم أساساً لها ؛ ووضح ذلك فى المدارس الكثيرة التى أنشأتها واتجاهها إلى نشر مبادىء الاصلاح الدينى ومحاربة الطرق الصوفية، وذلك حينما اكتشف المصلحون الدينيون أن بعض مشايخ تلك الطرق يتهاونون مع الفرنسيين فكان على السلفيين أن يناضلوا ضد رجال هذه الطرق من ناحية والغزاة الأجانب من ناحية أخرى ، ولعل ذلك كان دافعاً للسلطات الفرنسية على الحد من نشاط الدعوة السلفية والتصدى لمقاومة دعاتها، ففى عام ١٩٣٣ أصدرت السلطات الفرنسية فى الجزائر منشوراً يحرم على (الوهابيين) الخطابة، ولعل الموقف المعادى الذى وقفته السلطات الفرنسية ضد نشاط هذه الجبهة يرجع إلى تصديها للمخططات الفرنسية الرامة تحطيم الشخصية العربية والاسلامية للشعب الجزائرى بل وللشعوب العربية فى شمال غرب إفريقيا إلى جانب تفكيك الوحدة الوطنية بين العرب والبربر عن طريق إثارة الفتن والحزازات العنصرية بينهما، والقضاء على معاهد ومدارس العلوم الاسلامية والثقافة العربية ، وكانت هذه المخططات دافعة لكى تتحول جبهة علماء الجزائر من هيئة دينية خالصة إلى حركة قومية كان لها الفضل فى إعادة وصل الجزائر بشقيقاتها من الدول العربية والاسلامية .

وأخيراً ينبغى أن نؤكد هنا إلى أنه إذا كانت معظم الشعوب الافريقية قد خضعت للاستعمار الأوربى بمختلف أشكاله وأساليبه خلال تصاعد

---

(١) آثار ابن باديس، جمع وتبويب عمار الطالبى : ٤ مجلدات — مكتبة الشركة الجزائرية ١٩٦٨ .

الموجة الامبريالية فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر والسنوات الأولى من القرن العشرين ، فإنه مما يستدعى الانتباه أن الشعوب العربية قد لقيت نفس هذا المصير ، وقد عمد الاستعمار إلى فصم الروابط العربية الافريقية طوال السنوات التى سيطر فيها على المقدرات العربية والافريقية، ولذلك أفليس من الطبيعى بعد تحرر الدول العربية والافريقية ، وزوال السيطرة الاستعمارية أن تعاود تلك الدول تدعيم الروابط فيما بينها ، لما فيه ازدهارها ورخائها ومصلحة شعوبها ؟ .

# المصادر

# اولا : الوثائق العربية والأجنبية

— وثائق عابدين ( القلعة حالياً )

محافظ السودان ، السنوات والمحافظ المشار إليها فى هوامش الكتاب .

— جيان

وثائق تاريخية وجغرافية وتجارية ، عن شرق إفريقيا — عربه ملخصا الأمير يوسف كمال - القاهرة ١٩٢٧ .

— سجل المكاتبات السياسية فى عهد السلطان برغش بن سعيد ، مخطوطة بدار الكتب المصرية ، المكتبة التيمورية .

— شوقى الجمل

الوثائق التاريخية لسياسة مصر فى البحر الأحمر (١٨٦٣ — ١٨٧٩ )، نشر الجمعية المصرية للدراسات التاريخية - القاهرة ( بدون تاريخ ) .

— Ferrand - Gabriel

Documents Historiques et Textes Géographique Arabes, Persans et Turks relatif à l' Extrême Orient du VIIe au XVIIIe siecles.

2 tomes

Paris 1913

— Grenville - Freeman

Select Documents on the East African Coast. Oxford 1962

— Guillain

Documents sur l' Histoire, Géographie et le Commerce de l' Afrique Orientale.

Tome I - Expose critiques des diverses Notions acquises sur l' Afrique Orientale dépuis les temps le plus Jours Jusqu' à nos Jours.

Tome II,III - Relation de Voyage d'exploration à la Côte Orientale d' Afrique, executé Pendant les annees 1847-1848

— Hand - books Prepared under the direction of Great Britain Foreign Office - Historical Section,

- Kenya, Uganda and Zanyibar No 96 London 1920

- The formation of the Portuguese Colonial Empire No 116 London 1920

Zôe March

East Africa through Contemporary Records London 1967

## ثانيا : المراجع العربية


— ابراهيم على طرخان

— دولة مالى الإسلامية ، القاهرة ١٩٧٣

— الإسلام والممالك الإسلامية بالحبشة ، مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، المجلد الثامن ١٩٥٩

— أبو اسحق الاصطخرى

المسالك والممالك ، تحقيق الدكتور الحينى القاهرة ١٩٦١

— أبو الحسن المسعودى

مروج الذهب ومعادن الجوهر ، فى مجلدين — نشر دار الرجاء — القاهرة .

— أبو زيد السيرافى

رحلة التاجر سليمان ، سلسلة التواريخ ، دار الطباعة السلطانية ، باريس ١٨١١

— أبو سالم العياشى

رحلة العياشى ، فى مجلدين بالخط المغربى ، المكتبة التيمورية رقم ٤٠٥ تاريخ .

— أبو عبيد الله بن عبدالعزيز البكرى

كتاب المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب ، وهو جزء من كتاب المسالك والممالك ، الجزائر ١٩١١

— أبو عبد الله محمد بن بطوطة

تحفة النظار فى عجائب الأسفار وغرائب الأمصار ، مجلدان ، القاهرة ١٩٢٢

- أبو محمد عبد الله التيجانى
رحلة التيجانى ، المطبعة الرسمية تونس ١٩٥٨
- أبو العباس أحمد القلقشندى
صبح الأعشى فى صناعة الإنشا
- آتيليو مورى
الرحالة والكشف الجغرافى فى ليبيا منذ مطلع القرن التاسع عشر حتى الاحتلال الإيطالى ، تعريب خليفة محمد التليسى ، مكتبة الفرجانى طرابلس ١٩٧١
- أحمد بابا التنبكتى
نيل الابتهاج بتطريز الديباج ، فاس ١٣١٧ هـ
- أحمد حسنين
فى صحراء ليبيا ، مجلدان ، القاهرة ١٩٣٠
- أحمد سويلم العمرى
العرب والأفريقيون ، القاهرة ١٩٦٧
- أحمد صدقى الدجانى
الحركة السنوسية ، نشأتها ونموها فى القرن التاسع عشر ، القاهرة ١٩٦٧
- أحمد عبد القادر شهاب الدين ( عرب فقيه )
فتوح الحبشة ، الجزء الأول ، نشر رينيه باسيه ١٩٠٩
- أحمد بن فضل الله العمرى
مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار ، عدة مجلدات بدار الكتب المصرية تحت رقم ٢٥٦٨

- أحمد بن ماجد
نسخة زنكوغرافية من مؤلفات أحمد بن ماجد منقولة من المكتبة الأهلية بباريس ومحفوظة بدار الكتب المصرية .
- آدم متز
الحضارة الإسلامية . جزءان . ترجمة الدكتور محمد عبد الهادى أبو ريدة . القاهرة .
- اسماعيل سرهنك
حقائق الأخبار عن دول البحار ، ثلاثة أجزاء ، القاهرة ١٩٢٣
- أغناطيوس كراتشكوفسكى
- مع المخطوطات العربية ، معهد الاستشراق السوفيتى
- الأدب الجغرافى عند العرب ، القسمان الأول والثانى ، نشر الإدارة الثقافية بجامعة الدول العربية ، ترجمة صلاح الدين عثمان القاهرة ١٩٦٣
- الدومييلى ( مترجم )
العلم عند العرب ، القاهرة ١٩٦٢
- أنور عبد العليم
أحمد بن ماجد
من سلسلة أعلام العرب ، القاهرة ١٩٦٧
- بازل دافيدسون
إفريقيا تحت أضواء جديدة ، ترجمة جمال أحمد ، بيروت ١٩٦٥
- توماس ( أرنولد )
الدعوة إلى الإسلام ، ترجمة وتعليق حسن ابراهيم حسن وآخرون ، الطبعة الثانية القاهرة ١٩٥٧

- توفيق ميخائيل

غرائب الأخبار عن شرق إفريقيا وزنجبار ، القاهرة ١٩٠١

- جمال أحمد

مطالعات فى الشئون الإفريقية ، القاهرة ١٩٦٨

- جمال زكريا قاسم

- دولة بو سعيد فى عمان وشرق إفريقيا منذ تأسيسها حتى انقسامها ١٧٤١ - ١٨٦١ ، القاهرة ١٩٦٧

- استقرار العرب فى ساحل شرق إفريقيا . العدد العاشر - حوليات كلية الآداب - جامعة عين شمس ١٩٦٥

- المصادر العربية لتاريخ شرق إفريقيا ، المجلة المصرية التاريخية ، العدد الرابع عشر ١٩٦٦ - ١٩٦٧

- دور العرب فى كشف إفريقيا ، مجلة عالم الفكر - الكويت ، العدد الأول من المجلد الثانى ١٩٧١

- كتاب وصف إفريقيا وتاريخها للحسن بن محمد الوزان المعروف بليو الإفريقى ، حوليات كلية الآداب - جامعة عين شمس ، المجلد الحادى عشر ١٩٦٨

- الممالك الاسلامية فى الحبشة ، مجلة العربى ، أبريل ١٩٧٣

- جورجى زيدان

تراجم مشاهير الشرق فى القرن التاسع عشر ، مجلدان . القاهرة .

- جون لويس بوركهارت

رحلات بوركهارت فى بلاد النوبة والسودان ، نشر الجمعية المصرية للدراسات التاريخية . القاهرة ١٩٥٩

– حسن إبراهيم حسن

انتشار الإسلام والعروبة ، فيما يلي الصحراء الكبرى شرقي القارة الإفريقية وغربيها ، معهد الدراسات العربية ـ القاهرة ١٩٥٧ .

– حسن أحمد محمود

– انتشار الإسلام والثقافة العربية فى إفريقيا ـ القاهرة ١٩٥٧ .

– دور العرب فى نشر الحضارة فى غرب إفريقيا ، المجلة المصرية التاريخية .

– الحيمى

سيرة الحبشة ، « حديقة النظر وبهجة الفكر فى عجائب السفر » ، تقديم الدكتور مراد كامل ، القاهرة

– زكريا القزوينى

آثار البلاد وأخبار العباد ، بيروت ١٩٦٠ .

– زكى محمد حسن

الرحالة المسلمون فى العصور الوسطى ـ القاهرة ١٩٤٥ .

– زين الدين

تحفة المجاهدين فى بعض أحوال البرتغاليين ، مخطوطة عربية نشرها وحققها David lopes بأصلها العربى وترجمتها البرتغالية بعنوان :

Historia Des Portuguesa No Malabar

لشبونه ١٨٩٨

– سراج الدين بن الوردى

فريدة العجائب ، وخريدة الغرائب .

ـ سعيد عبد الفتاح عاشور

بعض أضواء جديدة على العلاقات بين مصر والحبشة ، العدد الرابع عشر من المجلة المصرية التاريخية .

ـ سليمان المهرى

نسخة زنكوغرافية من مؤلفات سليمان المهرى منقولة من المكتبة الأهلية بباريس ، ومحفوظة بدار الكتب المصرية .

ـ الشاطر بصيلى عبد الجليل

ـ معالم تاريخ سودان وادى النيل ـ القاهرة ١٩٥٥ .

ـ تاريخ وحضارات السودان الشرقى والأوسط من القرن السابع إلى القرن التاسع عشر للميلاد ـ القاهرة ١٩٧٢ .

ـ مملكة موريتانيا المصرية ، الموسم الثقافى للجمعية المصرية للدراسات التاريخية ١٩٦٧ ـ ١٩٦٨ .

ـ صلاح الدين المنجد

مملكة مالى عند الجغرافيين المسلمين ، نصوص جمعها وعلق عليها وقدم لها صلاح الدين المنجد ـ القاهرة .

ـ صلاح العقاد

المغرب فى بداية العصور الحديثة ، معهد الدراسات العربية ـ القاهرة.

ـ صلاح العقاد وجمال زكريا قاسم

زنجبار ـ القاهرة ١٩٦٠ .

ـ عبد الرحمن بدوى

إفريقيا والثقافة العربية ، العدد ٤٨ من مجلة نهضة إفريقيا ـ أكتوبر ١٩٦١ .

- عبد الرحمن الرافعى

-- عصر محمد على - القاهرة ١٩٥١ .

-- عصر إسماعيل « ١٩٤٥

- عبد الرحمن زكى

-- الإسلام والمسلمون فى إفريقيا - القاهرة ١٩٧٠ .

-- المراجع العربية للتاريخ الإسلامى فى غرب إفريقيا ، محاضرات الموسم الثقافى للجمعية المصرية للدراسات التاريخية ١٩٦٧/١٩٦٨

- عبد الله بن مصبح الصوافى

كتاب السلوة فى أخبار كلوة ، نقلا عن أوراق الشيخ محي الدين الزنجبارى، نشر وتحقيق أرثر سترونج ١٨٩٥ بأصلها العربى وترجمتها بعنوان :

History of Kilwa

- عبد العزيز عبد الحق

استدراكات عن رحلة التونسى إلى دارفور ، محاضرات الموسم الثقافى للجمعية المصرية للدراسات التاريخية ١٩٦٧/١٩٦٨ .

- عبد العزيز كامل

نحو تخطيط علمى لدراساتنا الافريقية ، من محاضرات الجمعية الجغرافية المصرية .

- عبد الكريم كريم

مناهل الصفا فى أخبار دولة الملوك الشرفا ، المجلة المصرية التاريخية، المجلد الخامس عشر - القاهرة ١٩٦٩

— عبد المجيد عابدين

بين الحبشة والعرب ـ القاهرة ١٩٤٧

— عبده بدوى

رابح فضل الله ، مجلة نهضة إفريقيا العدد العاشر أغسطس ١٩٥٨ .

— عمار الطالبى

آثار ابن باديس ، أربعة أجزاء ، جمع وتبويب عمار الطالبى الجزائر ١٩٦٨ .

— عوض السعداوية

حالة ليبيا كما ذكرها الحاج أبو سالم العياشى فى رحلته ، دراسة قدمت إلى مؤتمر ليبيا عبر العصور ، الجامعة الليبية بنغازى — مارس ١٩٦٨

— فردريك بنولا

مصر والجغرافيا ، خلاصة عن الأعمال الجغرافية التى أنجزتها مصر فى القرن التاسع عشر ، ترجمة أحمد زكى ـ القاهرة ١٣١٠ هـ.

— فضلو حورانى

العرب والملاحة البحرية فى المحيط الهندى ـ القاهرة ١٩٥٨ .

— فؤاد صروف

الرواد ، نشر مجلة المقتطف ـ القاهرة بدون تاريخ .

— فيودور شوموفسكى

ثلاث راهمانجات المجهولة ، إصدار معهد الاستشراق السوفيتى ليننجراد ١٩٥٧ .

- لوثروب ستودارد

حاضر العالم الاسلامى ، ترجمة عجاج نويهض وتعليق الأمير شكيب أرسلان - مجلدان - القاهرة ١٩٤٣ م .

- محجوب زياده

الاسلام فى السودان - القاهرة .

- محمد خير فارس

تاريخ الجزائر الحديث - دمشق ١٩٦٩ .

- محمد صبرى

- تاريخ الامبراطورية المصرية السودانية فى القرن التاسع عشر ، القاهرة ١٩٤٨ .

- مصر فى إفريقيا الشرقية ، القاهرة ١٩٣٩ .

- محمد الطيب بن إدريس الأشهب

المهدى السنوسى ، طرابلس ١٩٥١

- محمد عبد الغنى حسن ، الشريف الادريسى - من سلسلة أعلام العرب (٩٧) القاهرة ١٩٧١ .

- محمد بن عثمان الحشائشى .

جلاء الكرب عن طرابلس الغرب أو النفحات المسكية فى أخبار المملكة الطرابلسية ، نسخة بدار الكتب المصرية على الآلة الكاتبة مكتوبة بأمر الأمير عمر طوسن تحت رقم ٩٣٥٧ تاريخ .

كما حققت رحلة الحشائشى وطبعت طبعة علمية قام بها مصطفى المسراتى - بيرت ١٩٦٥

- محمد بن عمر التونسى
تشحيذ الأذهان بسيرة بلاد العرب والسودان ، تحقيق و نشر الدكتور خليل محمود عساكر ، والدكتور مصطفى مسعد ـ القاهرة ١٩٦٥ .
- محمد فؤاد شكرى
السنوسية دين ودولة ، القاهرة ١٩٥١ .
- مصطفى بعيو
- الأسس التاريخية لمستقبل لوبيا ـ الاسكندرية ١٩٥٣ .
- بعض ملامح تاريخ ليبيا فى القرن التاسع عشر دراسة قدمت إلى مؤتمر ليبيا عبر العصور ـ الجامعة الليبية - بنغازى مارس ١٩٦٨ .
- مصطفى محمد مسعد
الاسلام والنوبة فى العصور الوسطى ـ القاهرة ١٩٦٠ .
- مكى شبيكة
مملكة الفونج الاسلامية ، معهد الدراسات العربية ـ القاهرة ١٩٦٤.
- المقريزى
الالمـــام بأخبار بمن بأرض الحبشة من ملوك الاسلام ، الطبعة المصرية ١٩٠٨ .
- ميكاكى
طرابلس الغرب تحت حكم الأسرة القرمانلية ، معهد الدراسات العربية ، القاهرة ١٩٦١ .
- نسيم مقار
البكباشى المصرى سليم قبودان ـ القاهرة ١٩٥٨ .
- نعوم شقير
تاريخ السودان القديم والحديث وجغرافيته ثلاثة أجزاء القاهرة ١٩٠٣ .

ـ نقولا زيادة

الرحالة العرب

ـ نور الدين السالمى

تحفة الأعيان بسيرة آل عمان ، فى مجلدين طبع وتصحيح وتعليق أبو اسحق إبراهيم طفيش الجزائرى ـ القاهرة ١٣٣٠ هـ .

ـ ياقوت الحموى

معجم البلدان ـ القاهرة ١٩٠٦ .

ـ يوسف أحمد

الاسلام فى الحبشة ، القاهرة ١٩٣٠ .

# ثالثا ـ المراجع الأجنبية


- Aida Arif and Abu Hakima, Descriptive Catalogue of the Arabic Manuscripts in Nigeria - Luzac.
  London 1965

- Badger, G

  History of the Imams and Seyyihs of Oman by Salil Bin Razik.

  Translated From the Original Arabic and edited with appendices and Introduction Continuing the History down to 1870
  Londou 1871

- Bovill

  • Caravans of the old Shara.

  • The Golden Trade of the Moors
  London 1968

  • Missions to Niger, Journal of the Frederick Horneman, Travels and letters of Aleander Gordon Laing, Hakluyt Society Second series No. CXVIII, Vols II,III
  Cambridge 1962

- Boxer, C.R

  • Fort Jesus and the Portuguese in Mombassa 1593—I729.
  London 1961

  • Four Centuries of Portuguese Expansion.
  London 1961

- Browne,R

  The History and Description of Afrjca and notable things Contained therein, written by Al Hasan bin Mohamed Awezaz

al Fasi better Known as Leo Africanus, 2 Vols.

London 1898

-- Browne, W.C.

Travels in Africa, Egypt and Syria.

London 1799

— Burton, R.

● Zanzibar, City, Island and Coast.

2 Vols.

London 1886

● Lake Region of Central Africa.

London 1860

— Cenleman.

La Question Arabe et Congo.

Brussels 1959

— Chittick, Neville

Kilwa and the Arab Settlement of the East African Coast.

Journal of the African Society.

No, 2, 1963

— Cole, Sonia.

The Pre-History of the East African Coast.

New York, 1962

— Colomb, R.N

Slave Catching in the Indian Ocean.

A Record of Naval Experience,

London 1873

— Coupland, Reginald

• East Africa and It's Invaders From the Earliest Times to the Death of Seyyid Said in 1856.

Oyford 1938

• The Exploitation of East Africa 1856 - 1890

London 1939

• The British Anti-Slavery Movement.

London 1938

— Crawford, O

The Fung Kingdom of Sen a

Londou 1961

— Cro wder, Micheal

The Story of Nigeria.

London 1962

— Dames, I. (Editor)

The Book of Durate Barbosa.

London 1918

— Darley, H

Slaves & Ivory.

London 1916

— Eliot, Charles

East Africa Protectorate.

London 1905

— Fage

An Atlas of African History.

– Ferrand, Gabriel
Les Musulmans de Madagascar et L'iles de Commores.
2 tomes, Paris

– Foster ( W )
England's Quest in Eastern trade.
London

– Forbes, R
The Secret of the Shara.
Loudon 1933

— Freeman, Grenville
The Mediveal History of the Coast of Tanganiyka.
Berlin 1962

– Hichens
Islam in East Africa.
London

— Hill
Egypt in the Sudan.
London 1963

— Hofer, M. F.
L'ùnivers, Histoire et Description de tous les Peuples ( Afrique Orientale et Centrale).
Paris 1848

— Hollingsworth
Zanzibar

— Holt, P.
History of the Sudan From the Funj Sultanate to the Present day.
London 1967

— Hutchinson, Edward.
The Slave Trade of East Africa.
London 1874

– Ingrams, ( H )
Arabia & The Isles, London 1960

— Johnston, Hary
The Colonization of Africa.
Cambridge 1913

— Kammerer, A.

La Mer Rouge, L'Abyssinie et l'Arabe aux XVIe et XVIIe Siècles et la Cartographie des portugais du Monde Orientale.

Le Caire MCMXLIX.

— Kensdale, W. E.

A Catalogue of the Arabic Manuscripts Preserved in the University Library, Ibadan.

1955 - 1958

— Krapf, Lewis

Travels, Research and Missionary labours during an Eighteen years Residence in Eastern Africa.

London 1860

— Lopes, David

Historia Portuguesa No Malabar.

Lispon 1898

— Lyndon

Swahili Poetry

— Lyne, Robert

Zanzibar in Contemporary times.

London

— Mc Millan, Mona

Introducing East Africa.

London 1965

— Muktar, M.

Notes Sur le Pays de Harar, Bulletin Trimstrie de la Societé Khediviale de Géographie du Caire.

Caire 1877

— Oliver, Roland

The Dawn of Afriean History.

London 1962

— Owen, W. F.

Narrative to explore the Shores of Arabia, Africa and Madagscar 2 Vols.

London 1826

- Palmer, H. R.

History of Ketsina, Journal of the African Society XXVI April 1927

— Paule. A.

A History of thc Beja in the Sudan.

Cambridge 1964

— Pearce

Zanzibar, The Island Metropolis of Eastern Africa.

London 1920

- Pory, John

A Geographical Historie of Afrika written in Arabicke and Italien.

London 1600

— Prins, A. H.

- On Swahili Historiography.

Journal of East African International Institute.

London 1963

- The Swahili Speaking peoples of Zanzibar and East African Coast, Arab - Sbiraz and Swahili.

East African International Institute.

London 1961

— Prichard, Evans

Thc Sanusi of Cyraneica.

Lendon 1951

— Pruen, S

The Arab and the African.

Experience in Eastern Equatorial Africa during a Residence of three years.

London 1891

- Rabaud, Alfred

Zanzibar.

La Côte Orientale de L'Afriqué.

Extıait de Bulletin de la Societé Géographie de Marseille.

— Reinaud

Relation de voyages fait Par les Arabes et Persans à l'Inde et la Chine.

2 tomes Paris, 1845

— Ricci, A
Travels of Marco Polo.

— Ronciere, Charle de la
La Decouverte de l' Afrique aux Moyen Age.
Le Caire 1925 - 1927

— Ruete, R.
• The Al Bu Said Dynasty in Oman and East Africa.
Journal of the Central Asian Society. Vol VXI,
London, 1929

• Said Bin Sultan.
London 1929

• Dates & Refrences of the Al Bu Said dynasty in Oman & East Africa.

— Schefer, Ch
Description de l' Afrique ecrit par Jean Leon African.
Paris 1898

— Schoff
The Periplus of the Erythrean Sea.

— Serjent
The Portuguese off the South Arabian Coast.

— Shoukry, M. F.
Equatoria under the Egyptian Rule. Cairo, 1953

— Slade, Ruth
King Leopold's Congo.
London 1962

— Stevenson, J.
The Arabs In Central Africa.

— Stigand
In the land of Zinj.
London 1913

— Strong, Arthur
History of Kilwa
Journal of the Royal Asiatic Society.
April, 1895

— Theobold, A. B.
Ali Dinar, last Sultan of Darfur, 1898 - 1916
London 1965

- Thomas, B.

The Arab Rule under the Al Bu Said Dynasty in Oman and East Africa 1741 - 1937.

London 1938

- Trimingham, Spencer.

- A History of Islam in west Africa.

Oxford, 1959

- Islam in Ethiopia.

Oxford, 1962

- Vambery, A

The Travels and Adventures of the Turkish Admiral Sidi Ali Reis During the years 1553 - 1555.

Translated From Turkish with notes.

London 1899

- Viller, Allen

The Arab Dhows Trade.

Journal of the Middle East.

October, 1954

- Warner

- A Swahili History of Pate.

Journal of the African Society.

Vol XIV. 1913

- Younghusband.

Glimpses of East Africa and Zanzibar.

London 1908

## رابعا — الدوريات العربية والأجنبية

(ا) العربية :

— حوليات كلية الآداب — جامعة عين شمس
— جريدة أركان حرب الجيش المصرى
— المجلة المصرية التاريخية
— مجلة عالم الفكر — الكويت
— مجلة العربى — الكويت
— مجلة نهضة إفريقيا — القاهرة

(ب) الأجنبية

— Bulletin de la Societé Géographie de Marseille.
— Bulletin de la Societé Khediviale de Gəographie du Caire.
— Journal of the African Society.
— Journrl ef the Central Asian Society.
— Journal of the East African International Institute.
— Journal of East African Swahili Committee.
— Journal of the Middle East. Middle East Institute washington.
— Journal of the Royal Asian Society, London.

## خامسا — معارف عامة

— دائرة المعارف الإسلامية .

— Encyclopeadia of Religion & Ethics.

# فهرس الكتاب

كافة الآراء الواردة بهذا الكتاب تعبر عن رأى المؤلف ولا تحمل بالضرورة وجهة نظر المعهد أو أية جهة أخرى يرتبط بها المؤلف

مطبعة الجبلاوى
٢٠٢ شارع الترعة البولاقية

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٧٥/٤٣٧٣



Bibliotheca Alexandrina
0220666